

رفع  
عبد الرحمن السجدي  
أسكنه الله الفردوس

الهداية الربانية

في فتح  
العقيدة الخاطئة  
مؤلفه الشيخ العلامة

١

بمجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ (رحمه الله) (٥)  
عبد الرحمن السديري  
(أسكنه الله الفردوس)

# الهداية الربانية

في شرح

## العقيدة الطحاوية

عقيدة أهل السنة والجماعة

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ

مجلد الأول

دار التوحيد

الرياض

© عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، ١٤٢٩ هـ

مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر

الراجحي، عبد العزيز بن عبد الله  
الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية عقيدة أهل السنة والجماعة /  
عبد العزيز بن عبد الله الراجحي - الرياض، ١٤٢٩ هـ.

ص: ... سم: ...

ردمك: ٥ - ١٧٢٢ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

١ - العقيدة الإسلامية ١: العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٩ / ٦٨٦١

رقم الإيداع ١٤٢٩ / ٦٨٦١

ردمك: ٥ - ١٧٢٢ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

مكتبة الشؤون محفوظة

القائمة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٩ م

لا يجوز نشر هذا الكتاب ولا تخزينه ولا تصويره  
بأي وسيلة ولا ترجمته إلا بإذن خطي من الناشر

دار التوحيد للنشر

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ - فاكس: ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

ص: ب: ١٠٤٦٤ الرمز: ١١٤٣٤

البريد الإلكتروني: e-mail:dar.attawheed.pub.sa@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رفع  
عبد الرحمن السعدي  
أسكنه الله الفردوس

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فهذا الكتاب (المداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية) وهو شرح لرسالة الإمام الطحاوي تِلْكَ الْمَسْمُوءَةِ: (العقيدة الطحاوية)، وهذه الرسالة في عقيدة السلف الصالح والتي تلقنها الأمة بالقبول.

وهي بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة، وإن كان هناك بعض الملحوظات البسيطة على رسالة الإمام الطحاوي؛ سيأتي بيانها - إن شاء الله - في موضعها.

وقد شُرِحت في مجالس علمية، وتم تفرغها فخرجت في هذه النسخة المطبوعة. أسأل الله عز وجل أن ينفع بها كل من قرأها أو اطلع عليها.

وأسأل الله تعالى أن يرزق الجميع الإخلاص في القول والعمل، وأن يبارك في الجهود وينفع بالأسباب إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي



## مقدمة

رفع  
عبد الرحمن (التبري)  
أسند الله والنور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا شرح العقيدة الطحاوية شرحته شرحاً متوسطاً، أسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل هذا العمل نافعاً لعباد الله، وأسأله ﷺ أن يجعله من العمل الذي لا ينقطع إنه جواد كريم.

### التعريف بهذا العلم:

هذا العلم: هو علم العقائد.

### التعريف بمتن الطحاوية

متن العقيدة الطحاوية يتعلق بعلم الأصول؛ أي: أصول الدين؛ وهو المُسمَّى بِ(العقائد).

### التعريف بعلم أصول الدين:

علم أصول الدين: هو علم العقائد؛ فهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله<sup>(١)</sup>.

(١) ويعرفه بعض المتكلمين بأنه: «علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية، بإيراد الحجج لها، ودفع الشبه عنها» انظر: «أبجد العلوم» (٦٧/٢)، وهذا التعريف فيه لَوْحَةٌ كلامية؛ فقد عَرَّفَه بهذا صاحب «المواقف» (٣١/١)، وذكر في «شرح المقاصد» (٧/١) أنَّ عُدُولَه عن قوله: «يُقْتَدَرُ بِهِ» إلى قوله: «يُقْتَدَرُ مَعَهُ»: =



فصل هذا العلم:

وعلم أصول الدين بالنسبة إلى غيره: هو أشرف العلوم؛ لأن شرف العلم إنما يكون بشراف المعلوم، والمعلوم هو الله ﷻ، فعلم أصول الدين يتعلق بالعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروض؛ ولهذا لما كتب الإمام أبو حنيفة النعمان ﷺ أوراها جمعها في أصول الدين؛ سماها: الفقه الأكبر<sup>(١)</sup>؛ وأما فقه فروع الدين فهو الفقه الأصغر، فيكون العلم - على ذلك - علمَ عَمَلَيْنِ: علم أصول الدين - وهذا هو الفقه الأكبر -، وعلم فروع الدين - وهذا هو الفقه الأصغر -.

وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله عليه - له كلام في تقسيم

= مبالغة في نفي الأسباب؛ واستناد الكل إلى خلق الله تعالى؛ ابتداءً؛ على ما هو المذهب!! ثم إن العقائد عند هؤلاء مكتسبة من النظر في الأدلة التي يسمونها عقلية، وهي في مرتبة اليقين، بخلاف الكتاب والسنة؛ فإن دلائلها عندهم ظنية، وهؤلاء أيضاً ظنوا أنَّ الأدلة السمعية؛ لفظية فقط، وهذا غلط؛ لأنها نوعان: نوع خبري فقط، ونوع خبري عقلي؛ يدلّ المقول وينبئها على الأدلة العقلية، وهو أكثر النوعين في القرآن، وهو يرشد إلى طريقة الاستدلال البرهانية الصحيحة. والله أعلم.

(١) يروى هذا الكتاب عن أبي حنيفة بروايات أشهرها رواية أبي مطيع البخاري وهو متن صغير اعتنى الاختلاف بشرحه فشرحه منهم البيهقي وأبو الليث السمرقندي، أما الشرح المتداول لعلي القاري فهو شرح لرواية حماد بن أبي حنيفة وهي أوسع وأكثر مسائل من رواية أبي مطيع، وقد نقل عنه شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٥/ ٤٦-٤٨)، و «دره المعارض» (٦/ ٢٦٣-٢٦٤). وانظر: «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (٣/ ٢٣٧-٤٢٠). وانظر للكلام على هذا الكتاب سنداً ومتمناً؛ كتاب «براهنة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين الشهدية» (ص ٤٦ وما بعدها)، للدكتور: عبدالعزيز بن أحمد الحميدي.

الدين إلى أصول وفروع<sup>(٢)</sup>.

مدى الحاجة لهذا العلم:

حاجة العباد إلى هذا العلم فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب، بل أشد من حاجتهم إلى النفس الذي يتردد بين جنبي الإنسان؛ لأن الإنسان إذا فقد الطعام والشراب وفقد النفس؛ مات الجسد، والموت لا بد منه، ولا يضر موت الجسد إذا صلح القلب، أما إذا فقد العلم بالله وأسمائه وصفاته والعلم بشرعه ودينه؛ مات قلبه وروحه<sup>(٣)</sup>.

وبهذا يتبين حاجة العباد إلى علم أصول الدين؛ وذلك لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة ولا سعادة إلا بأن تعرف ربها وخالقها، وفاطرها، ومعبودها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك أحبَّ إليها من كل شيء، ويكون مع ذلك سعيها وعملها فيما يقربها إليه ﷻ.

الحكمة من إرسال الرسل، وبيان أن العقل لا يستطيع أن يستقل بمعرفة هذا الأمر:

ولما كانت عقول البشر لا تستقل بمعرفة هذا الأمر - أعني: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله - على التفصيل، اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن أرسل الرسل؛ يعرفون بالله، ويدعون إلى الله، ويبشرون من أجاوبهم، وينذرون من عصاهم وخالفهم، وجعل ﷻ مفتاح دعوة الرسل

(١) انظر للتوسع في هذه القضية وتحريها؛ التفريق بين الأصول والفروع؛ للشيخ سعد الشثري.

(٢) انظر هذا المعنى بتمامه في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٧).

وزبدة رسالتهم؛ معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى هذه المعرفة بُنِيَتْ مطالب هذه الرسالة كلها من أولها إلى آخرها؛ هذا هو الأصل العظيم؛ أصل الدين، ثم يتبع ذلك إعلان عظيماني:

**الأصل الأول:** معرفة الطريق الموصل إلى الله، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه سبحانه.

**الأصل الثاني:** معرفة حال السالكين والسائرين إلى الله وما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم؛ ويتبع ذلك معرفة ما يكون في أمور البرزخ من سؤال منكر ونكير، ومن عذاب القبر ونعيمه، ومعرفة العلم بأحكام البعث والنشور، والوقوف بين يدي الله عز وجل، وتطابير الصحف، ووزن الأعمال والأشخاص، والورود على الحوض، والمرور على الصراط، ثم الاستقرار في الجنة أو في النار<sup>(١)</sup>.

هذه هي أقسام العلم النافع الثلاثة، وليس هناك قسم رابع؛ كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»<sup>(٢)</sup>:

وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تَبْيَانٍ  
عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الْإِلَهِ وَفِعْلُهُ وَكَذَلِكَ الْأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ  
وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِيْنُهُ وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي

فَأَعْرِفَ النَّاسَ بِاللَّهِ أَتَّبِعَهُمُ لِلطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ؛ الَّذِي يَمْتَلِ الْأُمُورَ،  
وَيَجْتَنِبُ النَّوَاحِي، وَيَعْمَلُ بِشَرِّعِ اللَّهِ وَدِينِهِ، وَأَتَّبِعُهُمُ، أَتَّبِعَ النَّاسَ لِلصَّرَاطِ  
الْمُسْتَقِيمِ؛ وَلِهَذَا سَمَى اللَّهُ ﷻ كِتَابَهُ الْمَنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ - وَهُوَ الْقُرْآنُ  
الْعَظِيمُ - «وَحَا» لِتَوَقُّفِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقَةِ عَلَيْهِ، وَسَمَاهُ «نُورًا» لِتَوَقُّفِ الْهَدْيَاةِ

(١) انظر هذا المعنى بتمامه في «الصواعق المرسلية» ١/ ١٥١.

(٢) انظر: «الكافية الشافية» ٢/ ٤٨.

عليه؛ قال سبحانه: ﴿يُخَيِّطُ الْأَرْوَاحَ بَيْنَ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [غافر: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُؤْيَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنِ يَشَاءُ وَنَايِبًا وَنَايِبًا وَلَئِكَ تَتَذَكَّرُ إِلَىٰ حَرْطٍ مُمْسِكِينَ﴾ [ص: ١٠١]، ﴿يَرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْكَ لُحًى مَا فِي الْكُتُوبِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آيَاتٍ إِلَىٰ اللَّهِ يَهْدِي الْأُمُورَ﴾ [النور: ٥٢-٥٣].

وسماه الله شفاعة؛ قال سبحانه: ﴿يَتَابَعُ الْكَاسُ قَدَّ يَدَهُمْ مُوَظَّعٌ بَيْنَ زَيْكُمُ وَشِفَاعُ لِمَا فِي الْأَشْدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

والله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليلظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وقد بلغ النبي ﷺ البلاغ المبين، وأوضح الحجة للمستبصرين، ومضى على طريقه ﷺ السلف الصالح: الصحابة والتابعون والأئمة من بعدهم، فاهتدوا بهديه ﷻ، وترسموا خطاه، وأمتموا بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، والقدر خيره شره، وامتلأوا بأوامر الله، واجتنبوا نواهيه، واستناروا بنوره؛ فكانوا على الهدى المستقيم.

فهم أهل السنة والجماعة والصحابة والتابعون وتابعوهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ هم أهل الحق، وهم الطائفة المنصورة، ثم لما بُدِّدَ الْعَهْدُ خَلَفَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ غَيْرُوا وَبَدَلُوا، وَتَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ شَيْعًا وَأَحْزَابًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ حَفِظَ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَصُولَ دِينِهَا؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ»<sup>(١)</sup>، وفي لفظ آخر: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ

(١) أخرجه أحمد (٢٧٩/٥)، بهذا السياق، وكذا الترمذي (٢٢٢٩)، عن ثوبان رضي الله عنه، لكنه عند مسلم (١٩٢٠)، عن ثوبان أيضا، لكن بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين الحق؛ لا يضرهم من خذلهم...».

خَلَقَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَقَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

فنصدي العلماء والأئمة لإيضاح أصول الدين وفروعه، والرد على بدع أهل البدع، وإيضاح الحق، فنصر الله بهم الحق، وألقوا المؤلفات في عقيدة السلف الصالح، ومن هؤلاء الأئمة: الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي - نسبة إلى قرية «طحا» من صعيد مصر- المولود سنة تسع وثلاثين ومائتين، والمتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، فقد ألف هذه الرسالة في العقيدة، وهي التي عُرفت بـ «العقيدة الطحاوية»، وقد تلقاها العلماء بالقبول سلفاً وخلفاً، وفيها بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، إلا أنه قد يُلاحظ على هذه الرسالة ملحوظات يسيرة منها:

- أنها قد تتماشى مع معتقد المرجئة<sup>(٢)</sup>، وسيأتي التنبيه عليه - إن شاء الله - في موضعه .
- أن بها أيضاً عبارات مشتبهة وفيها إيهام، لكن القاعدة في هذا أن

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧) كلاهما من حديث معاوية رضي الله عنه.

وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (١٤١/٣): «... وفي الباب عن سعيد وثوبان في مسلم، وعن قُرّة بن إياس في الترمذي، وابن ماجه، وعن أبي هريرة في ابن ماجه، وعن عمران في أبي داود، وعن زيد بن أرقم عند أحمد...» وفيه أيضاً عن المغيرة بن شعبة عند مسلم.

(٢) سموا بذلك لقولهم بالإرجاء، وأصل الإرجاء التأخير، وذلك لأنهم أخروا الأفعال عن معنى الإيمان.

والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرة، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة. انظر: «الملل والنحل» (١٨٦/١)، والفصل في «الملل والنحل» (١١٣/٢)، و «اعتقادات فرقي المسلمين والمشركين» (١٠٧، ١٠٨).

العبارات المشتبهة تُفسّر بالعبارات الواضحة؛ لأن القاعدة عند أهل العلم أن النصوص المشتبهة من كتاب الله - عز وجل - تُفسّر بالنصوص الواضحة المحكمة وتُرَدُّ إليها؛ هذه هي طريقة أهل العلم الراخين؛ يردون المشابه إلى المحكم، ويفسرون النصوص المتشابهة بالنصوص المحكمة فيوضح الأمر، وكذلك أيضاً النصوص المتشابهة في سنة رسول الله ﷺ تُفسّر بالنصوص الواضحة المحكمة؛ فيزول الاشتباه، وكذلك أيضاً النصوص المشتبهة في كلام أهل العلم تفسر بالنصوص الواضحة من كلامهم؛ ولا يتعلّق بالنصوص المتشابهة ويترك النصوص المحكمة الواضحة إلا أهل الزيغ والضلال؛ كما قال الله ﷻ في كتابه العظيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْغَايِبُونَ يُبْدُونَ مَأْكَدَ يَوْمٍ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ

﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سعى الله فاحذرّوهم»<sup>(١)</sup>.

فأهل الزيغ يتعلّقون بمتشابهه ويتركون المحكم، فمثلاً إذا تعلّق النصراني بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ ذَرْنًا ذَكَرًا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنُونَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٥) عن عائشة وهذا لفظه، وأخرجه من حديث عائشة أيضاً البخاري (٤٥٤٢) لكن بلفظ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه...» والباقي مثله.

والواجب عليك أن تردّها إلى النصوص الواضحة المُحَكَّمة؛ كقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)، وكفوله أيضاً: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (طه: ١٤).

ف(نحن) في لغة العرب يقولها الواحد المُعْظَمُ لنفسه، فعليك أن تُرْجِعَ  
هذا النصَّ المشتبه إلى النصِّ المُحْكَم.

ومثال ذلك أيضًا من السنة النبوية: أنه قد يتعلق بعض دعاة السفور<sup>(١)</sup> - سفور النساء - ببعض النصوص المشتبهة ويقولون: إن حديث الخشعية في حجة الوداع: «جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَسْأَلُهُ، وَكَانَ رَوْبُهُ الْفُضْلُ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَضْرِبُ وَجْهَ الْفُضْلِ إِلَى الظَّرْفِ الْآخَرِ»<sup>(٢)</sup>.

قالوا: هذا يدل على أنَّ تلك المرأة كانت سافرة؛ كاشفة الوجه، ويدلُّ أيضاً على أن المرأة يجوز لها كشف وجهها، وأنَّ ستر الوجه ليس بواجب.

ويستدلون أيضًا بحديث أسماء: أنها جاءت إلى النبي ﷺ وعليها ثياب رفاق، فأعرض النبي ﷺ عنها بوجهه، وقال: «يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا بَلَغَ الْمَحِيضَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا، وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَتِفَيْهِ» (٣).

(١) فالمقصود هنا دعاة السفور وليس من كان عالماً مجتهداً كالشيخ الألباني رحمته الله وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٤٠)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٨٦/٧) من حديث عائشة، رضي الله عنها، وقال أبو داود: هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة، وقال ابن القطان في كتابه "الرومع والإيهام" (٢٦/٣): "وخاله بن دريك فإنه مجهول الحال"، هكذا قال أبو ابن دريك قال عنه أبو عثمان كما في "البحر المتعبد" (٣٨٨/٣): «لا بأس به» في الحديث الذي في "الميزان" (٤١/٢):

قالوا: هذا يدل على جواز كشف الوجه، فنقول لهم: أنتم من أهل الزينج؛ لأنكم تعلقتم بالنصوص المتشابهة، وتركت النصوص المحكمة الواضحة؛ فنقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَا فَتَنَلَكُمُوهْنَ مِنْ زِيَّارَةِ حُجَابٍ ذَلِكَ أَفْهَرُ لِقَائِكُمْ وَقُلُوبُهُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٥)، والحجاب ما يحجب المرأة عن الرجل، والحجاب يكون حجاباً، أو يكون باباً، أو يكون غطاءً على الوجه. ومن النصوص المحكمة التي أعرضتم عنها ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوَّجِكَ وَمَنْ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْعِيهِمْ عَنْكَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا عِزًّا لَّكَ ذَلِكُمْ أَفْهَرُ لِقَائِكُمْ وَأَقْرَبُ وَلَا يَمْنَعُكُمُ اللَّهُ أَنْ تُبَيِّنَ لِلنَّاسِ دِينَهُ إِذَا بَدَأَ بِذِكْرٍ فَرَغَ مِنْهُ وَلَوْ أَنَّكَ لَرَأَيْتَهُمْ فِي يَدَيْكَ أَكِنَّةَ مِنْ دَرِّ قَوْمٍ فَتُوعَثُ بِهِنَّ وَهُمْ لَمَّا يَنْظُرُونَ وَيَتَوَفَّيْكَ اللَّهُ بِحُجَابٍ مُجَبَّبٍ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٣١)، فلو كان كشف الوجه واجباً لكانت الآية محكمة، ولما كانت عطفية على الآية السابقة.

ومن الأدلة كذلك؛ ما ثبت في «صحیح البخاری» في قصة الإفك لما سار الجيش، وترك عائشة رضی اللہ عنہا: «فجلست في مكان الجيش لعلهم يقدرونها ثم يرجعون». وكان صفوان بن المفضل السلمي قد جاء متأخراً فلما رأى سوادَ إنسانٍ نائم، فعرفني حين رأيته، وكان رأيته قبل الحجاب، فاستيقظت واستبشرجاه حين عرفني، فحخرت وجهي بجلبي <sup>(١)</sup>، فقولها: «فحخرت

= «وثقه ابن معين والنسائي...».

وقول ابن القطان هذا، ذكره في «خلاصة البدر المنير» (٨٦/٢) ثم تعقبه بقوله: «هاتماً؛ فقد وثقه النسائي وغير واحد». وقال المنذري: وفيه أيضاً سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري نزيل دمشق مولى بني قنصر، تكلم فيه غير واحد، وقال ابن عدي «الكامل» (٢٧٣/٢) «وأعلم رواء عنه قتادة بن سعيد بن بشير» وقال فيه مرة: «عن خالد بن رزيق، عن أم سلمة بنت عائشة»، وانظر «العليل» (٢٠٣/٢).

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة، رضي الله عنها، ولفظ البخاري «فعرفتني حين رأيته»، وكان رأيته قبل الحجاب»، ولفظ مسلم مثله، إلا أنه قال في روايته: «... وكان يراني قبل أن يُضَرَّبَ الحجابَ عَلَيَّ...».

وَجْهِي بِجَلْبَابِي» صريح في تغطية الوجه، وقولها: «وَكَانَ رَأْيِي قَبْلَ الْجِجَابِ» دليل على أن النساء قبل الحجاب كنّ يكشفن الوجوه، وأما بعد الحجاب فكان يسترن الوجوه.

وفي «سنن أبي داود» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ الرَّفِيقَانِ يَمْرَوْنَ بِنَا، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحْرَمَاتٌ، فَإِذَا حَادُوا بِنَا سَدَّكَتُ إِحْدَانَا جَلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ»<sup>(١)</sup> نقول لهم: كيف تتعلقون بحديث أسماء وحديث الخثعمية وتركون هذه النصوص المحكمة؟ عليكم أن تفسروا حديث الخثعمية بما يتناسب مع هذه النصوص، ثم حديث أسماء هذا ضعيف، وفيه علل كثيرة؛ فهو منقطع؛ لأنه من رواية خالد بن ذريق عن عائشة، وخالد بن ذريق لم يسمع من عائشة، ثم هو منكر المتن؛ لا يمكن أن تكون أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة وامرأة الزبير، وامرأة عاقلة ذكية تدخل على النبي ﷺ في ثياب رفاق!! ففيه علل متعددة كثيرة؛ ثم هو كذلك من رواية سعيد بن بشير وهو ضعيف، ولو صح الحديث - جدلاً - لكان محمولاً على ما قبل الحجاب.

فالمقصود من هذا: أن أهل الزينغ يتعلقون بالنصوص المتشابهة، ويتروكون النصوص المحكمة؛ وأما الراسخون في العلم فإنهم يأخذون

(١) أخرجه أبو داود (١٨٣٣)، واللفظ له، وابن ماجه (٢٩٣٥)، وأحمد (٣٠/٦)، والدارقطني (٢٩٤/٢)، وابن خزيمة في «الصحیح» (٢٦٩١)، وابن الجارود في «المتنقی» (٤١٨- غوث المكنود)، والبيهقي (٤٨/٥)، وفي سننه يزيد بن أبي زياد. قال الإمام ابن خزيمة في «صحیحه» (٢٠٣/٤): «وفي القلب منه، وضعفه النووي في «المجموع» (٢٢٦/٧). وكذا أعله يزيد، الحافظ ابن حجر في «الدراية» (٣٢/٢). أمّا الألباني فقد حسنه، كما في كتابه «جليل المرأة المسلمة» (ص ١٠٧- طبعة: المكتبة الإسلامية).

بالنصوص المحكمة، ويجمعون النصوص المتشابهة إليها. ومن ذلك أيضاً في القرآن الكريم- لأهمية هذا المثال- أن نصوص العلو محكمة، فيأتي أهل الزينغ، ويتعلقون بنصوص المعية كقوله تعالى: «وَقَرَّ مَعَكُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ» [الحنيد: ٤]، وكقوله: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» [البقرة: ٤٠]، وقوله: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْتَعِزُّ وَأَوْتِي» [طه: ٤٦].

فيأتي أهل البدع وأهل الزينغ ونفاة الصفات فيقولون: هذا دليل على أن الله مختلط بالمخلوقات، وأن الله معهم، نقول لهم: أنتم من أهل الزينغ فلماذا تركتم نصوص العلو والمعية المحكمة كقوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى السَّمَوَاتِ» [الأعراف: ٥٤] في سبعة مواضع<sup>(١)</sup>، وكقوله: «وَمَعَهُ الْقَائِلُ فَوْقَ عِصَاوَيْهِ» [الأنعام: ١٨]، وكقوله أيضاً: «إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [الأعراف: ٥٤]، وكقوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الْقَلْبُ» [الطبر: ١٠]، وكقوله: «بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» [النساء: ١٥٨]، وكقوله: «نَسُجُ الثَّيَابِ وَأَلْبُحُ إِلَيْهِ» [المسارج: ٤]، وكقوله: «يَعَاذُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ» [النحل: ٥٠].

حتى إن نصوص العلو تزيد على ثلاثة آلاف دليل كلها صريحة في أن الله فوق السموات، مستو على عرشه، بائن من خلقه.

ثم إن المعية لا تنفي الاختلاط في لغة العرب؛ فلا تزال العرب تقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، في حين أن القمر فوقك، وتقول: فلان معه كذا، وقد يكون فوق رأسه.

(١) في سورة الأعراف (٥٤)، ويونس (٣)، والرعد (٢)، والفرقان (٥٩)، والسجدة (٤)، والحنيد (٤)، وفي سورة طه (٥)، لكن فيها بلفظ: «الرَّحْمَنُ عَلَى السَّمَوَاتِ اسْتَوَى» [طه: ٥].

فالمقصود أن طريقة أهل الزَّيغ تعلقهم بالنصوص المتشابهة، وتركهم النصوص المحكمة<sup>(١)</sup>؛ أما طريقة الراسخين في العلم فإنهم يأخذون بالنصوص المحكمة ويُرْجِعُون إليها النصوص المتشابهة ويفسرونها بها؛ فيزول الإشكال، وهكذا كلام أهل العلم، فإذا رأيت كلاماً لعالم اشتبه عليك، فأرجع إلى كلامه الواضح لتفسره به؛ كما سيأتي في بعض كلام أبي جعفر الطحاوي<sup>(٢)</sup>.

وهذه «العقيدة الطحاوية» قد تلقاها العلماء بالقبول، وُشِّرت بشروح متعددة، لكن هذه الشروح لا تتمشى مع معتقد أهل السنة والجماعة.

وأحسن شرح لها: هو الشرح المنتشر المطبوع الذي ألفه علي بن علي ابن أبي العز الحنفي، المولود سنة سبع مائة وواحد وثلاثين، والمتوفى سنة سبع مائة واثنين وتسعين، وقد ذكر بَئِلَّةً في مقدمتها: «أن «العقيدة الطحاوية»

(١) انظر تفصيل طريقة أهل البدع هذه ونقضها في: «موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة» (ص ٣٦٥-٤٠١).

(٢) جاء في «مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز، فتاوى العقيدة» (١/ ٧١- ٧٢ ط: دار الوطن): «قوله -أي قول الطحاوي-: تعالى عن الحدود والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، والجهات الست، كاستزاد المبتدعات»: هذا الكلام فيه إجمال، قد يستغله أهل التأويل والإلحاد في أسماء الله وصفاته، وليس لهم بذلك حجة؛ لأن مراده بَئِلَّةً: تنزيه الباري سبحانه عن مشابهة المخلوقات، لكنه أتى بعبارة مجملة، تحتاج إلى تفصيل، حتى يزول الاشتباه...»، ثم فضل مراده بكل شيء من ذلك، إلى أن قال: «وأهل البدع يطلقون مثل هذه الألفاظ، لينفوا بها الصفات، بغير الألفاظ التي تكلم بها، وأثبتها لنفسه، حتى لا يقتضوا، وحتى لا يشنع عليهم أهل الحق، والمؤلف الطحاوي بَئِلَّةً لم يقصد هذا المقصد، لكونه من أهل السنة الثابتين لصفات الله، وكلامه في هذه العقيدة يفُسِّر بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ويُشَرُّ مشبهه بمحكمه» ١ هـ.

شُرحت شروخاً متعددة إلا أنها لا تتمشى مع معتقد أهل السنة والجماعة؛ فأراد أن يشرحها شرحاً يتمشى مع معتقد أهل السنة والجماعة.



♦ قَالَ الْهَلَاكِيُّ ڪَلَّمَ:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْعَلَمَةُ حَبَّةُ الْإِسْلَامِ أَبُو جَعْفَرٍ الْوَرَّاقُ الطَّحَاوِيُّ - بِمَضَر ڪَلَّمَ: هَذَا دُخْرٌ بَيَانٌ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ الْمِلَّةِ: أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الْكُوفِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْصَارِيِّ<sup>(١)</sup>، وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ<sup>(٢)</sup> -

(١) هو الإمام المجتهد العلامة المحدث كبير القضاة أبو يوسف يعقوب الأنصاري الكوفي، الإمام الثاني للحنفية، صاحب أبا حنيفة سبع عشرة سنة، وتفقه به، وهو أنبل تلامذته وأعلمهم، وكان من أئمة أهل الرأي ولكن يميل لأصحاب الحديث، ورجحه شيخ الإسلام على محمد بن الحسن، وكان سبياً في رجوع أبي حنيفة عن القول بخلق القرآن.

وتفقه جمع من الأئمة وضعفه كثير من الجهابذة، توفي سنة ١٨٢هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥٣٥-٥٣٩)، و«تاريخ ابن معين» (٦٨٠/٢) و (٤٧٤/٤)، و«التاريخ الكبير» للبخاري (٣٩٧/٨)، و«مجموع الفتاوى» (٤٧/٤)، و«ضعفاء العقيلي» (٤٣٨-٤٤٤).

(٢) أبو عبد الله الكوفي فقيه العراق، الإمام الثالث لأهل الرأي والحنفية. قرأ على مالك موطأه، وروى عنه، وتأثر به بعض الشيء، فخالف إمامه أبا حنيفة في كثير من المسائل الفقهية، ووافق مذهب أهل الحديث من الحجازيين مالك وغيره، وله كلام شديد في الرد على الجهمية.

أثنى عليه جم غفير من الأئمة، وضعفه النقاد والجهابذة النحارير. انظر: «تاريخ ابن معين» (٥١١/٢)، و«ضعفاء العقيلي» (٥٥٠-٥٢/٤)، و«اللسان لابن حجر» (٥/١٢٢، ١٢١).

وَرِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ- وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، وَيَتَّبِعُونَ بِوَرَبِّ الْعَالَمِينَ):

### الشَّرح

بُهِ ڪَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَبِينَ عَقِيدَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى مَا يَعْتَقِدُهُ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَصَاحِبُهُ الْأَكْبَرُ: أَبُو يُوسُفَ: يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْصَارِيِّ، وَالصَّاحِبُ الثَّانِي: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: (وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، وَيَتَّبِعُونَ بِوَرَبِّ الْعَالَمِينَ)؛ فَبَيْنَ ذَلِكَ ڪَلَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ تَتِمُّشُ مَعَ مَعْتَقِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَخَصَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ؛ لِأَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ إِمَامَ أئِمَّةِ الْمَذْهَبِ الْحَنْفِيِّ، وَالطَّحَاوِيُّ ڪَلَّمَ وَمَنْ ذَكَرَهُمْ، كُلُّ مِنْهُمْ: أَحَنَّا فِي الْمَذْهَبِ؛ يَتِمُّذْهَبُونَ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ فِي أَصُولِ الدِّينِ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالْأَحَنَّا. بَلْ هِيَ عَامَةٌ لِلْأَحَنَّا، وَالْمَالِكِيَّةِ، وَالشَّافِعِيَّةِ، وَالْحَنَابِلَةِ، وَالتَّجْمُذِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي فُرُوعِ الدِّينِ كَأَحْكَامِ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، أَمَّا الْعَقِيدَةُ وَالتَّوْحِيدُ؛ فَوَاحِدَةٌ لَيْسَ فِيهَا اخْتِلَافٌ.

وَالْعَقِيدَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ «الْعَقْدِ» وَهُوَ الرِّبْطُ، وَالْعَقْدُ: نَقِضُ الْحَلِّ، وَاسْمُتْ عَقِيدَةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجْزَمُ وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ، وَيُقَالُ: اعْتَقَدَ فَلَانٌ الْأَمْرَ؛ صَدَّقَهُ وَعَقَدَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَضَمِيرُهُ. وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنْ عَقْدِ الْبَيْعِ وَنَحْوِهِ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَتْ فِي التَّصْمِيمِ وَالْإِعْتِقَادِ الْجَارِمِ<sup>(١)</sup>، وَتَقَالُ الْعَقِيدَةُ عَلَى

(١) المصباح المنير للمقرئ الفيومي (٤٢١/٢)، و«السان العرب» لابن منظور (٣/٢٩٦، ٢٩٨) مادة (عقد). ط: دار صادر، بيروت.

ما يدين به الإنسان ربه، ويعتقده من أمور الدين، فإن كان ما يعتقده الإنسان مطابقاً للواقع، فهي عقيدة صحيحة، وإن كان مخالفاً للواقع؛ فهي عقيدة فاسدة.

فمثلاً الجهمية<sup>(١)</sup>، والمعتزلة<sup>(٢)</sup>، والشيعة<sup>(٣)</sup>، .....

(١) سمو بذلك نسبة إلى جهم بن صفوان، وقد قتله سلم بن أحوز سنة ١٢٧هـ، وهم من القائلين بنفي الأسماء والصفات عن الله -تعالى-، وأن الجنة والنار نبيدان وتفتيان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل بالله فقط، وأن الفاعل هو الله وحده، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم مجازاً، ومن أصولهم تقديم العقل على النقل، كما قالوا بخلق القرآن، وقيل: إن الجهمية لا تعتبر فرقة قائمة بذاتها كالمعتزلة، ولذا لم تذكر كفرقة عند كثير ممن كتب في الملل والنحل، وإنما تذكر ضمن فرق المعتزلة أو المرجئة. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٣٣٨)، و«الفصل في الملل والنحل» (٤/٢٠٤).

(٢) سمو بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين في مرتكب الكبيرة حيث قالوا: إنه في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا هو كافر، وقيل: لاعتزال زعيمهم وأصل بن عطاء مجلس الحسن البصري. ومنعهم يقوم على نفي الصفات عن الله - تعالى-، ونفي القدر في معاصي العباد، وإضافة خلقها إلى فاعليها، وأن القرآن مخلوق، ونفوا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر، وهم فرق كثيرة: منها الجبائية، والضرارية، والنظامية، والجاحظية، وغيرها. انظر: «البرهان في عقائد أهل الأديان» (٢٦، ٢٧)، و«مقالات الإسلاميين» (١/٢٣٥) وما بعدها، و«الملل والنحل» (١/٥٤).

(٣) هم الذين شاعروا علياً عليه السلام على الخصوص وغلو فيه، وقالوا بإمامته نصاً ووصية، إما علياً أو خفيّاً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فيظلم يكون من غيره، أو يفتية من عنده، وليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، ويتنصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله، وإعماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمع الشيعة القول بوجود التعيين والتنصيب، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر. =

= والصغار، والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلًا وعقدًا لا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك.

وهم يُسمَوْنَ بالشيعة؛ لأنهم شاعروا علياً عليه السلام، ويقدمونه على سائر الصحابة، ويُسمَوْنَ بالرافضة؛ لرفضهم أبا بكر وعمر، وقيل: لرفضهم زيد بن علي، لما تولى أبا بكر وعمر وقال بإمامتهما، وبعضهم غلوا في علي -وهم الغالية- فقالوا بإلهيته، وبعضهم قال بنبوته، وقد قتل علي عليه السلام بعضهم في زمانه، وهم فرق وطوائف كثيرة، والكلام عنهم مشعب.

قال شيخ الإسلام في «التبيين»: «والشيعة هم: ثلاثة درجات، شرها الغالية الذين يجعلون لعلي شيئاً من الإلهية، أو يصفونه بالنبوة، وكُفِّرَ هؤلاء بَيِّنٌ لكل مسلم يعرف الإسلام، وكفَّره من جنس كفر النصارى من هذا الوجه، وهم يشبهون اليهود من وجوه أخرى.

والدرجة الثانية: وهم الرافضة المعروفون كالإمامية وغيرهم الذين يعتقدون أن علياً هو الإمام الحق بعد النبي ﷺ بنص جلي أو خفي، وأنه ظلم ومنع حقه، ويغضون أبا بكر وعمر ويشتمونهما، وهذا هو عند الأئمة سيما الرافضة.

والدرجة الثالثة: المغفلة من الزيدية وغيرهم الذين يفضلون علياً على أبي بكر وعمر، ولكن يعتقدون إمامتهما وعدلتهما ويتولنهما، فهذه الدرجة -وإن كانت باطلية- فقد تَنَبَّأَ إليها طوائف من أهل الفقه والعبادة، وليس أهلها قريباً ممن قبلهم، بل هي إلى أهل السنة أقرب منهم إلى الرافضة؛ لأنهم يتنازعون الرافضة في إمامة الشيعيين، وعدلهم، وموالائهم، ويتنازعون أهل السنة في فضلهم على علي، والنزاع الأول أعظم، ولكن هم المراقبة التي تصعد منه الرافضة، فهم لهم باب».

لوانظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٦٥ فما بعدها)، و«الإبانة» (٥٢، ٢١٩)، و«الفصل» (٤/١٣٧)، و«الملل والنحل» (١٤٤/١ فما بعدها)، و«الفرق بين الفرق» (٢١)، و«التبصير في الدين» (ص ٣٢ فما بعدها)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركون» (٥٢-١٣)، و«البرهان» (ص ٦٥)، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية خاصة «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية».



والرافضة<sup>(١)</sup> كلهم لهم عقيدة، ويجزؤون بها، لكنها عقائد فاسدة باطلة؛ لمخالفتها للحق، وأهل السنة والجماعة عقيدتهم موافقة للحق؛ فهي عقيدة صحيحة، والعقيدة هي الأساس؛ وهي أساس بناء المجتمعات، فإن كان المجتمع عقيدة أفرادها سليمة؛ صار مجتمعاً قوياً متماسكاً، وإن كانت عقيدة أفرادها منحرفة؛ صار مجتمعاً متفككاً منهزماً.

وقد دلت التجارب أن صلاح سلوك المجتمع يتناسب مع مدى صلاح عقيدة أفرادها، وأن انحراف سلوك الإنسان يتناسب مع مدى تضال عقيدته وانحرافه، والعقيدة السليمة الصحيحة تعصم الدم والمال، وتصح جميع الأعمال، والعقيدة الفاسدة تهدر الدم والمال وتفسد جميع الأعمال، قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ أَتُذَكَّرُ لِحَبْلِ عَمَلِكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال - عليه الصلاة والسلام - : «مَنْ بَدَّلَ بَيْتَهُ فَاغْتُلُوهُ»<sup>(٢)</sup>، وقال - عليه الصلاة والسلام - : «لَا يَحِلُّ دُمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِذْنِي ثَلَاثَ: الثَّيِّبِ الرَّائِي، وَالتَّنَسُّ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِذِيهِ الْمُقَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) سماوا بذلك لرفضهم زيد بن علي حينما قالوا له: تَبَرَّأْ مِنَ الشَّيْخَيْنِ حتى تكون معك، فقال: لا بل أتولاهما وأتبرأ من تبرأ منهما، فقالوا: إذا نرفضك، وهم يشترن الإمامة عقلاً، وأن إمامة علي وتقدمه ثابت نصاً، وأن الأئمة معصومون، وأن الأئمة ارتدت بتركها إمامة علي عليه السلام. انظر: «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» للسكسكي (ص ٣٦)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين» للفخر الرازي (٧٧، ٧٨)، و«رسالة في الرد على الرافضة» لأبي حامد المقدسي (٦٥-٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث عبدالله بن عباس عليه السلام.

(٣) أخرجه بهذا السياق أبو داود الطيالسي في «المسنَد» (٢٨٩) من حديث عبدالله بن مسعود عليه السلام، وأخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، عن ابن مسعود أيضاً، وفيه زيادة في متنها.

فدل هذا على أن العقيدة السليمة تعصم الدم والمال، لا يحل دمه ولا ماله ما دام اعتقاده صحيحاً إلا إذا ارتكب واحدة من ثلاث: الزاني بعد الإحصان، والمقاتل عدلاً، و المرتد الذي فارق دينه.

فلو صحت العقيدة؛ صحت الأعمال كلها، فإذا كانت العقيدة سليمة صحت الصلاة، وصح الصوم، وصحت الزكاة، وصح الحج، وهكذا جميع العبادات.

أما إذا فسدت العقيدة؛ فسدت جميع الأعمال، فإذا دعا الإنسان غير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو طاف بغير بيت الله؛ تقريباً لذلك الغير، أو فعل ناقضاً من نواقض الإسلام؛ أو اعتقد عدم وجوب الصلاة، أو عدم وجوب الزكاة، أو عدم وجوب الحج، أو اعتقد حل الزنا، أو حل الخمر، أو حل الربا، أو حل عقوق الوالدين؛ فسدت العقيدة، وبطلت الأعمال كلها؛ فلا تصح الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج، ولا غيرها من العبادات؛ فكلها تكون باطلة.

ومن ثم اتجهت جهود الأنبياء والمصلحين إلى إصلاح عقائد المجتمعات قبل كل شيء، وكل نبي أرسله الله دعا قومه إلى إصلاح العقيدة فقال: ﴿يَقُولُوا آمَنُوا بِاللَّهِ مَا كُنْزَ إِلَيْكُمْ عَزِيزٌ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كما أخبر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، ونبينا محمد عليه السلام مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى إصلاح العقيدة، ويقول لقومه: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»<sup>(١)</sup>، ولم يفعل شيئاً من التشريعات سوى

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٥٩)، وابن حبان (٦٥٢٦)، من حديث طارق بن عبدالله المحاربي، وكذا أخرجه من هذا الوجه الحاكم (٦٨٢/٢) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٦/١)، (٢٠/٦)، والدارقطني =

الصلاة؛ لعظم شأنها، فإنها فُرِضَتْ قبل الهجرة بسنة أو بستين أو بثلاث، كل هذه المدة يدعو قومه إلى إصلاح العقيدة<sup>(١)</sup>.

ثم لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وثبتت العقيدة؛ نزلت بقية التشريعات؛ فُشِّرِعَ الأذان، وُشِّرِعَتْ صلاة الجماعة، وفُرِضَت الزكاة، وفُرِضَ الصوم، وفُرِضَ الحج، وفُرِضَ الجهاد، وُشِّرِعَ اللهُ إقامة الحدود؛ كحدِّ الزنا، وحدِّ السرقة، وحدِّ شرب الخمر، وهكذا.

وتبين بهذا: أن العقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه الأعمال، وهي التي تعصم الدم والمال، فالعقيدة الصحيحة تصحح جميع الأعمال.



## التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرَّسُلِ أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ وَمَعَانِيهِ

❖ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ:

(نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ: إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ):

### الشرح

• قوله: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللهِ):

التوحيد لغةً: مصدرٌ وَحَّدَ يوَحِّدُ توحيدًا، وهو الإفراد<sup>(١)</sup>؛ واصطلاحًا: هو إفراد الله بالعبادة؛ أي: جَعَلُ اللهُ واحدًا لا شريك له<sup>(٢)</sup>.

• قوله: (مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ):

أي: عن عقيدة وعن شيءٍ نجم به، ونتيقن به، ولكن بتوفيق الله ليس بحول منا ولا قوة، ولكن الله هو الذي وفقنا لهذا الاعتقاد السليم.

فلا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئًا، ولا أن يعتقد شيئًا، ولا أن يقول شيئًا؛ إلا بتوفيق الله وإعانتة، ولهذا قال المصنف ﷺ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ: إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ) أي: واحد لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ألوهيته وعبادته.

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٩٠/٦)، و«العين» للفراهيدي (٣/٢٨٠، ٢٨١).

(٢) انظر: «فتح المجيد» (ص ١٣).

= في «السنن» (٤٤/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٦٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وصححه في «البدل المنير» (٦٨٠/١)، وكذا صححه الحاكم في «المستدرک» (٦٦٨/٢) - تحقيق: مصطفى عبد القادر. لكن أخرجه أحمد (٤٩٢/٣)، والطبراني في «الكبير» (٤٥٨٢)، واللالكائي في «السنن» (١٤١٤)، (١٤١٥)، وغيرهم من حديث ربيعة بن عباد رضي الله عنه، وفي الباب عن ثوبان بن مذكور بن ميثب الأزدی، عن أبيه، عن جده عند الطبراني في «الكبير» (٨٠٥)، وعن غيره أيضاً.

(١) انظر: «عيون الأثر» لابن سيد الناس (١٩٦/١).

### أقسام التوحيد:

وتوحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ هي المعروفة عند أهل العلم:

✽ توحيد الربوبية.

\* توحيد الألوهية.

\* توحيد الأسماء والصفات<sup>(١)</sup>.

وهذا التقسيم ليس مأخوذاً من الرأي والعقل، فلم يأخذه العلماء من عند أنفسهم، وإنما دليلهم على ذلك الاستقراء والتبعية للنصوص<sup>(٢)</sup>.

وكل قِسْمٌ منها عليه دليل، وإذا كان كل قسم عليه دليل عُلِمَ بذلك أنهم لم يكونوا مبتدعين كما يزعم بعض الناس، حتى إن بعضهم <sup>(٢٧)</sup> قال: إن هذا التقسيم للتوحيد مثل تقسيم الثلاثية عند النصارى - نسأل الله السلامة والعافية - .

فهذه الأقسام إذا مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما سيأتي، وأيضاً فحال الناس الموحدين لله لا تتغير من هذه الأمور الثلاثة، فقد يكون الإنسان موحداً في ربوبية الله، وقد يكون موحداً في أسمائه وصفاته، وقد يكون موحداً في ألوهيته وعبادته، وقد يكون موحداً في ربوبيته

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢٤/١)، و«رفع الشبهة والغر» للكرمي (٦٧/١).

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٤٨٨/٣ - تفسير الآية التاسعة من سورة الإسماء وهو نفيس جدًا.

(٣) وهو الضال حسن السقاف في كتابه «التنديد بمن عُدَّ التوحيد وإبطال محاولة التثليث في التوحيد والعقيدة الإسلامية»، وقد رد عليه ردًا شافيًا الشيخ عبد الرزاق البدر في كتابه: «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد».

وَأَسْمَاءُ وَصِفَاتُهُ وَالْوَهِيَّةُ، وَقَدْ يَكُونُ مُوَحِّدًا لِلَّهِ فِي رَبُّوبِيَّتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا لِلَّهِ فِي أَلُوْهِيَّتِهِ، فَأَحْوَالُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ.

القسم الأول: توحيد الربوبية:

وهو إثبات حقيقة ذات الرب وأفعاله، بأن تعتقد: أن الله ﷻ واجب الوجود لذاته، وأنه هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، وأنه هو الرب؛ مربّي عباده، وأنه هو الخالق، وأنه هو المالك، وأنه هو المدبر، فلا بد في توحيد الله في ربوبيته من هذه الأمور:

**الأمر الأول:** إثبات حقيقة ذات الرب؛ بأن تعتقد أن الله واجب الوجود لذاته، لم يسبقه عدم، ولا يلحقه عدم ﷻ، بخلاف المخلوق فإن وجوده ليس واجباً ولا ممتنعاً؛ لأنه لو كان واجباً لما سبقه عدم، فكون عدمه سبق وجود المخلوق؛ دليل على أن وجوده ليس واجباً بل جائز، وليس ممتنعاً؛ لأن الله خلقه وأوجده، فالمتنع لا يوجد؛ فدل على أن وجود المخلوق وجود جائز، سبقه عدم، ويلحقه عدم، ويلحق حياته الضعف والنقص، أما وجود الله فهو وجود واجب لذاته لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ولا يلحق حياته نقص ولا ضعف، وتغير ولا فساد ولا سبب ولا نول، ولم يتغير من شيء، ولا يتغير منه شيء؛ ما قال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ يُكَلِّمُ مَن يَشَاءُ ۝ يَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ رِزْقًا مِّنْ دُونِ الذِّكْرِ ۝ لَمَّا يَشَاءُ يَبْزُقُ لِمَن يَشَاءُ رِزْقًا مِّنْ دُونِ الذِّكْرِ ۝ لَمَّا يَشَاءُ يُجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الاعراس: ١٦-٢١].

الأمر الثاني: الإيمان بربوبية الله واعتقاد أن الله هو الرب، وغيره مريبوب، كما قال سبحانه: ﴿الْحُكْمُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٦) فهو رب العالمين، وكل ما سوى الله عالم، والله تعالى رب هذا العالم، وغيره مريبوب.

الأمر الثالث: إثبات أن الله هو الخالق وغيره مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال أيضاً: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رَمَقَهُ لَقَدْ كَانَ﴾ [الفلقان: ٢].

الأمر الرابع: اعتقاد أو إثبات أن الله هو المالك وغيره مملوك، فهو مالك كل شيء.

الأمر الخامس: اعتقاد وإثبات أن الله هو المدبر وغيره مدبر، فهو مدبر الخلق وهو المحيي، وهو المميت، وهو الرزاق، وهو منزل المطر، ومسبب الأسباب، يحيي ويميت، وعز وذل، ويخفض ويرفع، ويقبض ويسط.

بهذا يكون الإنسان قد وُحِدَ الله في ربوبيته؛ حيث أثبت وجود الله واعتقد أن الله واجب الوجود لذاته، وأثبت ربوبية الله؛ واعتقد أنه هو الرب وغيره مربوب، وأثبت أن الله هو الخالق وغيره المخلوق، وأثبت أن الله هو المالك وغيره المملوك، وأثبت أن الله هو المبدئ وغيره المندبر، ومع ذلك لا يكفي هذا التوحيد في الإيمان والنجاة من النار، ولا يكون المسلمًا بهذا التوحيد وحده إلا إذا صَمَّ إليه غَيْرُهُ من أنواع التوحيد، كما سيأتي.

وهذا النوع من التوحيد أَقْرَبُ بِهِ الكفار من مشركي قريش، قال الله تعالى: ﴿رَبِّكَ سَأَلْتُم مِّنْ عَذَابِكُمْ يُقْرَأُ اللَّهُ﴾ (الاعراب: ٢٧) وقال: ﴿وَكَلِمَةً سَأَلْتُم مِّنْ عَذَابِكُمْ وَالْأَرْضُ وَسِعَتْ الْغَشْمَ وَالْقَرَارَ يَقُولُ اللَّهُ﴾ (الغشقر: ٢٦١) ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ﴾ (الاحزاب: ٦٤) وقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ﴾ (الاحزاب: ٦٥)

(المؤمنون: ٨٧-٨٨) ، وقال: ﴿فَلَمَّا مَلَكَتْ كُلُّ نَفْسٍ رَأْسَهُ وَمِمَّا جُزِيَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَبِّحُوا لِلَّهِ قُلُّ فَلَمَّا فَانَّ شُرُورُ ﴿٨٩﴾﴾

(المؤمنون: ٨٨-٩٠) ، وقال: ﴿فَلَمَّا مَن بَرَزَكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن بِتِلْكَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ وَمَن يُخْرِجُ الْعَيْنَ مِنَ الْبَيْتِ وَيُخْرِجُ النَّفْسَ مِنَ الْجَنَى وَمَن بَدَّلَ الْإُنثَىٰ سَبِّحُوا لِلَّهِ قُلُّ فَلَمَّا أَفَلَ تَلْفَؤُنَ ﴿٩٠﴾﴾ (يونس: ٣٦)

فهذا النوع من التوحيد أَقَرُّ به كُتَابُ قُرَيْشٍ، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام، بل قاتلهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءهم وأموالهم؛ لأنهم لم يأتوا بلازمه، وهو: توحيد الألوهية والعبادة<sup>(١)</sup>.

القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإيمان والإقرار بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلا التي ثبتت بالكتاب والسنة. وإثباتها لله على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

والأسماء والصفات توفيقية؛ ليس لأحد أن يخترع لله أسماء وصفات من عند نفسه، فما ثبت بالكتاب والسنة أنه اسم له أو وصف: أثبتناه له، وما لم يثبت بالكتاب والسنة: تنوق ولا نثبت، فلا بد من الإيمان والإقرار والعلم بما لله من الأسماء والصفات، على الوجه اللائق بالله -عز وجل-، من غير تكيف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل .

وهذا النوع أيضًا من التوحيد: أَقَرُّ به كفارُ قريش؛ ولم يوجد عندهم إنكار لشيء من الأسماء والصفات إلا في اسم الرحمن خاصة، فأنزل

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: (١/٢٢٥-٢٢٨)، و«الدرر السنية» لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم: (٣/٣٣، ٣٤).

الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ولما أمر النبي ﷺ أن يكتب الكتاب في صلح الحديبية وقال للكتاب: «اُكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ سَهْلٌ - الَّذِي صَالَحَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْمُشْرِكِينَ - اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ»<sup>(١)</sup>.

قال الحافظ ابن كثير<sup>(٢)</sup> رحمه الله: والظاهر أن إنكارهم لاسم الرحمن إنما هو من باب التعنت والعناد، وإلا فقد وجد في أشعار الجاهلية ما ثبت اسم الرحمن لله - عز وجل - كما قال الشاعر:

وَمَا يَسْأَلُ الرَّحْمَنُ يَغْفِرُ وَيُظْلِقُ

ولم يُعْرِفْ عنهم إنكار شيء من الأسماء إلا في اسم «الرحمن» خاصة، وهذا النوع من التوحيد-وهو توحيد الأسماء والصفات-لا يكفي بالإيمان والإسلام، ولا يدخل الإنسان في الإسلام حتى يقر بلازمه، وهو توحيد الألوهية والعبادة.

#### القسم الثالث: توحيد الألوهية والعبادة:

وهو توحيد الله بأفعال العبادة، وهذا النوع يكون بأفعالك أنت أيها الإنسان من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وبر للوالدين، وصلة للرحم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكف نفسك عن المحرمات؛ تتقرب بها إلى الله، وتوحد الله بها؛ بأن تخلصها لله، وتريد بها وجه الله والدار الآخرة. هذا هو توحيد العبادة.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رضي الله عنهما، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه، واللفظ أقرب إلى سياق مسلم.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٢/١).

وتوحيد العبادة: هو أول دعوة الرسل وآخرها، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله، كما أخبر تعالى عن الأنبياء:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ آلِهِ غَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الاعراف: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْلَهُمْ سَبِيحًا قَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الاعراف: ٧٣]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْلَهُمْ شُعَبًا قَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الاعراف: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوحَ﴾ [نحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَحْنُ إِلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا نَا فَاعْبُدُونَا﴾ [الأنبياء: ٢١٥].

وهذا التوحيد هو آخر ما يخرج به العبد من الدنيا؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>.

وهذا التوحيد هو الذي لأجله خلق الله الخليفة، وأرسل الله الرسل، وأنزل الله الكتب، وقام سوق الجهاد، وحقت الحاقة، ووقعت الواقعة،

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١٢٩٩)، وأبو داود (١٨٤٢) - تحقيق: مصطفى عبد القادر، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢١)، والزياري في «مسنده» (٢٢٦٦)، والشاشي في «مسنده» (١٣٧٢)، والفسري في «المعرفة والتاريخ» (١٨٠/٢)، وغيرهم من طريق صالح بن أبي غريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، به مرفوعاً. وقد أخرجه الإمام أحمد (٢٣٣/٥) نحوه.

والحديث صحيحه الحاكم عقب إخرجه له، وأعله ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٧٠٩/٥) بجهالة صالح بن أبي غريب. قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (١٠٣/٢): «وتمتق بأنه روى عنه جماعة، وذكره ابن حبان في الثقات. ثم أورد أحاديث بنحوه عن عدو من الصحابة».



أَنْ لَوْحِيًّا إِلَى تَعَالَى بَيْنَهُمْ أَنْ لَيْدُوا النَّاسَ وَتَبَيَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْدٌ يُشْرِكُ بِهِ إِنْ رَزَقَكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِمُزٍ الْأَمْرُ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ إِذْ يَقُولُ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاغْبُذُوا فَلَاحُ تَذَكُّرُونَ ﴿١٠٣﴾ (يونس: ١٠٣-١٠٢).

وفي آخرها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَغْنِيَنَّ الَّذِينَ تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ اتَّبِعُوا اللَّهَ الَّذِي يَتَّقُكُمْ وَأَمُرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يونس: ١٠٤-١٠٥).

كذلك جملة سورة «الأنعام» أنكر الله تعالى على المشركين شركهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَنَاءٍ بَرَكَةُ الْأَنْفُسِ تَصِيبًا فَجَاءُوا هَذَا اللَّهُ يَرْزُقُهُمْ هَذَا لِيُشْرَكُوا فَمَا كَانَ لِيُشْرِكَهُمْ فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ ﴿١١٣﴾﴾ (الأنعام: ١١٣)، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَكَيْفَ أَزْجِ بَرَكَةَ الْبَنَاتِ اثْنَتَيْنِ وَبَرَكَةَ الْمَعْرِ اثْنَتَيْنِ قُلْ لِلَّهِ كَرَمٌ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْنَاكُمْ بِأَرْحَامٍ الْأُنثَيْنِ يَتَوَفَّى بَعْلُهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (الأنعام: ١١٤)، ثم قال: ﴿وَرَبَّ الْأَيْدِي اثْنَتَيْنِ وَبَرَكَةَ الْبَنَاتِ اثْنَتَيْنِ قُلْ لِلَّهِ كَرَمٌ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْنَاكُمْ بِأَرْحَامٍ الْأُنثَيْنِ ثُمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ صَلَّيْتُمْ اللَّهُ يَهْدِيكُمْ﴾ (الأنعام: ١١٤).

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن متضمنة لهذين النوعين؛ فإن القرآن إما يخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله - وهذا هو التوحيد العلمي الخبري -، وإما دعوة إلى توحده، ونهي عن الشرك، وعبادة غيره - وهذا هو التوحيد الإرادي الطلبي -، وإما أمر ونهي وإلزام وبطاعته - وذلك من حقوق التوحيد ومكملاته -، وإما خبر عن أهل التوحيد، وما حصل لهم في الدنيا من النصر والعز، وما يكرمهم به في الآخرة من الثواب؛ فهذا جزء من حقق التوحيد، وإما خبر عن أهل

الشرك وما أصابهم في الدنيا من النكسة والهزيمة، وما يكون في الآخرة وما تكون عاقبتهم وما يحصل لهم في الآخرة من العذاب والنكال؛ وهذا جزء من خرج عن التوحيد.

يتبين من هذا أن القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وأهله، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

وسورة «الفاتحة» مثلاً متضمنة التوحيد؛ ف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ (الفاتحة: ٢) توحيد، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ (الفاتحة: ٢) توحيد، و﴿إِنَّكَ تَعْبُدُ إِلَهًا كَمَا تَسْتَعْبُدُ ﴿٢﴾﴾ (الفاتحة: ٥) توحيد، و﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٣﴾﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الفاتحة: ٦-٧) توحيد متضمن للهداية لطريق المنعم عليهم، وهم أهل التوحيد، و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٤﴾﴾ (الفاتحة: ٧) هم الذين فارقوا التوحيد.

فالقرآن كله من أوله إلى آخره على هذا النمط؛ بهذا التفصيل كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وأهله، وفي شأن الشرك وأهله وجزائه.

ونفاة الصفات أدخلوا في توحيد الربوبية نفي الصفات؛ فكل المعطلة بأنواعهم ومدارسهم قالوا: إن معنى التوحيد نفي الصفات، وقالوا: إن إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب، و«الواجب» عندهم هو الله، كما أنهم يسمون المخلوق «المُشْكِكِينَ».

فقراراً من ذلك قالوا بنفي الصفات حتى لا يكون «واجب» إلا واحداً، فإنه بزعمهم لو: كان له سمع وبصر وعلم وقدرة؛ لصار الواجب متعدداً، وهذا من أبطل الباطل، وهو من الفساد بِمَحَلِّ ظَاهِرٍ؛ فَإِنَّ إِبْثَاتِ ذَاتِ

مجردة عن جميع الصفات والأسماء؛ لا توجد في الخارج؛ فلا يوجد شيء في الخارج إلا له اسم وصفة، فإذا نفيت الأسماء والصفات عن شخص، فلا يمكن أن يوجد بخالٍ؛ فإذا قلنا: هناك شيء موجود لكن ليس له طول، ولا عرض، ولا عمق، وليس فوق، ولا تحت، ولا خلف، ولا يمين، ولا شمال؛ فهذا الشيء بهذا الوصف؛ لا وجود له إلا في الذهن، وهؤلاء النفاة سلبوا الأسماء والصفات عن الرب، ومعنى هذا: أنهم لم يثبتوا رباً ولا خالقاً في الحقيقة، إنما كل ذلك في الذهن، والعباد بالله.

وقد أفضى هذا التوحيد - بزعمهم - ببعضهم إلى أن وصلوا إلى الحلول والاتحاد - نعوذ بالله - حتى قالوا: إن الوجود واحد، ووقعوا في شر من مذهب النصارى؛ فإن النصارى تحضوا حلول الرب بالمسيح عيسى ابن مريم؛ وهؤلاء الجهمية الغلاة قالوا: إن الله حائل في كل مكان - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - .

فلما وصلوا إلى القول بالحلول والاتحاد، وقالوا: إن الوجود واحد؛ ففرع عن هذا التوحيد - الذي يسمونه توحيداً وهو من أعظم أنواع الشرك - القول بأن الوجود واحد، وقالوا: بأن فرعون على صواب، وأنه مصيب حينما قال: ﴿لَنَا رَبُّكُمْ أَكْثَرُ﴾ [التأزيات: ٢٤]، وقالوا: إن عبادة الأصنام على الحق والصواب، وأنهم إنما عبدوا الله ولم يعبدوا غيره، وقالوا: لا فرق في التحريم بين الأم والأخت والأجنبية، ولا بين الماء والخمر، ولا بين الزنا والكناح.

وقالوا: الكل من عيني واحد، بل هو العين الواحد، ومن فروع مذهب

الاتحادية<sup>(١)</sup> قولهم: إن الأنبياء صيِّقوا على الناس، ويعدوا عليهم المقصود، والأمر وراء ذلك كله؛ فهذا - والعباد بالله - سببه أن هؤلاء أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله، وتركوا كتاب الله وراءهم ظهرياً؛ فتولتهم الشياطين، فقالوا هذه المقالات التي سؤدوا بها الأوراق، وأضلوا بها الناس، وتكلموا بالكفر الصراح - نسأل الله السلامة والعافية - .

(١) هم القائلون باتحاد الخالق بالمخلوق، كقول النصارى في عيسى: اتحد اللاهوت بالناسوت، وكقول الصوفية في بعض أقطابهم. ويسمى بالاتحاد الجزئي، ومنهم من يقول: باتحاد الخالق بجميع المخلوقات، وهذا ما يسمى بالاتحاد الكلي. وهو قرين وحدة الوجود، والفرق بينه وبين وحدة الوجود أن الاتحاد يكون بين شيئين. أما الوحدة فهي قولهم: إن الوجود كله هو الله الإله المعبود، فليس هناك إلا شيء واحد، فلا خالق ولا مخلوق. انظر: «المعجم الفلسفي» لمجمع اللغة العربية القاهرة (٢، ٢٠٩)، و«الموسوعة الميسرة» بإشراف محمد شفيق غريال (٤٥)، و«ديوان ابن الفارض» (٢٨، ٢٩).



معنى قوله تعالى: (ليس كمثله شيء)

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ).

الشرح

• قوله: (وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ).

أي: أن الله ﷻ لا يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ فليس له مثيل - سبحانه وتعالى-؛ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ٢١١)؛ فمن اعتقد أن الله مثيلاً في ذاته، أو مثيلاً في صفاته، أو مثيلاً في أفعاله: فقد كفر؛ لأنه تنقُضُ للرب ﷻ؛ ولأنه لم يثبت واجب الوجود لذاته.

ومن اعتقد الله مثيلاً فهو في الحقيقة لم يعبد الله، وإنما يعبد وثناً صوّره في خياله، ونحته له فكره، وهو من عباد الأوثان لا من عباد الرحمن، وهو مشابه للنصارى في كفرهم؛ ولهذا قال العلامة ابن القيم<sup>(١)</sup>:

لَسْنَا نُشَبِّهُ وَضَعَهُ بِصِفَاتِنَا      إِنْ الْمَشْبَهَ عَابِدَ الْأَوْثَانِ  
وقال<sup>(٢)</sup>:

من شبه الله العظيم بخلقه      فهو النسب بيمشرك نصراني

فمن شبه الله بخلقه فقد شبه النصارى؛ لأن النصارى شبهوا المسيح بالله، وقالوا: هو ابن الله - تعالى الله عما يقولون -، ومن مثَّلَ الله بخلقه؛ فهو في الحقيقة ما عبد الله، وإنما عبد وثناً؛ كما أن من نفى صفات الله

(١) انظر: «الكافية الشافية» (١٣/٢).

(٢) انظر: «الكافية الشافية» (١٣/٢).

وأسماءه فهو في الحقيقة لم يثبت شيئاً، وإنما عبد عدماً لا وجود له .

ولهذا يقول العلماء: المشبه الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً<sup>(١)</sup>، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمدًا، فالممثل المشبه اعتقد أن الله مثيلاً في صفاته، أو في أفعاله؛ فهذا قد عبد وثناً، والذي نفى الأسماء والصفات قال: ليس لله سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة، ولا إرادة، وليس فوق السماوات ولا تحتها، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا مبين له، ولا محايد له، ولا متصل به، ولا منفصل عنه؛ فبذلك عبد عدماً؛ لأنك لو قلت: صيف المعدوم بأكثر من هذا ما استطعت؛ بل إن هذا - والعياذ بالله - أشد من العدم؛ ولهذا فإن المعطل في الحقيقة ما أفاد شيئاً؛ لأنه لا يوجد شيء مسلوب الأسماء والصفات، فكل موجود لا بد له من صفات، حتى الجماد.

ولذلك يكون مذهب أهل السنة والجماعة مذهباً خالصاً صافياً من بين فرث ودم، من بين فرث التعطيل، ودم التشبيه والتثميل.

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (١٤٨/١)

## كمال قدرة الله وانتفاء العجز عنه

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَلَا شَيْءٌ يُعْجِزُ):

### الشرح

بعد أن ذكر الطحاوي ﷺ عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الله، وأنهم يعتقدون أن الله واحد لا شريك له، ولا يماثله شيء من مخلوقاته، قال: (وَلَا شَيْءٌ يُعْجِزُ): فأهل السنة والجماعة وأهل الحق يعتقدون أن الله لا يعجزه شيء؛ لكمال قدرته ﷻ؛ كما قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذا النفي يستلزم إثبات ضده من الكمال؛ وهكذا كل نفي ورد في الكتاب والسنة في حق الرب - عز وجل -، فإنما هو لإثبات ضده من الكمال؛ ليس نفيًا صرفًا ولا محضًا، بل يستلزم إثبات ضده من الكمال؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، فهذا النفي ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]؛ لكمال علمه وقدرته، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَظُنُّ رَحْمَتُكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٤]، فنفي الظلم هنا لإثبات كمال ضده، وقوله: ﴿لَا يَعْزِي عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سجدة: ٣]؛ لكمال علمه، وقوله: ﴿وَلَا يَدْرُسُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لكمال قوته واقتداره، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ بِهِ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لكمال حياته، وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الباق: ١٠٣]؛ لكمال عظمته وجلاله وكبريائه .

وهكذا كل نفي يأتي في الكتاب والسنة؛ فإنما هو لإثبات ضده من الكمال؛ لأن النفي المحض الصرف ليس فيه كمال؛ ولهذا يوصف المعدم بالنفي الصرف المحض، ومن ذلك النفي الصرف المحض قول الشاعر العربي<sup>(١)</sup>:

قُبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ خِيَّةً خَرْدَلٍ  
فَنَفَى عَنْهُمْ الْغَدْرَ، وَنَفَى عَنْهُمْ الظُّلْمَ، لَكِنْ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ مُقْتَدِرُونَ؛ بل المراد بيان ضعفهم؛ وعجزهم؛ بدليل ما قبل البيت وما بعده، وبدليل أنه صغرهم بقوله: (قُبِيلَةٌ)، وهذا التصغير للتحقير؛ فهم لا يغدرون بذمة، ولا يظلمون الناس؛ لضعفهم وعجزهم؛ ونفي الغدر والظلم إنما يكون كمالًا إذا كان مع القدرة؛ أما إذا كان مع العجز فلا يكون كمالًا، كما في قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

لَكِنْ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا  
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

فهو ينفي عن قومه الشر قائلًا: ليسوا من الشر في شيء وإن هانا، ومع ذلك يجزون عن ظلم أهل الظلم مغفرة؛ فإذا ظلّمهم أحد غفروا له، وإذا أساء إليهم أحد أحسنوا إليه، فهذا يكون كمالًا لو كانوا قادرين، لكنهم إن فعلوا ذلك بسبب عجزهم وضعفهم، لم يكن كمالًا في حقهم، وهذا النوع من النفي لا يَرُدُّ في أسماء الله وصفاته، ولا يرد في كتاب الله والسنة؛ لأنه نفي صرف، إنما الذي يَرُدُّ كما تقدّم النفي الذي يستلزم إثبات

(١) هذا البيت للنجاحي من بني الحارث. انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري (١٨٧-١٩٠) و«جمهرة الأمثال» (١/٨١).

(٢) هذا البيت للفريط بن أبي نفي من بني العنبر. انظر: «ديوان الحماسة» (٣-٥).

ضده من الكمال؛ ومضت أمثلة على هذا، كقوله تعالى: ﴿لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مَقَالٌ دَرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سج: ٣]؛ وذلك لكمال علمه، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ وذلك لكمال حياته وقيومته وهكذا.

والنصوص في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ جاءت في باب الأسماء والصفات بالإثبات المفصل وبالنفي المجمل، فنفي النقائص والعيوب عن الله يأتي مجملًا؛ كقوله سبحانه: ﴿حَلَّ تَعَالَى سُبْحَانَهُ﴾ [نجم: ٢٥]، وكقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٢٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا بَيْتَ الْأَنْتَانِ﴾ [الحج: ٢٧٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَ أَنْكَادَا﴾ [البقرة: ٢٢].

أما الإثبات فإنه يأتي مفصلاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وكقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سج: ٢٦]، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْمَزِيدُ الْكَرِيمُ الضَّعِيفُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو الْكَرَمِ الْحَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٢٢-٢٤].

أما أهل الكلام وأهل البدع فعمسوا، حيث أنوا بإثبات مجمل ونفي مفصل؛ فإذا أرادوا أن ينفوا النقائص عن الله يأتون بالتفصيل، فيقولون: ليس بذي جثة، وليس بذي أعضاء، وليس بلون، ولا رائحة، ولا طعم، ولا كذا، ولا كذا، ولا لحم، ولا دم، ولا عرق، إلى آخره. فهم يفضلون في نفي النقائص والعيوب.

أما الإثبات فإنهم يأتون فيه بإثبات مُجْمَلٍ، فعكسوا بهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، وهذا النفي المفصل مع كونه مخالفاً للكتاب والسنة ففيه

إساءة أدب مع الله - عز وجل -؛ فإن الأدب والكمال أن تنفي النقائص إجمالاً ولا تعددها؛ فمثلاً - والله المثل الأعلى - لو أراد إنسان أن يمدح أميراً، أو ملكاً، أو رئيساً فيقول له: أنت لست بخياط، ولست بحجام، ولست بأعور، ولست بكذا؛ فهذا المادح يؤذّب ويعزّر وإن كان صادقاً؛ لأنه أساء المدح، فبدلاً من أن يمدح صار يذم وهو لا يشعر، وإن كان في ذلك كله صادقاً.

وإنما الكمال أن تأتي بالنفي المجمل؛ فنقول: أنت لست مثل أحد من رعبتك، بل أنت أعلى وأجل وأكمل، فهذا يكون مدحاً؛ وإذا كان هذا في حق المخلوق؛ فهو في حق الخالق أولى.

وقد يأتي النفي مفصلاً للرد على أهل البدع<sup>(١)</sup>، كقوله ﷺ: ﴿لَمْ يَكُنْ سَكِينٌ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]؛ للرد على الكفرة الذين نسبوا الولد إلى الله، فينبغي للمسلم أن يعلم ما دل عليه الكتاب والسنة، وأن يحذو حذوهم، وأن يحذر طريقة أهل البدع.

(١) انظر لتقرير هذه القاعدة الجلية «مجموع الفتاوى» (٤٧٨/٢-٤٧٩)، و (٣٧/٦)، ٦٦، ٥١٥، و (٤٨٠/١١)، و (١١١/٢٠)، و (١٢٦)، و «مناهج السنة» (١٥٦/٢)- (١٥٧، ١٨٥، ٥٦٢)، و «دره المعارض» (١٦٣/٥)، و (٣٤٨/٦)، و «الصفدية» (١/ ١١٦)، و «الصواعق المرسلة» (١٠٠٩/٣).

## كلمة التوحيد لا إله إلا الله

قَالَ الْمُؤَلَّفُ كَلِمَةً (وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ):

### الشرح

هذه هي كلمة التوحيد التي بعث الله بها المرسلين، وأنزل الله من أجلها الكتب، ولأجلها خلق الخلق، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا إِلَهِي فَكُفِّرْ﴾ [الزمر: ٢٦-٢٧]؛ فقولهُ: ﴿إِنِّي بَرَأةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزمر: ٢٦] هذا هو النفي، وقولهُ: ﴿إِلَّا إِلَهِي فَكُفِّرْ﴾ [الزمر: ٢٧] هذا هو الإثبات.

فإثبات التوحيد إنما هو بالنفي والإثبات المقتضي للحصر.

ولهذا لما قال ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَحَدٌ وَحْدَهُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال بعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَرَضَمَنَ الرَّجِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ لأن الإثبات وحده يتطرق إليه الاحتمال؛ فقد يخطر خاطر شيطاني فيقول قائل: إذا كان إلهنا الله، فهل لنا إله غيره؟

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَحَدٌ وَحْدَهُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم قال بعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَرَضَمَنَ الرَّجِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فليس هناك توحيد إلا بنفي وإثبات؛ وذلك التوحيد لا يكون إلا بكفر وإيمان، يعني: كُفْرًا بالطاغوت، وإيمانًا بالله عز وجل؛ فلا (إله)؛ هذا كُفْرٌ بالطاغوت، و(لا إله)؛ هذا إيمانٌ بالله؛ ولذلك نقول: التخلية ثم التحلية.

و(لا إله إلا الله): (لا نافية للجنس، و(إله) اسمها، والخبر محذوف، والتقدير: (لا إله حق إلا الله، والإله معناه: المعبود، أي: لا معبود بحق إلا الله).

وهذه الكلمة كلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إلا بتحقيق شروطها التي دلت عليها النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ ومنها:

### العلم المنافي للجهل

قال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [مائدة: ١٧٩]؛ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

ولهذا قال البخاري كَلِمَةً في «صحيحه»: (باب: العلم قبل القول والعمل)، ثم استشهد بهذه الآية: ﴿قَاتِلُوا اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [مائدة: ١٧٩] وقال - سبحانه -: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَاءَ يَأْتِي وَهْمٌ يُغْوِي﴾ [الزمر: ٨٦].

فلا بد من أن تعرف الشيء الذي تنفيه، والشيء الذي تثبته، فلا إله إلا الله تنفي الألوهية عن غير الله وتثبته؛ فهي تنفي جميع أنواع العبادة لغير الله وتثبته لله - عز وجل -، والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي كل ما أمر به الشرع ونهى عنه الشرع.

فكل ما أمر به أمرٌ إيجاب أو استحباب؛ لا بد أن يُمثَّل، وكل ما نهى عنه نهيٌ تحريم أو تنزيه؛ لا بد أن يُترك، هذه هي العبادة؛ طاعة الله، وإخلاص له.

#### اليقين:

فلا بد أن يقولوا عن يقين منافي للشك والريب، فإن قالها وعنده شك وتردد في أن الإله المعبود بحق هو الله ﷻ فلن تنفعه هذه الكلمة.

#### الصدق:

فلا بُدُ لقائلها من الصدق المنافي للنفاق؛ فإن المنافقين يقولونها بالسنتهم، وقلوبهم مكذبة، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ الْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨]، أي: يقولون ذلك بالسنتهم، ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] أي: بقلوبهم، وقال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّثُونَ قَالُوا نَنبَأُكَ رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِّثِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١٩].

#### الإخلاص:

فلا بُدُ لقائلها من الإخلاص المنافي للشرك. فإذا قال: «لا إله إلا الله» ولم يخلص أعماله لله؛ بطلت هذه الكلمة وانتقضت؛ فالشرك ينقضها ويحبط جميع الأعمال. قال سبحانه: ﴿لَئِن شَرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَجْماً مُّنِيرًا﴾ [الشورى: ٢٦].

ومثال ذلك: كمن توضأ وأحسن الوضوء، وتطهر وأحسن الطهارة، ثم أحدث، كان خرج منه بول أو غائط أو ريع؛ فهذا قد بطلت طهارته، فكذلك كلمة التوحيد إذا قالها عن غير إخلاص؛ صار في عمله شرك.

#### المحبة لها ولأهلها:

فلا بُدُ له من المحبة لهذه الكلمة ولأهلها، والسرور بذلك.

#### الانقياد:

فلا بُدُ له من الانقياد لحقوقها؛ بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

#### القبول:

ولا بد له أيضاً من القبول المنافي للترك؛ فقد يقولها بعض الناس، لكن لا يقبلها مِنُّ يُدْعَوْنَ إليها؛ تعصياً وتكبّراً، فهذا لا تنفعه هذه الكلمة. فإذا وُجدت هذه الشروط؛ فإن هذه الكلمة تكون صحيحة، وقد قالها قائلها عن تحقيق، أما مَنْ قالها مع فقدان هذه الشروط؛ فإنها لا تنفعه.

كذلك: لا بد أن يوحد الله في ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، وفي ألوهيته وعبادته كما سبق؛ فإن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، وكلها مطلوبة، فمن لم يأت بنوع من هذه الأنواع؛ فلا يصح التوحيد منه؛ ومن لم يوحد الله في ربوبيته فهو كافر ولو زعم أنه عابد، ولا يمكن أن يعبد الله وهو لا يوحد في ربوبيته؛ كذلك: من زعم أنه يوحد الله في أسمائه وصفاته، ولكنه لم يوحد الله في عبادته؛ لم يكن موحدًا، وهكذا.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ أي: أَنَّ مَنْ عَبَدَ الله، وأخلص التعلق بالله - عز وجل -؛ فلا بد أن يكون قد وُحِدَ الله في ربوبيته؛ لأنه إنما عَبَدَ الله؛ لاعتقاده أن الله هو الخالق، الرازق، المدبر، المحيي، المميت، الذي بيده النفع والضر.

أما توحيد الربوبية فإنه مستلزم لتوحيد الألوهية؛ أي: أَنَّ مَنْ وُحِدَ الله

في ربوبيته، واعتقد أن الله هو الخالق، الرازق، المدبر، المحيي، المميت، فإن هذا الاعتقاد وهذا التوحيد، يوجب له أن يوحد الله في ألوهيته.

لكن ليس كل فرد يلتزم بما لزمه؛ فإن الدلالات عند العلماء من أهل الأصول لها ثلاثة أنواع<sup>(١)</sup>:

١- دلالة التضمن: وهي دلالة الشيء على جزء معناه أو على بعض معناه.

٢- دلالة الانترام: وهي دلالة الشيء على خارج معناه.

٣- ودلالة المطابقة: دلالة الشيء على جميع معناه.

فمثلاً مَنْ عِبَدَ الله؛ فإنه وُحِدَ الله في ربوبيته، ووحد الله في ألوهيته، فتكون دلالة توحيد العبادة دلالة مطابقة، لأنه دل على جميع معناه؛ لأن توحيد العبادة يشمل أمرين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

ودلالة توحيد العبادة على توحيد الربوبية دلالة تضمن؛ لأنه يدل على جزء معناه، فتوحيد الربوبية جزء من معنى توحيد الألوهية.

أما دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية فهي دلالة التزام؛ لأنه خارج عن معناه؛ مثل دلالة التوبة على التائب؛ فالتوبة غير التائب، ودلالة الوالد على الولد؛ فالولد غير الوالد لأنه شيء خارج عنه؛ فتوحيد الربوبية غير توحيد الألوهية.

وبعض أهل الكلام كالأشاعرة وغيرهم أخطؤوا في تقدير الخبر المحذوف من كلمة التوحيد، فقالوا: «لا إله موجود إلا الله»، وفسروا الإله

(١) انظر: «الإحكام» للأمندي (٣٦/١، ٣٧)، وآداب البحث والمناظرة (ص١٣).

بالخالق، وهذا خطأ، لأنه لو كان المعنى: لا خالق إلا الله؛ لما حصل نزاع بين النبي ﷺ وكفار قريش، ولما حصل نزاع بين الرسل وأممهم، لأن الأمم يُزَوَّرُونَ بأنه لا خالق إلا الله.

فلا يتبين عظمة هذه الكلمة إلا بتفسير (الإله) بالمعبود، فتقدير الخبر المحذوف «بحق»؛ هو الصحيح، فيكون المعنى: لا معبود بحق إلا الله؛ وبهذا يتبين عظمة هذه الكلمة؛ لأن الآلهة موجودة، ولكنها آلهة باطلة، وإنْ عُبِدَتْ؛ فبالباطل، قال سبحانه: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ مَتْنٍ لَنَا جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ (نور: ٢١٠)، فهم لهم الهة، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكَافِرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦) وَلَا أَغْنَىٰ مَا تَعْبُدُونَ (١٠٧) وَلَا أَنتَ عَائِدُونَ (١٠٨) وَلَا أَنَا عَائِدٌ مَا عَدْتُمُ (١٠٩) وَلَا أَنتَ عَائِدُونَ مَا عَدْتُمُ (١١٠) لَكُمُ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (١١١) (الكافرون: ١-٢).

فاليهود لهم معبود؛ وهو العزير، والنصارى لهم معبود؛ وهو المسيح، والكافرون يعبدون الأصنام والأوثان؛ وجميع الكفرة لهم معبودات لكنها باطلة، لكن المعبود بحق هو الله، وما سواه فهو باطل، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ فَوْا تَعْلَمُ وَأَنَّكَ مَا تَشْعُرُونَ مِنْ دُونِهِ، هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج: ٢٢).

فالكفار لهم دين، لكنه دين باطل؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿لَكُمُ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٢٦)، وحكى الله عن أهل الكتاب أنهم قالوا: ﴿وَلَا تُفَضِّلُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران: ٧٧)، فلهم دين لكنه دين باطل، والدين الحق هو دين الإسلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَةَ عِنْدَ اللَّهِ لَإِسْلَامُكُمْ﴾ (آل عمران: ٨٦).

فتفسير الإله بالخالق؛ تفسير باطل؛ لأنه لو كان الإله هو الخالق؛ لما حَصَلَ خلاف وقتنا بين الأنبياء وبين أمتهم.

## صَفَاتُ الْقَدَمِ وَالْبَقَاءِ

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ):

## الشَّرْحُ

(قديمٌ): قوله: كلمة «القديم» كل ترد في أسماء الله، وإنما أحدها أهل الكلام، إنما الذي ورد «الأول» و «الآخر»، وهما اسمان لأزلية الله وأبدية، فلما رأى الطحاوي هذا؛ قيده فقال: (قديمٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتهاء): ف«قديم بلا ابتداء» تساوي اسمه «الأول»، و «دائم بلا انتهاء» تساوي اسمه «الآخر».

وأهل السنة والجماعة لا يسمون الله بأنه «القديم»؛ لأن الأسماء والصفات توقيفية؛ أي: أننا نفق على ما ورد في الكتاب والسنة فثبتته لله، وما ورد في الكتاب والسنة نفياً عن الله؛ فإننا نفية عن الله.

وما لم يرد في الكتاب والسنة نفياً ولا إثباتاً فتوقف في إطلاقه: مثل الجسم، والحيز والعرض<sup>(١)</sup>.

(١) قال شيخ الإسلام: «الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين، مثل لفظ «الجسم» و«الجوهر» و«التحيز» و«الجهة» ونحو ذلك، فلا تطلق نفياً ولا إثباتاً، حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان قد أراد بالنفي والإثبات معنى صحيحاً موافقاً لما أخبر به الرسول، صُوب المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بالألفاظ النصوص، لا يُعَدَّلُ إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة إلا عند الحاجة، مع قرأتين تبيين المراد بها، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، وأما إن أُريدَ بها معنى باطل، نُفي ذلك المعنى، وإن جُمع بين حق وباطل، أثبت الحق وأبطل الباطل». «مناهج السنة» (٥٥٤/٢)، وانظر (٦١١/٢). وانظر «الدرة» (١/٢٢٣)، و(٢٢٩، ٢٤٢)، و«الفتاوى» (٢٢٩/٥)، و(٣٦/٦)، و(٤٢٦/١٦)، و(٣٠٤/١٧).

فقول الطحاوي: «قديم، ودائم»، فهذا ليس من الأسماء<sup>(١)</sup>.

وليس لنا حاجة بها، وإنما كنفتي بما ورد في الكتاب والسنة، فنقول: الله الأول والآخر؛ كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ يَكُونُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التحيد: ٣]، وثبت في «صحيح مسلم» الدعاء المشهور أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، قَالِقِ الْخَبِّ وَالنُّوَى، وَمُنْزِلِ الْفُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»<sup>(٢)</sup>.

هذا الحديث فيه: إثبات أربعة أسماء لله - عز وجل -: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهذه الأسماء الأربعة؛ كل اسمين منها

(١) قال الشيخ ابن باز في تعليقه على الطحاوية: «هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله الحسنى، كما نبه عليه الشارح رحمه وغيره، وإنما ذكره كثير من علماء الكلام، ليشبوه به وجوده قبل كل شيء، وأسماء الله توقيفية لا يجوز إثبات شيء منها إلا بالنص من الكتاب العزيز أو السنة الصحيحة، ولا يجوز إثبات شيء منها بالرأي، كما نص على ذلك أئمة السلف الصالح لفظ القديم لا يدل على المعنى الذي أراده أصحاب الكلام؛ لأنه يقصد به في اللغة العربية: المتقدم على غيره، وإن كان مسبوقاً بالعدم، كما في قوله: ﴿يَكُنْ عَاذَ كَلَمْثٍ حَبِيرٍ الْقُدِيرُ﴾ [يس: ٢٣٩]، وإنما يدل على المعنى الحق بالزيادة التي ذكرها المؤلف وهو قوله: (قديمٌ بلا ابتداء)، ولكن لا ينبغي عده في أسماء الله الحسنى؛ لعدم ثبوته من جهة النقل، ويعني عنه اسمه سبحانه الأول، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [التحيد: ٣] الآية. والله ولي التوفيق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مقابلان؛ فالأول والآخر: مقابلان، والظاهر والباطن: مقابلان .

فالأول والآخر: اسمان لأزليته وأبديته؛ ولهذا فسرها النبي ﷺ في هذا الحديث فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>.

والظاهر والباطن: اسمان لعلوه وفوقيته، فلا يحجبه شيء من المخلوقات؛ ولهذا قال: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، فهو الظاهر؛ لأنه ﷻ فوق السموات، وفوق العرش مستو على عرشه بائن من خلقه.

وهو الباطن الذي لا يحجبه شيء من المخلوقات، يرى كل شيء، ويبصر كل شيء ﷻ، ولا يخفى عليه شيء من خلقه؛ من أعمالهم وسكناتهم وحركاتهم. ووضف الله بالأول والآخر معلوم مستقر في الفطر؛ فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل؛ فإننا نشاهد حدوث الحوادث من النبات والحيوان والمعادن، وحوادث التحول وغيرها.

وهذه المخلوقات ليست ممتعة؛ لأن الممتنع لا يمكن أن يوجد؛ وهي قد وُجدت، وليست واجبة الوجود لذاتها؛ لأنها كانت معدومة ثم وُجدت فدل على أن وجودها جائز ليس ممتنعاً؛ لأنها وُجدت، والممتنع لا يوجد.

وهذا المخلوق الذي يوجد بعد أن كان معدوماً لا بد له من موجد يوجد، وإلا بقي معدوماً؛ كما قال سبحانه: «لَمْ يَخْلُقْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

(١) هو قطعة من الحديث السابق

الْخَلْقُونَ»<sup>(٢)</sup> [المطهر: ٣٥]، أي: حدثوا من غير شيء أم هم أحدثوا أنفسهم؟

وأما اسم «القديم» فمع أنه لم يرد في الكتاب والسنة إلا أنه لا يفيد التقدم على كل شيء، وإنما يفيد التقدم تقدماً نسبياً؛ كما قال ﷻ: «حَيُّ كَادَ كَالْمُحْيِي الْقَدِيرِ» [يس: ٣٩]، فالعرجون القديم لا يسمى قديماً إلا إذا وجد العرجون الجديد، لكنه ليس متقدماً على كل شيء .

وقال ﷻ: «قَالَ أَزْوَاجُ مَا كَثُرَ تَعْبُدُونَ»<sup>(٣)</sup> أَنْتُمْ وَبَابُكُمْ الْأَقْدَمُونَ» [الحجرات: ٧٥-٧٦]، و«الْأَقْدَمُونَ» مبالغة في القديم؛ وقال سبحانه: «فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ فَرِيحٌ» [الاحقاف: ١١]، ومنه سُمِّيَ قَدَمُ الْإِنْسَانِ قَدَمًا؛ لأنها تتقدم بدن الإنسان؛ والفعل يأتي متعدداً ولازماً؛ يقال: أخذني ما قدم وما حدث، ويقال: قَدَّمَ هذا يَقْدُمُهُ يعني يتقدمه، وقال سبحانه في فرعون: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ» [مؤد: ٩٨]؛ أي: يتقدمهم في النار.

ومنه: قول «القديم والجديد في الشافعي»؛ فالقول القديم: ما أخذ به في العراق؛ والقول الجديد: ما أخذ به في مصر، فسمي القديم بالنسبة للقول الجديد.

فالمقصود: أن كلمة القديم لا يراد بها التقدم على كل شيء، وإنما تفيد التقدم النسبي، بخلاف الأول كما تقدم .

ولا يرد على هذا: كون الجنة والنار باقيتين، وكون الناس إذا بُعِثُوا يبقون؛ لأن وجودهم إنما بإيجاد الله لهم؛ ولأن بقاءهم بإبقاء الله لهم.



## الإقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ):

## الشرح

قوله: (لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ)

أي: الله ۞؛ وهذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (الحديد: ٢٣) وتأكيده لقول المؤلف: «قَدِيمٌ بَلَا أَيْدَاءَ، دَائِمٌ بَلَا أَنْهَاءَ».

فالله سبحانه وتعالى لا يفنى ولا يبِيدُ؛ فهو ۞ الباقي؛ أي: الذي لم يزل ۞ ولا يزال ولا يتطرق إليه الغناء، ولا التغير، ولا البلاء؛ لأن حياته كاملة ۞ فهو الحي القيوم .

والغناء والتبديد متقاربان؛ فهذا تأكيد لكونه ۞ هو الأول، وهو الآخر، وهو الحي القيوم الذي لا يتطرق إليه ضعف، ولا نوم، ولا سِنَة؛ لأنه كامل - سبحانه وتعالى - بخلاف المخلوق فإنه يفنى، ويبِيدُ، ويَزُولُ، ويضعف، ويمرض، ويتفرد، ويموت، أما الله ۞ فهو الموصوف بصفات الكمال الذي لا يتطرق إليه نقص في وجه من الوجوه.

## كل ما يحدث في الكون فهو بإرادته سبحانه

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ):

## الشرح

هذا فيه إثبات الإرادة، وكل ما يكون في هذا الكون فإله أرادته؛ لأنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد؛ لأن الله هو المالك، المدبّر، المسيّر، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد من الذوات والصفات والأفعال.

وأراد الطحاوي ۞ أن يرد على القَدَرِيَّة<sup>(١)</sup> من المعتزلة الذين يقولون: إنه يقع في ملك الله شيء لا يريده الله، وإن الله تعالى أراد الإيمان من الناس كلهم، ولكن الكافر والمعاصي أرادوا الكفر والمعصية، فوقع الكفر، والله لا يريد الكفر، ووقعت المعاصي، والله لا يريد المعاصي.

فألزَمهم أهل السنة والجماعة بأنه إن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ فهذا يلزم منه تنقُص الرب عز وجل، وأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله تعالى وإن كان أراد وقوع الكُفْر والمعاصي كَوْنًا وَقَدَرًا، لكنه لا يريدُها دينًا وشرعًا، ولا يحبها، ولا يرضاها، ولا يأمر بها، بل ينهى عنها، ويغضها، ويسخطها، ويكرها.

(١) سموا بذلك؛ لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالًا فأنتوا خالقًا مع الله، ولذا ساءهم النبي ۞ مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين: النور والظلمة، وهم يزعمون أن الله ۞ قدر على مقدرات غيره، وهذا هو مذهب المعتزلة في القدر. انظر: «الملل» ج١/ (١/ ٥٤)، «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» (٢٦، ٢٧)، «وعون المعبود للعظيم أبادي مع شرح ابن القيم (١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣)».

ولهذا يقسم أهل السنة والجماعة الإرادة إلى قسمين:

الأول: إرادة كونية، قَدَرِيَّة، خَلْقِيَّة.

الثاني: إرادة دينية شرعية أمرية.

فالأولى: ترادف المشيئة؛ وهي مشيئة الشاملة لجميع الموجودات والحوادث.

والإرادة الثانية: متضمنة للمحبة والإرادة، ولكل نوع من النوعين أدلة من الكتاب العزيز ومن السنة<sup>(١)</sup>.

فمن أدلة الإرادة الكونية القَدَرِيَّة الخَلْقِيَّة: قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشْرِحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدْ أَنْ يَضَلِّهِ يَغْمِصْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرِيكًَا كَلَّا نَسْتَأْذِنُكَ فِي الْمَثَلَةِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهذه إرادة كونية قَدَرِيَّة، فمن أراد الله أن يهديه للإسلام شرح صدره، ومن أراد أن يضلّه جعل صدره ضيقًا حَرِيكًَا.

ومن الأدلة: قول الله تعالى عن نوح -عليه الصلاة والسلام- أنه قال لقومه: ﴿لَا تَتَّبِعُوا نَفْسِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُصْحِبَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤَيِّدَ لَكُمْ هُوَ رَزَقَكُمْ وَلِيَّوْا تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، فهذه إرادة كونية؛ فقوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤَيِّدَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] يعني: كونًا وقدرًا.

ومن الأدلة قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

أما أدلة الإرادة الدينية والشرعية فممنها: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ١٨٠-١٨٣)، و(٥/ ٣٦٠، ٤١٤، ٤١٣)، و(٧/ ٧٢، ٧٣)، ومادراج السالكين (١/ ٢٦٨-٢٦٩)، و«مغشاه الليل» (٧٦٧/٢).

يُصْحِبُ الْإِنْسَانَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ يعني: دينًا وشرعًا، وقول الله عز وجل: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُثَبِّرَكُمْ وَلِيُذَكِّرَ عَلَيْكُمْ فَكَلِمَاتُكَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّرَ لَكُمْ وَيُذَكِّرَ سُنَنَ الْكَلْبَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُثَبِّرَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢١]، والله يُرِيدُ أَنْ يُثَبِّرَ عَلَيْكُمْ وَيُذَكِّرَ الْكَلْبَيْنِ الْكَلْبَيْنِ أَنْ يَقْبَلُوا مَبَلًا عَظِيمًا [٢٢] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلْقَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا [٢٣] [البقرة: ٢٦-٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فأهل السنة والجماعة جمعوا بين النصوص فقسّموا الإرادة إلى قسمين، ولم يقسّموها من عند أنفسهم، إنما أخذوا هذا من النصوص.

فالإرادة الكونية القَدَرِيَّة هي المذكورة في قول المسلمين: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

وَأَمَّا الإرادة الدينية الشرعية؛ فهي مذكورة في قول الناس: (هذا يفعل ما لا يريد الله)؛ أي: يفعل ما لا يحبه الله؛ ولهذا لو قال الإنسان: والله لأفعلن كذا - إن شاء الله - ثم لا يفعل لا يحنث، حتى ولو كان الذي لم يفعله واجبًا أو مستحبًا؛ فلو قال: والله لأصلين الضحى - إن شاء الله - ثم لم يصل: لا يحنث؛ لأنه تعلق بالمشيئة، لكن لو قال: والله لأصلين الضحى إن أحب الله؛ ثم لم يصل، فعليه كفارة يمين؛ لأن الله يحب أن يصلي الضحى.

أما المعتزلة والقَدَرِيَّة فما عندهم إلا إرادة واحدة، وهي الإرادة الدينية الشرعية، فهذه هي التي أثبتوها، لكنهم غمّوا عن الإرادة الكونية فضلوا سواء السبيل.

والجبرية<sup>(١)</sup> ليس عندهم إلا إرادة واحدة، وهى الإرادة الكونية؛ وأنكروا الإرادة الدينية الشرعية فضلوا أيضاً .

وأهل السنة والجماعة: أخذوا أدلة القدرية والمعتزلة التي يثبتون فيها الإرادة الدينية الشرعية وقالوا: هذه حق، وأخذوا الأدلة التي أثبتتها الجبرية في الإرادة الكونية وقالوا: هذه حق، وقالوا: كل شيء في هذا الوجود أَرَادَهُ اللهُ كَوْنًا وَقَدَرًا؛ الكفر والمعاصي وغيرها، ولكن له الحكمة البالغة في ذلك، لكنه لا يريد الكفر والمعاصي دينًا وشرعًا، ولا يحبها بل يبغضها وينهى عنها، ومن جكّمه وأساراه من إيجاب الكفر والمعاصي: ظهورُ قدرة الله على إيجاب المتقابلات والمتضادات، فالكفر يقابل الإيمان، والمعصية تقابل الطاعة؛ كما أن الليل يقابل النهار.

ومنها: ظهور العبوديات المتنوعة كعبودية الجهاد في سبيل الله، وعبودية الولاء والبراء، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلو لم يكن هناك كفر ولا كفار ولا عصاة، فكيف تكون هناك عبودية الجهاد في سبيل الله؟ وعبودية الولاء والبراء؟ وعبودية الحب في الله والبغض في الله؟ وهكذا؟

ومنها: انقسام الناس إلى شقي وسعيد، وإلى مؤمن وكافر؛ ولأن الله

(١) سموا بذلك نسبة إلى الجبر، فهم يقولون: إن العبد مجبور على فعله فهو كالريشة في مهب الريح ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل، ومن قال بهذا الجهم بن صفوان. وهم أصناف: الجبرية الخالصة وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً.

والجبرية المتوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٠٣)، و«الملل والنحل» (١٠٨/١)، و«رسالة في الرد على الرافضة» (١٦٩، ١٧٠).

تعالى خلق للجنة أهلها ووعدهم بها، وخلق للنار أهلها ووعدهم بها.

وفي الحديث أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: «أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِلُغَاهُ...»<sup>(١)</sup>.

فهذه جكّم وأسار قدرها الله تعالى لا لذاتها؛ بل لما يترتب عليها من الجكّم، وكون الكفر والمعاصي سببان ضرراً على الأشخاص الذين قدر عليهم، فهذا ضرر نسبي لا يضاف إلى الله، والذي يضاف إلى الله إنما هو الخلق، والإيجاد، والتقدير.

وهذا الخلق والإيجاد مبني على الحكمة؛ فلا يسمى شرًا بالنسبة إلى الله، ولكن يسمى شرًا بالنسبة إلى العبد الذي أضره وأساء إليه، أما بالنسبة إلى الله فلا يضاف إليه إلا الخلق والإيجاد والتقدير، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»<sup>(٢)</sup>.

فالمقصود: أن قول المصنف رحمه الله: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ) يبين معتقدات أهل السنة والجماعة في إثبات الإرادة الكونية الشاملة والرّد على المعتزلة الذين أنكروا الإرادة الكونية القدرية، وأنهم ضلوا بذلك؛ كما أن

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري رحمه الله، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي رحمه الله، وورد هذا الحرف أيضاً من حديث حذيفة رحمه الله عند النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٩٤)، وابن أبي شعبة في «المصنف» (٣٤٨٠٠)، والبيهقي في «مسنده» (٢٩٢٦)، والطبراني في «مسنده» (٤١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٧٨/١)، واللائكاني في «السنة» (٢٠٨٦)، وابن منده في «الإيمان» (٨٧٢/٢). وصححه، والحاكم (٣٩٥/٢) تحقيق: مصطفى عبدالقادر. وصححه الحاكم، والحافظ ابن حجر كما في «فتح الباري» (٣٩٩/٨).

الجبرية أنكروا الإرادة الشرعية، وضلوا في عدم إثباتهم الإرادة الدينية الشرعية .

وهدى الله أهل السنة والجماعة: فأثبتوا الإرادة بنوعيها، وعملوا بالنصوص من الجانبين ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ٢١٣). أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

معرفة البشر ربهم بأسمائه وصفاته  
وعجزهم عن الإحاطة بكنهه وحقيقته

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: ( لَا تَبْلُغُوا الْأَوْهَامَ، وَلَا تُدْرِكُوا الْأَفْهَامَ ):

#### الشرح

الأوهام: جمع وَهْم وهو الظن، والأفهام: جمع فَهْم وهو العلم، ولهذا يقول أهل اللغة: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته.

والمعنى: أن الله ﷻ لا يبلغه الوهم، ولا يحيط به علم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢١٣)؛ أي: لا يعلمون كنهه وحقيقته، وإنما يعلمونه بأسمائه وصفاته، لا كما يرونه يوم القيامة، وهذا يدل على كماله وعظمته ﷻ.

## تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته

◆ قَالَ الْقَوْلُ: ﷻ: (وَلَا يُشَبِّهُ الْأَنَامُ):

## الشرح

الله ﷻ لا يشبهه أحد من الأنام، والآنم: هم الناس، وهذا المعنى هو الأقرب والأفضل؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَمِمَّا يَلْتَأُونَ﴾ [الرحمن: ١٠]، وقيل: المراد بهم الثقلان الجن والإنس، وقيل: المراد بهم كل ذي روح، والمعنى: لا يشبه أحدًا من خلقه.

وأراد المصنف: الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، ويغفلون في الإثبات؛ فيقول أحدهم: علم الله كعلم المخلوقين، وقدرته كقدرتهم، وسمعه كسمعهم، واستواؤه كاستوائهم.

وهذا هو مذهب المشبهة، والغالب أن المشبهة من غلاة الشيعة، وأول من قال إن الله جسم: هشام بن الحكم الرافضي<sup>(١)</sup>، وبيان بن سحسان التميمي<sup>(٢)</sup> الذي تنسب إليه البيانية من غالية الشيعة؛ وكان يقول: إن الله

(١) هو هشام بن الحكم البغدادي الكندي هشام بن الحكم الشيباني بالولاء، الكوفي، أبو محمد. ولد بالكوفة، ونشأ بواسط، وسكن بغداد. متكلم مناظر، كان شيخ الإمامية في وقته، وهو من الشيعة الإمامية الذين غالوا في التجسيم والتشبيه، وإليه تنسب فرقة الهشامية. توفي بعد نكبة البرامكة ١٨٧هـ بمدة يسيرة، وقيل: بل في خلافة المأمون ١٩٨هـ-٢١٨هـ. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/١٦٤-١٦٦)، و«الفرق بين الفرق» لعبد الفاهر البغدادي (١٩، ٣٤، ٤١، ٤٢، ٦٧، ١٣٩)، و«الأعلام» للزركلي (٨/٨٥).

(٢) بيان بن سحسان التهذي التميمي، ظهر بالعراق بعد المائة. وزعم أن معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان في أعضائه، وأنه يفتي كله إلا وجهه، وهو من الغلاة =

على صورة الإنسان.

ومن المشبهة هشام بن سالم الجواليقي<sup>(١)</sup>، وداود الجواربي<sup>(٢)</sup>، ومذهبهم الغلو في الإثبات حتى أدخلوا في ذلك ما نفاه الله ورسوله.

حتى أثبتوا أن الله يرى في الدنيا بالآبصار، وأنه يُصَافَح ويعانق، ويحاصر ويسامر، وينزل عتبة عرفة على جمل، وقال بعضهم: إنه يندم ويحزن ويبكي-تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- شابهوا اليهود في هذا، وهؤلاء ما قدروا الله حق قدره، قال ﷻ: ﴿وَمَا تَكْذِبُوا اللَّهَ عَنْ قَدِيرٍ وَالْكَرِشُ جَبِيمًا فَتَسْتَكْبِرُونَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٧].

وثبت في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللَّهَ يَضَعُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْفَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ خَلْقِهِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْرُغُنَّ بِيَدِهِ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»<sup>(٣)</sup>.

= القائلين بالهبة أمير المؤمنين علي ﷻ، وتنسب إليه فرقة البيانية. قتله خالد بن عبد الله القسري. انظر عنه وعر فرقه «المقاتل» للأشعري (١/٩٥)، و«الملل والنحل» (١/١٣٦)، و«الفرق بين الفرق» (٢٧، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٦٣).

(١) هشام بن سالم الجواليقي الجعفي الملاف، من الإمامية المشبهة.  
(٢) قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/٤٢٧): «رأس في الروافض والتجسيم من مرامي جهنم قال أبو بكر بن أبي عوف: سمعت يزيد بن هارون يقول: الجواربي والمرعسي كافران»، وقال السمعاني في «الأنساب» (٥/٦٤٣) بعدما ذكر هشام الجواليقي: «وعنه أخذ داود الجواربي قوله: إن عموه له جميع أعضاء الإنسان إلا الفرج واللمحية». انظر: «الملل والنحل» (١/١٦٧)، و«الفرق بين الفرق» (١٤٠)، و«تليس إبليس لابن الجوزي» (٨٧).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٧٥١٣)، وسائر المواضع في البخاري لم يرد فيه قوله: «يهزغن» إلا في موضع هذا المحال إليه، وأخرجه بنحوه أيضاً: عسلم (٢٧٨٦)، =

وفي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَحَزْرَكْلِكُمْ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»<sup>(١)</sup>، ومعلوم: أن الإنسان إذا كان في يده خردلة؛ فهو مسيطر عليها؛ مستو عليها، إن شاء قبضها، وإن شاء جعلها تحتها، فكيف يقول هؤلاء الكفرة: إن الله ينزل عشية عرفة على جَبَلٍ، وتكون السماء فوقه والأرض تحته؟ -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - .

والتشبيه مذهب باطل قد جاءت النصوص بنفيه وإبطاله، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، وقال سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ لَكُمْ آيَاتٌ فِي أَنْفُسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَدِلِينَ﴾ [النحل: ٦٤] ، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَقْرَأُوا لِلَّهِ أَكْثَنًا مِّنْ ذِكْرِهِ﴾ [البقرة: ٢٢] ، ومن شبه الله بخلقه -واعتقد أن الله يشبه المخلوقات- فهو في الحقيقة لم يعبد الله على الحقيقة، وإنما يعبد وثناً صَوَّرَهُ خياله، ونحته له فِكْرُهُ؛ فهم من عباد الأوثان، لا من عباد الرحمن.

ومن شبه الله بخلقه فقد شابه النصارى؛ وكما أن الله لا يشبه أحداً من خلقه، فهو لا يشبهه أحدٌ من خلقه، ومذهب المشبهة عكس مذهب النصارى؛ فالمشبهة شبهوا الله بخلقه وقالوا: إن صفة الله كصفة المخلوق؛ والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق، فقالوا: إن عيسى ابن الله؛ فالنسبة بين المشبهة والنصارى عكسية، وكلٌ منهما مشبهة.

قال نُعَيم بن حماد شيخ البخاري رحمه الله: «من شبه الله بخلقه فقد كفر،

= كلامهما من حديث ابن مسعود، عليه السلام، إلى قوله: «أَنَا الْمَلِكُ»، أما باقي لفظه فهو من حديث أبي هريرة في حديث آخر أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).  
(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٢٤/٢١)، من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس عليه السلام، موقوفاً.

ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه، ولا رسوله؛ تشبيهاً<sup>(١)</sup>.

قال إسحاق بن راهويه الإمام المشهور: «مَنْ شبه الله بخلقه فقال: إن الله يشبه أحداً من خلقه في صفاته فهو كافر بالله العظيم، أو كما ورد عنه عليه السلام»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا يتبين: أن المشبهة كفار، وأن غالبيهم من غلاة الشيعة - نسال الله السلامة والعافية -.

(١) أخرجه الذهبي في «العلو» رقم (٤٦٤)، وفي «السير» (٦١٠/١٠)، وقال في «السير» (٢٩٩/١٣): «وما أحسن قول نُعَيم بن حماد الذي سمعناه بأصح إسناد... ثم ذكره غير أنه لم يُسَنِّدْ. وهو في «شرح السنة» للالكاني رقم (٩٣٦).  
(٢) انظر: «شرح السنة» للالكاني رقم (٩٣٧)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص١١٧).

حي لا يموت قيوم لا ينام

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ):

الشرح

• قوله: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ):

فيه إثبات هذين الاسمين للرب ﷻ؛ فالحي: اسم من أسماء الله عز وجل، والقيوم: اسم آخر .

والحي: متضمن لصفة الحياة، والقيوم: متضمن لصفة القيومية؛ لأن أسماء الله ﷻ مشتقة ليست جامدة، وكل اسم من أسماء الله يدل على الصفة؛ فالرحمن: تدل على صفة الرحمة، والقادر: يدل على صفة القدرة، والعليم: يدل على صفة العلم، وهكذا؛ لأن أسماء الله تعالى مشتملة على المعاني.

والحي والقيوم: اسمان عظيمان من أسماء الرب ﷻ قد جمع الله ﷻ بينهما في ثلاث آيات من كتابه عز وجل؛ الآية الأولى: قول الله تعالى في آية «الكرسي»: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْقِيَمِ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والثانية: قوله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْقِيَمِ ۚ تَكُنْ عَلَيْكَ السَّاعَةُ الْآخِرَةُ﴾ [آل عمران: ٢-٣]، والثالثة في سورة طه قوله سبحانه: ﴿وَعَسَى الْأَمْرُ إِلَىٰ قِيَمٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]؛ فالله تعالى جمع بينهما في هذه الآيات الثلاث، واسم الحي جاء في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ إِلَهِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿هُوَ إِلَهٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [زمر: ٦٥]. وهذان الاسمان عظيمان من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قال بعض

أهل العلم: إنهما اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وجاء هذا في حديث أسماء بنت يزيد: أن النبي ﷺ قال: «فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ إِلَهِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وَلَا هُوَ أَكْبَرُ أَكْبَرِهِ» [البقرة: ٢٥٨]، «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْقِيَمِ ۚ» [آل عمران: ٢-٣]، والحديث فيه ضعف ولكنه شاهد .

ولهذا قال بعض أهل العلم: إنهما اسم الله الأعظم، وما ذاك إلا لأن مدار الأسماء الحسنى كلها تعود إلى هذين الاسمين، وإليهما ترجع معانيها.

فصفة الحياة: ترجع إليها جميع صفات الأفعال، ولا يتخلف عنها إلا لضعف الحياة، والله تعالى له الحياة الكاملة، فجميع صفات الكمال ترجع إليها .

والقيوم الذي لا ينام: يدل على كمال غناء ﷻ الذي لا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، وهو أكمل من القديم؛ لأنه يدل على كمال الرب، وكمال قوته واقتداره، ودوام ذلك واستمراره أزلاً وأبداً، فهو القائم بنفسه المقيم لغيره ﷻ .

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥) من طريق عبيد الله بن أبي زياد القداح، عن شهر بن حوشب، عن أسماء، وشهر متكلم فيه، والحديث قال فيه الترمذي: «حسن صحيح»، وتعبه الحافظ فقال في «الفتح» (٢٢٤/١١): «وفيه نظر؛ لأنه من رواية شهر بن حوشب»، لكن له شاهد من حديث أبي أمامة عند ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (١/٦٨٤) تحقيق: مصطفى عبدالقادر، وغيرهما. والحديث الأول حسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٢٣)، وحسن الثاني أيضاً في «مسلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧٤٦).

ويدل على أنه واجب بنفسه، وهو واجب الوجود؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥)؛ فنفى السَّنة والنوم يدل على كمال الحياة والقيومية؛ ولهذا كانت هذه الآية - آية الكرسي - أعظم آية في القرآن الكريم؛ كما ثبت ذلك في «الصحیح»<sup>(١)</sup>، وأن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح<sup>(٢)</sup>.

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو ويتوسل إلى الله بهذين الاسمين؛ فهما اسمان عظيمان ثابتان لله عز وجل، متضمنان لصفة الحياة، والقيومية، ولذلك يعبد بهما يقال: عبدالحی، وعبدالقیوم.

### صفنا الخلق والرزق

♦ قَالَ الْمَوْلَاهُ ﷺ: (خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مُؤَنَةٍ):

#### الشرح

وهذان أيضاً اسمان من أسماء الرب، فمن أسمائه الخالق، ومن أسمائه الرازق، فهو خالق بلا حاجة إلى أحد؛ لأنه كامل ﷻ.

وهو الغني عن كل ما سواه، وهو رازق بلا مؤنة؛ أي: بلا ثقل وكلفة ومشقة، والأدلة على ذلك كثيرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (١) تَأْ أُرِيدُ مِنْ رَبِّيَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِي (٢) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَبِيرِ (٣) [البقرات: ٥٦-٥٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمِعُوا لِقَوْلِي إِلَى اللَّهِ وَآلَهُ هُوَ الْقَيُّومُ الْحَيُّدُ (٤) إِنْ بَشَأَ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (٥) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٦) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَةٍ لَا يُغْنِي عَنْهَا شَيْءٌ وَلَا كَانَ ذَا فُرْقَةٍ إِنْما نُفِذُ الْكَلِمَاتِ لِيَعْلَمَ بِهَا الْقَبِيلُ وَاللَّهُ السَّكُونُ وَمَنْ سَرَكَ فَلَيْسَ بِسَرَكَ لِنَفْسِهِ. وَلِلَّهِ الْغَيْبُ (٧)﴾ [فاطر: ١٥-١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الْقَيُّومُ وَأَنشَأَ الْفُكْرَةَ﴾ [محمّد: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبَرُونَ أَيُّهَا النَّاسُ أَتَعْبَرُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [الأنعام: ١٤].

وثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذرٍّ ﷺ أن النبي ﷺ قال في الحديث الطويل: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ وَجْنَكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَجْرَكُمْ وَجْنَكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ

(١) إخرجه مسلم (٨١٠) من حديث أبي بن كعب ﷺ

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١) من حديث أبي هريرة.



وَجَعَلَكُمْ قَانُوا فِي صَعِيدٍ وَاجِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْلَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ سَأَلْتُهُ مَا تَنْقُصُ  
ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ<sup>(١)</sup>، أو كما قال  
عليه الصلاة والسلام .

وهو حديث قدسي من كلام الله عز وجل، لنفذاً ومعنى.

من صفات الله الفعلية أنه يحيي ويميت

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (مُيْتٌ بِلَا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ):

#### الشرح

يبين المؤلف أن الله ﷻ يحيي ويميت، وأنهما صفتان من صفاته  
الفعلية.

فهو يميت من يشاء، إمامة بلا مخافة من أحد؛ لأنه ليس فوقه أحد  
يخافه؛ كما قال ﷻ حينما أهلك ثمود قوم صالح: ﴿فَدَمَرْنَا عَلَيْهِمْ رُءُوسَهُمْ  
وَيَذَرِيهِمْ فُسُونَهَا ﷻ وَلَا يَخَافُ عَنْتَها ﷻ﴾ [الشع: ١٤-١٥] فهو لا يخاف من  
أحد ﷻ، وهو الحكيم العليم، وهو الباعث: يبعث عباده؛ يحييهم ويعيد  
إليهم أرواحهم، ويبعث أجسادهم بعد إيمانهم؛ حينما يؤمر إسماعيل فينفض  
في الصور؛ فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين؛ كما  
سيأتي في مبحث البعث .

والموت صفة وجودية؛ خلافاً للفلاسفة<sup>(١)</sup> ومن وافقهم؛ فإنهم  
يقولون: هو صفة عَدَمِيَّة، والصواب: أن الموت صفة وجودية، والدليل  
على أنه صفة وجودية قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ وَالْكَافِرُ يَلْعَنُكُمْ إِنَّكُمْ

(١) كلمة فلسفة تكون من مقطعين: هما (فيلو) و(سوفيا). ومعنى (فيلو) في اليونانية: محب، و(سوفيا): الحكمة، فالفيلسوف هو محب الحكمة، ومذهبهم: أن العالم قديم، وعلمته مؤثرة بالإيجاب، وليست فاعلة بالاختيار، وأكثرهم ينكرون علم الله - تعالى-، وينكرون حشر الأجساد، ومن أشهرهم أرسطو. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشرقيين» (١٤٥، ١٤٦)، و«الفصل في الملل والنحل» (٩٤/١)، و«الملل والنحل» (١٥٥/٢)، و«المعجم الفلسفي» (١٣٨-١٤٠).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

أَمْسَ عَمَلًا» [المسند: ٢]، والمعلوم لا يوصف بكونه مخلوقًا؛ وثبت في «الصحاحين» أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَيْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»<sup>(١)</sup>.

وهذا بعد إخراج عصاة الموحدين من النار. والموت وإن كان عَرَضًا إلا أن الله يقبله عينا؛ لأن الله على كل شيء قدير، والذي يُذْبَحُ هو الموت لا المَلَك -كما يتوهمه بعض الناس- لكن الموت صفة وجودية جعلها الله بيد المَلَك، وملَك الموت موكل به، والله على كل شيء قدير.

كما أن العمل الصالح يأتي الإنسان في قبره على صورة شاب حسن، والعمل القبيح يأتي على أقبح صورة، فالله تعالى يجعل عمله عينا<sup>(٢)</sup>، وكما

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر ما أخرجه أحمد (٢٨٧/٤)، (٢٩٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، في حديث طويل، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث البراء كما في «مجموع الفتاوى» (٢٩١/٤): «... وهو في المسند وغيره بطوله، وهو حديث حسن؛ ثابت...». وقال ابن منده في «الإيمان» (٩٦٥/٢): «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء...». وأوردته الإمام ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٥٧-٥٨) من رواية الإمام أحمد، ثم قال: «... وهو صحيح صححه جماعة من الحفاظ، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢١٩/٣).

يأتي القرآن في صورة الرجل الشاحب اللون<sup>(١)</sup>.

وكما أن الأعمال توزن يوم القيامة في الميزان يجعلها الله أعيانًا، وكما أن سورة البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة بظُلَّانٍ صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو صفنان من هذه الأصناف<sup>(٢)</sup>، وكما أن الأعمال الصالحة تصعد إلى الله؛ كما ثبت في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُمْ يَصْعَدُ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ رُفْعَةً﴾ [ناظر: ١٠]، وكما ثبت في الحديث الصحيح.

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٨١)، والدارمي (٥٤٣/٢)، وأحمد (٣٤٨/٥)، (٣٥٢، ٣٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٠٤٥)، والبيهقي في «السنن» (٤٥٣/٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٤٣/١)، وابن عدي في «الكامل» (٢١/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٣٤٤/٢)، والحاكم في «المستدرک» (٥٥٦/١)، (٥٦٧، ٥٦٨) -طبع الهند)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص ٣٦-٣٧)، وغيرهم، من حديث عبدالله بن بُرَيْدَةَ عن أبيه، وبعضهم يرويه مطوّلًا، وبعضهم يختصره. والحديث حسنه الإمام ابن كثير في «التفسير» (٣٤٤/١)، (٣٥) وساق له شواهد عن عدد من الصحابة. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٩/٧) سجد أن عزاء لابن ماجه وأحمد: «ورجاله رجال الصّحيح»؛ وقال البوصيري في «صباح الزّجاجة» (١٢٦/٤): «هذا إسنادٌ رجاله ثقات...».

(٢) رواه مسلم (٨٠٤)، والحاكم في «المستدرک» (٧٥٢/١) -تحقيق: مصطفى عبدالقادر)، وأبو عروانة في «المسند» (٤٨٥/٢)، وابن حبان في «الصحيح» (١١٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٩٥/٢)، والدارمي في «السنن» (٢/٥٤٣)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٥٩٩١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٨) -تحقيق: طارق عوض الله)، وفي «الكبير» (٧٥٤٢، ٧٥٤٤، ١٨١٨)، وأحمد في «المسند» (٢٤٩/٥)، (٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٧) وغيرهم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وفي الباب عن غيره من الصحابة.

## اتصاف الرب تعالى بصفات الكمال أزلاً وأبداً

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزِدْ يَكُونُهُمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ، وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلًا كَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدًا).

## الشرح

المعنى أن الله ۞ لم يزل متصفاً بصفات الكمال -صفات الذات وصفات الفعل-، ولم يكن فاقداً لشيء منها في وقت من الأوقات، فهو متصف بصفات الكمال قبل خلقه وبعد خلقه.

والصفات تنقسم إلى قسمين:

\* صفات الذات.

\* وصفات الأفعال.

وصفات الذات ضابطها: ألا تنفك عن الباري؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر.

وصفات الأفعال ضابطها: أن تتعلق بالمشيئة والاختيار، كالنزول، والاستواء، والإحياء، والإماتة، والقبض، والبسط، والرضا، والغضب، والكراهة، والسخط، إلى غير ذلك من صفات الأفعال.

وصفات الأفعال عند أهل العلم، وعند أهل الحكمة حق، ويقولون: إنها قديمة النوع حادثة الأفراد؛ أي: نوعها قديم وإن كانت حادثة، فمثلاً الكلام قديم النوع، لكن أفعاله حادثة، فالله تعالى يكلم رسله ويكلم أنبياءه ويكلم الناس يوم القيامة، ويكلم آدم، ويكلم أهل الجنة.

والرب ۞ لم يزل متصفاً بصفاته، ولم تحدث له صفة من الصفات بعد خلقه؛ بل كان متصفاً بصفة الكمال أزلاً وأبداً؛ لأن هذه الصفات صفات كمال، ولا يمكن أن يكون فاقداً لهذا الكمال في وقت من الأوقات، ولأن فقدانها نقص، ولا يمكن أن يتصف الرب بالنقص في أي وقت من الأوقات.

ولا يَرُدُّ على هذا صفات الأفعال والصفات الاختيارية وتحوها مثل الكلام، والاستواء، والتصوير، والطّي، والقبض، والبسط، والنزول، إلى غير ذلك؛ لأنها قديمة النوع حادثة الأفراد، وأراد المصنف ۞ الرد على أهل الكلام مثل الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم من الشيعة الذين يقولون: إن صفات الأفعال كانت ممتنعة عن الرب ۞؛ أي أن الرب كان لا يتكلم ولا يفعل، وأن هناك فترةً خلا فيها عن الكلام والفعل؛ بل إن الكلام والفعل ممتنع عن الرب، ثم انقلب فجأةً فصار الكلام والفعل ممكنًا، والإمكان معناه: القدرة على الشيء، والامتناع معناه: عدم إمكان وجود الكلام والفعل.

وكلامهم هذا من أبطل الباطل، ووافقهم عبدالله بن سعيد بن كُلاب<sup>(١)</sup> والأشعري<sup>(٢)</sup> في أن صفات الأفعال كذلك كانت ممتنعة، ثم صارت ممكنة

(١) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كُلاب القطان المتوفى بعد سنة ٢٤٠هـ بقليل. عده الأشعري من متكلمي أهل السنة، وقال عنه ابن حزم: إنه شيخ قديم للأشعرية. انظر: «طبقات الشافعية» (٢٩٩/٢)، و«لسان الميزان» (٢٩٠/٣)، (٢٩١)، و«الملل والنحل» (١٤٨/١)، و«مقالات الأشعري» (٢٩٨/١)، (٢٩٩)، (٥٢/٢)، (٥٤)، (١١٢)، (٢٠٢)، (٢٣١)، و«الفصل لابن حزم» (٢٨٩/٢)، (٧٧/٥).

(٢) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل أبي موسى الأشعري، =

إلا الكلام.

والكلام عنده قديم متعلق بذات الرب لا يتعلق بقدره ومشيته، وهذا كلام باطل.

فما تقدمت حكاية هو مذهب أهل الكلام وأهل البدع وأهل الباطل.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن الرب ﷻ لم يزل متكلمًا، ولم يزل فاعلاً إلى ما لا نهاية؛ لأن الرب فقال، قال ﷻ ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَقُولُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [مائدة: ١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانُ أَكْثَرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَقَدْ أَتَّخَذَ قَبْلَ أَنْ نَخْلُقَ الْكَوْنُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبِحَارٍ مَا يَقْدَتْ كِتَابَتُ اللَّهُ إِلَيْنَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القلم: ٢٧]، فهذه النصوص تدل على أن الرب فعال، وكل حي فقال، والفعل صفة كمال، فلا يمكن أن يكون فاعلاً لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

وقال بعض أهل الكلام: لا بد من أن توجد فترة ليس فيها كلام ولا فعل، قالوا: لأننا لو قلنا إن الكلام متسلسل والفعل متسلسل فمعنى ذلك

= ولد سنة ١٢٦٠هـ، وإليه ينسب مذهب الأشاعرة. كان مُعْتَزَلِيًّا، ثم أشعريًّا، ثم رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات كما هو واضح من مؤلفاته، ومنها: «الإبانة عن أصول الديانة»، ومقالات الإسلاميين، وإمامة الصديق. توفي سنة ٣٢٤هـ ببغداد. انظر: «تبين ذنب المقتري» لابن عساكر (١٢٨-١٤٦)، «البداية والنهاية» (١١/٢١٠)، و«الإعلام» (٤/٢٦٣)، و«طبقات الشافعية» (٣/٣٤٧).

أنه قد انسُدَّ علينا طريق إثبات الصانع وهو الله، فلا ندري هل هذه الأفعال أو الحوادث سابقة له أو هو سابق عليها؟

فلا بد في إثبات أن الله هو الأول من إثبات أن هناك فترة ليس فيها كلام ولا فعل، ثم بعد ذلك يأتي الكلام والفعل حتى يكون الله هو الأول؛ هذه شبهتهم.

وقد ردَّ عليهم أهل السنة من وجوه كثيرة؛ منها:

أولاً: أن إثبات الفترة التي ليس فيها كلام، ولا فعل: لا دليل عليه.

ثانياً: أن إثبات هذه الفترة تعطيل للرب من الكمال، والرب فقال لما يريد، فلا يمكن أن يكون فاعلاً لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

ثالثاً: أن قولكم: إن الكلام والفعل كان ممتنعاً على الرب، ثم انتقل فجأة فصار ممكناً؛ نقول: إذا كان الرب ﷻ فعلاً وكاملاً ولم يتجدد له شيء فما الذي جعل الكلام والفعل ممتنعاً ثم جعله ممكناً؟! كيف يكون ذلك وما من وقت يُقَدَّرُ إلا والإمكان ثابت قبله إلى ما لا نهاية؟! وهم لا يستطيعون أن يحددوا وقتاً يكون بدءاً للفعل والإمكان.

رابعاً: أنه يلزمكم -على هذا- أن العالم ليس حادثاً؛ والعالم حادث، والحوادث ممكن أن يوجد، ويجوز ألا يوجد، فإذا أراد الله إيجاده: أوجده، وإذا لم يُرِدْ: فلا.

وقولكم: إن الرب هو الأول. هذا صحيح: لأن الرب هو الأول الذي ليس قبله شيء، وكون الحوادث متسلسلة في المستقبل لا يمنع أن يكون الله هو الأول؛ لأننا نقول: كل فرد من أفراد الحوادث مسبوق بالعدم، موجود بإيجاد الله له.

وإذا وصفنا بهذا الوصف فلا يلزم وجود هذه الفترة، ولذلك نقول: الحوادث متسلسلة في الماضي إلى ما لا نهاية.

خامساً: أنكم خالفتم النصوص؛ فإن النصوص فيها أن الرب فَعَّال، كما تقدم، وأنكم بهذا تنقصتم الرب ﷻ حيث نفيتم عنه صفة الكمال، وهو الفعل والكلام، وهذه تسمى مسألة تسلسل الحوادث.

فالمخلوقات- مثل النبات، والحيوان، والأشجار، والطيور، والحيوانات، والسموات، والأرضين... إلى غيرها؛ تسمى: حوادث متسلسلة.

وأهل السنة يقولون: الحوادث متسلسلة -أي: مستمرة- في الماضي؛ بمعنى: أن الرب لم يزل يفعل ويخلق خلقاً بعد خلق إلى ما لا نهاية في الأزل، ولكن كل فرد من أفراد هذه المخلوقات، مسبوق بالعدم، موجود بإيجاد الله له، ليس له من نفسه وجود ولا عدم.

أما نوع الحوادث؛ فهو متسلسل إلى ما لا نهاية؛ كما أن الحوادث متسلسلة في المستقبل إلى ما لا نهاية؛ فكما أن تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الله هو الآخر؛ فكذلك تسلسلها في الماضي لا يمنع أن يكون الله هو الأول؛ لأن الحوادث متسلسلة في المستقبل بالاتفاق، حتى عند أهل البدع؛ لأن الله لا يزال يُخَلِّق لأهل الجنة نعيمًا بعد نعيم إلى ما لا نهاية. هذا هو الحق الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة النبوية وإجماع السلف الصالح.

وذهب كثير من أهل البدع وأهل الكلام: إلى أن الحوادث متسلسلة في المستقبل، إلا أنها غير متسلسلة في الماضي، وأثبتوا فترةً كان الرب سبحانه فيها مُعْظَلًا عن العمل، والفعل، والكلام.

وذهب الجهم بن صفوان<sup>(١)</sup> إلى أن الحوادث غير متسلسلة لا في الماضي ولا في المستقبل؛ لأن مَذَقَهُ إلى أن النار والجنة تفتيان.

وذهب أبو الهذيل العلاف<sup>(٢)</sup> -شيخ المعتزلة في المئة الثالثة- أن أهل الجنة والنار تفتي حركاتهم، ويكونوا كالحجارة.

وعلى هذا: تكون مسألة تسلسل الحوادث من المسائل المهمة العظيمة التي أحجم عنها الفحول من الرجال، حتى إن ابن القيم ذكر هذا في «الكافية الشافية» وأشار إلى أن من عنده علم فليأت به.

والصور العقلية التي تصورها العقل في مسألة التسلسل أربع صور:

الصورة الأولى: الحوادث متسلسلة في الماضي وفي المستقبل.

الصورة الثانية: الحوادث غير متسلسلة لا في الماضي ولا في المستقبل.

والصورة الثالثة: الحوادث متسلسلة في المستقبل لا في الماضي.

الصورة الرابعة: الحوادث متسلسلة في الماضي لا في المستقبل.

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، من موالي بني راسب، رأس الجهمية وإليه ينتسبون؛ لأنه أول من نشر المذهب. قال الذهبي: الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان أصغر التابعين، وما علمته روى شيئاً، ولكنه زرع شرّاً عظيماً. قتله سلمة بن أحوز سنة ١٢٨هـ. انظر: «ميزان الاعتدال» (١/٤٢٦)، و«الأعلام» (٢/١٤١).

(٢) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، مولى عبد القيس، أبو الهذيل العلاف، ولد سنة ١٣٥هـ في البصرة، وكان من أئمة المعتزلة. كُفَّ بصره في آخر عمره. توفي سنة ٢٣٥هـ بسامراء. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/٥٤٢، ٥٤٣)، و«الأعلام» (٧/١٣١).

هذه صور عقلية؛ ثلاث صور قال بها الناس جميعاً، وصورة لم يقل بها أحد؛ وهي: أن الحوادث متسلسلة في الماضي وفي المستقبل، وهذا قول أهل السنة والجماعة، وهذا هو الصواب الذي تدل عليه النصوص .

والقول بأن الحوادث غير متسلسلة لا في الماضي ولا في المستقبل هو قول جهنم بن صفوان، وأبي الهذيل العلاف، وأنكر عليه ذلك أهل السنة، ويدّعونه، وصاحوا به .

والقول بأن الحوادث متسلسلة في المستقبل دون الماضي هو قول كثير من أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة.

والقول بأن الحوادث متسلسلة في الماضي لا في المستقبل لم يقل به أحد.

ولهذا قال لهم أهل السنة: ما الفرق بين تسلسل الحوادث في الماضي وفي المستقبل؟! أنتم وافقتم على أن الحوادث متسلسلة في المستقبل، وأن الرب لا يزال يُحدث في أهل الجنة نعيمًا بعد نعيم، إلى ما لا نهاية، وهذا لا يمنع أن يكون سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء، وكذلك تسلسل الحوادث في الماضي؛ لا يمنع أن يكون الله هو الأول الذي ليس قبله شيء؛ لأننا نقول: كل فرد من أفراد الحوادث مسبوق بالعدم؛ مخلوق بعد أن لم يكن<sup>(١)</sup>.

والصفات الذاتية والفعلية -كما سبق- ثابتة للرب ﷻ بخلاف قول أهل البلع؛ فإنهم أنكروا الصفات الذاتية والفعلية كالجهمية والمعتزلة؛

(١) للتوسع في هذه المسألة انظر: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/٩٩٦-١٠١٢)، و«الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات» (١/٣١٧-٢/٤٥٣).

وأما الكلاية فإنهم: أثبتوا الصفات الذاتية وأنكروا الصفات الفعلية، فتكون المذاهب ثلاثة:

- أهل السنة: أثبتوا الصفات الذاتية والفعلية.
- أهل البدع من الجهمية والمعتزلة: نفوا الصفات الذاتية والفعلية.
- عبد الله بن سعيد كلاب -زعيم الكلابية-: أثبت الصفات الذاتية، ونفى الصفات الفعلية.

وشبهة الكلابية والأشاعرة في ذلك يقولون: لئلا تحلّ الحوادث بذات الرب، ويسمونها مسألة حلول الحوادث؛ يقولون -أي: الكلابية والأشاعرة -:

لو أثبتنا الصفات الفعلية: من الغضب، والرضا، والكراهة، والسخط، والقبض، والبسط، والإحياء، والإماتة، والخفض، والرفع، والظي، والاستواء، والنزول؛ لَلَزِمَ من ذلك حلول الحوادث بذات الرب، والله منزّه عن حلول الحوادث به.

قال أهل السنة: ما مراكم بحلول الحوادث؟! هذا القول -وهو حلول الحوادث- قول مُجْمَل لا بد فيه من التفصيل؛ فإن أردتم بحلول الحوادث أن الله يحل في ذاته شيء من مخلوقاته؛ فهذا باطل، ونفيكم له بهذا الاعتبار: صحيح، وإن أردتم بأن الله تجدد له صفات لم يكن متصفاً بها خلقها لنفسه، أو سماه بها الناس فهذا باطل، وإن أردتم بحلول الحوادث نفي أن يكون الله يغضب، ويرضى، ويكره، ويسخط، ويستوي، وينزل كما يشاء، ويكون متصفاً بالطبي، وبالقبض والبسط، والخفض والرفع؛ فهذا باطل؛ لأن هذه المعاني والصفات ثابتة لا، ولا نفيها عن الله

بسميتكم إياها «حلول الحوادث» .

ويتبع هذا البحث مسائل:

المسألة الأولى: الصفة؛ هل هي زائدة على الموصوف أو غير زائدة؟ وهل الصفة غير الموصوف أو الصفة هي الموصوف؟<sup>(١)</sup>.

والجواب: أن هذا لفظٌ مجمل؛ لا بد فيه من التفصيل؛ فلا يقال: إن الصفة غير الموصوف، ولا يقال: إنها هي الموصوف، ولا يقال: الصفة زائدة على الموصوف، ولا يقال: غير زائدة؛ بل لا بد من التفصيل؛ بل يقال: إن أردتم بذلك أن الرب ﷻ له ذات منفصلة عن الصفة؛ فهذا قول باطل، وإن أردتم أن الصفات لها معنى يفهم منها غير ما يفهم من الذات؛ فهذا صحيح، لكن ليس هناك ذات منفصلة عن الصفات؛ بل الذات لا بد أن توصف بالصفات، فليس هناك ذات مجردة إلا في الذهن.

وهناك فرقٌ بين أن يقال: الصفات غير الذات، وبين أن يقال: الصفات غير الله، فالقول: بأن الصفات غير الله باطل؛ لأن اسم الله؛ اسم له ﷻ متصف بصفاته، أما القول بأن الصفات غير الذات فهذا صحيح؛ لأن الصفات لها معانٍ غير معنى الذات .

أما في حق الله؛ فلا يقال: إن صفات الله غير الله؛ ولهذا استعاذ النبي ﷺ بالصفات فقال: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/٣٢٦، ٣٢٨).

(٢) أخرجه من حديث عثمان بن أبي العاص، بهذا السياق؛ ابن ماجه (٣٥٢٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٣٤٢)، وأخرجه بنحوه من حديث عثمان بن أبي العاص أيضاً؛ مسلم (٢٢٠٢)، وأبو داود (٣٨٩١)، وابن ماجه (٣٥٢٢)، والترمذي (٢٠٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٤٦، ٧٧٢، ١٠٨٣٩-١٠٨٣٧)، وغيرهم.

وقال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»<sup>(١)</sup>، ولم يعد بمخلوق عليه الصلاة والسلام فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِشَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِشِمَائِكَ مِنْ غَوْرَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»<sup>(٢)</sup>، وقال: «... وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أَغْتَالَ مِنْ تَخَنُّي»<sup>(٣)</sup>، فاستعاذ بالعظمة، وقال: «أَعُوذُ بِتَوَرُّ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَفَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ»<sup>(٤)</sup>، فهداه استعاذه بالله، لأن الصفات لا تنفصل عن الذات .

فالله - تعالى - هو الذات المقدسة، المتصفة بالصفات، والله - تعالى - بذاته وصفاته وأسمائه؛ هو الخالق وغيره مخلوق؛ فإن أريد أن هناك ذاتاً منفصلة مجردة عن الصفات؛ فهذا باطل، وإن أريد أن الذات متصلة بصفاتها؛ فهذا صحيح .

المسألة الثانية: هي الاسم غير المسمى أو عين المسمى؟<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه النسائي (٥٥٢٩)، وأبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٢/٢٥) من حديث ابن عمر، ورواه الحاكم في «المستدرک» (١/٦٩٨) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر، وابن حبان (٩٦١)، وابن أبي شبة في «المصنف» (٢٩٢٧٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٨٣٧)، والحديث صححه الحاكم، والنووي في «الأذکار» (ص ٦٥)، وصححه الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٣١ - ط: السابعة).

(٤) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/٢٦٨) ورد هذا اللفظ في سياق قصده أخرجه الضياء في «الأحاديث المختارة» (١٧٩-١٨١)، وقيام السنة في «الحجة» (١/٢١٦) و (٢/٤٧٣-٤٧٤)، والطبراني في «الدعاء» (١٠٣٦)، وابن عساکر في «تاريخ دمشق» (١٥٢/٤٩)، وقال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٣١ - ط: السابعة): «ضعيف، رواه ابن إسحاق بسننٍ ضعيف مُعْضَل».

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/١٨٥-٢٠٧).

الجواب: هذا فيه تفصيل، فلا يقال: إنه هو المسمى، ولا يقال: إنه غير المسمى؛ بل تارة يُراد بالاسم المسمى؛ كما تقول: سمع الله لمن حمده؛ فالاسم يراد به المسمى، وتارة يراد به اللفظ الدال على المُسَمَّى؛ كما تقول: الله اسمٌ عربي؛ والرحمن اسمٌ عربي؛ فالرحمن اسم من أسماء الله؛ فالاسم ها هنا هو المراد لا المُسَمَّى، أما إذا قال: سمع الله لمن حمده؛ فالاسم يراد به ها هنا المسمى. فلا بد من التفصيل في هذه المسائل.

وجدير بنا هنا أن نقول: إنه يفهم من معاني الصفات ما لا يفهم من الذات، فإن أُريد أن هناك ذاتاً مجردة؛ فهذا ليس بصحيح، وإن أُريد أن الصفات لها معنى غير معنى الذات فهذا صحيح.

أما الله ﷻ فلا يقال: إن صفاته غير ذاته، بل الله ﷻ بذاته وصفاته هو الله، فلا يقال: إن الصفات غير الذات، فلا يقال -مثلاً-: الله وعلمه، أو: الله وقدرته.

ولهذا أنكر الإمام أحمد رحمته في كتاب «الرد على الزنادقة»<sup>(١)</sup> حين رد على الجهمية وعلى أهل البدع لما قالوا: الله وقدرته، الله وعلمه، الله ونوره؛ قال: لا نقول الله وعلمه، الله وقدرته، الله ونوره؛ لأن الواو تغيد المغايرة، بل نقول: الله بعلمه وقدرته ونوره.

سؤال ما هو مذهب الفلاسفة في الصفات؟

الجواب: أما مذهب الفلاسفة كأرسطو والفارابي وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة المتأخرين - وهم الذين يسمون الفلاسفة الإلهيين-؛ فإنهم

قالوا: إن المخلوقات والحوادث مقارنة للرب، ملازمة له في الأزل وفي الأبد.

فقالوا: إنها مقارنة للرب، فلم يشترطوا أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، بل قالوا: إنها مقارنة له في الزمان أزلاً وأبداً، وهي لازمة له كلزوم النور للسراج والمصباح؛ لا يستطيع الانفكاك عنها، فهي ليست مخلوقة باختياره وإرادته؛ لأنه علتها، وهي المعلولة، وتقدم عليها إنما هو كتقدم العلة على المعلول.

ولم يُثبت أرسطو وجوداً لله إلا من جهة كونه مبدأً للكثرة، وعلة غائية لحرارة الفلك، بل هذه الكثرة وهذه المخلوقات مبدؤها الله، أي كأنه جزء منها - عياداً بالله -، وهو العلة المحرك لها.

وهؤلاء الفلاسفة قد كفَّروهم العلماء مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته فقال ما معناه: أنتم أنكرتم أن يكون الله متقدماً في الزمان، وأنكرتم أن يكون الله هو الأول الذي ليس قبله شيء حينما قلتم: إن الحوادث والمخلوقات مقارنة للرب في الزمان، ولم تثبتوا أن هذه الحوادث مخلوقة لله بقدرته ومشيئته، فكنتم بذلك كفاراً.

ثم ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء -أهل البدع؛ أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة - فقالوا لهم: أنتم خالفتم الفلاسفة فأثبتتم فترة كان مُعْطَلاً فيها عن الفعل حتى تبتدأ أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، ولم تقولوا كقول الفلاسفة: إن المخلوقات مقارنة في الزمان،

(١) انظر: «دره تمارض النقل والعقل (١/٦٩)».



لكنكم حينما أنكرتم العلو - علو الرب على خلقه، واستواءه على العرش - وقلتم: إن الله مختلط بالمخلوقات، ونفى بعضكم - وهم الجهمية المتأخرون - عنه الوصفين المتقابلين، فقالوا: لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا مابين له، ولا مُحَايِثَ له، ولا متصل به، ولا منفصل عنه. ولزم من كلامكم هذا أنه - تعالى عن ذلك - عدم.

فالجهمية الأول قالوا بالحلول، والجهمية الثانية قالوا بنفي التقضين؛ فالطائفتان لم تثبتا أن الله فوق المخلوقات، وأنه مستوٍ على العرش، بائن من خلقه، فأنتم أنكرتم أن يكون الله متقدماً في المكان، فلم تثبتوا أن الله هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، كما أن الفلاسفة أنكروا تقدم الله في الزمان؛ فلم يشبوا أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، فصرتم بهذا مماثلين للفلاسفة. والله - تعالى - قد وصف نفسه بهذه الصفات الأربع، وبهذه الأسماء الأربعة متقابلة فقال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣).

ففسر النبي ﷺ الأولية: بنفي تقدم شيء عليه، وفسر الآخرة: بنفي أن يكون بعده شيء، وفسر الظاهر بنفي أن يكون فوقه شيء، فقال - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الصحيح: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>. فليس هناك فرق بين كفر الجهمية وكفر الفلاسفة، وهذه فائدة مهمة في بيان ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

### الخلاصة:

وعلى كل حال؛ فهذه المباحث مباحث عظيمة؛ ولكن لم يتكلم السلف والسابقون فيها، ولولا أن أهل الكلام وأهل البدع تكلموا فيها بالكلام الباطل وملثوا به الأوراق والكتب، لما اضطر أهل العلم إلى رد هذا الكلام الباطل، بمثل هذا التفصيل.

### صَفَاتُ الْخَالِقِ وَالْبَارِي

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ اسْتِفَادَ اسْمُ الْخَالِقِ، وَلَا بِإِخْدَاتِ الْبَرِيَّةِ اسْتِفَادَ اسْمُ الْبَارِي):

#### الشَّرْحُ

المعنى: أن الله ﷻ اسمه الخالق، واسمه الباري؛ ولم يزل له هذا الاسم، والبارئ: أي: الذي خلق الخلق وبرأ البرية وأحدثها، ولم يزل له الأسماء الحسنى؛ لأنه ﷻ قادر على الفعل في أي وقت.

ومادام أنه فَعَّلَ وقادر على الفعل في أي وقت؛ فهو متصف بالصفات؛ فالإنسان حينما يتكلم ويكون قادراً على الكلام يقال: إنه متكلم، فإذا تكلم أمس ثم تكلم اليوم يقال: إنه متكلم؛ وإذا كان ساكناً وهو قادر على الكلام يقال: إنه متكلم بالقوة، وإذا تكلم يقال: إنه متكلم بالفعل؛ لأنه قادر على الكلام؛ والكاتب إذا كان يكتب ويباشر الكتابة، يقال: كاتب بالفعل؛ وإذا رفع يده عن القلم يقال: كاتب بالقوة؛ لأنه قادر على الكتابة؛ فالقادر على الفعل يكون فاعلاً له، والله ﷻ فعال قادر على الفعل في أي وقت من الأوقات؛ ولهذا هو ﷻ الخالق وهو الباري قبل الخلق وبعده.

الله تعالى هو الرب بكل معاني

الربوبية قبل أن يخلق الخلق

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷻ: (لَهُ مَعْنَى الرَّبُّوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ):

#### الشَّرْحُ

● (لَهُ مَعْنَى الرَّبُّوبِيَّةِ):

لأنه ﷻ هو مُرَبِّي عباده، وحافظهم، ومدبر أمرهم.

وقوله: (ومعنى الخالق ولا مخلوق): هذا قد يفهم منه أنه يميل إلى قول أهل الكلام الذين يقولون: إن هناك فترة ليس فيها مخلوق؛ وسبق بطلان هذا القول؛ لأن الرب ﷻ لم يزل فَعَّالاً لما يريد؛ مطلقاً؛ في كل وقت، وعلى هذا فله معنى الربوبية، وله معنى الخالق في كل وقت؛ في الأزل وفي الأبد.

الله تعالى هو الخالق قبل إنشاء الخلق وبعد إنشائه

◆ قَالَ الْمَوْلَى ﷺ: (وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَ مَا أَحْيَا اسْتَحَقَّ هَذَا الْأَسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمُ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ):

#### الشرح

أي: أنه ﷺ محيي الموتى؛ وكذلك أيضًا هو الخالق قبل إنشائهم وبعد إنشائهم، ومن صفاته الفعلية: أنه يحيي ويميت، ومن أسمائه: الخالق؛ وذلك لأنه قادر على الفعل في أي وقت؛ ولذلك فإن له صفات الفعل ﷺ.

متعلقات القدرة والرد على المعتزلة

◆ قَالَ الْمَوْلَى ﷺ: (ذَلِكَ بَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ قَدِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ):

#### الشرح

أي: لكونه ﷺ متصفاً بصفاته الذاتية والفعلية في الأزل، وأنه لم يزل فعالاً، وأنه ليس هناك فترة يعطل فيها الرب ﷻ؛ فهو على كل شيء قدير؛ وأراد بذلك الرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الله على ما يشاء قدير، ولا يقولون: إن الله على كل شيء قدير<sup>(١)</sup>.

لأن هناك شيء لا يقدر عليه الله عند المعتزلة؛ وهي أفعال العباد؛ ولذلك أولوا وحرّفوا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [تفصّل: ٣٩] بقولهم: على كل ما هو مقدور له، وأفعال العباد -بزعمهم- لا يقدر عليها؛ لأن أفعال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية: فهم الذين خلقوها وأوجدوها، والله لا يقدر عليها، أو يقولون: إن العباد أحدثوا أفعالاً من طاعات ومعاصي استغلالاً، ولهذا قالوا: إن العبد يستحق الثواب من الله كما يستحق الأجر أجره؛ لأنه هو الذي أوجده؛ وقالوا: إنه يجب على الله أن يعاقب العاصي، وأن يخلد صاحب الكبيرة في النار؛ لأنه توعد بذلك وهو لا يخلف وعيده؛ ولذلك قالوا: إن أفعال العباد لا يقدر عليها الرب، وسيأتي شرح هذا إن شاء الله في بابه.

(١) انظر: «الإيمان بالقضاء والقدر» للحمّد (ص ١٤٧-١٤٩) وتعليق الشيخ ابن باز عليه هناك.

والمقصود أنهم لا يقولون: إن الله على كل شيء قدير، بل يقولون: إنه على ما يشاء قدير؛ ولذلك إذا رأيت في بعض الكتب يُذَكَّرُ في آخرها عبارة: (وهو على ما يشاء قدير)، فاعلم أن هذا يتمشى مع مذهب المعتزلة، ولا يَرُدُّ على ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَعَزَّ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا بَشَأَ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٢٨]؛ لأن هذا مفيد بجمعهم؛ فلا يقال: إنه على ما يشاء قدير، بل يقال: إنه على كل شيء قدير؛ لأن معنى قولهم: (على ما يشاء قدير)؛ يُفْهَمُ منه أن هناك شيئاً لا يشاؤه الله؛ فلا يقدر عليه، وهي أفعال العباد؛ وهذا باطل؛ وعلى هذا فقياس مذهبهم ألا يقال: الله بكل شيء عليهم، بل يُقَالُ: هو عالم بكل ما يعلمه ونحوها من العبارات التي لا فائدة فيها، فالحاصل: أن تحريفهم للآية، على معنى: أنه على كل شيء مقدور له قدير؛ أما أفعال العباد فليست مقدورة له؛ فهو من أبطل الباطل؛ وهو كذلك مصادمٌ لصوص القرآن والسنة، لأنَّ الله -تعالى- يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] ويقول: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، (وكل) من صيغ العموم، فكل ما يسمى شيئاً؛ فإن الله -تعالى- يقدر عليه.

فكلّ ممكن فهو داخل في هذا بخلاف الممتنع الذي لا يمكن؛ لأنه لا يسمى شيئاً؛ فلا يرد على هذا أيضاً المُحَالُّ لذاته، مثل كون الشيء موجوداً معدوماً في وقت واحد، ومثل قولهم: هل يقدر على خُلْقٍ مثل نفسه؟، ومثل قولهم: هل يقدر على إغْثَامِ نفسه؟!

والجواب: أن هذا من الممتنع المُحَالُّ تماماً؛ لأنه لا يمكن إيجادها ولو تصوراً، ولا تسمى شيئاً باتفاق العقلاء؛ وليست داخلية في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

وقد اختلف العلماء في المعلوم الذي يمكن وجوده: قالوا: هل يسمى شيئاً أو لا؟<sup>(١)</sup>

والصواب: أنه يسمى شيئاً في الذَّكْر والكتاب والعلم؛ كما قال ﷺ: ﴿يَكُونُ النَّاسُ أَتَقَرُّ رِبًّاكُمْ مِنْ ذِكْرِكَ الْكَافَّةِ مِنْ عِلْمِي﴾ [السنن: ٤١]، فالساعة لم تأت ومع هذا فقد سَمَّاهُ الله شيئاً؛ فهي شيء عظيم في الذَّكْر، وفي علم الله، وفي الكتاب، ومن الأمثلة قوله ﷺ: ﴿قُلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ عَيْنٌ أَمْ كَذَبُوا لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ٤١]، فإنه لم يكن شيئاً في الوجود، لكنه شيء في علم الله، وذِّكْرُه، وكتابه، ومن الأمثلة كذلك قوله - سبحانه - عن زكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ نَجْلٍ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٢٨]، أي: لم تك شيئاً في الوجود، ولكن في علم الله، وذِّكْرُه، وكتابه.

فهذا في الممتنع الذي يمكن وجوده، أمَّا الممتنع الذي لا يمكن وجوده؛ فإنه لا يسمى شيئاً، فلا يقال: إنه داخل تحت القدرة.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤٣/٢ - ١٤٦).

الخلق جميعاً كلهم فقراء إلى الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ قَرِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ):

الشرح

هذا وصف لله - سبحانه - بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء عليه يسير؛ فلا يعجزه شيء، ولا يشق عليه شيء؛ وليس هناك شيء عسير على الله سبحانه وتعالى.

قوله: (وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ قَرِيرٌ) لأن المخلوقين كلهم فقراء إلى الله كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُدْهِمَكُمْ رَبَّانِي يَخْلَقُ جَلِيلٌ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾ (فاطر: ١٥-١٧)، وقال - سبحانه - : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي زَكَّاهُ أَنْفَرَاهُ﴾ (محمّد: ٢٣٨)، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالَمِهِ﴾ (الزّوم: ٢٢٧) أي: هين عليه؛ فكل شيء هين على الله، وكل شيء يسير على الله، وكل مخلوق هو فقير إلى الله - عز وجل -، والله هو الغني ۞.

الرد على الممثلة والمشبّهة والمعطلة

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ):

الشرح

لا يحتاج إلى شيء من الأشياء، ف(الشيء) شاملة لجميع الموجودات؛ فهو لا يحتاج إلى أي مخلوق لكمال غناه. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [القرئ: ١١] هذا رد على الممثلة والمشبّهة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [القرئ: ١١] ردّ على المعطلة الذين ينكرون الأسماء والصفات. فهذه الآية تَصَمَّنَتْ الرَّدَّ عَلَى طَائِفَتَيْنِ: الممثلة، والمشبّهة؛ الذين يشبهون الله بخلقه، ويمثلون الصفات بصفات المخلوقين، وعلى المعطلة؛ الذين ينكرون الأسماء والصفات.

الله سبحانه خلق الخلق وهو عالم به

قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ (خَلَقَ الْخَلْقَ يَعْلَمُوهُ)

الشرح

الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلق الخلق بعلمه، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو عليم بكل شيء كما قال - سبحانه - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكْلِمُ غَنِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَلَمْ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال - سبحانه - ﴿وَعِنْدَهُ مَقَانِصُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَمَا تَسْفُتُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابَ فِي عِلْمَيْهِ الْأَرْضِ وَلَا رَمَقٍ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَكَّلُ عَلَى آيَاتِهِ وَيَسْتَعِذُّ بِهَا وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُ فِي سُوفِهِ نَسْفُتُهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وهو - سبحانه وتعالى - يعلمهم قبل خلقهم، ويعلمهم بعد خلقهم.

وأراد المؤلف الرد على المعتزلة الذين يقولون: إنه لا يعلم الخلق إلا بعد خلقه، وهذا من أبطل الباطل؛ لأن علم الله شامل للماضي والحاضر والمستقبل؛ فهو سبحانه يعلم ما كان في الماضي، ويعلم ما يكون في المستقبل والحاضر، وأيضاً يعلم ما لم يكن لو كان فكيف يكون؟ كما في قوله سبحانه عن الكفار الذين سألوها الرجعة إلى الدنيا؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ فهذا علمه بحالهم لو رُدُّوا، ومثل قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، فهذا علمه بحالهم.

ومثل قول الله - سبحانه تعالى - في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا التَّخَلُّفَ عَنْكُمْ فَقَدْ حَصَّرْتُمُوهُمْ وَأَعْتَزَلْتُمْ إِلَهُ تَعَالَى﴾ [التوبة: ٢٤-٢٥]، لو حَصَّرُوا فَيَكْرَ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَسَارًا فَتَضَلَّوْهُمْ وَقَبِلَ اللَّهُ مِنْهُمْ تَبَاغُتًا وَلَكِنْ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى وَلَوْ أَرَادُوا اتِّخَاذًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَمَا كُنُوا غَيْرَ مُغْنِينَ عَنْ شِرْكِهِمْ أُولَئِكَ ضَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦]، فإنه يعلم سبحانه لو خرجوا ماذا سيحدث؛ وذلك قوله: ﴿لَوْ حَصَّرُوا فَيَكْرَ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [التوبة: ٢٥]، يعني: شرًّا؛ وقال بعضهم: إن الشر هو الفتنة والفساد، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ﴾ [التوبة: ٢٥]، وهذا من لطفه سبحانه بعباده أنه يُطهِّمُهم ومنعهم حتى لا يفسدوا على عباد الله المؤمنين.

قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

♦ قَالَ الْمَوْلَى ﷺ: (وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَارًا):

#### الشرح

الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ الْأَقْدَارَ وَالْأَجَالَ، وجعل لكل شيء من مخلوقاته أَقْدَارًا وَأَجَلًا، قال سبحانه: ﴿سَخَّرَ كُلَّ شَيْءٍ فَتَحَوَّ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [النشأ: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الزمر: ٢٣٨] ومن ذلك: أَنَّ الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْمَخْلُوقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَقَدَّرَ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا؛ كما في الحديث الذي ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْمَخْلُوقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»<sup>(١)</sup>.

وثبت في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنْ أَحَدَكُمْ يَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ الْمَلَكَ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتَبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِي أَوْ سَعِيدٌ؛ قَوْلَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)

لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»<sup>(١)</sup>، وهذا من تقدير الأجل .

ومن ذلك أَنَّ الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ الْمَوْتَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وجعل له أَجَلًا مَقْدَرًا؛ كما قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا فَكَانَ سَعَةً وَلَا يَسْتَفْتُونَ﴾ [يونس: ٢٤٩]، وقال: ﴿وَأَنفِثْنَا مِنْ نَا رُفُوفًا مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَعْلَمُ رَبُّهُ نَؤْلًا لَأَتَرْتَنِي إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَمَّا ذَلِكَ وَكَأَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﷺ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﷻ [المتنبيون: ١٠-١١].

وأسباب الموت متعددة؛ سواء أَقَدَّرَ اللهُ الْمَوْتَ عَلَى الْعَبْدِ بِالْمَرَضِ أَوْ بِالْقَتْلِ أَوْ بِالْعَرَقِ أَوْ بِالْحَرَقِ أَوْ بِأَيِّ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله عليه.

وهذا فيه الرد على المعتزلة الذين يقولون: إِنَّ الْمَقْتُولَ قُطِعَ عَلَيْهِ أَجَلُهُ؛ وَلَوْ لَمْ يُقْتَلْ لَعَاشَ إِلَى أَجَلٍ آخَرَ، وهذا باطل؛ لِأَنَّ الله - تعالى - قَدَّرَ الْمَوْتَ، وجعل له أسبابًا؛ قَدَّرَ بَانَ هَذَا سَيَمُوتُ بِالْقَتْلِ، كما قدر الموت على من يموت بالمرض، أو بالهدم أو بالعرق أو بالحرق أو بغير ذلك من الأسباب .

فقول المعتزلة هذا من أبطل الباطل؛ لِأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ لَهُ أَجَلًا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّ الله جعل له أَجَلَيْنِ، فجعله تعالى عن قولهم كَالْجَاهِلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ، وهذا من أبطل الباطل؛ والصواب أَنَّ الْمَقْتُولَ؛ كغيره أَجَلُهُ مُقَدَّرٌ بِالْقَتْلِ؛ لَا يَنْقُصُ وَلَا يَنْتَهِرُ، فهو داخل في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا فَكَانَ سَعَةً وَلَا يَسْتَفْتُونَ﴾ [يونس: ٢٤٩] ومن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) واللفظ له

ذلك: حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان أنها قالت للنبي ﷺ: اللَّهُمَّ أَتَيْتُنِي بِرُؤُوحِي رَسُولَ اللَّهِ، وَيَأَيُّهَا أَبِي سُفْيَانُ وَيَأَيُّهَا مُعَاوِيَةُ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَأَلْتُ اللَّهَ بِأَجَالِي مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامِ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقِ مَفْسُومَةٍ لَنْ يُعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ جَلْوِ، أَوْ يُؤَخَّرَ شَيْئًا عَنْ جَلْوِ، وَلَوْ كُنْتُ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»<sup>(١)</sup> أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

وهذا دليل واضح بأن الآجال مَضْرُوبَةٌ ومعدودة؛ ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول: إن هذا أمر فُرغ منه<sup>(٢)</sup>، لكن ظاهر حديث أم حبيبة أنه جائز؛ لأن النبي قال: «لَوْ كُنْتُ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا»<sup>(٣)</sup>، ولم يقل: إنه ممنوع، فدل على جوازهِ، لكن ينبغي أن يُقَيَّدَ بالطاعة، فإذا قَلَّتْ: أطال الله عمرَكَ على طاعته؛ فهذا حسن، أما إذا قَلَّتْ: أطال الله عمرَكَ فقط؛ فهذا ليس دعاءً، ومنه ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»<sup>(٤)</sup>، فإذا طال

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفى (ص ٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٤٠/٥) و(٤٣/٥)، و(٤٧ - ٥٠)، والترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكره رحمه الله، وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (٢٧٤٢)، والحاكم (٤٨٩/١) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٧١/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٤٩) - تحقيق: طارق عوض الله، والبزار في «مسنده» (٣٦٢٣)، والطيالسي (٨٦٤)، وغيرهم. وفي سنده علي بن زيد: ضعيف، لكن له شاهد لا بأس به من حديث عبدالله بن بسر؛ أخرجه الترمذي (٢٣٢٩)، وأحمد (١٨٨/٤) و(١٩٠/٤)، والضياء في «المختارة» =

العمر على شرٍّ، فهذا شرٌّ لا خير، وإذا طال العمر على خير؛ فهذا خيرٌ، ونحن في لهجتنا الدارجة نقول: (أطال الله عمرَكَ)، (طَوَّلَ الله عمرَكَ)، فينبغي أن يضاف إليها: «على طاعته»؛ حتى تحصل الفائدة، وتكون الدعوة فيها خير.

= (٤٣/٩)، (٦٠، ٨٣، ٨٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٧١/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٤١)، ٢٢٦٨ - تحقيق: طارق عوض الله)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٥٠٩). وفي الباب بمعناها عن أبي هريرة، وجابر، وأنس، وعبادة بن الصامت، وغيرهم. انظر: «مجمع الزوائد» (٢٠٣/١٠ - ٢٠٤).



### شَمُولِ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ):

#### الشَّرح

في هذا إثبات علم الله - عز وجل -، وقد سبق الكلام على علم الله، عند قول المؤلف: (خَلَقَ الْخَلْقَ يَعْلَمُوهُ)، وهنا كرر ما أشار إليه، فقال: (لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)؛ والمعنى: أَنْ عِلْمَ الله - سبحانه وتعالى - سابق للمقادير.

ومراتب القدر - كما هو معلوم - أربع:

المرتبة الأولى: عِلْمُ الله الشامل لجميع الكائنات

الثانية: كتابته لها في اللوح المحفوظ.

الثالثة: إرادته ومشيئته.

الرابعة: خلقه وإيجاده<sup>(١)</sup>.

هذه مراتب القدر، فمن لم يؤمن بها؛ لم يؤمن بالقدر، والأدلة عليها كثيرة؛ قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِنَا وَالْأَرْضِ وَإِنْ ذَلِكَ يُكْتَبُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج: ٧٠)، فهذا دليل على إثبات العلم والكتاب، وقال سبحانه: ﴿هَذَا صَمَدٌ مِنْ مُشْبِئِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَسْوَاقٍ إِلَّا فِي صُحُفٍ يَنْقُلْنَ أَنْ نَرَاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١)

(١) انظر: «شفاء العليل» (١٣٣/١ - ٢٢٦)

(الحدید: ٢٢).

وللإرادة أدلة كثيرة كما سبق؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وللخلق والإيجاد أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ﴾ (فجر: ٢٢)، ومنها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦١)، ومن أنكر المرتبة الأولى والثانية - العلم والكتابة - فقد كفره أهل العلم؛ لأن من أنكر العلم؛ فقد نسب الله إلى الجهل، ولا شك في كفر هذا وأمثاله.

وكانت القدرية الأولى يتكبرون العلم والكتابة، وهم الذين قال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله: (ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خُصِّموا، وإن أنكروه كفروا)؛ وذلك لأنهم ينسبون الله إلى الجهل، والقدرية الأولى قد انقضوا، وأما عامة القدرية فهم يشبِّهون العلم والكتابة، ويتكبرون عموم الإرادة والمشيئة بجميع الكائنات؛ حتى تشمل أفعال العباد، فإنهم قالوا: إن أفعال العباد ما أَرَادَهَا الله ولا خلقها؛ فالعباد هم الذين أَرَادَهَا وخلقها.

وعِلْمُ الله - كما سبق - شامل للماضي والمستقبل والحاضر، بل لما لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ وأدلة العلم كثيرة من الكتاب والسنة؛ فمنها قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَقَاتِلُ الْقَبْرِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩)، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ (الأنعام: ٦٥).

أما الدليل العقلي على ثبوت العلم لله - عز وجل -:

فإنه يستحيل إيجاد هذه الأشياء مع الجهل؛ ولأن الإيجاد يستلزم

الإرادة، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم؛ فثبت علم الله في الشرع والعقل؛ ففي الشرع فالأدلة كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُنِّي سِتْرَهُ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ بِحُسْنِ عِلْمٍ﴾ [النساء: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْغَيْبَ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الحجر: ٢٦] [سورة الجن آية: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُهُ مَنَافِعُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَكَانَ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاشِدٌ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهناك من قَسَمَ المراتب إلى ستة، وهذا كلام لا نعرف من قاله. ومعروف عند أهل العلم أن المراتب أربعة، والمشينة واحدة لا تنقسم. والإرادة جعلها شيخ الإسلام رحمه الله على درجتين، وكل درجة تتضمن مرتبتين<sup>(١)</sup>:

الدرجة الأولى: العلم، وتتضمن مرتبة العلم والكتابة.

والثانية: الإرادة وتتضمن الإيجاد والخلق.

فهذه أربع مراتب، ولا نعرف أنَّ أحداً قسمها سبعا.

(١) انظر: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام، و«مجموع الفتاوى» (١٥٢/٢) و(١٢) و(١٢٧) و(١٣٧-١٣٨)، و«جامع الرسائل والمسائل» (١٨٣/١).

الله تعالى خلق الخلق لعبادته وتوحيده

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ رحمه الله: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاَهُمْ عَنْ مُعَاصِيَتِهِ):

### الشرح

في هذا أن الله - سبحانه وتعالى - أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته، فبعد أن ذكر الخلق والقدر، ذكر مقتضى خلق الخلق؛ وهو عبادته وتوحيده وطاعته، فقال: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاَهُمْ عَنْ مُعَاصِيَتِهِ)؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنسَ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى يعبدون: أي: يوحّدون؛ بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والوقوف عند الحدود، والاستقامة على دين الله، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَعْبُدُونَهُ أَذِلَّكُمْ أَبَدًا وَعَبَادَ عَمَلًا وَهُوَ أَلَمُّ الْغُفُورِ﴾ [المك: ٢٢]، فهذه هي العبادة التي خلق الله الخلق من أجلها.

ما شاء الله كان وما لم ينشأ لم يكن

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ﴾:

### الشرح

هذا في بيان مشيئة الرب، وأن كل شيء يجري بتقديره ومشيته، وأن مشيئة الله نافذة؛ أما مشيئة العباد فهي تابعة لمشيئة الله - عز وجل -؛ فلا يتخلف ما شاء الله؛ كما ذرّج أن يقال: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)؛ فكل شيء يجري بتقدير الله ومشيته. وإرادته الكونية؛ لا تتخلف، والمشيئة لا تنقسم كما تنقسم الإرادة، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا تَكُونُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال - سبحانه -: ﴿وَمَا تَنفَعُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ رَبُّ الْمَلَكُوتِ﴾ [القصص: ٢٢٩] وقال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ أَنَّا رَأَيْنَا إِلَهُنَّ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمُنَّهَا فَكُنَّا عَنْهُمْ عَالِينَ كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَنَا وَكُلًّا مَا كَانُوا يَظُنُّونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وقال - سبحانه -: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا قَالُوا لَهُمْ فَعَلْهُمُ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [الجن: ٢١٣] وقال - تعالى -: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُصْهِرْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٢٩] وقال - سبحانه -: ﴿فَمَنْ يَرِثِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَنْجِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدِ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَيِّقًا حَرِيمًا كَمَا نَشَاءُ يَمْكُدُ فِي الْكَيْدِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فمشيئة الله نافذة؛ أما مشيئة العباد فهي تابعة لمشيئة الله عز وجل؛ فقد

يشاء العبد شيئاً لكن لا يقع؛ لأن الله لم يشأ وقوعه، وقد يشأ العبد شيئاً فيقع؛ لأن الله أراد وقوعه.

وقد أنكر الله - سبحانه وتعالى - على الكفار احتجاجهم بالمشيئة؛ كما في قوله - عز وجل -: ﴿مَسِيئَاتُ الَّذِينَ أَنْتَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَنْتَرَكُوا وَلَا نَسَائِكًا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دُافُوا بِنَسَائِهِمْ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَّ لَوْ إِنْ نَسِيتُمْ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية، وقال - سبحانه -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَنْتَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا مِنْ دُونِهِ، مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا نَسَائِكًا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ، مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَلْ عَلَى أَرْسُلٍ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَيْدِ﴾ [النحل: ١٣٥]، وقال الله - سبحانه وتعالى - عن نوح في خطابه لقومه: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ تَرْجَمُونَ﴾ [مئود: ٣٤]، فهؤلاء المشركون احتجاجوا بالمشيئة على محبة الله ورضاه، فأنكر الله عليهم ذلك؛ لأنهم استدلوا بها على أن ما شاء الله فقد أحبه ورضيه، فلو أنه أحبه ورضيه لما شاءه؛ فأنكر الله عليهم ذلك؛ لأن الله قد يشاء الشيء ولا يرضاه ولا يحبه، أو أنهم عارضوا شرع الله ودينه بمشيئته، أو عارضوا قضاء الله وقدره بالشرع، قال تعالى ذاكراً قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَنْتَرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فأنكر الله عليهم ذلك؛ فلا يعارض ما شرعه الله بالمشيئة؛ لأن الله حكيم فيما يقدره ويشاؤه - سبحانه وتعالى -، فإذا قدر الله الشرك على العبد؛ فله الحكمة البالغة، ولا يكون هذا حجة للعبد في جواز الشرك، ولو قدر الله المعصية على العبد؛ فله الحكمة البالغة، ولا يكون هذا دليلاً على جواز المعصية.

### مسألة الضلال والهدى

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ رحمته: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً، وَتُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَحْذُلُ وَيَبْتَلِي عَذْلاً):

#### الشرح

هذا فعله - سبحانه وتعالى -؛ يهدي من يشاء ويعصم ويعافي، فضلاً منه وإحساناً، ويضل ويبتلي؛ عدلاً منه وحكمة، وهذه المسألة - مسألة الهدى والضلال - مسألة عظيمة من أهم مسائل القدر، حتى إن العلامة ابن القيم رحمته قال: إنها قلب أبواب القدر<sup>(١)</sup>.

وأراد المؤلف رحمته الرد على القدرية والمعتزلة الذين يقولون: إنه يجب على الله فعل الأصلح للعبد، وهي نفسها مسألة الهدى والضلال.

والقدرية أنكروا أن يهدي الله أحداً أو أن يضل أحداً فقالوا: إن العبد هو الذي يهدي نفسه، وهو الذي يضل نفسه، وأجابوا على النصوص فقالوا: معنى «يهدي» يعني يبين له الطريق الصواب، ويسمي مهتدياً، ومعنى «يضل» أي: يسميه ضالاً، أو يحكم عليه أن يضل نفسه بعد أن يُخلق.

ولا بد من بيان مراتب الهداية وأنواعها حتى يتبين هذا الباب.

اعلم - وفقك الله - أن مراتب الهداية أربعة:

المرتبة الأولى: الهداية العامة:

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص ٦٥ وما بعدها)، نشر: دار الفكر، بيروت، طبع سنة ١٣٩٨ هـ تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس الحلبي.

وهي أن يهدي كل مخلوق إلى ما يصلح معاشه ويقمه، وهي عامة لكل مخلوق؛ للآدميين، والطيور، والوحوش، والصغار، والكبار، والأطفال، ويدخل في ذلك: هداية الطيور إلى أوكارها، وهداية الأنعام إلى مراتعها، وهداية الطفل إلى ندي أمه، وهداية الإنسان إلى ما يصلحه في معاشه، وما يقم به أمور حياته؛ كما هداه الله كيف يأكل، وكيف يشرب، وكيف ينكح.

ومن أدلة الهداية العامة قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿سَجَّ اسْمَ رَبِّكَ أَكْبَلُ﴾ ١ التي خلق فسق ٢ والتي قدر فهن ٣ الأعلى: ١-٣، وقال - سبحانه - في جواب موسى لفرعون: ﴿عَالَمٌ رَبُّكَ الْكَرِيمُ أَتَقُلُّ كُلَّ نَفَسٍ فَخَرُّهُ ثُمَّ هَكِّنْ﴾ ٤ رك: ٢٥٠، وهذه الهداية لم ينكرها أحد.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والإرشاد والتعليم والدعوة والإبلاغ:

وهي هداية الإنسان إلى ما يصلحه في معاده وهي النجاة من النار، وهذه خاصة بالمكلفين من الجن والإنس، وليست للحيوانات ولا الطيور، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه؛ لأن الله لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة، وحتى يُهدى هذه الهداية.

وهذه الهداية هي التي أرسل الله من أجلها الرسل، وأُنزل من أجلها الكتب قال سبحانه: ﴿وَسُورًا مُبِينَةٍ وَمُذَوَّبَةٍ لِّنَا لِنُبَيِّنَ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ آيَاتِهِ﴾ النبت: ١٦٥، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا أَنَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَاهُمْ﴾ البقرة: ١١٥، أي: ما كان الله ليضلهم بعد أن هداهم وبين لهم طريق الخير، فلما بين لهم طريق الخير وتركوه؛ أضلهم عقوبة لهم؛ قال - سبحانه -: ﴿وَمَا تَدْرِي هَدَيْنَاهُمْ قَاسِمًا أَمْ كُنَّا عَلَى الْكُفَرِ﴾ نقلت:

٢١٧؛ هديناهم؛ أي: دللناهم على طريق الخير وطريق الشر، فلما بين الله لهم طريق الخير وطريق الشر واستحبوا العمى على الهدى؛ جاءتهم العقوبة وهي المذكورة في قوله: ﴿فَلَمَّا ذُكِّرُوا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (نصت: ٢١٧).

وهذه الهداية ثابتة للرسل والأنبياء والمصلحين والدعاة، أي أن كلهم يقدرون عليها؛ قال الله - تعالى - للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)، أي: ترشد وتدل وتبلغ وتدعو إلى الأمر الذي خلق العباد له؛ وتبين ما أوجب الله عليهم من توحيدهِ وطاعته وترك معصيته. فإذا بعث الله الرسول فأرشد الناس ودلهم على ما أوجب الله عليهم من التوحيد والطاعة واجتناب المعصية؛ قامت الحجة عليهم، فإن عصوا بعد ذلك أو كفروا؛ استحقوا العذاب.

#### النوع الثالث: هداية التوفيق، والإلهام، والتسديد:

وهي أن يوفق الله الإنسان إلى قبول الحق والرضا به واختياره، وهذه الهداية خاصة بالله، فلا يقدر عليها إلا هو - سبحانه -؛ فلا يقدر عليها أحد من الخلق؛ لا الأنبياء، ولا غيرهم؛ وهذه هي التي نفاها الله عن النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (النقص: ٥٦)، أي: أن النبي ﷺ لا يخلق الهداية في القلب، ولا يلهمه، ولا يجعله يقبل الحق ويختاره ويرضى به، قال سبحانه: ﴿مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الانعام: ٣٩)، فالله - تعالى - هو الذي يهدي ويضل، والعبد هو الضال والمهتدي. ولا بد في وقوع هذه الهداية من أمرين:

الأمر الأول: الهداية من الله.

والثاني: الاهتداء من العبد.

فإذا هداه الله واهتدى؛ حصلت له الهداية بالتوفيق، وكذلك الإضلال من الله، والعبد هو الضال؛ فإذا أضله الله فُضِّل؛ صار ضالاً.

فالهداية والإضلال بيد الله عز وجل؛ وقد اتفقت رسل الله وكتبه المنزل، على أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له.

وهذه المسألة مسألة عظيمة؛ لأن أفضل ما يقدره الله على العبد وأجل ما يقبضه له هو الهداية، وأعظم ما يبطل الله به العبد، وأعظم مصيبة تصيبه هو أن يقدر الله عليه الإضلال، وكل نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل مصيبة هي دون مصيبة الإضلال.

وهذه المرتبة أنكرها المعتزلة والقدرية، فأنكر عليهم أهل السنة ويدعواهم وضلواهم، ومن ذلك قول المؤلف رحمه الله: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُخْذِلُ وَيَبْقِي عَذْلاً).

فأهل السنة قالوا: النصوص واضحة؛ أن الله - سبحانه وتعالى - بيده الهداية والإضلال، ومن ذلك قول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ الشُّبُهَاتِ﴾ (الشبهة: ٢١٣)، فلو كانت الهداية بيد العبد لما قديها الله بالشبهة، ولكن الله - سبحانه وتعالى - خص المؤمن بنعمة دينية دون الكافر؛ كما قال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ لَا بِنِعْمَةِ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الصفات: ٥٧)، وقال - سبحانه -: ﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِيسَاءَ أُنْفُذْنَا هُمْ أَرَادُوا أَن يَخْسِرُوا فَأَنَّا لَمُنَّةٌ﴾ (البقرة: ١٨٧).

هذه النعمة اختص الله بها المؤمنين؛ فجعلهم يقبلون الحق، ويرضون

به، ويختارونه، وألهمهم إياه، وخلق الهداية في قلوبهم؛ فصاروا مهتدين، وله الفضل والإحسان.

والكافر أضله الله وخذله وإبتلاه، كل ذلك عدلاً منه، وحكمة بالغة.

والمعتزلة والقدرية تأولوا النصوص، فقالوا: قَوْلُهُ: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [التحل: ٩٣] معناه: يسميه مهتدياً، ويبين لهم طريق الصواب، أو يسميه ضالاً، أو يحكم عليه بالإضلال، بعد أن يخلق الضلال من نفسه، ففسروها بهداية الدلالة والإرشاد، وهذا من أبطل الباطل .

وضرب القدرية مثلاً لذلك - والله يقول: ﴿فَلَا تَضْمُرُوا بَيْنَ الْأَئِمَّةِ﴾ [التحل: ٧٤] -، فقالوا: مَثَلُ الله في ذلك مَثَلُ رجل له إبنان أعطى كل واحد منهما سيفاً، وقال لهما: جاهداه به في سبيل الله؛ فالأول أطاع والده وجاهد به في سبيل الله؛ والثاني عصى والده وجعل يستعرض رقاب المسلمين ويقتلهم، فهذا اختار طريق الحق من نفسه، وهذا اختار طريق الضلال من نفسه، والله - تعالى - ما خص الأول بهداية ولا خص الثاني بالإضلال!! وهذا من أبطل الباطل كما أوضحناه قبل.

والمرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة:

فالكفار يهديمهم الله إلى النار، والمؤمنون يهديمهم الله إلى الجنة، قال سبحانه وتعالى في الكفار: ﴿أَكْثَرُهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ هُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٢١] من دُونِ اللَّهِ فَاعْتَدُوا لَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ ﴿٢٢﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣] الآية، وقال سبحانه في المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ يُغِلُّ أَفْئِدَتُكُمْ فِي سَبِيلِهِمْ وَيُضِلُّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ﴾ [٢٤] [ممتد: ٢٤-٢٥]، فهذه هداية بعد قتلهم يهديمهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم بإرضاء خصومهم، وقبول أعمالهم.

فهذه مراتب الهداية؛ وأهل السنة يقسمون الهداية إلى قسمين:

- هداية دلالة وإرشاد.
- وهداية توفيق وإلهام<sup>(١)</sup>.

والقدرية والمعتزلة ليس عندهم إلا هداية واحدة؛ هي: هداية الدلالة والإرشاد، أما هداية التوفيق فهم يردونها إلى هداية البيان والإرشاد، وهذا من أبطل الباطل، وهذا مبني على أصلهم الفاسد، وهو قولهم: بوجود فعل الأصلح للعبد على الله؛ فما دام يجب على الله فعل الأصلح للعبد؛ قالوا: فلا يمكن أن يهدي الله أحداً، ولا أن يضل أحداً .

وهذا أيضاً مبني على أصلهم الفاسد الآخر، وهو القول: بأن أفعال العباد مخلوقة لهم؛ فالعباد هم الذين خلقوا الهداية والضلال، وهم الذين يخلقون الطاعات والمعاصي، ولو خص الله أحداً بالهداية وخذل أحداً؛ لكان ظالماً، والله عدل لا يجور .

وكما سبق: فإن الله له حكمة بالغة في تقدير الكفر والمعاصي وغيرهما، وأن الذي يُنسب إلى الله إنما هو الخلق، وهو مبني على الحكمة، والذي ينسب إلى العبد هو المباشرة والكسب .

ولهذا: فإن الهداية والإضلال بيد الله؛ فالله تعالى يهدي ويضل، والعبد يباشر؛ فيكون هو المهتدي أو الضال.

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٩/١ - ١٤)

### تقلب العباد في مشيئة الله

♦ قَالَ الْوَلَدُ ﷺ: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِي بَيْنَ فَضْلِي وَعَذْلِي):

#### الشرح

• قوله: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِي بَيْنَ فَضْلِي وَعَذْلِي)

أي: أن كل العباد يتقلبون بين مشيئته وفضله؛ كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُورٌ وَمِنْكُمْ مَوْتٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنبياء: ٢١] فهو - سبحانه وتعالى - يهدي من يشاء فضلاً منه وإحساناً، ويضل من يشاء مشيئة وحكمة وعدلاً ﴿وَمَا رَأَيْتُ يُضَلُّوا لِلَّهِ لِيُدْخِلَ﴾ [ص: ٢٤٦].

فالله - سبحانه وتعالى - عليم بالمحالات التي تصلح للهداية؛ عليم بالمحل الذي يصلح لغرس الكرامة فيهديه، وعلیم بالمحل الذي لا يصلح لغرس الكرامة فلا يهديه .

وهو - سبحانه وتعالى - يتصرف في عباده كما يشاء، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، والله تعالى وضع الأشياء في مواضعها، ولا يكون الإنسان ظالماً إلا إذا منع الشخص مما يستحقه.

والله تعالى ما منع الكافر شيئاً يستحقه؛ فالهداية والإضلال ملكه، وبيده - سبحانه وتعالى - فهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء؛ يهدي من يشاء فضلاً وإحساناً، ويضل من يشاء مشيئة وحكمة وعدلاً .

ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [اعتذار: ٢١٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْتٍ فَلَا يَحَاقُ عِلْمًا وَلَا حَصًّا

﴾ [طه: ١١٢]

والظلم يختلف الناس في تفسيره، ولعله يأتي - إن شاء الله - في العقيدة بيان حقيقة الظلم، وأقسامه، والأقوال فيه.

تعالى الله سبحانه عن الأضداد والأنداد

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ):

الشرح

• قوله: (وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ).

أي: أن الله تعالى متعال عن الأضداد والأنداد، و(الأضداد) جمع ضِدٌّ وهو المخالف، و(الأنداد) جمع نَدٌّ وهو البمثل، فهو سبحانه لا مخالف له، «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»<sup>(١)</sup> فلا يمكن أن يخالفه شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإسراء: ٤] فلا ضد له، ولا مخالف له، ولا مثل له - سبحانه وتعالى -، ومقصود الماتن ۞ الإشارة إلى الرّدّ على المعتزلة؛ القائلين بأنّ العبد يخلق فِعْلَ نفسه.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، ومن طريقه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٤٢) - تحقيق: الحاشدي، ورواه أيضاً النسائي في «السنن الكبرى» (٩٨٤٠) من حديث إحدى بنات النبي ۞، وضعفه الحاشدي في تعليقه على «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٢٠/١ - ٤٢١)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٥٨/١) - بعد ما عزاه إلى أبي داود والنسائي: - «... وأمّ عبدالحميد، لا أعرفها». وفي الباب أحاديث وآثار، لا تخلو أسانيداً من مقال. انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٢١/١ - ٤٢٥).

لا راد لقضاء الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ):

الشرح

لا يرد قضاء الله راد، فإذا قضى الله شيئاً فلا يردّه أحد، ولا بد من وقوعه، (وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)؛ أي: لا يؤخر أحد حكم الله، بل لا بد أن ينفذ، (وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ)؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - هو الغالب، وهو الواحد القهار، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فلا يغلب أمر الله شيء.



الإيمان بأن كل شيء يجري بمشيئة الله وقدره

♦ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷺ: (أَمَّا بِذَلِكَ كَلُّوْا، وَأَيُّقِنَّا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ):

#### الشرح

أي: صدقنا، واعتقدنا ذلك، وقوله: (وَأَيُّقِنَّا): من اليقين وهو الاستقرار؛ يقال: يقن الماء إذا استقر في المكان، أي: ثبت هذا في قلوبنا واستقر، بأن كل ما تقدّم، فإنه يجري بمشيئة الله وقدره.

والمعنى: أن كل شيء يجري بقضاء الله وقدره وإرادته وتكوينه ومشيئته. ومشيئة الله نافذة، وقدر الله جارٍ ماضٍ، وما أَرَادَهُ اللهُ لا بد أن يكون؛ أمنا بذلك وصدقنا، واستقر ذلك في قلوبنا؛ لأن هذا من الإيمان بقضاء الله وقدره.

كما لا بد من الإيمان بعلم الله بالأشياء، وكتابتها في اللوح المحفوظ، وإرادته لكل ما يوجد في هذا الكون؛ لأنه هو الذي خلقه وأوجده.

وهذا مكتوب قبل أن تُخْلَقَ الخلائق بخمسين ألف سنة؛ كما ثبت في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)

وأن محمداً عبده المصطفى ونبّه المجتبى

♦ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷺ: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى):

#### الشرح

(إن) - بكسر الهمزة - معطوف على قوله: (نُفُوْا فِي تَوْجِيدِ اللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ: إِنَّ اللهَ وَاجِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ)؛ لأن (إن) تكسر بعد القول كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ مِائْتِي أَلْكَتِبُ﴾ (ترجم: ٣٠)، وكما في قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِيَنَّ الْمُسْتَقِيمِينَ﴾ (الضافات: ٢٥٢)؛ وتقرأ الجملة هكذا: (نُفُوْا فِي تَوْجِيدِ اللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ: إِنَّ اللهَ وَاجِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ، وَلا شَيْءَ مِثْلُهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى). فقد عطف المؤلف إثبات النبوة على إثبات توحيد الله في ربوبيته، وفي أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وفي ألوهيته وعبادته.

قوله: المجتبى والمصطفى والمرتبى: متقاربة، يعني: أن محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي العربي المكي، ثم المدني هو عبد الله ورسوله، اجتباه الله، واصطفاه على العالمين، وارتضاه، واختصه بالرسالة والنبوة - عليه الصلاة والسلام -.

فلا بد من الإيمان بأن محمداً عبد الله ورسوله، وأنه خاتم النبيين، وأنه أفضل الأنبياء، وأنه رسول الله إلى العرب والعجم، والجن والإنس؛ من لم يؤمن بهذا فهو كافر ليس بمؤمن، ولو زعم أنه يوحد الله ويعبد.

شهادتان لا تصح إحداهما بدون الأخرى: من شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم تقبل منه، ومن شهد أن محمداً رسول

الله ولم يشهد أن لا إله إلا الله لم تقبل منه، وإذا أطلقت إحداهما دخلت فيها الأخرى، وإذا اجتماعتا تُفسر الشهادة الأولى بتوحيد الله، والثانية الشهادة برسالة النبي ﷺ.

ولهذا نفى الإيمان عن أهل الكتاب - اليهود والنصارى -؛ لأنهم لم يشهدوا أن محمداً رسول الله، وإن كانوا يزعمون أنهم مؤمنون بالله؛ قال الله تعالى في سورة «براءة»: ﴿قِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَبَيِّنُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَكِنْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْمَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فنفى عنهم الإيمان؛ لأنهم لم يؤمنوا بأن محمداً رسول الله، وإن كانوا يزعمون أنهم آمنوا بالله، وأنهم يعملون بكتبهم، لكن الإيمان نُفِيَ عنهم؛ فما صح، ولا اعتُبر.

وقد جمع الله له ﷺ بين العبودية والرسالة، وهذه أفضل المقامات وأكملها، وكلما حقق الإنسان العبودية لله؛ كلما علت درجته، ومرتبته عند الله.

ولا يمكن أن يخرج أحد عن العبودية أبداً، فالتناس - بل جميع المخلوقات - معبدة لله؛ العبودية العامة، قال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا لِيَاقِيَنَّ رَبَّهُ عَبِيداً﴾ [التيسر: ٢٢٣]، هذه هي العبودية العامة، ومعناها: أن كل مخلوق تنفذ فيه مشيئة الله وقدرته وإرادته.

وأما العبودية الخاصة؛ فهذه خاصة بالمكلفين، الذين يعبدون الله باختيارهم، ويوحدهون؛ من الجن والإنس والملائكة، وأكمل المقامات للنبي ﷺ هي العبودية الخاصة والرسالة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: مدارج السالكين (١/١٠٥).

وكلما حقق الإنسان عبوديته لله؛ كلما علت درجته ومرتبته؛ ولما كان الأنبياء أكثر الناس عبودية لله؛ كانوا أفضل الناس وأقربهم إلى ربهم عز وجل، ولذلك كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - أكثر الناس عبودية لله - عز وجل -، وأعلامهم وأشرفهم منزلة، ولهذا؛ فقد وصفه الله بالعبودية في المقامات الشريفة، فقال: ﴿يُحِبُّكَ الَّذِينَ آمَنُوا يَحِبُّونَ لِيَذَرِيَ الْمَسْجِدَ الْمُكْرَمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [البقرة: ١٢٥]، ووصفه بالعبودية في مقام الدعوة إلى الله فقال: ﴿وَاللَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَاءً﴾ [الحج: ٢١٩]، ووصفه بالعبودية في مقام الوحي فقال: ﴿لَا تَحِزْ إِلَى عِبَادِهِ مَا أَحَازَ﴾ [التيسر: ٢٢٣]، ووصفه بالعبودية في مقام التحدي فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فهذه أكمل المقامات وأشرفها.

#### كيفية إثبات النبوة:

وفي ثبوت النبوة كلام للناس؛ فكثير من أهل الكلام والنظر يشتبون النبوة بالمعجزات؛ فيرون أن المعجزات هي الدليل على النبوة.

والمعجزات لا شك أنها من دلائل النبوة، لكن ليست دلائل النبوة محصورة في المعجزات، بل دلائل النبوة كثيرة؛ منها: المعجزات، وخوارق العادات التي يجريها الله على يد النبي، مثل الإسراء والمعراج.

وكذلك من أعظم المعجزات الدالة على نبوته ﷺ: القرآن الكريم، ومنها: نُبُحُّ الماء من بين أصابعه ﷺ، وكذلك تكثير الطعام، وإخباره عن المغيبات بوحى من الله عز وجل.

وهناك أيضاً دلائل كثيرة، حتى ألف العلماء مؤلفات كـ«دلائل النبوة» لليبهي وغيره.

والنبوة يدعيها أصدق الناس، وأكذبهم، والناس يفرقون بين الصادق وبين الكاذب في أخباره وأقواله وأفعاله، فلا بد أن يقول مدعيها للناس كلاماً، ولا بد أن يخبرهم بأخبار، ولا بد أن يفعل أشياء؛ يعرف الناس بها الصادق من الكاذب .

بل إن الناس يعرفون الصادق من الكاذب في غير دعوى النبوة؛ فأتت تعرف الصادق من الكاذب في بيعه وشرائه؛ فتعرف المهندس الصادق، وتعرف الطيب الصادق الناصح؛ ولهذا تجد بعض الناس يشتري من فلان؛ لأنه صادق، ولا يشتري من فلان؛ لأنه كاذب .

فإذا كان هذا حاصلاً في أمور الناس المعيشية، فكيف لا يُعرف الصادق من الكاذب في دعوى النبوة؟!

فالنبي يعرف الناس صدقه فيما يُخبر به من الأخبار، وبما يفعله من أمور كلها مشتملة على علوم وأحوال يتبين بها صدقه، فصدق النبي ووفاءه ومطابقة أقواله لأفعاله؛ دليل على نبوته .

ومن أمثلة ذلك: استدلال خديجة بنت خويلد ﷺ بزوج النبي ﷺ على نبوته بما جبل الله نبيه عليه من الأخلاق والصفات الحميدة مثل الصدق والوفاء، وذلك لما جاءه جبريل في أول البعثة في صورته التي خلق عليها، وقد ملا ما بين السماء والأرض، رُعب النبي ﷺ رعباً شديداً، وجاء إلى زوجه خديجة وقال: «لقد حُشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كُلاً والله ما يُخزيك الله أبداً؛ إِنَّكَ لَنَصِلَ الرَّجْمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَدْدُومَ، وَتُقْرِى الصَّبِيَّ، وَتُؤَيِّنُ عَلَى نَوَاقِبِ الْحَقِّ»<sup>(١)</sup>، فالنبي ﷺ يعلم أنه صادق،

(١) أخرجه البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

ولكن يخشى أن يكون عرض له عارض سوء، فبينت له خديجة أنه لا يمكن أن يعرض له عارض سوء؛ لأن الله لما جبله على هذه الصفات الحميدة فلا يخزيه - سبحانه وتعالى - . فهذا من الأدلة التي يُستدل بها على نبوة النبي ﷺ.

ومن ذلك أيضاً: تصديق ورقة بن نوفل ابن عم خديجة له، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل بالعربية، فجاءت خديجة بالنبي ﷺ إلى ابن عمها، وقالت: اسمع من ابن أخيك .

فأخبره النبي ﷺ خبره، فأمن به وصدق في الحال، واعترف بنبوته، وقال: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى»<sup>(١)</sup>، والناموس: هو صاحب السر في الخبر، يعني جبريل الذي ينزل على موسى وأمن في الحال، وكان ورقة كان شيعياً كبيراً قد عمي وطعن في السن، فتمنى أن يكون جذعاً حين يخرجته قومه، قال: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْمُخْرِجِيْ هُمْ؟! فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا مُودِي»<sup>(٢)</sup>، فأمن ورقة ﷺ، وجاء في حديث أن النبي ﷺ شهد له بالجنة، والمقصود: أن ورقة استدل بذلك على صدق النبي ﷺ.

وكذلك أيضاً هرقل ملك الروم لما كتب له النبي ﷺ له الكتاب يدعوه إلى الإسلام كتب له: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ،

(١) أخرجه البخاري (٣) وفي مواضع متفرقة من صحيحه الجامع، ومسلم (١٦٠)، وهو طرف آخر للحديث السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٠)، وهو طرف آخر للحديث السابق.

سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَتَا بَعْدَ... فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَتَسْلِمُ نَسْلَمُ بِؤُتِكَ اللَّهُ أَجْزَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُ فَإِنَّا عَلَيْكَ إِنَّمَا الْأَرِيْبَيْنِ، وَ «تَأْمَلُ الْكُتُبَ تَمَازُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَلَّمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَسْبِيءُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ سُبْحَانَكَ وَلَا يَتَّخِذُ مِثْلًا لَكَ بَشَرًا إِنِّي بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِنْ كُنَّا قَوْلًا فَتَقُولُوا أَتَشْكُرُونَ أَمْ لَا تَشْكُرُونَ» (١) [ابن عمران: ٢١٤].

فاهتم هرقل بهذا الكتاب اهتماماً عظيماً، وسأل في بلده: هل يوجد أحد من العرب؟ - وكان أبو سفيان في ذلك الوقت في الشام في تجارة ومعه أصحابه - فقليل: نعم هاهنا، فقال: عليّ به، وقال لترجمانه: قل لهم: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل؟ فقالوا: أبو سفيان، فقدم أبا سفيان وجعلهم خلفه، وقال لترجمانه: نسائل هذا الرجل مسائل فإن كذبتني فكذبته؛ ولهذا تحاشى أبو سفيان الكذب وهو في كفره وقال: لولا أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت.

فسأله أسئلة استدلل بها على صدق النبي ﷺ واعترف بنبوته، «قَالَ لَهُ: كَيْفَ تَسْبِيءُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا دُوْ تَسْبٍ» (٢)، قال: «وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تَبْعُثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا» (٣) وسأله: «فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلَائِكَةٍ؟ قُلْتُ: لَا» (٤)، فَقَالَ: «فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلَائِكَةٍ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَتَلَبَّسُ مَلَكٌ أَبِيهِ» (٥)،

- (١) أخرجه البخاري (٧) بهذا اللفظ، من حديث أبي سفيان بن حرب، وهو خير طویل، وسأني تخريجه بنصامه.
- (٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).
- (٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) بهذا اللفظ.
- (٤) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).
- (٥) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

وسأله «فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعُفَاوُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلِ ضَعُفَاوُهُمْ» (١)، فَقَالَ: «وَكَذَلِكَ أَتَّبَاعُ الرُّسُلِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ» (٢)، وسأله «أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟» (٣) فَقَالَ: يَزِيدُونَ، فَقَالَ: وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَمُوتَ» (٤)، وسأله فقال: «فَهَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شُخْطَةً لِيَبِينَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا» (٥)، قَالَ: «وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بِشَاشَةَ الْقُلُوبِ» (٦)، وسأله «فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قُلْتُ: كَانَتْ مَوْلَاً وَسَجَالاً، يُدَالِ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ، وَتُدَالِ عَلَيْنَا الْآخَرَى» (٧) يعني مرة ينتصر عليه، ومرة ينتصر علينا فقال: «فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ» (٨)، وسأله «فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَتَهْنِئَتِنَا عَمَّا كَانَ يُعْبَدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَقَافِ بِالْمَعْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» (٩).

ثم قال لهم: «هَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ

- (١) أخرجه البخاري (٧) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٧٣).
- (٢) لم يقع في «الصححين» بلفظ: «وكذلك أتباع الرسل»، بل عند الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٧٢)، وليس عند لفظ: «في أول الأمر»، ولفظه في «البخاري» (٧): «... فَذَكَرْتُ أَنَّ ضَعْفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ...» ولفظه مسلم (١٧٧٣): «... فَقُلْتُ: بَلِ ضَعُفَاوُهُمْ؛ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ...».
- (٣) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) بهذا اللفظ.
- (٤) أخرجه البخاري (٧) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).
- (٥) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).
- (٦) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، كلاهما بهذا اللفظ، وله عند البخاري في مواضع من الصحيح، بنحوه.
- (٧) أخرجه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).
- (٨) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٧٣).
- (٩) أخرجه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

أعلم أنه منكم»<sup>(١)</sup>، «وإن بك ما قلت حقاً؛ فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لنجنسنت لقاءه، ولو كنتُ عنده، لفعلتُ قَدَمَيْهِ»، «فإن كان ما نقولُ حقاً فَسَيَلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ»<sup>(٢)</sup>.

ثم أخرج أبو سفيان وقومه، فقال لهم أبوسفيان حين خرج: «لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ كَيَفَافُهُ مَلِكٌ بَنِي الْأَصْفَرِ»<sup>(٣)</sup>؛ قوله: (أَمَرَ) يعني عظم شأنه، وكانت العرب إذا كرهت الإنسان نسبته إلى جد غامض، قال أبو سفيان: «والله ما زلتُ ذليلاً مستيقناً بأن أمره سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ قَلْبِي الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهِ»<sup>(٤)</sup>.

فهذا هرقل استدل على نبوة النبي ﷺ بهذه الأدلة من غير المعجزات وخوارق العادات.

وكذلك النجاشي - رحمه الله ورضي عنه - لما جاءه الصحابة وهاجروا إليه سألهم، واستخبرهم خبر النبي ﷺ واستقرأهم القرآن فقرءوا عليه، فقال لهم: «إِنَّ هَذَا الَّذِي أَتَى بِهِ مُوسَى مِنْ مِشْكَاةٍ وَاجِدَةٍ»<sup>(٥)</sup>.

وبهذا يتبين أن الأدلة على نبوة الأنبياء كثيرة، ليست خاصة

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له، وأحمد (٢٦٢/١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) واللفظ لهما، وأحمد (٢٦٢/١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٤١) بهذا اللفظ، ورواه مسلم (١٧٧٣) بنحوه.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠١/١-٢٠٢) و (٢٩٠/٥-٢٩١) من حديث أم سلمة ؓ، وكذا ابن خزيمة (٢٢٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١١٥/١-١١٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧/٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

بالمعجزات وخوارق العادات، كما يزعمه بعض أهل الكلام والنظر من الأشاعرة وغيرهم، حتى إن المعتزلة أنكروا خوارق العادات التي تجري على أيدي المؤمنين، وخوارق العادات التي تجري على أيدي السحرة، مع أنها واقعة، وقالوا: حتى لا يلتبس النبي بغيره، وهذا من جهلهم، وهو من أبطل الباطل.

ومن دلائل النبوة أيضاً: ما أبقاء الله تعالى من آثار الأمم المهلكة؛ فإن الله تعالى ينصر المؤمنين، ويؤيدهم على القوم الكافرين، ويهلك الكفار ويعاقبهم، فيقبض آثارهم في العالم موجودة، وأخبارهم متواترة؛ يعرفها الناس جميعاً؛ كتواتر الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح، وكغرق فرعون، وكآثار قوم لوط، وقوم هود، وقوم صالح.

ولهذا في سورة «الشعراء»: لما ذكر قصة موسى، ثم قصة إبراهيم، ثم قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب قال الله - تعالى - بعد كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَلَئِكَ لَهِوَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨-٩﴾.

ومن دلائل النبوة كذلك: ما اشتملت عليه الشرائع التي جاء بها الأنبياء من العلوم والأعمال والأحوال العظيمة، وما اشتملت عليه من الرحمة للخلق، ودعوتهم إلى ما فيه خلاصهم ونجاتهم، ودعوتهم إلى ترك ما فيه هلاكهم، فهي مشتملة على علوم وأحوال وصفات إذا تخلق بها الناس، وعملوا بها حصلت لهم السعادة، وهي مشتملة كذلك على التحذير من أسباب الهلاك والأخلاق السيئة.

**مراتب الأنبياء والرسل والفرق بين الأنبياء والرسل:**

والأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - على مراتب ودرجات، فالرسل أفضل من الأنبياء.

**وهناك فرق بين النبي والرسول:**

فمن العلماء من قال: إن الفرق بين النبي والرسول أن كلًّا من النبي والرسول يوحى إليه، لكن الرسول يوحى إليه بشرع ويؤمر بتبليغه، والنبي يوحى إليه ولا يؤمر بتبليغه، فإذا أوحى إليه وأمر بتبليغه كان رسولاً، وإن لم يؤمر بتبليغه كان نبياً، ولكن هذا قول مرجوح، والصواب أن الرسول هو الذي يُرسل إلى أمة كافرة فيؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم، كنوح - عليه الصلاة والسلام - أرسل إلى الكفار، فأمن به بعضهم، وكفر به بعضهم، ومثل نوح أيضاً: هود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد ﷺ.

أما النبي: فهو الذي يرسل إلى قوم مؤمنين، ويكلف بالعمل بشريعة سابقة<sup>(١)</sup>، فمثلاً آدم - عليه الصلاة والسلام - نبي؛ لكنه نبي إلى بنيه، ولم يقع الشرك في زمانه، والأمر كذلك بالنسبة لنبي الله شيت، وأمّا نوح ﷺ فكان أول رسول بعثه الله بعد وقوع الشرك أول ما وقع في الأرض؛ فأرسله إلى بنيه وإلى غير بنيه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الشرك<sup>(٢)</sup>، هذا معنى قوله: «كَانَ أَكْثَرُ أُمَّةٍ وَجِدَةً قَبْلَ

(١) انظر: «النبوات» لشيخ الإسلام (٢/٦٨٧-٦٩٠، ٧١٤).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/٤٨٠، ٥٩٦)، وابن أبي حاتم في =

اللَّهُ الْيَتِيمَ مُنْذِرِينَ وَمُنْذِرِينَ» [البقرة: ٢١٣].

وبالمثل: داود وسليمان أنبياء؛ لأنهم كلفوا بالعمل بالتوراة جميعاً التي أنزلت على موسى - عليه الصلاة والسلام - وأزيملا إلى بني إسرائيل الذين كانوا بعد موسى، حتى جاء عيسى - عليه الصلاة والسلام - بشريعة مستقلة؛ وهو تابع أيضاً لما جاء في التوراة، ولكنه خفف بعض الأحكام، وقال: «وَيُخَيِّلُ لَكُمْ يَمَنَ آلَئِي حُرَيْمٍ عَلَيْكُمْ» [ال عمران: ٥٠].

فالصواب الذي أقره وحكم به أهل العلم: أنَّ الرسول هو الذي بُعث إلى أمة من أهل الشرائع الكبيرة؛ أي: إلى أمة كافرة؛ فيؤمن به بعضهم ويكفر بعضهم، والأنبياء هم الذين يوحى إليهم، ويرسلون إلى المؤمنين خاصة، وَيُكَلِّفُونِ بِالْعَمَلِ بِشَرِيعَةٍ سَابِقَةٍ.

= «التفسير» (١٥١٨٤)، وابن جرير في «التفسير» (٢/٣٣٤)، كلهم من طريق أبي داود الطيالسي، عن همام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

### ختم النبوة بمحمد ﷺ

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَإِنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ):

#### الشَّرح

نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - خاتم الأنبياء، وقوله: (وإنه خاتم الأنبياء) معطوف على قوله: (نَقُولُ فِي تَوْجِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاجِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى).

فلا بد في صحة الإيمان برسالة محمد ﷺ: أن يعتقد المسلم ويؤمن بأنه خاتم الأنبياء؛ ليس بعده نبي، فمن زعم أن بعده نبياً؛ فهو كافر بعد أن تقوم عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَكَانَ الْآخِرُ﴾ [الاحزاب: ٤٠].

وثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مَتَلِيَّ وَمَتَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي كَمَتَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَةٍ مِنْ رَأْوِيَةٍ، فَبَعَلَ النَّاسُ يَطْلُقُونَ بِهَا وَيَتَعَبُونَ لَهُ وَيَتَوَلَّوْنَ: هَلَا وَصِمَتْ هَذِهِ اللَّبَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»<sup>(١)</sup>.

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) نحوه: من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند مسلم (٢٢٨٦) وحده من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء نحوه أيضاً من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند الترمذي (٣٦١٣) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد (١٣٦/٥)، (١٣٧).

أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمُحُو اللَّهُ بِنِ الْكُفْرِ، وَأَنَا الْخَاشِرُ الَّذِي يُخْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدِيمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»<sup>(٢)</sup>، والعاقب: الذي ليس بعده شيء.

وفي حديث ثوبان يقول النبي ﷺ: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ تَلَاوُنُ كُلَّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»<sup>(٣)</sup>.

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُجِّلْتُ لِي الْمَعَانِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَأَنَّهُ، وَحُجِمَ بِي النَّبِيُّونَ»<sup>(٤)</sup> أو كما قال - عليه الصلاة والسلام -.

والشاهد من الحديث أنه قال: «وَحُجِمَ بِي النَّبِيُّونَ»<sup>(٥)</sup>؛ فهذه الأدلة تدل على أنه خاتم النبيين، وأنه ليس بعده نبي، فمن اعتقد أن بعده نبياً فهو كافر، ولا يصح إيمانه؛ ولهذا فإن من ادعى النبوة بعده فهو كافر<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، واللفظ له، من حديث جابر بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَفْتُ عَلَى مَا أَفَادَهُ الْحَافِظُ فِي «الفتح» (٥٥٧/٦) من احتمال إدراج ما ورد في بعض طرق هذا الحديث من تفسير لقوله ﷺ: «وَأَنَا الْعَاقِبُ».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢١٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، والحاكم (٤٩٦/٤) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين...»، وأحمد (٢٧٨/٥) من طريق عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان به، وهو حديث صحيح؛ أصله في مسلم (٢٨٨٩)، وفي الباب أحاديث أخر. انظر: «البخاري» (٧١٢١)، ومسلم (٢٩٢٣)، وانظر: «عمدة الفاري» (٢٤/٢١٥).

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٥٢٣)، وغيره.

(٥) انظر: «الجواب الصحيح» (١).

## الهداية الزبانية في شرح العقيدة الطحاوية

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وَأَمَامُ الْأَتْقِيَاءِ):

## الشرح

[illegible]

(١) «القاديانية» نسبة إلى: مرزا غلام أحمد القادياني المالك سنة ١٣٣٥هـ. ادعى النبوة، وكان يزعم أنه يتلقى الوحي من السماء، كما زعم أن الله «عز وجل» أخبره بأنه سيحيي ثمانية سنين، وقد صار له أتباع وأعداء؛ فأنزله كثير من العلماء وردوا عليه وينبؤ أن هاجل من الدجالين، وأن منهم العالم الكبير شاه الله الأمر تسري الذي كان من أشد العلماء عليه حتى إنه في عام ١٣٦٦هـ تحدى القادياني الشيخ شاه الله هذا، بأن الغالب المعرفي من الرجلين سيموت، وعدا أنه لا يقضي الميطل في حياة صاحبه، ويسلط عليه داء مثل الهضبة والطاعون يكون في حتفه، وبعد ثلاثة عشر شهرا وعشرة أيام تقريبا أصيب القادياني بدمونه. وقد ذكر أبو زوجته نهايته بقوله: «لما اشتد مرضه أغمضني فدفن في قبره» وأبى ما يعاينه من الآلام فخطب في قاعة: «أصيب بالكوليرا، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة؛ حتى مات. وانظر: «القاديانية» لإحسان أبي ظهير (١٥٥ - ١٥٩).



## محمد ﷺ سيد المرسلين

♦ قَالَ الْمَوْلَى: كَلَّمَ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ):

### الشرح

هذا وَصْفُهُ - عليه الصلاة والسلام - أنه سيد المرسلين جميعاً، وهو سيد الناس؛ كما ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه - عليه الصلاة والسلام - أفضل الناس، وإذا كان سيد المرسلين - والمرسلون أفضل الناس - فهو ﷺ سيد العالمين كما ثبت من الحديث الصحيح قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدٍ أَدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْفَيْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ»<sup>(١)</sup>، فقد اختاره الله - سبحانه وتعالى -، واصطفاه على خلقه؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»<sup>(٢)</sup>، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «أَنَا سَيِّدُ أَدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»<sup>(٣)</sup>، فهو أفضل الناس على الإطلاق.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث ثوبان ؓ، وفي الباب بنحوه عن أبي سعيد الخدري عند أهل السنن، وفي الباب أيضاً عن عبدالله بن سلام، وأنس بن مالك، وجابر بن عبدالله وغيرهم. وانظر: «مجمع الزوائد» (٢٥٤/٨) و(١١٦/٩) و(١٠٠/٣٧٥ - ٣٧٦)، وكتاب «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في كتاب الكشف» للزليبي (١٦٨/٢ - ١٧٢) فقد توسع تخريجه واستقصاه طَرَفَهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) و(٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (٢/٣) من طريق علي بن زيد -وفيه شَكٌّ-، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، وله شواهد من حديث أبي بكر، وابن عباس، وأنس ؓ، ولذا صححه الألباني في «الصحيح» (١٥٧١).

وأما ما جاء في بعض الأحاديث من النهي عن تفضيله؛ كحديث: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»<sup>(١)</sup>، ورواية: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُضَعِّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَضَعُفُ مَعَهُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ إِذَا مَا موسى باطش بجانيب العرش، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ يَمُنُّ صَبُوحَ فَأَقَافَ قَبْلِي أَوْ كَانَ وَمَنْ اسْتَنْتَى اللَّهَ؟»<sup>(٢)</sup>.

وفي لفظ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُضَعِّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخَذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِضَعْفَةِ الطُّورِ»<sup>(٣)</sup>.

وهذا الحديث له سبب، وهو أن يهودياً قال: والذي اصطفى موسى على العالمين، فسمعه مسلم فطمه، قال: أنقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي واشتكى المسلم للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»<sup>(٤)</sup>، فيكون النهي محمولاً على ما إذا كان التفضيل على وجه الحماية والعصبة وهو النفس، أو يكون التفضيل على وجه الفخر؛ أو على وجه الانتقاص للمفضول؛ فهذا منهي عنه، أو أن النهي محمول على ما إذا كان خاصاً بمعنى: أن يُفَضِّلَ نبياً بعينه على آخر، بخلاف قوله ﷺ: «أَنَا سيد ولد آدم ولا فخر»؛ فإنه تفضيل عام؛ فلا بأس.

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، و(٣٤٠٠) و(٦٥١٧، ٧٤٧٢)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣)، والترمذي «تفسير القرآن» (٣٢٤٥)، وأبو داود «السنن» (٤٤٧١)، وأحمد (٢/٢٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٧) بهذا السياق، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) سبق تخريجه.

فإن الجهاد - وهو أفضل الأعمال - إذا كان على وجه الحمية والعصية؛ فإنه لا يكون جهاداً في سبيل الله؛ كما ثبت في الحديث: أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل عصبية أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلَيَّا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

ومثله الحديث الآخر: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أُنْيَاءِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup> يجاب عنه بأجوبة وهو تفصيل لما سبق ذكره:

الجواب الأول: أن النهي محمول على ما إذا كان التفصيل على وجه الحمية والعصية وهوى النفس .

الجواب الثاني: أنه محمول على ما إذا كان على وجه الفخر؛ لأن الفخر منهى عنه كما قال النبي ﷺ: «وَأَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا تَفْتَخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَتَّبِعِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»<sup>(٣)</sup>.

الجواب الثالث: أن النهي محمول على ما إذا كان على وجه

(١) أخرجه بهذا السياق البخاري (٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ورواه بنحوه أبو داود (٢٥١٧) من حديث أبي موسى أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٢٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الطيالسي (٢٣٦٦) بلفظ: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أُنْيَاءِ اللَّهِ، أَوْ بَيْنَ الْأُنْيَاءِ» رضي الله عنه، وأحمد (٤٠/٣) من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «... لَا تَفْضَلُوا بَعْضَ الْأُنْيَاءِ عَلَى بَعْضٍ...».

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه، وفي الباب عن أنس عند ابن ماجه (٤٢١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٥٣/١)، وأبي هريرة عند إسحاق بن راهويه في «المسنَد» (٤٠٥)، وحديث أنس حَسَنَ الحافظ ابن حجر في «الإمامي المطلق» (ص ٩٣).

الانتقاص للمفضل.

الجواب الرابع: أن النهي محمول على ما إذا كان خائفاً، أما إذا كان عاتفاً فلا بأس بتفضيله على عموم الناس، أما تفضيله خاصة كتفضيله على موسى، فيكون منهياً عنه .

وأما الحديث الذي يروى: «لَا تَفْضَلُونِي عَلَى يُؤُنُسَ بْنِ مَتَّى»، وأن بعض الشيوخ امتنع عن تفسيره حتى أعطي مالا جزيلًا، فلما أعطي مالا جزيلًا فسره، وقال: يعني: أن قرب يونس بن متى وهو في بطن الحوت وفي قعر البحار، كقربي من الله ليلة المعراج. وهذا الحديث باطل محرف لفظاً ومعنى<sup>(١)</sup>، وهذا يدل على جهل هؤلاء بالفاظ الحديث ومعانيه، وهذا التفسير ذكره بعضهم، وأظنه أبو المعالي الجويني<sup>(٢)</sup>، وهو يتمشى مع القول بنفي العلو عن الله، وأن من كان فوق السبع الطبايق، ومن كان في بطن الحوت في قعر البحار فقرهم منه سواء .

وقد عُلم بكثير من الأدلة قطعاً أن الله تعالى في العلو؛ فوق العرش، ومحمد - عليه الصلاة والسلام - عُرج به إلى الله في العلو، ويونس إنما

(١) قال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٧٢ ط- السابعة): «لا عرف له أصلاً بهذا اللفظ...».

(٢) نقله عنه أبو بكر ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن ٤٩٢/٦» وأبو المعالي هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، إمام الحرمين، ولد سنة ٤١٩هـ في «جوين» من نواحي نيسابور. من كتبه «الشامل في أصول الدين»، و«الإرشاد»، و«الورقات في أصول الفقه»، وهو من أئمة الأشاعرة، وتلمذ عليه أبو حامد الغزالي. توفي سنة ٤٧٨هـ في قرية «بشتغال» من أعمال نيسابور. انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٣٥٨/٣-٣٦٢)، و«تبيين كذب المفتري» لابن عساکر (٢٧٨-٢٨٥)، و«الأعلام» للزركلي (١٦٠/٤).

كان في قمر البحار، فأين هذا من هذا؟

وصواب الحديث: «لَا يَقُولُونَ أَحَدٌ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى»<sup>(١)</sup>، وفي لفظ: «لَا يَقُولُونَ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى»<sup>(٢)</sup>، وفي لفظ: «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»<sup>(٣)</sup>، فليس في الحديث نهي عن تفضيل النبي ﷺ على يونس ؑ، فالصواب أن الأنبياء يتفاضلون؛ كما قال الله تعالى: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ» [الإسراء: ٥٥]، «بَلَّغْ أَرْسُلَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» [النِّسَاء: ٢٥٣].

وكيف يقال: إن يونس يفضل على محمد ﷺ ومحمد - عليه الصلاة والسلام - قد عُرج به إلى السماء، فهو مقرب معظم مُبجل، ويونس محتجن مؤذب مسجون في قمر البحار، فأين المعظم، المقرب، المَبجل، من الممتحن المؤذب؟!

(١) رواه البخاري (٤٦٠٣) من حديث ابن مسعود بلفظ: «ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (١١١٦٧)، بلفظ: «لا ينبغي» والباقي مثله، وكذا أخرجه أبو يعلى في «المسنَد» (٥٢٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٧/٥)، (١٢٨/٧).

وجاء من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٣٧٣) بلفظ: «ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى»، وكذا أخرجه أحمد في «المسنَد» (٣٩٠/١)، بلفظ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»، عند أحمد في «المسنَد» (٣٤٨، ٢٤٢/١)، وفي (٢٩١/١) لكن بلفظ: «وما ينبغي...». وكذا رواه بهذا اللفظ أبو يعلى في «المسنَد» (٢٥٤٤).

ورود أيضاً من حديث عبدالله بن جعفر ؓ، عند أبي يعلى في «المسنَد» (٦٧٩٣)، بلفظ: «لا يقولن أحدٌ إنِّي خيرٌ من يونس متى».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٢) من حديث عبدالله بن مسعود ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٠٤، ٤٨٠٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

ومع ذلك فإنه لا ينبغي لإنسان أن يفضل نفسه على يونس، حتى لو كان فاضلاً، فكيف إذا كان مفضلاً؟! فمن قال إنه خير من يونس بن متى - حتى ولو كان فاضلاً - فكفى بقوله هذا سبباً للحط من مرتبته، فلو قال بهذا أحد: فهو كاذب. وهذا من باب الشرط المقدّر؛ كقوله تعالى: «لَيْسَ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَ عَلَيْكَ» [الزمر: ٦٥].

وسبب ذلك أن يونس - عليه الصلاة والسلام - لما ذهب مغاضباً والتقمه الحوت وهو سليم فسبح وقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأنبياء: ٨٧]؛ وقد يظن بعض الناس: أنه خير من يونس بن متى، وأنه لا يحتاج إلى هذا الندم والاستغفار والتسبيح، وهذا باطل؛ لأن كل أحد يحتاج إلى أن يستغفر من ذنبه، وكل أحد ظالم لنفسه.

وكذلك نبينا ﷺ نهاه الله عن التشبه بيونس قال: «تَشَبَّرَ بِكَرِّكَ وَلَا تَكُنْ كَمَا جَاءَ الْكُوفُ» [الغلم: ٤٨]، وأمره بالتشبه بأولي العزم: «فَأَسْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الْقَوْمِ مِنْ أَرْسُلِي وَلَا تَسْتَعْجِلْ لِي» [الاحقاف: ٣٥].

وقد أخبر الله عن الأنبياء كلهم أنهم يستغفرون، وأولهم آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ؛ فأخبر الله عن آدم أنه قال: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَ وَإِنْ لَرُ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْكَاشِرِينَ» [الأنعام: ٢٣]، وموسى أخبر الله عنه قال: «رَبِّي إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» [القصص: ٢١٦]، وقال نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو أشرف الخلق كما في حديث الاستفتاح: «وَجْهْتُ وَجْهِي»<sup>(١)</sup>، وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب ؓ.

إِلَّا أَنْتَ»<sup>(١)</sup>.

فكل أحد - حتى الأنبياء - يحتاج إلى ما احتاج إليه يونس. فمن وقع في نفسه أنه خير من يونس بن متى فهو كاذب .

### ثبوت الخلّة لنبينا ﷺ

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَجِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

#### الشرح

● قوله: (وَجِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

يعني: نبينا ﷺ حبيب رب العالمين، بل هو ﷺ، خليل رب العالمين، ولو قال الشيخ الطحاوي: (وخليل رب العالمين) لكان أولى؛ لأن الخلّة أكمل من المحبة، وقد ثبتت له - عليه الصلاة والسلام - الخلّة؛ كما ثبت لإبراهيم، قال - عليه الصلاة والسلام -: «إِنِّي أُبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»<sup>(١)</sup>، وفي الحديث الآخر: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلٌ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>، إذن: فالخلّة ثابتة لنبينا ﷺ. والخلّة أعلى مقامات المحبة؛ والمحبة ثابتة لغير الخليل؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُحِبُّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذه المحبة ثابتة لهم، لكن الخلّة فوق ذلك. والخلّة لم تكن إلا لاثنتين: لإبراهيم، ومحمد - عليهما السلام -، فهما الخليلان، وأما

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن جنادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بهذا السياق مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله عند مسلم أيضاً عن ابن مسعود ألفاظ أخرى، وأخرجه البخاري (٣٦٥٦) من حديث ابن عباس بلفظ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي». والحديث له في الصحيح، وفي السنن، والمسانيد، والمعاجم روايات وألفاظ أخرى.

ما يقوله بعض الناس ويزعمه من أن الخلّة لإبراهيم، والمحبة لمحمد؛ ويقول: إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله؛ فهذا باطل، بل إن محمداً أيضاً خليل الله، ويروى في ذلك حديث رواه الترمذي؛ فيه: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ»<sup>(١)</sup>، وهذا حديث ضعيف لا يصح؛ في سنده راويان ضعيفان: زُئَمَةُ بْنُ صَالِحٍ، وسلمة بن وهرام.

والصواب: أن محمداً خليل الله كما أن إبراهيم خليل الله؛ فقول الشيخ: (وَجَبِبَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) يوهن أنه لا يُثَبِّت الخلّة لمحمد ﷺ ولو قال: (وَحَلِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) لكان أحسن؛ حتى يُدْفَع عنه توهم عدم إثبات الخلّة لمحمد ﷺ<sup>(٢)</sup>.

والخلّة هي نهاية المحبة؛ وذلك لأن المحبة لها درجات ومراتب<sup>(٣)</sup>:

فأول مراتب المحبة: العلاقة؛ وهي: تعلق القلب بالمحبيب.

المرتبة الثانية: الإرادة؛ وهي: إرادة المحب للمحبيب، وميل قلبه إليه، وطلبه له.

المرتبة الثالثة: الصباة؛ وهي: انصباب القلب إلى المحبوب؛ بحيث لا يملكه كانصباب الماء في الحدود.

المرتبة الرابعة: الغرام؛ وهو: الحب الملازم للقلب، سمي غراماً لملازمته له، ومنه الغريم، وسمي غريماً لملازمته لغريمه صاحب الدّين،

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٦)، والدارمي (٣٩/١) من حديث ابن عباس رضيهما، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وضعفه الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٧٥ ط: السابعة).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥٦٧/٧)، (٦٧/١٠)، و«مدارج السالكين» (٢٧/٣).

(٣) انظر: «روضة المحبين» (ص ١٦).

ومنه قوله تعالى في جهنم: ﴿لَا عَذَابَهَا كَانَ عَذَابَهَا﴾ [التفرغ ٦٥] يعني: ملازماً.

المرتبة الخامسة: المودة والود؛ وهو: صفو المحبة، وخلوصها، ولئها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْيَنَ مَوَدَّةٍ وَحَلِيلُوا أَلْيَنَ مَوَدَّةٍ سَجَّعَلُ مُمْ أَلْيَنَ مَوَدَّةٍ﴾ [التريم: ٩٦].

المرتبة السادسة: الشّفق؛ وهو: الحبّ الذي وصل إلى شفاف القلب، وهو غلافه، وهي: جلدة دونه؛ كالحجاب.

المرتبة السابعة: العشق؛ وهو: الحبّ المفرط الذي يخشى على صاحبه منه، وهذه المرتبة لا يوصف بها الرب، ولا يوصف العبد بها في محبته لربه؛ لأنه لم يرد، ولعل الحكمة في ذلك: أنها محبة مع شهوة.

المرتبة الثامنة: التّميم؛ وهو: التّعبد، ومنه تيم الله أي: عبد الله، يقال: تيمّه الحب؛ أي: عبده وذلك.

المرتبة التاسعة: التّعبّد؛ وهو غاية الذل مع غاية المحبة، يقال: طريق مُعَبَّدٌ إِذَا وَطِنَتْهُ الْأَفْدَامُ، ومحبة العبودية خاصة بالله، ولا تكون إلا لله؛ فإذا صرفت لغير الله: كانت شركاً.

المرتبة العاشرة: الخلّة وسميت خلّة لأنها تتخلل القلب والروح حتى تصل إلى سويدائك، كما قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

فَدُ تَخَلَّلَتْ مَسَلَكُ الرُّوحِ مِنِّي وَلَيْدًا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا  
والخلّة: هي نهاية المحبة وكمالها، ولا يتسع القلب لأكثر من خليل

(١) انظر: «محاضرات الأدباء» (١/٣٣٤)، و«المنتحل» (٦/١).

واحد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلٌ اللَّهُ»<sup>(١)</sup> يعني نفسه - عليه الصلاة والسلام -؛ يعني: لو كان في قلبي متسع؛ لكان لأبي بكر، ولكن قلبي امتلأ بخلة الله؛ فليس فيه متسع لأكثر من واحد.

أما المحبة: فتتسع ﷺ لكثير؛ كما كان يحب عائشة، ويحب أبا بكر، وكان أسامة جبهه وابن جبهه زيد؛ فالقلب يتسع لأكثر من واحد؛ هذا بالنسبة للمخلوق، أما وَضَعُ اللَّهِ بِالْخَلَةِ وَالْمَحَبَةِ، فهو كما يليق بجلاله وعظمته. والله - تعالى - يوصف من هذه المراتب: بالإرادة، والمحبة، والمودة، والخلّة، أما بقية المراتب فلم يَرِدْ بها النَّصُّ. فاتصافه بالخلّة هو كسائر صفاته كما يليق بجلاله وعظمته؛ لا تشبه صفاته صفات المخلوقين.

(١) ذكره الشارح - حفظه الله - أول الباب والحديث سبق تخريجه هناك.

كل من ادعى النبوة بعده ﷺ كاذب

◆ قَالَ الْمَوْلَاهُ ﷺ (وَكُلُّ دَعْوَى النَّبُوَّةِ بَعْدَهُ فُتْيٌ وَهْوَى)

#### الشرح

كل من ادعى النبوة بعد النبي ﷺ فهو غاي؛ والغاوي هو المنحرف عن علم وهوى؛ أي: اتبع هوى نفسه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ لَطَمَ الْكُمُورَ﴾<sup>(١)</sup> وَاتَّخَذَ النَّبُوَّةَ الدُّنْيَا ﴿فَإِنَّ الْفَجِيمَ﴾<sup>(٢)</sup> هِيَ الْكَذِبُ<sup>(٣)</sup> [الشارحات: ٣٧-٣٩]، فالغوي: هو ترك العمل مع العلم، أما الضلال: فَعَمَلٌ مَعَ جَهْلٍ، وقد برأ الله نبيه الكريم من هذين الوصفين؛ قال سبحانه: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هُوَ﴾<sup>(٤)</sup> مَا سَلَكَ صَاحِبُكُمْ وَمَا هُوَ<sup>(٥)</sup> [التجيم: ١-٢]، أي: ليس ضالاً؛ فيكون جاهلاً، بل هو على علم من ربه، وليس هو كذلك: غاويًا لا يعمل؛ بل هو راشد. والراشد: هو الذي يعلم ويعمل.

## عموم بعثته ﷺ للإنس والجن

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَهُوَ الْمَبْثُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى):

## الشرح

أي: أنه رسول الله إلى خلقه، يعني: الجن والإنس. والأدلة في كونه مبعوثاً إلى الجن واضحة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافِثًا مِّنَ الْجِنِّ يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنَسُونَا فَلَمَّا خَفَى وَكَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالُوا يَقْرَأُونَ آيَاتِنَا مِنَّا سِيمَانًا ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنزَلْنَا مِنْ بَعْدِ مَوْسَى﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣٠)، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿يَتَّبِعُونَا أَجَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ (الأحقاف: ٣١) فهذا دليل على أنه مرسل إليهم، وكذلك في سورة «الجن» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُبَيِّنُ إِلَيْكُمْ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن: ٢١)، وقوله في سورة «الرحمن»: ﴿يَتَنَفَّسُ لَيْلٌ وَالْإِنسُ﴾ (الرحمن: ٣٣) إلى قوله: ﴿فَإِنِّي ءَالَاةٌ رَبُّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (الرحمن: ١٣)؛ قرأها النبي ﷺ عليهم وقرأها على الإنس، فقال النبي ﷺ: «لَنَجِيَّ أَحْسَنُ رَدًّا مِنْكُمْ مَا قُرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ آيَاتُ: ﴿فَإِنِّي ءَالَاةٌ رَبُّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾» (الرحمن: ١٣) مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا قَالُوا: وَلَا يَشْفِيءُ مِنْ بَعَثِكَ يَا رَبَّنَا تُكْذِبُ فَكُلَّ الْحَمْدُ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٥١٥/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٨٩)، و (١٠١/٤)، وفي «دلائل النبوة» (٢/ ٢٣٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٦١/٥)، كلهم من حديث جابر بن عبد الله. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، وأورده الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٢٠١/١) وقال: «زهير ضعيف». وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، قال ابن حنبل: كأن زهيراً بن محمد الذي وقع بالشام؛ ليس هو الذي يروى عنه بالعراق؛ كأنه رجل آخر، قلبوا اسمه، =

وثبت أيضاً أنهم جاءوا للنبي ﷺ وسألوه الزاد؛ فقال: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، وَأَوْفَرُ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لَدَوَابِكُمْ...»<sup>(١)</sup>، وقال النبي ﷺ: «لَا تَسْتَنْجُوا بِالْعُظْمِ وَالرَّوْثِ؛ فَإِنَّهُ رَادٌّ

= يعني: لما يروون عنه من المنكير. وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: «أهل الشام يروون عن زهير بن محمد منكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة».

فرواية أهل الشام عنه، غير مستقيمة، قال المباركفوري في «تحفة الأحاديث» (٩/ ١٢٧): «حديث جابر هذا رواه الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، وهو من أهل الشام؛ ففي الحديث ضعف، لكن له شاهد من حديث ابن عمر، أخرجه ابن جرير، والبخاري، والدارقطني في «الأفراد» وغيرهم. وصحح السيوطي إسناده، كما في (فتح البيان)».

تنبيهات: قول الإمام الترمذي: «لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم» أورده عنه الإمام ابن كثير في «التفسير» (١٧١/٤)، ثم قال: «كذا قال!! وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد به مثله».

الشاهد الذي أشار إليه المباركفوري، من حديث ابن عمر، أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٢٣/٢٧-١٢٤)، والبخاري كما في «كشف الاستار» (٧٤/٣)، والمخطيب في «التاريخ» (٣٠١/٤)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦٩٠/٧) نسبته إلى ابن المنذر، وابن مردويه، والدارقطني في «الأفراد». وصحح السيوطي إسناده، لكن ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٧/٧) من رواية البخاري، وقال: «رواه البخاري، عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقي رجاله رجال الصحيح».

لكن لم ينفرد به عمرو بن مالك، بل هو مقرون في رواية ابن جرير بمحمد بن عباد ابن موسى الكُفلي، المُلقَّب (سُدَّ ولا)، صدوق بخطه، كما في «التقريب» (٥٩٩٥)، لكن في إسنادهما يحيى بن سُلَيْم الطاطي، وهو مع كونه صدوقاً إلا أنه سيء الحفظ، كما في «التقريب» (٧٥٦٣).

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

إِخْوَانُكُمْ مِنَ الْجَنِّ»<sup>(١)</sup>.

وثبت في قصة ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا تبرح مكانك»، وسمع حركة الجن، ولغظهم، وأصواتهم<sup>(٢)</sup>؛ فأراد أن يذهب لكنه ذكر قول النبي ﷺ: «لَا تَبْرَحْ مَكَانَكَ»؛ فلما جاء النبي ﷺ أخبره وقال: يا رسول الله! سمعتُ كذا وكذا، وخشيتُ عليك، فتذكرتُ قولك: «لَا تَبْرَحْ...». قال: «هل سمعت؟» قال: نعم، فجاءه، فأراه النبي ﷺ مكان نيرانهم، وأخبره أنهم سألوه كذا وكذا<sup>(٣)</sup>.

- (١) أخرجه مسلم (٤٥٠) بلفظ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٩) بلفظ: «لا تستنجوا بالروث ولا بالمغظم فإنها زاد إخوانكم من الجن»، وكذا الترمذي في «السنن» (١٨)، وأبو عوانة في «المسنَد» (٥٨٥)، والطبراني في «الكبرى» (١٠٠١٠)، لكن وقع عند الترمذي ومثله بعده بلفظ: «فإنه...».
- وعند البخاري (٣٨٦٠) من حديث أبي هريرة: «... فقلت: ما بال العظم والروث؟ قال: هما من طعام الجن...».
- قال في «الدر المنير» (٣٤٨/٢): «أما النهي عن الاستنجاء بالمغظم؛ فصحيح رواه جماعة من الصحابة...»، ثم ذكرهم بكلفه.
- (٢) انظر: ما أخرجه أحمد (٤٥٥/١)، والدارقطني (٧٧/١)، والبيهقي (٩/١)، بمعناه، وفي سننه علي بن زيد ابن جعدان، وهو ضعيف.
- (٣) انظر ما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٧/١٠) من حديث ابن مسعود، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٥٢/٨)، وقال: «رواه الطبراني وفيه يخبى بن يعلی الأسلمي وهو ضعيف».
- والذي في «صحيح مسلم» (٤٥٠) من حديث ابن مسعود المتقدم قريباً: «أتاني داعي الجن فذهبتُ معه فقرأت عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وميزانهم، وسألوه عن الزاد... الحديث. وقد توسّع الحافظ الزيلعي في «تصب الرابية» (١٣٩/١-١٤٧) في الكلام على طرق حديث ابن مسعود، فليستظروه من شاء.

فهذه أدلة تدل على أنه - عليه الصلاة والسلام - مُرْسَلٌ إلى الجن .

قال ابن القاسم: إنه لم يُرْسَلْ نبي إلى الإنس والجن إلا محمد ﷺ، لكن هذا بعيد؛ لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا سَعَتَنَا مَا أَنزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ (الاحقاف: ٣٠) ظاهره أن موسى مُرْسَلٌ إليهم، وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ (الانعام: ١٢٠)، دليل على أنه أُرْسِلَ إليهم رُسُلٌ.

مسألة:

هل يكون من الجن رسول ونبي؟<sup>(١)</sup>.

قاله بعضهم؛ وروي هذا عن الضحاك بن مزاحم، ومجاهد وغيره، والذي روي عن ابن عباس: أن الرسل تكون من الإنس خاصة، وأما الجن فيكون فيهم نُذُرٌ، يُنذِرُونَ، كما في الآية: ﴿فَلَمَّا قُتِلَ إِبْرَاهِيمُ إِخْوَاهُ مُنْذِرِينَ﴾ (الاحقاف: ٢٩)؛ ﴿يَقُولُونَ لِمَ جِئُوا بِكَ إِذْ أَنْتَ عَلَى اللَّهِ﴾ (الاحقاف: ٣١).

فالنبوة والرسالة تكون في الإنس، والجن إنما يكون فيهم نُذُرٌ، وأما قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ (الانعام: ١٣٠)، فلا يلزم من ذلك أن يكون منهم رسل، وإنما من أحدهما وهم الإنس؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ بَيْنَهُمَا الْمَلَكُ الْمُنِيبُ﴾ (الزمر: ١٦-٢٠)، ثم قال: ﴿يَخْرُجُ بَيْنَهُمَا الْمَلَكُ الْمُنِيبُ﴾ (الزمر: ٢٢)، وإنما يخرج المَلَكُ من أحدهما، وهو المالح دون الغيب .

وقال آخرون: لا مانع من ذلك؛ فقوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ﴾ (الانعام: ١٣٠) ظاهره أن يكون من الجن رسل، وقالوا: إن القول في ﴿يَخْرُجُ

(١) انظر: «النبوات» لشيخ الإسلام (١٠٠٤/٢).



مِنْهَا أَلْوَلُّوْا وَالْآخِرَاتُ ﴿٢٢﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٢] لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ بَلْ قَدْ يَخْرُجُ مِنَ الْعَذْبِ، وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

[illegible]

وأما قول بعض النصارى: إن النبوة خاصة بالعرب فيقال لهم: إذا ثبتتم أنه رسول إلى العرب فيلزمكم أن تثبتوا أنه رسول الله إلى الناس عامة؛ ما دام أثبتتم أنه رسول؛ فالرسول لا يكذب، وقد أخبر أنه رسول الله إلى الناس كافة؛ فيلزمكم تصديقه وإلا فافكروا؛ فالرسول لا يكذب؛ كما قال ﷺ: قَالَ فَكُنْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسْءٍ أَغْلَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ

بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمَ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طُهْرًا وَمَسْجِدًا،  
وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخَتِمَ بَيْنَ النَّبِيِّينَ <sup>(١)</sup>.

فيلزمكم أن تؤمنوا كذلك بالقرآن؛ الذي نزل عليه؛ ما دام أنه رسول؛ وفيه نصوصٌ واضحة في عموم رسالته إلى الناس كافة؛ فإذا لم تؤمنوا بالقرآن، ولم تصدقوه؛ كفرتم، وإن صدقتموه في أنه رسول؛ فصدقوا في إخباره بأنه رسول الله إلى الناس كافة.

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرسول هو المبعوث لعامة الجن والإنس بالحق والهدى  
♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى  
بِالْحَقِّ وَالْهُدَى وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ):

#### الشرح

• قوله: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى)

أي: يُبْعَثُ كَافَّةً لِلنَّاسِ، وَكَافَّةً لِلْجِنِّ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَالنُّورِ وَالضِّيَاءِ .  
هذا وُضِفَ الشَّرْعُ لَهُ ﷺ أَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَالنُّورِ وَالضِّيَاءِ،  
وَالْعِلْمِ النَّافِعِ؛ فَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ: الَّذِي هُوَ الْمَطَابِقُ لِلْوَاقِعِ،  
وَالْهُدَى: أَيِ: الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي يَشْمُرُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَالنُّورَ: الَّذِي  
يَسْتَضَاءُ بِهِ وَيُوصِلُ إِلَى اللَّهِ وَجَنَّتِهِ وَدَارِ الْكِرَامَةِ، وَالضِّيَاءَ: الَّذِي هُوَ أَيْلُغُ  
مِنَ النَّوْرِ؛ كَمَا قَالَ -سُبْحَانَهُ تَعَالَى-: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ كَاسْتِمْسَ جَيْهَةً وَالْقَمَرَ  
نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فَإِنَّ الضِّيَاءَ نَوْرٌ فِيهِ حَرَارَةٌ، وَالْقَمَرُ فِيهِ نَوْرٌ بَدُونِ حَرَارَةٍ،  
وَالشَّمْسُ فِيهَا نَوْرٌ بِحَرَارَةٍ.

وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الشَّرْعَ فِيهِ نَوْرٌ وَضِيَاءٌ، وَحَرَارَةُ الشَّرْعِ الَّذِي بِهِ جَاءَ  
مُحَمَّدٌ ﷺ نَوْرٌ فِيهِ بَيَانٌ وَلِإِشْبَاحٍ وَدَعْوَةٌ وَتَعْلِيمٌ وَبَيَانٌ حَقُّ اللَّهِ، وَفِيهِ حَرَارَةٌ  
أَيْضًا: قُوَّةٌ وَقَمْعٌ الْمَجْرَمِينَ، وَجِهَادٌ الْكَافِرِينَ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ؛ فَهُوَ نَوْرٌ  
وَضِيَاءٌ.

القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا،  
وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَاتَّقَنُوا  
عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ. فَمَنْ  
سَمِعَهُ فَرَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ  
بِسَقَرٍ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَتْلِيهِ سَقَرًا﴾ [المدثر: ٢٦]. فَلَمَّا  
أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]  
عَلِمْنَا وَأَيُّنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِي الْبَشَرِ وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ):

#### الشرح

• قوله: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ):

بالكسر؛ معطوف على قوله: (نَقُولُ فِي تَوْجِيدِ اللَّهِ مُتَعَقِّدِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ:  
إِنَّ اللَّهَ وَاجِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى... وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ  
اللَّهِ) فَالْكَلِمُ مَعْمُولٌ قَوْلُ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ  
لَهُ، وَنَقُولُ: «إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَرَسُولُهُ»، وَنَقُولُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ  
كَلَامُ اللَّهِ».

فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، تَكَلَّمَ بِهِ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى  
نَبِيِّهِ وَحِيًّا، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبِدْعِ، وَلَيْسَ مَعْنَى قَائِمًا بِالنَّفْسِ؛  
بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَكَلَّمَ بِهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ يُسْمَعُ؛ سَمِعَهُ جِبْرَائِيلُ، وَكَلَّمَ اللَّهُ  
مُحَمَّدًا ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَسَمِعَ مُوسَى كَلَامَ اللَّهِ؛ هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ

اتباع الرسل من أهل السنة والجماعة والصحابية والتابعين وأتباعهم<sup>(١)</sup>.

ومسألة الكلام مسألة عظيمة، وهي من الصفات العظيمة المشهورة التي اشتد النزاع فيها بين أهل السنة والحق من ناحية، وبين المخالفين لهم من ناحية أخرى. ففي معنى كلام الله وحقيقة كلام الله: مذاهب للناس.

ولما كان النزاع فيها شديداً بين أهل السنة وأهل البدع؛ ولما كان الحق قد يلتبس بالباطل لكثرة من جاحض في هذه المسألة؛ فلا بد من استعراض المذاهب فيها<sup>(٢)</sup>، وبيان القول الحق الذي تشهد له الأدلة والنصوص، وتشهد له العقول السليمة والفطر المستقيمة، فالناس قد تنازعوا في كلام الله على مذاهب، لكن أبرز المذاهب في هذه المسألة: ثمانية مذاهب لأهل الأرض جميعاً؛ سبعة مذاهب باطلة، والمذهب الثامن هو القول الحق.

ومع كون هذه المذاهب الباطلة سبعة يقول العلامة ابن القيم رحمته: هذه المذاهب السبعة هي الذائعة بين الناس وبين فضلاء العالم، لا يعرفون غيرها مع بطلانها، وهذه المذاهب بعضها كفرية وبعضها مبتدعة.

**المذهب الأول: مذهب الاتحادية.**

**المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة.**

**المذهب الثالث: مذهب السالمية.**

(١) انظر تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه الصفة الجليلة في «التسعينية» لشيخ الإسلام - طبعه دار المعارف، و«مجموع الفتاوى» - المجلد (١٢)، و(٥٢/٥-٥٥٨).

(٢) انظر تلك المذاهب مبسطة ومرتبطة في «منهاج السنة» (٣٥٨/٢-٣٦٣).

**المذهب الرابع: الكرامية.**

**المذهب الخامس: مذهب الكلائية<sup>(١)</sup>.**

**المذهب السادس: مذهب الأشعرية.**

**المذهب السابع: مذهب الجهمية والمعتزلة.**

**المذهب الثامن: مذهب أهل السنة والجماعة.**

هذه أبرز مذاهب أهل الأرض جميعاً في مسمى كلام الله، وهناك مذاهب أخرى لكنها ليست مشهورة.

**المذهب الأول: مذهب الاتحادية:**

وهم الذين يقولون بوحدة الوجود، وأن الوجود واحد، ومذهبهم في كلام الله: أنه كل ما يُسمع في الوجود، سواء أكان حقاً وصدقاً، أو باطلاً وكذباً، وزوراً وبهتاناً، وسواء أكان نظماً أو نثراً، وسواء أكان كلام الأعجميين، أو أصوات الطيور أو الحيوانات؛ فكله كلام الله، نعوذ بالله من ذلك.

كما قال زعيمهم ابن عربي الطائي رئيس وحدة الوجود<sup>(٢)</sup> في كتابه

(١) هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهم يزعمون أن صفاته -تعالى- لا هي هو ولا غيره، ويقولون بأن الصفات لا تتغير، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها، وكذلك سائر الصفات، كما يقولون: إن أسماء الله هي صفاته، ولم يفرقوا بين صفات الذات وصفات الأفعال. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٢٥٠، ٢٥٣) و (٢٢٥، ٢٢٧)، و«نهاية الإقدام» للشهرستاني (١٨١)، و«أصول الدين» لعبد القاهر البغدادي (٩٠).

(٢) هو أبو بكر أو أبو عبدالله محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي =

«الفتوحات المكية»<sup>(١)</sup>:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه وهذا المذهب مبني على مذهبهم في القول بوحدة الوجود؛ فإن مذهبهم أن الوجود واحد؛ فليست هناك موجودات، بل ليس هناك رب وعبد، ولا خالق ولا مخلوق؛ بل الوجود كله واحد؛ الرب هو العبد، والعبد هو الرب، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق؛ لا فرق بينهم؛ ولهذا يقول ابن عربي الطائفي<sup>(٢)</sup>:

السرب حق والسعبد حق يا ليت شعري من المكلف إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنسى يكلف فالعبد هو الرب، والرب هو العبد فأيهما المكلف، إن قلت: عبد فذاك ميت وذاك نفي، وإن قلت رب أنى تكلف؟

= الأندلسي، المعروف بابن عربي، ولد سنة ٥٦٠هـ، من القائلين بوحدة الوجود، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر، والكبرى الأحمر وغير ذلك. له كتب: منها «الفتوحات المكية»، و«فصوص الحكم»، و«ديوان الشعر»، و«التعريفات». توفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ. انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ٦٥٩، ٦٦٠)، و«الأعلام» (٦/ ٢٨١، ٢٨٢). وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٦/ ٢٢٩).

(١) ذكره في كتابه «الفتوحات المكية» (٤/ ١٤١)، ورد البيئ في المصدر المذكور هكذا:

ألا كل قول في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه (٢) ذكره في كتابه «الفتوحات المكية» (٢/ ١)، وفي «كتاب الجلالة» (ص ١٢) المطبوع ضمن رسائله، وقال في الكتاب المذكور في الصفحة نفسها:

تعجب من تكليف ما هو خالق له وأنا لا فعل لي فأراه فيا ليت شعري من يكون مكلفاً وما نسم إلا الله ليس سواء

وقال أيضاً:

(رب مالك وعبد هالك، وأتم ذلك)

وهؤلاء الانحاديه أكثر خلق الله، وهم منافقون زنادقة يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فهم في الدرك الأسفل من النار -نعوذ بالله من النفاق والمنافقين - والله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] - نسأل الله السلامة والعافية - وليس بعد هذا كفر؛ لأنه إنكار كامل لوجود الله؛ وأصل هذا المذهب نشأ من إنكار مسألة المباشرة والعلو؛ أي: إنكار علو الله على الخلق، وإنكار مباينته للمخلوقات، كَمَا قالوا: ليس منفصلاً عنها ولا مبيهاً لها، ولا فوقها، وقرروا هذه القاعدة الفاسدة التي هي أصل من أصولهم. والمقصود: أنهم منافقون زنادقة؛ يُظهرون الإسلام، ويخفون الكفر، ولهم مؤلفات تُحقق وتُنشر، ككتاب «الدرة» وغيره، توجد في كثير من الأقطار العربية، وتُطبع بورق صقيل، وخط واضح، ومن زعماء القائلين بوحدة الوجود: ابن عربي الذي له مؤلفات وكتب مشهورة منها: «الفتوحات المكية»، و«فصوص الحكم»، وله مؤلفات في الفقه أيضاً.

وهذا المذهب لم ينقرض؛ بل هو موجود ومنتشر؛ فهناك من يدافع عن ابن عربي إلى يومنا هذا ويقول: إنه معذور، بل إن هناك رجلاً في السودان على عهد النيميري - أحد الحكام السابقين - يقال له «محمود محمد طه» ادعى أن الله قد خلّ فيه، وقال: إنه هو الله - والعباد بالله -، فهم من أكثر خلق الله، بل أكثر خلق الله. والعجيب أنهم - مع ذلك - يدعون أنهم أولياء الله وخاصته من خلقه.

فلا بد إذن من بيان مذهبهم حتى لا ينطلي على بعض الناس. فهؤلاء

لَمَّا أَنْكُرُوا مَبَايَةِ اللَّهِ لَخَلْفِهِ وَعُلُوهُ؛ صَارُوا بَيْنَ وَاحِدٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

#### الأمر الأول:

أَنْ يَقُولُوا: بَانَ اللَّهُ مَعْدُومٌ؛ لَا وَجُودَ لَهُ صِرَاحَةً، وَهَذَا لَمْ يَسْتَسِيغُوهُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ سَيَكْشِفُونَ كُفْرَهُمْ.

#### الأمر الثاني:

أَنْ يَقُولُوا: إِنْ اللَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا فَوْقَهُ وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا مَغَايِرَ لَهُ، وَلَا مَحَايِثَ لَهُ، وَلَا مُتَصِلَ بِهِ، وَلَا مُتَفَصِّلَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ بِهَذَا الْجَهْمِيَّةُ الَّذِينَ نَفَوْا عَنْ اللَّهِ النَّقِیْضِينَ، وَهَذَا أَيْضًا لَمْ يَسْتَسِيغُوهُ؛ قَالُوا: لِأَنَّ هَذَا غَيْرُ مُتَصَوِّرٍ.

#### القول الثالث:

- وهو الذي اختاروه -، أَنَّ اللَّهَ عَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَالْخَالِقُ هُوَ الْمَخْلُوقُ، وَكُلُّ مَا تَرَاهُ هُوَ الرَّبُّ. قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ (سِبْرٌ حَيْثُ شَتَّتَ فَإِنَّ اللَّهَ تَمَّ، وَقُلْ مَا شَتَّتَ بِهِ فَالْوَاسِعُ اللَّهُ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَرَاهُ هُوَ اللَّهُ، وَاللَّهُ هُوَ عَيْنُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ عَيْنُ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ، وَالشَّيْءُ لَا يَحَايِدُ نَفْسَهُ وَلَا يَنَاقِضُهَا)، فَلَمَّا ثَبِتَ عَنْدهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَيْنَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، قَالُوا: إِنْ كُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ هُوَ كَلَامُهُ، سِوَاهُ أَكَانَ حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا، وَسِوَاهُ أَكَانَ كُفْرًا أَوْ إِيْمَانًا، وَكُلُّ اسْمٍ فَهُوَ لَهُ؛ حَسَنًا كَانَ أَوْ قَبِيحًا، وَكُلُّ صِفَةٍ -سِوَاهُ أَكَانَتْ صِفَةً نَقْصٍ، أَوْ كَمَالٍ- فِيهِ؛ وَهَذَا مَذْهَبُ كُفْرِي شَدِيدٍ؛ بَلْ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ كُفْرًا، كَفَى بِهِمْ كُفْرًا أَنْ يَقَالَ: كَيْفَ يَجْرُو عَاقِلٌ أَنْ يَقُولَ: كُلُّ كَلَامٍ يُسْمَعُ فِي هَذَا الْوُجُودِ، كَلَامُ اللَّهِ مَعَ مَا فِي بَعْضِ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْكُفْرِ وَالسَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالْغَنَاءِ وَالْبَاطِلِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؟!

فَهَؤُلَاءِ كُفْرَةٌ؛ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَلَا بِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا بِكِتَابِهِ، وَلَا بِرَسُولِهِ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ فَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ كُفْرًا.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ فَرَعُونَ مُصِيبَ حِينِمَا قَالَ: ﴿لَمَّا رَزَقْنَاكَ الْمَرْءَ﴾ [النَّازِعَات: ٢٤]، وَكَذَلِكَ: عُيَاذُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، يَكُونُونَ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَكُلٌّ مِنْ عِبَادَةٍ شَيْئًا فَهُوَ مُصِيبٌ؛ فَمَنْ عَبْدُ النَّارِ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَمَنْ عَبْدُ الصَّنَمِ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَمَنْ عَبْدُ الْعَجَلِ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَإِنَّمَا الْكُفْرُ عَنْدهُمْ التَّخْصِیْصُ؛ فَلَا تَنَهُ أَحَدًا عَنْ عِبَادَةِ شَيْءٍ؛ فَإِذَا خَصَّصْتَ شَيْئًا، وَقُلْتَ: لَا يَجُوزُ عِبَادَةُ إِلَّا هَذَا الشَّيْءِ؛ فَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ عَنْدهُمْ<sup>(١)</sup>.

وَإِبْنُ عَرَبِيٍّ يَقُولُ فِي إِحْدَى مَوْلاَفَاتِهِ: إِنْ فَرَعُونَ مُصِيبَ حِينِمَا قَالَ: ﴿لَمَّا رَزَقْنَاكَ الْمَرْءَ﴾ [النَّازِعَات: ٢٤]، وَإِنَّهُ لَمَّا أَعْرَقَهُ اللَّهُ فَهَذَا الْإِغْرَاقُ تَطْهِيرٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ الرَّبُّ وَحْدَهُ، وَهَذَا غُلْطٌ، وَيَقُولُ مُعَارَضًا لِكِتَابِ اللَّهِ: إِنْ مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمَّا أَخَذَ بِرَأْسِ هَارُونَ وَلَحِيَّتِهِ حِينِمَا عَبْدُوا الْعَجَلَ يَقُولُ إِنَّمَا كَانَ مَقْصُودُهُ: لِمَاذَا تَنْتَهَاهُمْ عَنِ الْعَجَلِ وَهُمْ عَلَى الصَّوَابِ؟<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الزَّانَا وَالنَّكَاحِ، وَلَا بَيْنَ الْخَمْرِ وَالْمَاءِ، وَلَا بَيْنَ الْأُمِّ وَالْأَخْتِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ؛ الْكُلُّ وَاحِدٌ، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ .

(١) يَقُولُ ابْنُ عَرَبِيٍّ فِي «فُصُوصِ الْحِكْمِ» (ص ١٩٥): «وَالْعَارِفُ الْمُكْتَمِلُ مَنْ رَأَى كُلَّ مَعْدُودٍ مُجَلًى لِلْحَقِّ يُعِيدُ فِيهِ، وَلِذَلِكَ سَفَّوهُ كُلَّهُمْ إِلَيْهَا مَعَ اسْمِهِ الْخَاصِّ: بِحَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ حَيَوَانٍ، أَوْ إِنْسَانٍ، أَوْ كَوْكَبٍ، أَوْ تِلْكَ...».

(٢) انْظُرْ تَصْحِيحَ ابْنِ عَرَبِيٍّ لِعِبَادَةِ مَنْ عَبْدَ الْعَجَلَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فِي «الْفُصُوصِ» (١/ ١٩١) وَمَا بَعْدَهَا، وَتَصَوُّبِهِ لِدَعْوَى فَرَعُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ فِي «الْفُصُوصِ» (١/ ١٩١-١٩٤)، وَانْظُرْ أَيْضًا «الْفُصُوصُ» (١/ ٢١٠-٢١١).

فلا بد أن يكون طالب العلم على حذر، وعلى إلمام بهذا المذهب الخبيث الذي هو أكفر مذهب في الأرض؛ وبهذا القدر نكتفي لئلا نسترسل في الكلام.

### المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة وأتباعهم؛

الفلاسفة المشّاهون ومن تبعهم من متكلم ومن متصوف كابن سينا<sup>(١)</sup>، والفارابي<sup>(٢)</sup>، وابن عربي، وغيرهم، هؤلاء الفلاسفة مذهبهم في كلام الله عز وجل: أنه فيضٌ فاضٌ من العقل الفعّال على النفس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها فحصل لها تصورات وتصديقات بحسب ما قبلت منه، فكلام الله ليس حرفاً ولا صوتاً، ولكنه معاني تفيض على النفوس الفاضلة الزكية، ويحصل لها تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته من هذا الفيض.

وهذا المذهب في الكلام مبني على مذهبهم في القول بقدم العالم، وأن العالم لازم الله أزلاً وأبداً؛ كلزوم الضوء للسراج. فلا يقولون: إن

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس، ولد سنة ٣٧٠هـ في إحدى قرى بخارى، كان هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين. من كتبه: «الشفا»، و«الإشارات». توفي سنة ٤٢٨هـ. انظر: «لسان الميزان» (٢٩١-٢٩٣/٢)، و«الأعلام» (٢٤١-٢٤٤)، و«الموسوعة العربية الميسرة» (١٩).

(٢) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، أصله تركي، ولد سنة ٢٦٠هـ في «فاراب» على نهر جيحون، وانتقل إلى بغداد ونشأ فيها، سمي المعلم الثاني؛ لشرحه كتب أرسطو المعلم الأول. من كتبه: «مبادئ الموجدات»، و«إبطال أحكام النجوم»، وغيرها. قال ابن كثير: ولم أرَ الحافظ ابن عساكر ذكره في «تاريخه»؛ لنته وقبحته. توفي سنة ٣٣٩هـ. انظر: «أخبار الحكماء» لابن القطي (١٨٢-١٨٤)، و«البداية والنهاية» (٢٥١/١١)، و«الأعلام» (٢٠/٧).

العالم حادث بل يقولون: إن العالم قديم قديم الله؛ وهذا المعنى إنكار لوجود الله، وأنه واجب الوجود بذاته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء؛ فَبَيَّنَّا على هذا الأصل، وهو القول بقدم العالم؛ أن الكلام معنى يفيض على النفس الفاضلة الزكية فيحصل لها تصورات وتصديقات بحسب ما قبلت منه.

وأصل هذا: أنهم لم يؤمنوا بالرب الذي أخبر عن نفسه أنه الأول، وليس قبله شيء، والذي عرف اسمه الرسل، الفعال لما يريد، المتصف بالصفات، القادر على كل شيء، المتكلم بقدرته ومشيتته؛ فلما لم يؤمنوا بالرب الذي وصف نفسه، وسماها بأسماء وصفات؛ قالوا: إن العالم قديم، ثم إن الكلام فيضٌ فاضٌ من العقل الفعّال.

وحقيقة هذا المذهب: الكفر بالله، وملأنكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره وبالبعث والنشور، وبالجنة والنار؛ فهم كفره ملاحدة لم يؤمنوا برسله؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله رباً وإلهاً ومعبوداً بالحق، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه الغني بذاته، الذي لا يحتاج إلى أحد، وأن له الكمال في أسمائه وصفاته.

وهم يلتقون مع الاتحادية الذين يقولون: الوجود واحد؛ والعبد هو الرب، والرب هو العبد، وهؤلاء الفلاسفة يقولون: إن العالم قديم ولازم للرب، ولم يشتوا رباً غنياً خالقاً قادراً بمشيئته، وقالوا: إن الرب هو أول هذا العالم، وهو المحرك له، وهو العلة الغائية لحركته، فهم بهذا يلتقون مع الاتحادية في الكفر والزندقة، نسأل الله السلامة والعافية.

ولكن العلماء يذكرون هذه المذاهب؛ لأن الملاحدة تستروا باسم الإسلام، وهم في حقيقة الأمر يظهرون الإسلام، ويطنون الكفر والإلحاد،

وكذلك الفلاسفة. فهناك من يظن من الناس أنهم على حق وصواب، وأنهم أهل علم، وأهل قواعد وأصول؛ فافتروا بهم كثير من الناس من أهل البدع، وظنوا أنهم على حق وصواب.

### المذهب الثالث: مذهب السالمية<sup>(١)</sup>

وهم أتباع محمد بن أحمد بن سالم، أبي عبد الله، وتبعهم بعض أتباع الأئمة الأربعة أو بعض من ينتسب للحديث، وذهبوا إلى أن كلام الله ألفاظ ومعاني وحروف وأصوات قديمة في الأزل لم تزل ولا تزال، ولا يقولون إن الكلام متعلق بقدرة الله ومشيتته، وما دامت الألفاظ قديمة؛ فالحروف التي تُولف هذه الأصوات قديمة، وما دامت المعاني قديمة؛ فالحروف التي تتألف من هذه الألفاظ قديمة.

وهم يقولون: إن كلام الله نوعان:

- نوع يُسمَعُ بواسطة.
- ونوع يُسمَعُ بغير واسطة.

كما سمع محمد ﷺ كلام الله بواسطة جبرائيل، لكن الكلام وإن كان لفظاً ومعنى، وإن كان بحرف وصوت، إلا أنه قديم لم يزل ولا يزال، ولا

(١) هم أتباع محمد بن أحمد بن سالم، أبي عبد الله المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة ٣٥٠هـ، وقد تلمذ الابن على سهل بن عبد الله التستري. ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكي صاحب كتاب «قوت القلوب» المتوفى سنة ٣٨٦هـ. ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية. انظر: «شذرات الذهب» (٣/٣٦)، و«المعجم للسراج» (٤٧٢-٤٧٦)، و«طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي (٤١٤-٤١٦)، و«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي (١٥٧-٢٠٢).

يزال الرب يتكلم في القدم والأزل، وكلمات الرب مقترنة لا يسبق بعضها بعضاً؛ فالباء مع السين مع الميم كلها يتكلم بها الرب دفعة واحدة؛ هكذا يقولون.

وقالوا: إن الحروف إنما تُسمع متعاقبة بالنسبة لسمع الإنسان؛ وإلا فالحروف مقترنة، وشبهتهم في ذلك منية على أن الكلام -عندهم- لا بد أن يقوم بمتكلم، وأن الرب ليس محلاً للحوادث؛ قالوا: فلو قلنا: إن كلام الرب متعلق بقدرة ومشيتته؛ لصار محلاً للحوادث؛ بل يقولون: إن الكلام قديم في الأزل لم يزل ولا يزال، فمتى شاء الله تكلم بالحروف مقترنة.

ولهذا يسمونهم بـ«الاقترافية»؛ نسبة إلى الاقتران الذي ذكروا في الحروف، وأن الرب يتكلم بها دفعة واحدة، فقالوا لو قلنا: إن الحروف متعاقبة؛ للزم من ذلك: أن يحدث الحرف الثاني في ذات الرب، فيكون ذلك محلاً للحوادث، وهذا مذهب باطل.

وقولهم: إن الكلام ألفاظ ومعاني وحروف وأصوات قائمة بذات الرب؛ فهذا حق، لكن قولهم: إنه لا يتعلق بقدرة ومشيتته؛ فهذا باطل، فالرب لم يزل يتكلم، وكلامه قديم لكن ألفاظه لم تزل حادثة متعلقة بمشيته؛ فهو يكلم جبريل، ويكلم الملائكة، ويكلم الأنبياء، ويكلم الناس يوم القيامة؛ فالقول بأنه لا يتعلق بقدرة ومشيتته، تعطيل للرب من الكمال وتنقص له - سبحانه -.

وكذلك قولهم: إن الحروف مقترنة، وأنه لا يسبق بعضها بعضاً، وأنها غير متعاقبة؛ هو تخليط وهذيان غير متصور، ومخالفة للنسب، وليس معلوماً بالفطرة؛ لأن الكلمة إذا كانت مكونة من حرفين؛ فلا يمكن

للمتكلم أن يتكلم بالحرف الثاني إلا بعد الأول، ولا وجود للكلمة إلا بالتعاقب، وقولهم: إنه يلزم من ذلك أن تحدث الحروف في ذات الرب، فهذا باطل؛ لأن هذا يلزم بالنسبة للمخلوق، أما الخالق فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ لأن الرب لا يشابه المخلوقين لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله - سبحانه -.

#### المذهب الرابع: مذهب الكلابية:

وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، ويرون أن كلام الرب معنى قائم بنفس الرب ليس بحرف ولا صوت، ولا يمكن أن يُسمع، وهو لازم لذاته كلزوم السمع والبصر والعلم والحياة، وهو أربعة معاني في نفسه: الأمر والنهي والخير والاستفهام.

وأما الحروف والأصوات؛ فهذه حكاية دالة على كلام الله وليست كلام الله، فليس في المصحف كلام يزعمهم، بل ما فيه إنما هو حروف وكلمات دالة على كلام الله، ليست هي كلام الله، فكلامه في نفسه لا يُسمع، والحروف والأصوات حكاية دالة عليه، وهذا المذهب مبني على أن الكلام لا بد من أن يقوم بالمتكلم، وعلى هذا: فإن الله ليس محلاً للحوادث؛ لأنه لو كان حرفاً وصوتاً؛ لكان محلاً للحوادث، كما قالوا: ليس بحرف ولا صوت، وإنما هي حكاية دالة عليه.

#### ولمناقشة هؤلاء الكلابية نقول:

أولاً: أنتم تقولون: إن الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله؛ فحكاية الشيء إنما تكون بالإتيان بمثل الشيء؛ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير؛ تقول: حكيت الحديث بعينه؛ تريد أن الرواية مطابقة للحديث من غير زيادة ولا نقص، والحروف والأصوات ليست مطابقة

للمعنى القائم بنفس الرب فكيف يقال: إنها حكاية لكلام الله؟!

ثانياً: لو كانت الحروف والأصوات حكاية عن كلام الرب كما تزعمون؛ فلزم من ذلك أن تكون صفات الله محكية، وله مثل وشبيه، والله ليس له مثل ولا شبيه.

ثالثاً: لو كانت الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله؛ لأتى الناس بكلام مثل كلام الله، وحينئذ أين عجزهم عن الإتيان بمثله؟ وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُ بِأَنفُسِهِمْ يَكْفُرُونَ لَا يَأْتُونَ بِثَبَاتٍ وَلَا يَكُونُ يَتَّبِعُونَ وَلَا كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٢٨)، وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَقُولُ فَتَقْتَرِنَهُ قُلْ فَأَنفُسُهُمْ يَشَوَّروْنَ يَخْلَعُونَ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَاعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩) لئونس: ١٣٨.

ورابعاً: لو كانت الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله؛ للزم عليه أن يحكى بحرف وصوت ما ليس بحرف ولا صوت.

وعلى هذا يتبين بطلان هذا المذهب.

#### المذهب الخامس: مذهب الأشاعرة<sup>(١)</sup>

وهم أتباع أبي الحسن الأشعري يقولون: إن الكلام معنى قائم بنفس

(١) وينسبون إلى أبي الحسن الأشعري، ويقولون بإثبات سبع صفات فقط؛ لأن العقل دل على إثباتها، وهي السمع، والبصر، والعلم، والكلام، والقدرة، والإرادة، والحياة، وقالوا بأن كلام الله هو المعنى القائم، وهو قائم بالذات يستحيل أن يفارقه، والعمارات والحروف دلالات على الكلام الأزلي، وعندهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والعمل والإقرار من فروع الإيمان لا من أصله، وقد رجع أبو الحسن الأشعري عن قوله في الأسماء والصفات. انظر: «الملل والنحل» (١) / (١١٩)، ورسالة في الرد على الرافضة (١٦٦).



الرب وهو بمعنى واحد؛ ليس بحرف ولا صوت، وهو لا يُسمع، لكنه معنى واحد وشيء واحد، وهو لا يتنوع لأربعة أشياء كما يقول الكلاية .

فهم يقولون بأن الكلام معنى واحد؛ لا يتعدد ولا يتبعض، ولا يتجزأ، ولا يتكثر، بل هو معنى واحد، والحروف والأصوات عبارة دالة عليه؛ فهذا يقول حكاية، وهذا يقول عبارة، وكونه أمراً ونهياً وخبراً واستفهاماً فهذه الصفات إضافية لهذا المعنى الواحد، ولكنها ليست أنواعاً بل صفات إضافية لذلك النوع الواحد؛ فيكون الخطاب أمراً بالإضافة، ونهياً بالإضافة، وخبراً بالإضافة، واستفهاماً بالإضافة؛ فهي صفة إضافية كما أن الإنسان له صفات إضافية، فأنت شخص واحد توصف بأنك أب بالإضافة إلى أبنائك، وتوصف بأنك ابن بالإضافة إلى آبائك، وتوصف بأنك خال بالنسبة لأولاد الأخت .

وقوله: توراة وإنجيل وقرآن وزبور، قالوا: هذا تقسيم للعبارة؛ للدلالات لا للمدلول، فالمدلول واحد، وهو المعنى القائم بنفس الرب؛ بحسب العبارة؛ لكن إن عُبِّرَ عنه بالعربية؛ فهو القرآن، وإن عُبِّرَ بالعبرانية؛ فهو التوراة، وإن عبرت عنه بالسريانية؛ فهو الإنجيل، وإن عبرت عنه بالداودية؛ فهو الزبور، وهو شيء واحد، ومعنى واحد فقالوا: إن الحروف تفسير بالنسبة للدلالات والعبارات؛ فالحروف والأصوات عبارة دالة عليه.

وبعضهم يرى أنه لا فرق بين مذهب الكلاية والأشاعرة، فبعض الأشاعرة يقول: إن المذهب واحد؛ لأن كُلَّ من المذهبين يتفق على أن الكلام معنى قائم بنفس الرب، واتفقوا على أن الحروف والأصوات دالة على كلام الرب؛ فتكون الكلاية قالوا: «حكاية»، والأشاعرة قالوا:

«عبارة»، فمذهب الأشاعرة والكلاية متقاربان، ومذهب الأشاعرة -بزعم أصحابه- هو المذهب الذي يكاد يقطع العقل، وهم يسمون أنفسهم بأهل السنة والجماعة!!

وفي بعض الأزمنة عُمِّتْ هذه التسمية عليهم، ولم يُنْجِ إلى الحق والهدى إلا طائفة قليلة، ولذا: كان من المُهِمِّ أَنْ تُعْرِفَ مَذْهَبُ الْأَشَاعِرَةِ، وَتَبَيَّنَ بَطْلَانُهُ لِلنَّاسِ .

#### المذهب السادس: مذهب الكَرَاوِيَّة<sup>(١)</sup>

وكان الترتيب أن يكون قبل مذهب الكلاية والأشاعرة. وهم أتباع محمد بن كَرَّام، وهم يقولون: إن كلام الله حروف وأصوات وألفاظ ومعان قائمة بذات الرب، متعلق بمشيئته وقدرته، فهو يتكلم متى شاء إن شاء، إلا أن الكلام حادث في ذاته؛ فكان الكلام مستمناً عن الرب؛ لا يقدر عليه، ثم انقلب فجأةً فصار ممكناً.

فقولهم: إن كلام الرب ألفاظ ومعان وحروف وأصوات قائم بذاته، ومتعلق بقدرته ومشيئته؛ فهذا حق، وهو موافق لأهل السنة والجماعة، لكن

(١) وهي إحدى فرق المرجنة، وسموا بذلك نسبة إلى محمد بن كَرَّام من أهل سجستان، وهم يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو جحوده وإنكاره باللسان، وهم فرق: الطريفة، والإسحاقية، والعابدية، والهصمية، وغيرها، وكانوا يثبتون الصفات إلا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه. انظر: «مذاهب الإسلاميين» للدكتور عبد الرحمن بدوي: (٢٢٣/١)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين» (١٠١)، و«الملل والنحل» (١٤٤/١)، ورسالة في الرد على الرافضة (١٦٣-١٦٥).

قولهم: إن كلام الرب حادث في ذاته؛ فهذا باطل، وقولهم: إن الكلام كان ممتنعاً عن الله، ثم انقلب فجأةً فصار ممكناً، فكانت هناك فترة لا يقدر أن يتكلم فيها؛ فهذا مبنيٌّ على أن القول بأن الكلام قديم يوجب أن تتسلسل الحوادث والموجودات .

قالوا: لو قلنا بأن كلام الرب قديم ليس حادثاً للزم التسلسل في الحوادث والموجودات، ولو أردنا إثبات أولية الرب، فلا نستطيع أن نثبت أن الله هو الأول وليس قبله شيء، ولا انسُدَّ علينا هذا الباب؛ ففراًداً من ذلك قالوا: إن الكلام كان ممتنعاً على الرب، ثم انقلب فجأةً فصار ممكناً؛ وهذا باطل من وجوه:

أولاً: أن الرب موصوف بالكمال؛ والكلام صفة الرب؛ فالكلام صفة كمال؛ فكيف يخلو الرب من هذا الكمال في وقت من الأوقات؟ فإذا خلا من الكمال: صار ذلك نقضاً، والله منزّه عن كل نقص.

وكيف يكون كلامه ممتنعاً ثم يصير ممكناً؟ فإذا كانت حال الرب سواء، ولم تتجدد له صفة الكلام؛ فكيف يكون الكلام ممتنعاً كما قالوا؟! وما الذي جعله ينقلب من الامتناع إلى الإمكان؟!

ثانياً: القول بأن الطريق ينسد بإثبات الأولية، نقول: لا ينسد فاهه هو الأول، وليس قبله شيء، وهو قَدَّال - سبحانه وتعالى -، ويتكلم ويخلق بالكلام؛ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن ينادي بقوله له: كن فيكون، وكل فرد من أفراد المخلوقات مسبوق بالعدم، خلقه الله بقدرته ومشيبته بعد أن كان معدوماً، وإذا وُصِفَ كل فرد من المخلوقات بهذا؛ فلا يلزم من ذلك أن تكون هناك فترة يُعَقَّلُ فيها الرب.

### المذهب السابع: وهو مذهب الجهمية:

وتلقته منهم المعتزلة فُسِّب إليهم، ومن أجل ذلك يقال «مذهب الجهمية، ومذهب المعتزلة»، وهو القول: بأن كلام الرب ألفاظ ومعان وحروف وأصوات، وهو متعلق بقدرته ومشيبته، إلا أنه مخلوق، خارج عن ذاته، فصار به متكلماً .

فقولهم: إن كلام الرب ألفاظ ومعان وحروف وأصوات متعلق بقدرته ومشيبته؛ فهذا حق ولكن قولهم: إنه مخلوق فهذا باطل؛ قالوا: إن الله - تعالى - لما نادى موسى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة قالوا: إن الله خلق الكلام في الشجرة فهي التي قالت: ﴿وَيَتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفص: ٣٠]، فالكلام - قالوا - مخلوق خارج ذاته، وإن كان ألفاظاً ومعاني وحروفاً وأصواتاً بمشيئته. وهذا المذهب مبني على نفي الصفات عن الرب لما يقتضيه إثبات الصفات عندهم من التشبيه والتجسيم، ومشابهة المخلوقات؛ ففراًداً من ذلك نفوا الصفات .

فهذه سبعة مذاهب، وكلها باطلة وهي التي تدور في العالم، لكن هذه المذاهب ليست منتشرة انتشاراً كبيراً، وقد رددنا عليها، وأكثر المذاهب انتشاراً هو مذهب الأشاعرة والكلابية؛ ويكادان يكونان مذهباً واحداً، حتى إن كثيراً من الفقهاء وغيرهم ينتحلون مذهب الأشاعرة؛ فالفقهاء من الحنابلة وغيرهم، وكثير من الأحناف مذهبهم أشعري، حتى صاحب «الروض المربع» قال أول ما بدأ في الشرح: «بسم الله الرحمن»؛ ففسر الرحمة بالإنعام، على طريقة الأشاعرة، والإنعام ليس الرحمة، وقد يوافقهم بعض المُحَدِّثِينَ في بعض الأمور كالحافظ ابن حجر كَتَبَهُ، فبعض الصفات أَوْلَّهَا على طريقة الأشاعرة: كالغضب والرضا والكلام، وكذلك

النوري رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» يُوَلِّدُ الصِّفَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَشَاعِرَةِ.  
وَالسَّبَبُ فِي هَذَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْفَطَّاحِلِ الْمُحَدِّثِينَ، لَمْ يُؤَفِّقُوا  
لِمَنْ يُتَّبَعُهُمْ عَلَى مَعْتَقِدِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي سِنِ الطَّلَبِ؛ فَظَنُّوا أَنَّ مَا  
هَمَّ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ.

**فَالْخِلَاصَةُ:** أَنَّ لَهُمْ أَعْمَالًا عَظِيمَةً فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ هَذِهِ  
الْأَخْطَاءُ صَدَرَتْ مِنْهُمْ عَنْ اجْتِهَادٍ لَمْ يَتَعَمَّدُوا، فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ  
الْفَطَّاحِلِ الْكِبَارِ وَقَعُوا فِي الْخَطَأِ وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السَّنَةِ  
وَالْجَمَاعَةِ؛ فَلِلَّذَلِكَ: كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَوْضِيحِ الْمَحِجَّةِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، فَطَالِبُ  
الْعِلْمِ يُخَشِّي عَلَيْهِ أَنْ يَزِلَّ، وَلَكِنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ الْيَوْمَ هُوَ  
أَكْثَرُ الْمَذَاهِبِ انْتِشَارًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

#### المذهب الثامن: مذهب أهل السنة والجماعة:

وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْأُئِمَّةُ وَاتَّبَاعُهُمْ، فَهَمُ أَتْبَاعُ  
الرَّسْلِ، وَمَذْهَبُهُمْ فِي كَلَامِ الرَّبِّ: أَنَّ اللَّهَ مَوْصُوفٌ بِالْكَلَامِ، وَأَنَّ الْكَلَامَ  
مِنْ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ؛ لِإِصْطِفَائِهِ بِهِ فِي الْأَوَّلِ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِالْكَلَامِ أَوَّلًا  
وَأَبَدًا، وَكَذَلِكَ هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ الْفَعْلِيَّةِ لَكُونَ الْكَلَامُ بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ وَاجْتِهَادِهِ؛  
وَلَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ الْمُسَمَّيَّ قَدِيمًا، وَمِنْ صِفَاتِهِ  
الْفَعْلِيَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ  
سُبْحَانَهُ.

وَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ أَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ بِحُرُوفٍ وَصَوْتٍ يُسْمَعُ، وَأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ -  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَيْسَ حَالًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا مُتَّحِدًا بِهِمْ، بَلِ الرَّبُّ بَائِنٌ  
بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ خَلْقِهِ مُفَصَّلٌ عَنْهُمْ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَفْظُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ  
كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفُ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ، وَأَمَّا أَلْفَاظُ

الْعِبَادِ وَأَصْوَاتُهُمْ وَحَرَكَاتُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِأَمْرِ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ.

هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الثَّمَانِيَّةُ هِيَ أَبْرَزُ الْمَذَاهِبِ فِي كَلَامِ الرَّبِّ، وَهَذِهِ  
الْمَذَاهِبُ تَدُورُ عَلَى أَصْلَيْنِ:

**الأصل الأول:** هل كلام الرب واقع بمشيئته واختياره وقدرته أو بغير  
مشيئته واختياره؟!

اختلفوا في ذلك:

فقال بعضهم: إن كلام الرب واقع بغير مشيئته واختياره، وهم أربع  
طوائف:

**الأولى:** قالت: إن كلام الرب واقع بغير مشيئته واختياره، وهو معنى  
يفض منه على نفس شريفة تتكلم به؛ وهم الفلاسفة.

**الثانية:** قالت: إن كلام الرب معنى قائم به، وهو ألفاظ ومعان  
وحروف وأصوات قديمة في الأزل لم تزل ولا تزال؛ وهم السالمية.

**الثالثة:** قالت: إن كلام الرب واقع بغير مشيئته واختياره، وهو معنى  
قائم بنفسه، جامع لأربعة معان: هي الأمر والنهي والخبر والاستفهام؛  
وهم الكلاية.

**الرابعة:** قالت: إن كلام الرب معنى قائم بنفسه، وهو واحد لا يتبعض  
ولا يتعدد ولا يتكثر؛ وهم الأشعرية.

وقال بعضهم: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره، وهم أربع  
طوائف:

**الأولى:** قالت: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره؛ وهو الذي

يتكلم به الناس كلهم، وهو يُسمَع من جميع الناس؛ وهم الاتحادية.

الثانية: قالت: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره، وهو ألفاظ ومعانٍ وحروف وأصوات، إلا أنه حادث في ذاته، كائن بعد أن لم يكن؛ وهم الكرامية.

والثالثة: قالت: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره، وهو ألفاظ وحروف ومعانٍ وأصوات، إلا أنها مخلوقة خارجة عن ذاته؛ وهم الجهمية والمعتزلة.

والرابعة: قالت: إن كلام الرب قائم بذاته، واقع بمشيئته واختياره، وهو قديم النوع حادث الأحاد، بحرفٍ وصوت يُسمَع؛ وهم أهل السنة والجماعة.

أما الأصل الثاني: هل كلام الرب قائم بذاته ومتصف به أو هو خارج عن ذاته ومنفصل عنه؟! واختلفوا فيه كالتالي:

فقال بعضهم: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهم ثلاث طوائف:

قالت طائفة: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهو معانٍ تفيض على النفوس الفاضلة الزكية؛ وهم الفلاسفة.

وقالت طائفة: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهو الذي يتكلم به الناس كلهم؛ حقّه وباطله؛ وهم الاتحادية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهو هذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلمًا؛ وهم الجهمية والمعتزلة.

وقال بعضهم: واقع بذاته متصف به؛ وهم خمس طوائف:

قالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته متصف به، وهو ألفاظ ومعانٍ وحروف، والأصوات لم تزل ولا تزال؛ وهم السالمية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته ومتصف به؛ وهو ألفاظ ومعانٍ وحروف وأصوات، إلا أنه حادث في ذاته، كائن بعد أن لم يكن؛ وهم الكرامية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته ومتصف به، وهو معنى جامع لا معانٍ لها هي؛ الأمر والنهي والخبر والاستفهام؛ وهم الكلالية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته ومتصف به وهو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ولا يتجزأ ولا يتكثر؛ وهم الأشاعرة.

وقالت طائفة: إن كلام الله قائم بذاته ومتصف به وهو قديم النوع حادث الأحاد؛ وهم أهل السنة والجماعة.

فتبين بهذا أن هذه المذاهب ترجع لهذين الأصلين.

والذين أثبتوا الصوت في كلام الله؛ خمس طوائف:

الأولى: قالت: إن كلام الله بصوت وهو الذي يتكلم به للناس كلهم؛ وهم الاتحادية.

الثانية: قالت: إن كلام الله بالصوت، وهذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلمًا؛ وهم الجهمية والمعتزلة.

الثالثة: قالت: إن كلام الله بالصوت حادث في ذاته كائن بعد أن لم يكن، وهم الكرامية.

الرابعة: قالت: إن كلام الله بصوت، وهو ألفاظ ومعاني لم تزل ولا تزل في الأزل؛ وهم السالمية.

الخامسة: قالت: إن كلام الله بالصوت قديم النوع وحادث الأحاد؛ وهم أهل السنة والجماعة.

والذين لم يثبوا الصوت ثلاث طوائف:

الأولى: قالت: إن كلام الله ليس بصوت، وهو معنى يفيض على النفس الشريفة فتكلم بها؛ وهم الفلاسفة.

الثانية: قالت: إن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، لكنه معنى جامع لأربعة معان: الأمر والنهي والخبر والاستفهام؛ وهم الكلاية.

الثالثة: قالت: إن كلام الله ليس بصوت، وهو معنى واحد لا يتجزأ ولا يتعدد ولا يتبعض ولا يتكثر؛ وهم الأشاعرة.

مسألة:

الصوت المسموع من كلام الله - تعالى - هل يقال: إنه مخلوق أو غير مخلوق؟

الجواب:

هذا فيه تفصيل؛ إن أريد به الصوت المسموع عن الله، فهذا كلام غير مخلوق، وإذا أريد به الصوت المسموع عن المبلغ فهذا مخلوق.

مسألة:

ومسمى الكلام هل هو اللفظ أو المعنى؟

الجواب:

اختلفوا فيه:

فقال بعضهم: إن مسمى الكلام حقيقة في المعنى، مجاز في اللفظ؛ وهم الأشاعرة.

وقيل: إن الكلام حقيقة في اللفظ، مجاز في المعنى، وهذا مذهب المعتزلة.

وقيل: إن الكلام حقيقة في كل من اللفظ والمعنى، فإطلاقه على المعنى وحده حقيقة، وإطلاقه على اللفظ حقيقة، فهو مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات<sup>(١)</sup>، وهذا مذهب أبي المعالي الجويني.

وقيل إن الكلام حقيقة في اللفظ والمعنى على سبيل الجواز؛ فإطلاقه على أحدهما إطلاقه على جزء معناه، وإطلاقه عليهما على سبيل الجمع؛ إطلاق على كل معناه.

وهذا هو الذي عليه أكثر العقلاء وهو الصواب في مسمى الكلام.

حقيقة مذهب أهل السنة والجماعة في كلام الرب عز وجل:

(١) انظر: «منهاج السنة» (٣٦٣/٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٦٧/١٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء التعارض» (٣٢٩/٢): «والناس لهم في مسمى الكلام أربعة أقوال: أحدها: أنه اللفظ الدال على المعنى، والثاني: أنه المعنى المنقول عليه باللفظ، والثالث: أنه مقول بالاشتراك على كل منهما، والرابع: أنه اسم لمجموعهما، وإن كان مع القرينة يراد به أحدهما؛ وهذا قول الأئمة وجمهور الناس».

أن كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء باللسن، مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، معلوم في القلوب، مقروء مسموع بالأذان، وهو في هذه المواضع كلها حقيقة.

إذا قيل: في المصحف كلام الله؛ فهم منه معنى حقيقي، وإذا قيل: فيه مداد كتب به، فهم منه معنى حقيقي، وإذا قيل: في المصحف خط فلان الكاتب؛ فهم منه معنى الحقيقية.

وإذا قيل: المداد في المصحف؛ فالظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قولك: فيه السموات والأرض، وفيه محمد وعيسى؛ وهي غير الظرفية المفهومة من قولك: فيه خط فلان الكاتب، وهي غير الظرفية المفهومة من قولك: فيه مداد كتب به، وهي غير الظرفية المفهومة من قولك: في المصحف كلام الله.

هذه كلها حقائق؛ فالمصحف فيه كلام الله، وفيه خط فلان، وفيه مداد كتب به، وفيه محمد وعيسى؛ يعني: ذكر محمد وعيسى، وفيه السموات والأرض أي: ذكر السموات والأرض.

ومن لم ينتبه لهذه الفروق ضل ولن يهتدي إلى الصواب، وكذلك لا بد من الانتباه للفرق بين القراءة المقروء؛ فالقراءة فعل القارئ، والمقروء كلام الرب.

وقد استدل الإمام البخاري رحمته الله في كتابه «الصحیح» على أن أفعال العباد مخلوقة، واستدل بنصوص التبليغ كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ۚ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَمَا تَعْمَلُونَ إِسْرَارًا﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وهذا من رسوخه في العلم، فإن ذلك يتضمن أصليين عظيمين ضل فيها أهل الزيغ:

الأصل الأول: أن المبلغ ليس له من الكلام إلا مجرد التبليغ فليس مُنْشِئًا ولا مُخْلِئًا للكلام؛ إذ لو كان الكلام من عنده لكان مُنْشِئًا مُخْلِئًا للكلام ولم يكن مبلغًا؛ فالمبلغ إنما يبلغ كلام غيره؛ فإذا قرأت: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَىٰ» [١] تقول هذا كلام الرسول، ولا تقول إنه كلامك، وإذا قرأت قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل  
بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
تقول: هذا كلام امرئ القيس؛ لأنك أنت المبلغ عنه، فالمبلغ إنما يبلغ كلام غيره.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ؛ وحقيقته أن يورد إلى الموصّل إليه ما حمّله إليه غيره، فله مجرد التبليغ، وقد ترجم الإمام البخاري رحمته الله في «الصحیح» في كتاب التوحيد باب قراءة الفاجر والمنافق لا تجاوز حناجرهم، أراد من ذلك أن أفعال العباد وقراءتهم وأصواتهم مخلوقة، وأنهم يقرءون كلام الله بأصواتهم، فأصواتهم وقراءتهم هي أفعالهم، والمقروء كلام الله.

وحقيقة كلام الله الخارجية هي ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، كما سمعه جبرائيل، وكما سمعه نبيينا محمد رحمته الله، وكما سمعه موسى، ويسمعون نص كلام الله يوم القيامة، فإذا سمعه السامع فكلام الله له مسموع، وإذا علمه وحفظه فكلام الله له محفوظ، وإذا قرأه فكلام الله له مقروء، وإذا كتبه فكلام الله له مكتوب، وهو حقيقة في هذه المواضع كلها؛ لا يصح نفيها، ولو كان مجازًا لصح نفيها.

(١) أخرجه البخاري (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولو كان مجازاً لقل: ما قرأ القارئ كلام الله، وما كتب الكاتب كلام الله، وما سمع السامع كلام الله، أو ما حفظ الحافظ كلام الله، وهذا حق؛ لأن هذا فيه خطأ، فهو حقيقة في هذه المواضع كلها .

والفرق بين كون القرآن في زير الأولين - أي: في كتب الأولين - وبين كون القرآن في لوح محفوظ، وفي كتاب مكنون، وفي رق منشور واضح؛ فإن معنى: ﴿وَلَوْ أَنِّي ذُرِّيُّ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩٦] أي: ذكره ووصفه والإخبار عنه، فالقرآن في الإنجيل والتوراة؛ أي: ذكره وخبره، وليس المراد أن القرآن نزل في التوراة والإنجيل؛ لأن القرآن إنما أنزله الله على محمد ﷺ كما أن فيه خبر النبي ﷺ.

وأما ما ترى من قوله - تعالى -: ﴿فِي رَقٍّ مُثْمَرٍ﴾ [الطه: ٢٣] وفي آية ﴿فِي كِتَابٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [الزبور: ٢٢]، وفي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿[الواقعة: ١٧٨]﴾ أي: مكتوب فيه؛ ولهذا قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله في رسالة سماها «الفقه الأكبر»<sup>(١)</sup> قال ما معناه: وكلام الله في المصاحف مكتوب، وعلى الألسن مقروء، وفي القلوب محفوظ، وعلى النبي ﷺ منزل، ولفظنا في القرآن مخلوق، والقرآن غير مخلوق، وما ذكر الله في القرآن عن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعن إبليس وفرعون هذا إخبار عنهم، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق .

وكلام الله ليس بكلام المخلوقين، يَنْقَلِبُ لا كعلمتنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرويتنا، ويتكلم لا ككلامنا، أو كما قال الله.

والأدلة على ثبوت كلام الرب عز وجل، وأن الله يتكلم بحرف

(١) انظر: «الفقه الأكبر» للإمام أبي حنيفة، مع شرحه؛ للملا علي القاري (٤٧-٥٨).

وصوت، وأن الله موصوف بالكلام؛ كثيرة منها: تكليم الله - سبحانه وتعالى - لأبيانه ورسله، وكلام الله مع أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَخَضُّعًا﴾ [التيسار: ٢١٦٤] وقال: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الاعراف: ١٤٣] وقال: ﴿سَلَّمَ فَلَا يَنْ دَرِيَّ رَجِيمٍ﴾ [النس: ٥٨].

ومن السنة: ما ثبت في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَيْمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ). قَالَ: فَنَظَرُوا إِلَيْهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَخْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ»<sup>(١)</sup>، أو كما جاء في الحديث، والحديث وإن كان فيه ضعف، إلا أن له شواهد .

ومن الأدلة على أن الله يتكلم، وأن الكلام قائم به: قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ يَشْتَرُونَ بِمَدَى اللَّهِ وَأَيَّامِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤) واللفظ له، والبخاري كما في «مجمع الزوائد» (٤٧٨/٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٨/٦-٢٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (١٣/٦)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، والحديث ضعفه غير واحد من أهل العلم؛ قال البوصيري في «مصباح الرجا» (٢٦/١): «هذا إسناد ضعيف؛ لضعف الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي». وبالفضل هذا أهل الهيشي الحديث، كما في «مجمع الزوائد» (٤٧٨/٦)، و(٩٨/٧). وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع كما في كتاب «الموضوعات» (٤٣٢/٢)، لكن قال ابن عراقي في «تنزيه الشريعة» (٣٨٤/٢) - بعد أن أوردته: «... وأورده الشيخ تقي الدين ابن تيمية في رسالته أن النساء يرين الله تعالى في الدار الآخرة، وأعلمه بالفضل الرقاشي ثم قال: (وقد رويانه من طريق أخرى) فذكرهما، ثم قال: (وهذه الطريق تنفي أن يكون الفضل قد تفرد به. والله تعالى أعلم). وانظر كلام ابن تيمية في «مجمع الفتاوى» (٤٤٩/٦).

الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُصِيبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ (آل عمران: ١٧٧)، ونفى التكليم عن أعدائه؛ فقال: (لا يكلمهم) أي: لا يكلمهم الله تكليم الرضا؛ بل يكلمهم كلام السخط والغضب، كما أخبر الله أنه يكلم أهل النار ويقول: «اسْمِعُوا فَبِمَا أَسْمِعُكُمْ» (المومن: ١٠٨).

وَنَقِيَّ الْكَلَامِ عَنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَكْلِمُ عِبَادَهُ، وَلَوْ كَانَ لَا يَكْلِمُهُمْ لَتَسَاوَوْا هُمْ وَأَعْدَاؤُهُ فِي عَدَمِ الْكَلَامِ، أَيْ لَوْ كَانَ لَا يَكْلِمُ أَعْدَاءَهُ لَسَخَطَهُ عَلَيْهِمْ؛ فَهُوَ يَكْلِمُ أَوْلِيَائَهُ لِرِضَاهُ عَنْهُمْ.

ومن الأدلة: قول النبي في الحديث الصحيح: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»<sup>(١)</sup>، «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يَأْتِيَنَّهَا شَيْءٌ وَلَا فَاجِرٌ»<sup>(٢)</sup>، فالنبي ﷺ استعاذ بكلمات الله؛ فدل على أن كلام الله غير مخلوق - كما تقول المعتزل -؛ لأن النبي ﷺ لا يستعذ بمخلوق.

فالبخاري رحمه الله بَوَّبَ في «صحيحه»: باب كلام الرب مع أهل الجنة وغيرهم، وذكر فيه عدة أحاديث<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها، و (٢٧٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤١٩/٣)، وأبو يعلى (٦٨٤٤)، وابن السني في «اليوم والليلة» (٦٢٧٣) وغيرهم من طرق عن جعفر بن سليمان، عن أبي التياح، عن عبالرحمن بن خنيس رضي الله عنه، وجعفر لا يحتمل نقله، كما جُزَّء العراقي إسناداً كما في تخریج «الحیاه علوم الدین» (٣٣/١)، وقد ورد هذا الزائد أيضاً من حديث أبي بن تبت مخرجة رضي الله عنه، عند الطبراني في «الكبير» (١٢/٢٥)، بإسناد حسنه الحافظ الهيثمي في «معجم الزوائد» (١٠/١٢٥). وفي الباب أيضاً عن خالد بن الوليد، وابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٤٨٨/١٣) وما بعدها.

ومن الأدلة العقلية على أن الرب يتكلم والكلام قائم به: أن الكلام صفة كمال، والرب - سبحانه وتعالى - لا يخلو من الكمال فلا بد أن يتصف الرب بالكلام، فالكلام صفة كمال، فلا يخلو الرب من هذا الكمال، وعدم الكلام نقص ينزه عنه الرب؛ كما قال الله - تعالى - عن العجل وعباده: ﴿وَلَقَدْ قَرَّمْ قَرَمًا بَرًّا بِدُونِ مَبْجُوهٍ عَجَلًا جَعَلْنَا لَهُ مَوَدَّةَ رَبِّهِ لَا يَلْعَنُ أَهْلَهُ لَا تَابِئِيهِمْ رَبِّي لَا يَنْبِئُهُمْ بِشَأْنِ رَبِّهِمْ لَئِنْ كَانُوا إِلَّا قَوْمًا يَمُرُّونَ بِهِمْ لَبِثًا ۝١٨﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ يَرُونَهُ أَكْثَرًا وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْهُ سِوَا ظَنِّهِمْ سَخِرَ مِنْهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ ۝١٩﴾

[طه: ٨٩] •

فَعَلِمَ أَنَّ عَدَمَ الْكَلَامِ نَقْصٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عَدَمِ أَلُوهِيَةِ الْعَجَلِ؛ فَالْعَجَلُ لَمْ يَتَكَلَّمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٢٨٩]، وَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُمْ﴾ [الاعراف: ١٤٨].

فنفني رجوع القول؛ يَدُلُّ على عدم ألوهية العجل، وبنو إسرائيل سكنوا ولم يقولوا: إن الله لا يتكلم، فهم في هذه الخصلة، أحسن من المعتزلة الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، وإن الكلام مخلوق.

ومن الأدلة على أن كلام الله قديم النوع حادث الأحاد:

قول الله - تعالى - : ﴿مَا يَلْفُظُونَ مِنْ ذِكْرِ بْنِ رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلاَّ سَمْعَهُمْ وَهُمْ يَنْسَوْنَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، وفي الآية الأخرى : ﴿وَمَا يَلْفُظُونَ مِنْ ذِكْرِ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُ﴾ [البقرة: ٢٥] ، نقوله : ﴿يُحَدِّثُ﴾ صريح في حدوث أحاد كلام الله ، ولا يفهم من ذلك أن محل الحوادث في ذات الرب ؛ لأن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين ، إنما كلام المخلوقين هو الذي يلزم منه حدوث ذواتهم ، أما كلام الرب فلا يماثل كلام المخلوقين .

ومن الأدلة أيضًا على أن كلام الله آحاده حادثة: قول الله - تعالى - :



﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ قَوْلَكُمَا إِنَّ اللَّهَ شَيْخٌ مُبْتَرٍ﴾ [المجادلة: ١]، فالله - تعالى - أخبر عن سماعه لكلام المجادلة بلفظ الماضي «سَمِعَ»، وهذا يدل على أن المجادلة والجدال الذي حصل كان قبل نزول الآية، ثم نزلت الآية بعد، فدل هذا على أن الرب تكلم في هذه الآية، بعد حصول الحادثة.

فالمرأة التي جاءت تجادل النبي ﷺ في زوجها هي خولة بنت حكيم لما ظاهر منها زوجها؛ قالت: أشكو إلى الله صبيئة - تعني: أولادها الصغار - إن ضمنتمهم إلي ضاعوا أو إليه جاعوا، وجعلت تجادل النبي ﷺ فيقول: «مَا أَرَاكَ إِلَّا حُرْمَتٌ عَلَيْهِ»، فجاءت تشتكي إلى الله فقالت: أشكو إلى الله صبية إن ضمنتمهم إلي ضاعوا، أو إليه جاعوا، قالت عائشة رضي الله عنها: «إِنَّهُ يَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ الْكَلَامِ مِنَ الْمَرْأَةِ سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ»، لكن الله سمع كلامها من فوق سبع سموات وأنزل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

فهذا دليل على حدوث آحاد كلام الله، وأن كلام الله وإن كان قديم النوع لكن أفراده حادثة، ومثله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بِئُوتِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدُ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُ يَبْسُطُ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ١٢١]، فالله أخبر عن خروج نبيه ﷺ أول النهار بلفظ الماضي «بُئِوتِ»، وهذا يدل على سبق الغدو للخبر أي: أن النبي خرج أول النهار وبوأ المؤمنين مقاعد للقتال، ثم أنزل الله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بِئُوتِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدُ إِلَيْكُمُ﴾ [آل عمران: ١٢١] فالغدو والخروج سابق لنزول الآية.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَخَلَّصْتُمْ ثُمَّ سَرْوْتُمْ لَكُمْ لِمَنْ كَفَرْتُمْ أَسْجُدُوا لِلْأَعْيُنِ﴾ [الأعراف: ١١]، ف«سَرَوْتُمْ» تفيد الترتيب والترابي، فخلق آدم وتصويره

سابق، ثم تكلم الله بعد ذلك فقال للملائكة: اسجدوا لآدم، والأدلة في هذا كثيرة.

والمعتزلة لهم شُبهة في قولهم: إن كلام الله مخلوق، وهي موجودة الآن وممتشرة في بعض البلدان، ومذهب الاشاعرة والمعتزلة يدرس الآن في بعض البلدان العربية ولهم مؤلفات موجودة، حتى إن كثيراً من المفسرين الآن غلطوا في هذا؛ فالزمخشري كتابه «الكشاف» مبني على هذا، حتى قال البلقيني: استخرجت من «الكشاف» اعتزالاً بالمناقشة؛ منها أنه قال في قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَافِعٍ لَهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْوَاطُ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: أي فوز أعظم من الجنة؟! فقصده بذلك عدم إمكان رؤية الله يوم القيامة.

فإذا كانت كتب التفسير - الآن - موجوداً فيها مذهب المعتزلة؛ فقد يقرأها طالب العلم، وينطلي عليه ما فيها من الضلالات فلا بد لطالب العلم أن يكون على الإمام ببيض الشبه، وطرق الرد عليها؛ ولذلك: نستعرض شيئاً من شبههم؛ ونعزف طلاب العلم بطرائق الرد عليها.

ومن شبه المعتزلة العقلية أنهم يقولون: إنه يلزم من إثبات الكلام لله التشبيه؛ فلو قلنا: إن الله يتكلم والمخلوق يتكلم؛ لزم من ذلك صوت يخرج من الرئة، ويلزم من الكلام أضرار وأسنان ولسان ولثة وشفتان، والله منزّه عن ذلك؛ فلا نقول: إن الله يتكلم حتى لا يشابه المخلوقين، فيما ذكر؛ والله ليس كمثل شيء.

والجواب عن هذه الشبهة أن نقول: إننا إذا قلنا: إن الله يتكلم ليس ككلام المخلوق، ولا نعلم كيف يتكلم؛ زالت هذه الشبهة، فليس له مثل لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله.

ونحن نعلم أن بعض المخلوقات تتكلم ولا نرى كيف تتكلم، فهذه الجلود تنطق يوم القيامة والأرجل والأيدي تشهد؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَحْنُ عَنْ أَلْوَاهِهِمْ وَذُكُلِهِمْ أَيْدِيهِمْ وَنَحْنُ عَنْ أَلْوَاهِهِمْ يَسَاءُ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يُؤْتِيهِم لَيْمَ يَسْأَلُوهُمْ لِمَ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا قَالُوا أَنْظَرْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ كُلَّ شَيْءٍ فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ [نفت: ٢١].

كذلك ثبت تسبيح الحصا<sup>(١)</sup> والطعام بين يدي النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>، وقال: «إِنِّي لَأَعْرِفُ خَيْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ...»<sup>(٣)</sup> وكذلك الجنع حنّ وصاح وبكى مثل بكاء الصبي، وجعل يهدئه؛ فجعل يهدأ شيئاً فشيئاً كما يهدأ الصبي<sup>(٤)</sup>، فكلام هذه الأشياء قد ثبت بالدليل لكنها لا تستطيع أن نكفيه .

فإذا كانت بعض المخلوقات تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم؛ فمن باب أولى أن الله يتكلم ولا نعلم كيف يتكلم، وعلى هذا تبطل هذه الشبهة.

ومن شبههم أن بعضهم يقول: إن الله خلق الكلام لا في محل، وعند بعضهم أنه خلقه في محل، لكنه مخلوق؛ أضيف إلى الله .

نقول لهم: أي الذين يقولون: كيف يكون الكلام مخلوقاً لا في محل؟ أن الكلام معنى من المعاني؛ لا بد أن يقوم بغيره، ومحال أن

(١) وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يَرَىٰ ذُنُوبُهُمْ لَأَنتَحِبُ لَهُمْ سَخِرَ لَكُمْ مِنَ الشَّيْءِ إِنَّهُ كَانَ لَغَفُورًا﴾ [الاسراء: ٤٤].

(٢) انظر: «غلال الجنة» للألباني (١١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٩) عن ابن مسعود قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة ؓ.

(٥) انظر ما أخرجه البخاري (٩١٨)، و(٣٥٨٣)، و(٣٥٨٤)، و(٣٥٨٥).

يكون الكلام مخلوقاً لا في محل.

ونقول للطائفة الثانية: الكلام لا بد أن يكون بمتكلم؛ فكيف يقولون: إن الكلام مخلوق خارج عن ذات الله؛ فصار الله به متكلماً؟! ولو صح أن يوصف الله بصفات لم تقم به؛ لصح أن يوصف بما خلقه في غيره من المخلوقات من الصفات؛ من الروائح، والألوان، والطعوم، والطول، والقصر!!! فلو صح أن يتكلم الله بكلام قام بغيره؛ للزم أن يكون ما خلقه في غيره من الحيوانات، وما أحدثه من الجمادات: كلاماً له، كما فرض ذلك الاتحادية. وهذا باطل .

وكيف يوصف الله بصفة قامت بغيره؟! لو صح أن يوصف الله بصفة قامت بغيره لصح أن يوصف الشخص بصفة قامت بغيره؛ كأن يقال للأعمى بصير، أو للبصير أعمى؛ لأن الأعمى قام وصف البصر بغيره، والبصير قام وصف العمى بغيره، وهذا باطل، ولو كان كذلك لكان قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتْلُوكُمُ الْقُرْآنَ﴾ [الشعراء: ٢٤] صدقاً، وهذا باطل أيضاً؛ كما لا يخفى .

ومن شبههم يقولون: إن كلام الله مخلوق لكنه أضيف إلى الله إضافة تشريف وتكريم، كما أن الكعبة أضيفت إلى الله لتشريف بيت الله، والناقة أضيفت إلى الله في قوله: ﴿هَاقَّةٌ أَلْفٌ﴾ [النسر: ١٣] للتشريف، والعبد في قوله: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ [ترجم: ٣٠] أضيف إلى الله للتشريف، والروح أضيف إليه سبحانه إضافة تشريف في قوله: ﴿رُوحٌ أَلْفٌ﴾ [يوسف: ٨٧]، فكذلك الكلام أضيف إلى الله - وإن كان مخلوقاً كثيره - للتشريف والتكريم.

والجواب: أن هذه الشبهة باطلة؛ وذلك أن المضاف نوعان:

النوع الأول: أعيان قائمة بذاتها كالبيت والروح والرسول والروح، كما قال الله: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾، و﴿روح الله وكلمته﴾، و﴿هَاقَّةٌ أَلْفٌ﴾؛ هذه إضافة

مخلوق إلى خالقه؛ لأنها أعيان قائمة؛ فليت عن قائم بنفسه، والناقة عين قائمة بنفسها، والعبد عين قائم بنفسه، والروح عين قائمة بنفسها، فإذا أضيفت إلى الله فهي إضافة مخلوق إلى خالقه؛ وتقتضي هذه الإضافة الشرف والتكريم لما امتاز به ذلك المضاف من الصفات.

النوع الثاني: إضافة معاني وأوصاف لا ترقم بنفسها؛ كالعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام.

هذه إضافة صفات إلى الموصوف؛ وتقتضي هذه الإضافة اتصاف الموصوف بهذه الصفات وقيامها به، وهذا فرق بديهي لا ينكره إلا من أنكر المحسوسات.

هذه من أبرز الشبه العقلية التي يقول بها المعتزلة، وهي في نظرهم الفاضلة؛ ولكنها أوهى من بيت العنكبوت، ولهم شبه شرعية؛ وهي نصوص من الكتاب والسنة.

#### الشبه الشرعية:

من الشبه الشرعية التي استدلوها به على أن القرآن مخلوق: قول الله - عز وجل -: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦١]، ووجه الاستدلال: أنهم قالوا: إن «كل» من صيغ العموم فتعم كل شيء، ويدخل في هذا العموم: صفة الكلام؛ فيكون القرآن مخلوقاً.

وقد أجاب أهل السنة والجماعة عن هذه الشبهة بأجوبة؛ منها:

الجواب الأول: أن اسم الخالق يشمل الذات والصفات؛ فصفاة ليست خارجة عن مسمى ذاته، فالله - سبحانه وتعالى - بذاته وصفاته؛ هو الخالق، وكلامه صفة من صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه، فالله هو

الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق .

وعلى ما سبق فيقال للمعتزلة: كيف أدخلتم كلام الله الذي هو صفة من صفاته في هذا العموم، وأخرجتم أفعال العباد؛ فقلتم: إن الله لم يخلقها؟! هذا يدل على أنك أهل هوى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦١]؛ فهو خالق الذوات والصفات والأفعال، وأفعال العباد داخلة في هذا العموم؛ فتكون مخلوقة، فكيف أخرجتموها عن عموم «كل» وأدخلتم في هذا العموم الكلام الذي هو صفة من صفاته؟!!

الجواب الثاني: أن الكلام صفة من صفات الله، به تكون المخلوقات، فالله تعالى يخلق بالكلام؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقد فرق الله - سبحانه وتعالى - بين الخلق والأمر فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الاعراف: ٥٤]، فالخلق شيء، والأمر شيء آخر، فلو كان الكلام مخلوقاً، ولو كان الأمر مخلوقاً؛ للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بتأخر إلى ما لا نهاية، فيلزم التسلسل؛ وهو باطل.

وبتين بهذا: أن الكلام صفة من صفات الله؛ به تكون المخلوقات؛ لأن الله يخلق كل شيء.

والجواب الثالث: أن عموم «كل» في كل موضع بحسبه؛ يبين هذا قول الله - عز وجل - في الريح التي أهلك بها عاداً: ﴿تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الاحقاف: ٢٥]، فهي لم تدمر المساكين، ولم تدمر السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿فَأَنصَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكُكُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥]، فالمعنى - والله أعلم - ﴿تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الاحقاف: ٢٥] يصلح للتدمير، أو يستحق التدمير عادة؛ فالعموم في كل موضع بحسبه .

وَمِثْلُ قَوْلِ اللَّهِ - عز وجل - عن ملكة سبا: «أَوْتَيْتُ مِنْ كُنِّي قَتَوُ» (النحل: ٢٣)، فهناك أشياء ما أوتيتها، والمعنى - والله أعلم - : أوتيت من كل شيء يصلح للملوك؛ فكن ذلك عموم «كل» في هذه الآية الكريمة هو بحسبه؛ فالمراد من قوله عز وجل: «اللَّهُ خَلَقَ كُنِّي قَتَوُ» (الزمر: ٦٢) أي: الله خلق كل شيء مخلوق، ولا يدخل في ذلك صفات الله، ولا يدخل في ذلك الكلام؛ لأنه صفة من صفاته؛ داخل في معنى اسمه.

الجواب الرابع: على مذهب المعتزلة أنه يلزم أن تكون جميع الصفات: من العلم، والقدرة، والحياة، مخلوقة، وهذا صريح الكفر.

### الشبهة الشرعية الثانية:

ومن شبههم الشرعية التي استدلوا بها قول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر: ٣] ، فقالوا : (جعل) بمعنى خلق، والمعنى : إنا خلقناه قرآنًا عربيًّا ؛ وهذا يدل على أن القرآن مخلوق.

أجاب أهل السنة:

بأنه استدلال باطل؛ لأن (جعل) إنما تكون بمعنى خلق إذا تعدت إلى  
مفعول واحد لا إلى مفعولين؛ فإذا تعدت إلى مفعول واحد؛ كانت بمعنى  
(خلق) كقوله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ حَيًّا وَخَرَّيْنَاهُ أَفْلَاقًا يَوْمُوتُونَ﴾  
[الأنبياء: ٣٠]، وكقوله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِجْسًا عَلَى نَسَبٍ يَمُدُّ يَوْمَهُمُ﴾  
[الأنبياء: ٣١]، وكقوله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا سُلَاطَنًا مَلَكَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾  
[الأنبياء: ٣٢]، وكقوله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ مَلَكٍ مُخَوَّضًا﴾ [الأنبياء: ٣٣]  
وكقوله - تعالى - : ﴿يَجْعَلُ الْمُلُوكَ وَالْأَرْثَ﴾ [الأنعام: ١٠].

أما إذا تعدت إلى مفعولين؛ فلا تكون بمعنى خلق، كما في هذه الآية التي احتجوا بها؛ وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا﴾

(القول: ٢٩١)، فلو نُفِثَتْ (جعل) بمعنى خلق؛ لفسد المعنى، فهل يستطیع معترضاً أن يقول: المعنى: وقد خلقتم الله كيفاً؟! وكقولو - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عِزَّةً﴾ (الحجرات: ٢٩١) هل يقول المعترض: الذين خلقوا القرآن عِزَّةً؟! وكقولو - تعالى -: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَةً لِّذُنُوبِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤)، هل يمكن أن تُفسَّرَ (جعل) بمعنى خلق؛ وكذلك تكون هذه الآية التي احتجوا بها: ﴿إِن تَجْعَلُوا عِزَّةَ اللَّهِ عُرْشًا﴾ (الزمر: ١٣) لا

### الشبهة الشرعية الثالثة:

استدلوا بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ (الحاقة: ٤٠)؛ قالوا: وجه الدلالة: أن الله أخبر أن القرآن قولُ رسول؛ فدل على أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله؛ لأن الله نَسبه إلى الرسول، والله خلق الرسول، وخلق كلامه؛ فيكون القرآن مخلوقًا .

أجاب أهل السنة عن هذه الشبهة بأجوبة منها:

الجواب الأول: أن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ رُسِلُ﴾ [الصافات: ٢٤٠] والرسول إنما يبلغ عن المرسل، فلم يقل: إنه قول نبي، بل قال: قول رسول؛ والرسول لا ينشئ الكلام، وإنما يبلغ كلام غيره، فدل على أن الكلام كلام الله.

الجواب الثاني: أن الرسول جاء في موضعين من كتاب الله عز وجل: في سورة «التكوير» في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ يَقُولُ عَزَّ ذِي الْعَرْشِ ﴿٢٠﴾﴾ (التكوير: ١٩-٢٠)، والمراد به هنا: الرسول الملكي؛ وهو جبريل، وجاء في سورة «الحاقة» في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾ يَقُولُ شَأْنٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ لَا يَقُولُ كَمَا فُتِنُوا ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ لَشَأْنٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾﴾ (الحاقة: ١٧-٢٠).

٢٤، والمراد به هنا: الرسول البشري؛ وهو محمد - عليه الصلاة والسلام -، فأَيُّ الرسولين - على زعمكم أيها المعتزلة - أحدث نظم القرآن؟! إن أحدثه محمد؛ امتنع أن يُخَوِّدَهُ جبريلُ، وإن أحدثهُ جبريلُ امتنع أن يُخَوِّدَهُ محمد؛ وهذا يدل على بطلان قولكم، ويدلُّ على أن المراد: أن الرسول مبلغٌ، والله تعالى تكلم بالقرآن، وسمعه جبرائيل ويُلْغُهُ محمدًا، ثم قرأه محمد - عليه الصلاة والسلام - ويُلْغُهُ الأُمَّة.

وابتِها: أنه قال في وصفه: ﴿شَلَاغٌ تَمَّ أَيْمَنُ﴾ (التكوير: ٢١) كما في سورة «التكوير»؛ ووَضَفُهُ بالأمانة يدل على أنه يبلغ ما أرسل به، كما أنزل، لا يزيد، ولا ينقص، فجبريل يبلغه كما سمعه من الله عز وجل، على ما أُرِيبِلَ به؛ لا يزيد فيه، ولا ينقص منه.

خامسًا: أن قولكم: إن محمدًا أحدث نظم القرآن؛ هذا القول يجعله داخلًا في الوعيد الذي توعد الله به الوليدَ بن المغيرة، الذين قال الله عنه: ﴿إِنَّهُ فَرَّ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَبَّأَهُ ۖ ثُمَّ عَسَىٰ وَبَرَّرَ ۖ ثُمَّ قَبَّرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا يَأْتِيَنَّ يَوْمَ ۖ بَلَّغَ ۖ إِنَّا قَوْلَ النَّبِيِّ ۖ سَأَتْلُوهُ سَرًّا ۖ﴾ (المؤثر: ١٨-٢٦)، فالله توعد من قال: (إن هذا القرآن إلا قول البشري) بأن يصليه سقر، فمن قال: إن القرآن قول محمد، ومحمد بشر - عليه الصلاة والسلام - فهو داخل في هذا الوعيد، فيكون المعتزلة داخلين في هذا الوعيد أيضًا.

اجابة أهل السنة على أنَّ القرآن كلام الله

من أدلة أهل السنة والجماعة على أن القرآن كلام الله: أن الله أخبر بأنه منزل؛ قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (غافر: ٢٢) (سورة غافر آية: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (نُفِثَتْ:

٢٢، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ (التحل: ١٠٢).

فهذه النصوص صريحة في أن القرآن منزل.

واعترض المعتزلة على هذه النصوص التي فيها أن القرآن منزل؛ قالوا: إن الإخبار عن القرآن أنه منزل لا يمنع أن يكون مخلوقًا؛ لأننا نجد أن بعض المخلوقات أخبر الله عنها بأنها منزلة وهي مخلوقة، وقد انفقتم معنا يا أهل السنة على أنها مخلوقة، فالله تعالى قال عن الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ (الحديد: ٢٥)، فالله أخبر عن الحديد أنه منزل؛ ومع ذلك فهو مخلوق؛ وأنتم توافقونا على هذا، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكَ مِنَ الْأَنْعَامِ مَثَلَيْنِ ۖ أَحَدُهُمَا نَارُ ۖ فَأخبر الله عن الأنعام بأنها منزلة؛ وهي مخلوقة، وأنتم توافقونا على هذا، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ وَأَنزَلَ لَكَ مِنَ الْأَنْعَامِ مَثَلَيْنِ ۖ أَحَدُهُمَا نَارُ ۖ فَأخبر الله أنه أنزل من السماء ماءً، والمطرُ مخلوق، وأنتم توافقونا على هذا؛ فكذلك القرآن مخلوق؛ ولو أخبر الله بأنه منزل، فلا يمنع أن يكون مخلوقًا.

اجاب أهل السنة على هذا الاعتراض:

أن هناك فرقًا بين إنزال القرآن وإنزال الحديد والأنعام والمطر؛ فإنزال القرآن صريح في الآيات أنه منزل من عند الله لا من غيره؛ قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (المؤثر: ٢١)، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (نُفِثَتْ: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ (التحل: ١٠٢). فهو صريح بأنه منزل من عند الله.

أما الحديد فإن إنزاله مطلق فلم يخبر الله أن الحديد منزل من عنده، وذلك: أن الحديد إنما يؤخذ من الجبال، والجبال عالية على وجه

الأرض؛ وكلما كان أخذ الحديد من أعلى الجبل؛ كان حديد أجود؛ فالمقصود الإنزال من الجبال.

والأنعام أخبر الله أنها منزلة: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ ثَمِينًا زَيْتُونًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وذلك أن الأنعام إنما تخلق بالتوالد، والتوالد يستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات على وجه الأرض؛ فهذا إنزال.

وأما إنزال المطر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَمَّ أَنزَلْنَاهُ حَبًّا وَنَسَاءً﴾ [البقرة: ٢٤]، والمعصرات السحاب، والآية الأخرى: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَاهُ مِزًّا﴾ [البقرة: ٢٤]، والمز هو السحاب، فتبين بهذا؛ الفرق بين إنزال القرآن، وإنزال الحديد والأنعام والمطر.

هذه أمثلة لشبه المعتزلة، وهذه شبه موجودة ومُدَوَّنة في الكتب وفي التفاسير؛ فإنك لو طالعت «الكشاف» للزمخشري أو غيره، تجد فيها هذه التأويلات، وقد ذكرناها ليكون طالب العلم على بصيرة من أمره، فإذا عرف بعض الأمثلة، قاس عليها بقية الأمثلة.

#### مناقشة اجلة الإشاعة في كلام الله عز وجل والقرآن:

ننتقل بعد هذا إلى شبه الأشاعرة، والأدلة التي استدلوا بها على تقرير مذهبهم في كلام الله، وهم طائفة كبيرة يسمون أنفسهم «أهل السنة»، وتأويلاتهم موجودة ومنتشرة في كتب الفقه وكتب الأصول والتفاسير التي يتداولها الناس، ويتدارسونها في كثير من المؤسسات العلمية وغيرها، وهم

ينافسون أهل السنة في كثير من الأزمان؛ فلا بد لطالب العلم أن يكون على إمام بحقيقة مذهب الأشاعرة، وبيان بعض شبه التي يركزون عليها.

#### حقيقة مذهب الإشاعة:

يقولون: إن كلام الله معنى قائم بالنفس؛ ليس بحرف ولا صوت، والله تعالى لا يُسَمِعُ منه الكلام، بل الكلام معنى قائم بنفسه؛ لا يُسَمِعُ.

وأما الموجود في المصاحف فهذا عبارة عن كلام الله، عبّر به جبريل، أو عبّر به محمد ﷺ، ويُسمى ما في المصحف كلام الله مجازاً، ولهذا إذا قلت لبعض الأشاعرة - عند التسامح -: المصحف فيه كلام الله، يقولون: المصحف كلام الله، لكن عند المناظرة وبيان حقيقة المذهب يقولون: لا ليس في المصحف كلام الله، لكن نسميه كلام الله مجازاً؛ لأنه تأدّى به كلام الله؛ ولأنه دليل على كلام الله؛ أما كلام الله فهو معنى قائم بنفسه - ولهذا - والعباد بالله - فبعضهم قد يجعل المصحف تحت قدميه، ويقول:

ليس فيه كلام الله، نسأل الله السلامة والعافية -. وأما النظم المسموع المقروء في المصاحف فهو دليل على أن القرآن مخلوق؛ فعلى هذا: يكون القرآن من شيتين أو كلام الله من شيتين: شيء له نصفان: نصف غير مخلوق؛ وهو المعنى القائم بنفس الرب، ونصف الآخر مخلوق؛ وهو الحروف والكلمات التي يقرؤها القارئ؛ وأما كيف عرف جبريل ما في

نفس الله؟ فلهم أقوال في ذلك، وبعضهم يقول: إن الله اضطر جبريل ففهم المعنى القائم بنفسه اضطراراً فعبّر عنه، فالتقرآن عبارة عبّر بها جبريل، مثال ذلك: أن يكون عندك أخرس؛ لا يتكلم، فيشير إليك بالإشارة؛ ثم تفهم إشارته وتكتبها، فهؤلاء - والعباد بالله - جعلوا الله كالأخرس - نسأل الله

العافية -، وبعضهم يقول: إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ.

وحقيقة مذهب الأشاعرة يوافق نصف مذهب المعتزلة؛ فالمعتزلة يقولون: القرآن مخلوق لفظاً ومعنى، والأشاعرة يقولون: معناه غير مخلوق، ولفظه مخلوق.

كما أن الأشاعرة يشابهون النصارى في مسألة اعتقادهم في عيسى؛ فالنصارى يعتقدون أن عيسى مكون من شيئين: جزء من الإله، وجزء من الناس؛ اتحدوا وامتزجا فصارا شيئاً واحداً يقال له: المسيح عيسى ابن مريم.

والأشاعرة لهم شبهة وأدلة حول مذهبهم، إلا أنها أوهى من بيت العنكبوت مثلهم في ذلك كمثل إخوانهم من الفرق الأخرى؛ فإن الأشاعرة يقولون: إن كلام الله معنى قائم بنفسه، وأما الألفاظ والحروف والكلمات فدلّيل يُفهم بها المعنى القائم بنفس الرب؛ فإفهام المعنى القديم الذي هو في نفس الرب بواسطة الألفاظ والحروف والكلمات؛ يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قاله النصارى في عيسى، كما أوضحناه.

من أدلة الأشاعرة على أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يُسمع؛ ليس بحرف، ولا صوت، ولا لفظ:

استدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَيُرْوَىٰ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا تَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ بَصُورًا يُقَسُّ الْأَشْيَاءُ﴾ [المجادلة: ٨]، قالوا: وجه الدلالة أن الله قال: ﴿وَيُرْوَىٰ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨]، فدل على أن القول إنما يكون في النفس، وأما الألفاظ والحروف والأصوات فليست من القول؛ فدل على أن كلام الله معنى قائم بنفسه.

أجاب أهل السنة عن هذا بجوابين:

الجواب الأول: جواب بالمنع؛ وهو أن نقول: نمنع أن يكون المراد في الآية في قوله: ﴿وَيُرْوَىٰ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨] المعنى القائم بالنفس، وإنما المراد القول سرّاً؛ أي: يقولون سرّاً ويتكلمون بالسنتهم سرّاً، كما قاله أكثر المفسرين؛ وذلك أن اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ ويقولون: «السلام عليك»<sup>(١)</sup>، والسلام الموت، وهم يُظهرون أنهم يلقون السلام، ثم إذا خرجوا من عند النبي ﷺ قال بعضهم لبعض سرّاً: لو كان نبياً لَعَذَّبْنَا بِقَوْلِنَا لَهُ الَّذِي نَقُولُ، فأنزل الله: ﴿وَيُرْوَىٰ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا تَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين، ويؤيده ما ثبت في «الصحيحين» في الحديث القدسي أن النبي ﷺ قال: «قَبْلَ أَنْ أَذْكُرَنِي فِي نَفْسِي ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَكَلٍّ ذَكَرْتُهُ فِي مَكَلٍّ خَيْرٍ مِنْهُمْ»<sup>(٢)</sup>، معناه: ذكر الله سرّاً؛ بدليل قوله: «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَكَلٍّ...».

الجواب الثاني: جواب بالتسليم؛ وهو أن نقول: سلمنا جدلاً أن قوله تعالى: ﴿وَيُرْوَىٰ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨] قول في النفس، وأنه ليس فيه حروف ولا كلمات؛ لكن الآية مفيدة بأن قول في النفس، وإذا قيد القول

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٥)، ومسلم (٢١٦٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي الباب أيضاً من حديث ابن عمر عند البخاري (٦٢٥٧)، ومسلم (٢١٦٤)، ومن حديث أنس عند البخاري (٦٩٢٦)، ومن حديث جابر بن عبد الله عند مسلم (٢١٦٦).  
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) والسيأتي له، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الباب أيضاً عن أنس؛ أخرجه أحمد في «المسنند» (١٣٨/٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (١١٦٩). وقد قال الهيثمي عن رواية أحمد كما في «مجمع الزوائد» (٧٨/١٠) -: «ورجاله رجال الصحيح».

بأنه في النفس تقيّد، ونظيره الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا خَلَقَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تُعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»<sup>(١)</sup>، فإذا قيد القول بأنه في النفس تقيد، فهل قيد كلام الله أنه في النفس في قوله: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَسْكِينًا»<sup>(٢)</sup> هل قال الله: وكلم الله موسى في نفسه، فإذا لم يتقيد فلا يكون القول في النفس، وإنما يكون قولاً يتكلم به المتكلم؛ حروفاً وألفاظاً وكلمات.

ومن أجلهم:

الاستدلال بيت من الشعر منسوب إلى الأخطل؛ وهو:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا  
وَجِهَ إِلَهِهِ

قالوا: إن هذا بيت عربي، والقرآن نزل بلغة العرب، وأثبت الشاعر العربي أن الكلام إنما يكون في الفؤاد، أي: في النفس، وأما ما يكون في اللسان فالحروف والكلمات واللفظ.

أجاب أهل الحق عن هذا الاستدلال بأجوبة:

الجواب الأول: أنا لا نسلم أن هذا البيت للأخطل، فهذا البيت مصنوع مختلق لا يوجد في ديوان الأخطل، وكثير من النحويين ينكرون نسبته إليه؛ فكيف تستدلون ببيت مصنوع مختلق لا أساس له من الصحة؟! وبهذا يظلم استدلالاتكم، كيف تصنعون بيتاً مما تستدلون به على كلام الله وكلام رسوله؟!.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجواب الثاني: ولو سلمنا بصحة البيت جدلاً، وأن الأخطل قاله؛ لكنه قول واحد من أهل اللغة، فلا يقبل حتى يوافقه أهل اللغة، فإذا كان حديث رسول الله ﷺ لا يقبل حتى يصح سنده وتُعدّل رواته، ولا يكون شاذاً ولا معللاً؛ فكيف بيت من الشعر لا يدرى من صاحبه؛ قاله واحد ولم يوافقه أهل اللغة؛ فيكون شاذاً.

الجواب الثالث: سلمنا صحة البيت، وسلمنا نسبته إلى الأخطل، وسلمنا قبول أهل اللغة له، لكن ليس مقصود الشاعر بقوله: إن الكلام لفي الفؤاد: الكلام العاري عن الألفاظ والحروف والكلمات؛ بل مقصود الشاعر أن الكلام الحقيقي هو الذي يهيمه الإنسان في نفسه، ويزنه بعقله قبل أن ينطق به ويتروى فيه؛ أما الكلام الذي يجري على اللسان من دون تَرَوٍّ، ومن دون نظر؛ فهذا يشبه كلام النائم والهاذي؛ الذي لا قيمة له، ولهذا روي البيت برواية أخرى، وهي أقرب إلى الصحة:

إن البيان لفي الفؤاد وإنمّا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا  
رَابِعًا: سلمنا صحة البيت، وأنه للأخطل، وسلمنا موافقة أهل اللغة له، وسلمنا أن المراد بالبيت الكلام النفسي العاري عن الحروف والألفاظ؛ لكنه قول نصراني؛ لأن الأخطل نصراني، ومعلوم أن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام؛ فإن النصارى زعموا أن المسيح هو كلمة الله؛ أي كلمة «كن».

وأهل السنة يقولون: ليس نفس الكلمة، إنما هو مخلوق بالكلمة، قال تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»<sup>(٣)</sup> (آل عمران: ٥٩)، فكيف تستدلون بقول نصراني قد ضل في



معنى الكلام على معنى الكلام، ويُترك ما يُعرف بمعنى الكلام من النصوص واللغة؟!

خامساً: سلمنا جدلاً الاستدلال بقول النصارى؛ لكن البيت يلزم عليه معنى فاسد؛ وهو أن يسمى الآخرس متكلماً؛ لقيام الكلام بنفسه، وإن لم يتكلم به؛ والآخرس لا يسمى متكلماً لا شرعاً، ولا عقلاً، ولا لغةً، ولا حساً، وبهذا يظل استدلال الأشاعرة بهذا البيت.

مناقشة أهل السنة للأشاعرة في أن كلام الله معنى واحد لا يتجزأ:

ومما ناقش به أهل الحق الأشاعرة القائلين: إن الكلام معنى واحد؛ لا يتعدد، ولا يتجزأ، ولا يتكثر، والتعدد والتجزؤ والتكثر إنما هو في الدلالات والعبارات.

ناقشوه وأجابوه عن قولهم هذا بأن الله تعالى أخبر أن موسى سمع كلام الله، فهل سمع موسى جميع المعنى أو بعض المعنى؟

إن قلتم: سمع جميع المعنى؛ فقد زعمتم أن موسى سمع جميع كلام الله؛ وهذا باطل. وإن قلتم: سمع بعض كلام الله فقد قلتم بالتبعض وأبطلتم مذهبكم بأنفسكم؛ فلا محيد لكم عن هذين الإلزامين.

ثانياً: أن يقال: لو كان الكلام معنى قائماً بالنفس، كما تزعمون أيها الأشاعرة، وأن الدلالات والعبارات هي التي تختلف؛ للزم على ذلك لوازم فاسدة منها:

أولاً: أن يلزم على قولكم: إن الكلام معنى قائم بالنفس وأنه لا يتعدد ولا يتبعض، أن يكون معنى قول: ﴿وَأَيُّهَا الْمَلَكُوتُ﴾ [الشورى: ٥٦] هو معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الْزُكْرَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وأن يكون معنى آية الدين هو معنى

آية الربا، وأن يكون معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٢]، هي معنى ﴿تَبَّتْ يُكَاكُ﴾ [نبت: ٢١]، وهذا باطل.

ثانياً: لو كان الكلام معنى قائماً بالنفس، وأن المصحف ليس فيه شيء من كلام الله؛ لجاز للمُحدث مس المصحف، وهذا خلاف ما أجمع عليه الأئمة الأربعة: أنه يجب على المحدث أن يتوضأ لِمَسِّ المصحف، كما جاء في الحديث الذي كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم: «أَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»<sup>(١)</sup>.

ولو كان القارئ لا يقرأ كلام الله؛ لجاز للجُنُب أن يقرأه وهو لم يغتسل، وكذلك الحائض عند كثير من الفقهاء على الخلاف في المسألة.

(١) أخرجه النسائي (٥٧/٨)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٥٩)، والدارمي (١٦٢١-١٦٢٨-١٦٣٥)، والدارقطني (١٢٢/١)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والحاكم (٥٥٢/١)، والبيهقي (٨٧/١-٣٠٩، ٨٩/٤، ٩٠، ٧٣/٨)، والطحاوي (٣٤/٢، ٣٧٤/٤)، وغيرهم من طرق، وقد اختلف في وصله وإرساله، والصواب المرسل والمرسل من قسم الضعيف، لكنه هنا يرتقي إلى الصحة بأمرين: الأول: تلقى العلماء له القول: قال الحافظ في «التلخيص» (١٨/٤): (وقد صرح الحديث بالكتاب المذكور جماعة من الأئمة، لا من حيث الإسناد؛ بل من حيث الشهرة: فقال الشافعي في «رسالته» (٤٢٢): لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندنا أنه كتاب رسول الله ﷺ).

وقال ابن عبد البر (٣٨٨/١٧) هذا كتاب مشهور عند أهل السير، معروف ما فيه عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقول والمعركة).

وقال شيخ الإسلام (٢٦٦/٢١): (قال أحمد: لا شك أن النبي ﷺ كتبه) اهـ الأمر الثاني: أن للحديث شواهد كثيرة: من حديث حكيم بن حزام، وعثمان بن أبي العاص، وابن عمر، وثوبان، وغيرهم، وأسانيدنا ضعيفة. وانظر: «الإرواء» (١٢٢).

ويقال للأشاعرة: إن النصوص الكثيرة تبطل قولكم منها:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَيْنَ أَتَمَمْتُمْ الْأَشْيَاءَ وَالْجُنُودَ أَنْ يَأْتُوا بِبَيْتِلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِثَبْتِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ يَتَّبِعُونَ ظُهُورَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٥٨]؛ هل الإشارة تعود إلى ما في نفس الله، أو تعود إلى القرآن المتلو المسموع المكتوب في المصاحف؟! لا شك أن الإشارة تعود إلى القرآن المتلو بالأسن، المكتوب في المصاحف؛ لأن ما في نفس الله غير مشار إليه ولا متلو ولا مسموع.

وكذلك قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِثَبْتِهِ﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٥٨] هل الضمير يعود إلى ما في نفس الله، أو إلى ما في هذا القرآن المتلو المكتوب في المصاحف؟! لا شك أنه يعود إلى ما في المصحف؛ لأن ما في نفس الله لا حيلة إلى الوصول إليه؛ فهو غير متلو، وغير مسموع، كذلك أيضاً قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَمَدُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتِغَارَ فَلَا يُرَىٰ هُنَّ يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ تُرَىٰ أَثَرُهُنَّ﴾ [التَّوْبَةِ: ٢٦]؛ صريح في أن الذي يسمعه المشرك كلام الله، ولم يقل: حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله كما تقولون.

ومن الأدلة أيضاً ما ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُخَدِّثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنْ مِمَّا أَخَذَتْ أَلَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»<sup>(١)</sup>، وحديث: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَضِلُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ

(١) علَّقه البخاري بهذا اللفظ (٤٩٦/١٣ - فتح)، عن ابن مسعود مرفوعاً، لكن رواه موصولاً بغير هذا السياق.

وأخرجه أبو داود (٩٢٤) من حديث ابن مسعود بلفظ: «... إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَدِّثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخَذَتْ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا =

السَّيِّحُ وَالْتَجِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»<sup>(٢)</sup>.

وقد أجمع العلماء على أن الإنسان المصلي لو تكلم في الصلاة عامداً في غير مصلحتها؛ بطلت صلاته، وقد أجمعوا أيضاً على أن حديث النفس الذي يكون في القلب من تصديق بأمر ذنبية، وطلب؛ لا يبطل الصلاة، فدل على أن الكلام إنما هو لفظ ومعنى، والكلام الذي يتكلم به الإنسان بلسانه هو اللفظ والمعنى، وهو حروف وأصوات، فكلام الله لفظ ومعنى، وهو بحرف وصوت يُسْمَعُ. فهذا هو حَدُّ الكلام عند أهل اللغة.

ومن الأدلة أيضاً: ما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأَتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ»<sup>(٣)</sup>؛ ففرَّق النبي ﷺ بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أن الله عفا عن حديث النفس، وأن ما تكلم به الإنسان بلسانه لا يعفى عنه؛ فدل على أن الكلام لفظ ومعنى، حروف وأصوات.

ومن الأدلة أيضاً: ما ثبت في «السنن» من حديث معاذ الطويل لما سئل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويبعده عن النار قال: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ سَرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً،

= في الصَّلَاةِ، وأخرجه أيضاً النسائي في «السنن الكبرى» (٥٥٩، ١١٤٤)، وفي «الصغرى» (١٢٢٢)، والحميدي في «المسنَد» (٩٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠١٢٠ - ١٠١٢٣) وغيرهم.

والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٨) وحسنه النووي في «المجموع» (١١٥/٤)، وصححه ابن الملقن في «اللبز المتيقن» (١٧٣/٤).

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتُحْجُ الْبَيْتَ... ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَلَايِكَ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ. قَالَ: فَحُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تَكُنْكَ أَنْتَ يَا مُمَادًا وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدَ الْيَتِيمِ<sup>(١)</sup>.

فأخبر النبي ﷺ أن الإنسان إنما يؤاخذ بما يتكلم به بلسانه، فدل على أن الكلام ألفاظ ومعان؛ حروف وأصوات، وكذلك كلام الله عز وجل تكلم به، فكلام الله اسم للمعنى واللفظ جميعاً، والله تكلم به، وبهذا يتبين أن مسمى كلام الله: المعنى واللفظ جميعاً، وأن كلام الله بحرف وصوت يُسمع. والحق: أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن كلهم من كلام الله، وكلام الله لا يتناهى، ولو مُدَّ البحر بسبعة أبحر، وجعل ما في الأرض من الأشجار كله أقلام وجعلت البحار مداداً يُكتب بها؛ لتكسرت الأقلام، ونفدت مياه البحر، وما نفدت كلمات الله:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنْتُ رَبِّي لَقَدْ أَلْهَى قَلَّ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جُنَّا بِحَيْثُؤُهُ مَدَادًا ۖ﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ بَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ﴾ [القلم: ٢٧]

فهذه المسألة - مسألة الكلام - مسألة عظيمة اشتد النزاع فيها بين

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) والسياق له، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٩٤)، وأحمد في «المسنند» (٢٣١/٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وانظر ما علقه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٦٩ - ٢٧٠) عن طرق حديث معاذ هذا.

أهل السنة وبين المخالفين لهم، والتبس الأمر على كثير من الناس، ولا سيما مذهب الأشاعرة، ثم مذهب المعتزلة فينبغي لطالب العلم أن يعتني بهذا الأمر، وأن يعتني بالنصوص، وأن يتأمل حينما يقرأ في الكتب حتى لا يلبس عليه معتقد أهل السنة والجماعة المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة، بخلاف مذهب المعتزلة والأشاعرة المبني على الآراء والأهواء والشبهات.

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا):

### الشرح

• قوله: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)

الطحاوي ۞ يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله؛ أي: لفظه ومعناه، هذا هو الأصل، فالكلام لفظة تشمل اللفظ والمعنى، فالقرآن كلام الله، لفظاً ومعنى.

وقوله: (منه بدا) هذا فيه الرد على المعتزلة والأشاعرة؛ فإن المعتزلة لا يقولون: منه بدا؛ وإنما يقولون: بدا من شيء آخر؛ بدا من الشجرة، أو بدا من الهواء، أو بدا من اللوح المحفوظ يعني: خلقه الله في اللوح المحفوظ، فأضافه إليه إضافة تشريف وتكريم؛ وكذلك الأشاعرة لا يقولون: منه بدا، بل يقولون: لم يبد منه شيء، لأن الكلام معنى قائم بنفسه تعالى، فلم يُبد منه ما من شأنه أن يُسمَعَ؛ فما سمع جبريلُ منه كلاماً ولا لفظاً ولا حرفاً ولا صوتاً، وإنما جبريلُ هو الذي أحدث لفظ القرآن، أو أحدثه محمد؛ لأنه فهم المعنى القائم بنفس الرب، إما لأن الله اضطره لذلك؛ ففهم المعنى، أو أن الله خلقه في الهواء، وأخذته من الهواء.

وأهل السنة يقولون: القرآن منزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود؛ فالقرآن كلام الله منزل، نُزِّلَ الله كما قال سبحانه: ﴿نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ الْقُرْآنَ﴾ (نُحُوت: ٢٢)، وغير مخلوق لا كما تقولوه المعتزلة. ومعنى قوله: (منه بدا)، أي: بدا من الله، وظهر منه، وأكد هذا المعنى بقوله: (قَوْلًا)، فأتى بالمصدر المَعْرِفُ لِلْحَقِيقَةِ، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المَشْبُتِ النَّافِي لِلْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ (الْأَنْبِيَاء: ١٧٤)، ومعنى قول أهل السنة: (وإليه يعود)، أي: في آخر الزمان؛ فمن أشراف الساعة الكبرى

التي تعقبها الساعة مباشرة ما يلي:

أولها: خروج المهدي في آخر الزمان قُبَابُخَ لَه، واسمه كاسم النبي ۞، وكنيته: أبو عبدالله: محمد المهدي؛ يملأ الأرض عدلاً، كما مُلِئت جوراً، يُبَابُخَ لَه فِي وَقْتٍ لَيْسَ لِلنَّاسِ فِيهِ إِمَامٌ. وفيه أحداث كثيرة بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، وبعضها موضوع، والاعتماد على ما ثبت من أخباره.

ثم يخرج الدجال في زمنه؛ يدعي الصلاح، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية، ثم ينزل عيسى ابن مريم فيقتله، ثم يخرج ياجوج ومأجوج، ثم بعدها تتتابع أشراف الساعة، فَتُهْلَمُ الْكَعْبَةُ - والعياذ بالله -، ثم يصلي الناس إلى جهنم؛ ثم ينسون الجهة، وَتُنْزَعُ الْقُرْآنُ مِنَ الصُّدُورِ وَمِنَ السُّطُورِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَإِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْعَمَلَ بِهِ؛ نُزِعَ مِنْ صُدُورِهِمْ؛ أَي: مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَنُزِعَ مِنَ الْمَصَاحِفِ؛ فَيَصْبِحُ النَّاسُ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ آيَةً، وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ آيَةً - نَعُودُ بِاللَّهِ - إِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْعَمَلَ بِهِ. هذه هي أبرز أشراف الساعة.

ومنها أيضاً: الدخان الذي يملأ الأرض، ومنها: طلوع الشمس من مغربها، ومنها: الدابة، ثم يعقب ذلك نار تخرج من قعر عدن؛ تسوق الناس إلى المحشر. فهو شرط من أشراف الساعة. وقوله: (وإليه يعود) يعني: يعود إلى الله في آخر الزمان؛ فالقرآن منزل غير مخلوق، بدا من الله، وإليه يعود في آخر الزمان؛ يعود إلى الله حينما يترك الناس العمل به، فَيُنْزَعُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ، وَمِنَ الْمَصَاحِفِ - نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَاقِبَةَ -.

### القرآن أنزل على الرسول وحياً

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ (مِنْهُ بَدَأَ بِمَا كُنْفِيَّةِ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا):

#### الشرح

• قوله: (مِنْهُ بَدَأَ بِمَا كُنْفِيَّةِ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا).

أي: أن القرآن أنزله على رسوله وحياً؛ هذا ردُّ على قول المعتزلة والأشاعرة؛ فإن المعتزلة لا يقولون: أنزله بل يقولون: خلقه. وقوله: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا)؛ معناه: أن الله تكلم به، وسمعه منه جبرائيل؛ سمع كلام الله، بحرف وصوت. ثم أوصله جبرائيل إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - وفي قوله: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا) ردُّ أيضاً لقول المعتزلة، وردُّ لقول الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة لا يقولون: أنزله بل يقولون: إن القرآن معنى قائم بالنفس، أما ما في المصاحف فليس فيه شيء منزل؛ إنما الموجود في المصاحف هذا شيء أحدثه جبريل أو محمد؛ فهو عبارة عن كلام الله، عبارة عما في نفس الله.

إيمان وتصديق المؤمنين بأن القرآن كلام الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا):

#### الشرح

• قوله: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا).

أي: المؤمنون صدَّقوا واعترفوا، واعتقدوا أن هذا القرآن كلامُ الله حقًّا، لا مرية فيه ولا شك، فهكذا أهل السنة والجماعة، وهكذا أهل الحق؛ يصدقون ويؤمنون ويوقنون - من قلوبهم - بأن القرآن كلام الله حقًّا، وأنه كلام الله؛ ألفاظه ومعانيه.

تَبْقَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ

♦ قَالَ الْهَوَّلَةُ ۖ وَآيَقُنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالْحَقِيقَةِ :

الشرح

• قوله: (وَآيَقُنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالْحَقِيقَةِ).

وَأَيَقُنُوا: أَي: تَبْقَى بِذَلِكَ؛ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَكْتُوبَ فِي الْمَصَاحِفِ، الْمَقْرُوءَ بِاللِّسَنِ؛ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ.

وَهَذَا فِيهِ رَدٌ أَيْضًا عَلَى الْمَعْتَزَلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ: هَذَا كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ، بَلِ الْمَعْتَزَلَةُ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ مَخْلُوقٌ، وَالْأَشَاعِرَةُ لَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ، بَلِ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ؛ مَعْنَى قَائِمٍ بِنَفْسِهِ، أَمَّا هَذَا الْمَوْجُودُ فِي الْمَصَاحِفِ، فَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا يُسَمَّى كَلَامَ اللَّهِ مَجَازًا، فَلِمَاذَا قَالُوا: يَسْمَى مَا فِي الْمَصْحَفِ كَلَامَ اللَّهِ مَجَازًا؟ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَأْدِي بِهِ؛ فَهُوَ مَجَازٌ عَنِ كَلَامِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ لَا يُسْمَعُ؛ لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ، وَإِنَّمَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ؛ فَيُسَمَّى كَلَامَ اللَّهِ مَجَازًا - أَي: مِنْ بَابِ الْمَجَازِ لَا الْحَقِيقَةِ - لِأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ؛ وَلِأَنَّهُ فُهِمَ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ؛ وَإِلَّا فَكَلَامُ اللَّهِ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ؛ لَا يُسْمَعُ، وَلَا زَمَ لَذَاتِ الرَّبِّ؛ كَلَزُومِ الْحَيَاةِ، وَالْعِلْمِ، وَالسَّمْعِ، وَالْبَصَرِ.

الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ

♦ قَالَ الْهَوَّلَةُ ۖ وَآيَقُنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ :

الشرح

هَذَا رَدٌ عَلَى الْمَعْتَزَلَةِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ مَخْلُوقٌ؛ بَلِ يَقُولُونَ: هُوَ مَعْنَاهُ كَكَلَامِ النَّاسِ، وَالْأَشَاعِرَةُ يَقُولُونَ: نَصْفُهُ مَخْلُوقٌ، - وَهُوَ الْإِلْفَازُ الْمَقْرُوءُ، الْمَتْلُو، الْمَسْمُوعُ، الْمَكْتُوبَةُ فِي الْمَصَاحِفِ - وَنَصْفُهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ - وَهُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ -.

كُفِّرَ مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ الْبَشَرِ، صِرَاحَةً مِنْ دُونِ شُبْهَةٍ  
♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (فَمَنْ سَمِعَهُ فَرَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ):

#### الشرح

هذا تصريح بأن من قال: إن القرآن كلام بشر؛ فقد كفر؛ هذا إذا قاله من دون تأويل؛ فهذا كافر بالإجماع، لكن إذا قاله متأولاً؛ لشبهة حصلت له؛ كالأشعري؛ فهذا يُدْرَأُ عنه التكفير؛ لأن له شبهة؛ فهو لم يقل صراحة: إنه كلام البشر، بل يقول: أعترف أن القرآن كلام الله، لكن كلام الله معنى قائم بنفسه، أما ما في المصاحف والألفاظ فهذا يتأذى به كلام الله؛ فهذا قاله عن شبهة. مثال ذلك أيضاً: قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [٢: ٢٥]؛ من قال فيه: إن الله لم يستو على العرش حقيقة، بدون شبهة؛ فهو كافر بالإجماع، لأنه رد كلام الله، لكن إذا قال شخص: أنا أؤمن أن هذه آية في كتاب الله، لكن معنى استوى: استولى؛ وكان قوله هذا لشبهة حصلت له؛ فهذا لا يكفر؛ لأنه قول عن شبهة وتأويل، فكذا من قال: إن القرآن كلام البشر بدون شبهة أو تأويل؛ فهو كافر، كما قال الله عن الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المؤثر: ٢٥]، ثم قال الله: ﴿سَأُثْبِتُ سَقَرَهُ﴾ [المؤثر: ٢٦].

ذم الله من قال: إن القرآن كلام البشر وتوعده  
♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرٍ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُثْبِتُ سَقَرَهُ﴾ [المؤثر: ٢٦]:

#### الشرح

هذا ذم من الله لمن قال: إن القرآن كلام البشر، وتوعده الله بأنه سيصله سقراً؛ وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كما قال الله: ﴿إِنَّهُ كَفَرٌ وَقَدْ كَفَرْنَا كَيْفَ كَفَرْنَا﴾ [١١: ١٨]، ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ كَفَرْنَا؟ ثُمَّ نَظَرَ [١١: ١٩] ثُمَّ عَيَّنَ وَبَيَّنَ [١١: ٢٠] ثُمَّ كَبَّرَ وَكَبَّرَ [١١: ٢١] فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ [١١: ٢٢] سَأُثْبِتُ سَقَرَهُ [١١: ٢٣] وَمَا أَذْبَكَ مَا سَقَرُ [١١: ٢٤] لَا تَنْهَى وَلَا تَنْفَرُ [١١: ٢٥] لَوَسْتَ لِبَشَرٍ [١١: ٢٦] [المؤثر: ١٨-٢٩]؛ فمن قال: إن القرآن كلام البشر، من دون تأويل؛ فهو كافر، وله هذا الوعيد؛ أما من قال عن تأويل؛ فهو على خطر عظيم، ولكن الشبهة التي حصلت له، والتأويل الذي حصل له يُدْرَأُ بها عن نفسه التكفير، فلا يكفر كما سبق إيضاحه.

### كلام الله ليس ككلام البشر

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (فَلَمَّا أُوْعِدَ اللَّهُ بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المذير: ٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيَقْنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ):

#### الشرح

لما توعد الله الوليد بن المغيرة حينما قال: ﴿قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المذير: ٢٥] عَلِمْنَا أن كلام الله ليس ككلام البشر، بل الله - تعالى - ليس له مثل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الفرقان: ١١]، ولا يشابهه أحدًا من خلقه، ولا يماثل أحدًا من خلقه؛ لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه - سبحانه وتعالى - لأن الله لما توعد من قال: إن هذا إلا قول البشر أيقنا من قلوبنا - ولم نشك - أن كلام الله ليس ككلام البشر؛ لأن الله ليس له مثل، وقد نفى عن نفسه مماثلة شيء من خلقه كما قال - سبحانه -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الفرقان: ١١]، وقال - سبحانه -: ﴿قُلْ تَعَالَوْا لَنُحْيِيَنَّكُمْ أَوْ لَنُمِيتَنَّكُمْ أَوْ لَتَأْتِيَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ إِنِ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال - سبحانه -: ﴿قُلْ تَعَالَوْا لَنُحْيِيَنَّكُمْ أَوْ لَنُمِيتَنَّكُمْ أَوْ لَتَأْتِيَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ إِنِ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال - سبحانه -: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإحسان: ٤٤].

### كفر من وصف الله تعالى بمعنى من معاني البشر

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ):

#### الشرح

أي: ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر - كالصفات - وقال: إن الله مثل المخلوقات - كما تقول المشبهة؛ وهم من غلاة الشيعة فإنهم يقولون: علم الله كعلم المخلوقين، وصفاته كصفاتهم، وقد قالوا: إن الله مثل الإنسان - من قال ذلك؛ فهو كافر إن لم يكن ذلك عن تأويل؛ لأنه تنقص الرب؛ ولأنه صادم النصوص؛ فالله - تعالى - يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الفرقان: ١١] وهو يقول: الله مثل الأشياء - تعالى سبحانه عن ذلك - والله تعالى يقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا لَنُحْيِيَنَّكُمْ أَوْ لَنُمِيتَنَّكُمْ أَوْ لَتَأْتِيَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ إِنِ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٢] وهو يجعل لله أندادًا، وأمثالًا، ونظراء؛ فهذا كافر بالاتفاق، ولكن من قال ذلك عن تأويل: تذرأ عنه الشبهة وَصَفَ الكفر.



من أبصر وقرأ النصوص تبين له أن الله  
سبحانه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته (وَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اِغْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ  
اِثْرَ جَرٍّ):

#### الشرح

أي: من أبصر هذا وقرأ النصوص وتدبرها: تبين له أن الله - سبحانه  
وتعالى - لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، وأنه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله،  
وأنه لا شبيه له، ولا مثل له ولا سمي له، ولا كفو له؛ فمن أبصر هذا  
ونظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات صفات الله على الوجه اللائق، ونفي  
المماثلة والتشبيه، وما توعد الله به المشبهة: اعتبر، واتضح له الحقيقة،  
وحيث أن ينزجر عن مثل قول الكفار؛ فإن الكفار هم الذين يمثلون الله  
بخلقه، ويتنقصونه؛ كاليهود وأشباههم، قال تعالى: ﴿وَقَالِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ  
مُتَوَلِّةٌ﴾ [التآفة: ٢٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْفَرِيسِ قَالُوا إِنَّا اللَّهُ  
فَقُورٌ﴾ [آل عمران: ٢١٨١] وكذلك المشبهة الذين يقولون: إن الله مثل  
المخلوقات، وإن سمعه كسمعهم، وهكذا .

فمن أبصر هذا: اعتبر، وانزجر، عن أن يقول قولاً يماثل قول الكفار.

الله تعالى بصفاته ليس كالإنس

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته: (وَعَلِمَ أَنَّهُ بِصَفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ):

#### الشرح

أي: علم أن الرب بصفاته ليس كالإنس؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ  
شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ١١].  
فالله لا سمي له، ولا مثل له، ولا يد له، ولا كفو له - سبحانه  
وتعالى -؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله.

## رؤية المؤمنين لربهم

## أقوال أهل العلم في رؤية المؤمنين لربهم

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (وَالرُّؤْيَى حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ):

## الشرح

بين المؤلف -رحمه- الله هنا اعتقاد أهل السنة والجماعة في أن الرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية، ولم يذكر الرؤية قبل دخول الجنة. والرؤية قبل دخول الجنة، فيها ثلاثة أقوال لأهل العلم:

القول الأول: أن المؤمنين يرون ربهم في المحشر؛ في الموقف قبل دخول الجنة؛ لا يراه إلا المؤمنون خاصة.

القول الثاني: أنه يراه أهل الموقف جميعًا؛ مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفرة، فلا يرونه بعد ذلك.

القول الثالث: أنه يراه المؤمنون والمنافقون؛ لما ثبت في «الصحيحين» من أن الكفرة يساقون إلى النار، وتبقى هذه الأمة فيها مناقرها، وأن الله يتجلى لهم<sup>(١)</sup>.

هذه ثلاثة أقوال لأهل العلم؛ أما رؤية المؤمن لربه في الجنة بعد الموقف؛ فهذه لا شك فيها، ومسألة رؤية المؤمنين لربهم في الجنة من أشرف مسائل أصول الدين، وهي التي لأجلها شُمر المشمرون، وتنافس المتنافسون، ولأجلها حُرم الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون.

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ۞.

وهي من المسائل التي اشتد النزاع فيها بين أهل السنة وبين المخالفين لهم من أهل البدع؛ كمسألة الكلام، وكذلك أيضًا: مسألة العلو؛ علو الله فوق سمواته، وفوق عرشه. فهذه المسائل الثلاث، وهذه الصفات الثلاثة هي العلامة الفارقة بين أهل السنة وبين أهل البدع، فهذه قاعدة؛ فمن أثبت رؤية الله في الآخرة، وأثبت كلام الله، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، وأن كلام الله لفظ ومعنى، فهو من أهل السنة، ومن أنكرها أو نفاها: فهو من أهل البدعة.

ومسألة الرؤية: مسألة أيضًا اشتد النزاع فيها بين أهل السنة وبين أهل البدع؛ مثل مسألة الكلام، فأهل البدع لهم مصنفات ومؤلفات يستعرضون أدلة أهل السنة ويردون عليها، كما أننا نستعرض أدلة الخوارج<sup>(١)</sup> والمعتزلة، وأدلة الأشاعرة ونرد عليها، وقد وُذِعَتْ بَعْضُ الرسائل من سنتين بعض الطوائف، منها: رسالة في المسجد الحرام، فيها نفي الرؤية، ونفي الكلام، ونفي العلو والوقوة، ويقولون فيها: إن هذا هو الحق؛ فيردون على أهل السنة، ويسمون أنفسهم: أهل الحق والاستقامة، فلا يَظُنُّ طَائِفٌ أَنْ يَحْتَجَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بَعِيدٌ عَنَّا؛ قد انقضى دهره وفات أوانه؛ بل الذين يتبنون نفي الرؤية من المعتزلة والخوارج الإباضية؛ هم موجودون الآن، وكذلك الكلابية والأشعرية، ولهم مؤلفات في هذا

(١) سموا بهذا؛ لخروجهم على علي ۞، ونزلوا بأرض حرواء فسما بالحرورية، وهم الذين يكفرون أصحاب الكاثر ويقولون بأنهم مخلصون في النار، كما يقولون بالخروج على أئمة الجور، وأن الإمامة جائزة في غير قریش، وهم يكفرون عثمان، وعليًا، وطلحة، والزبير، وعائشة ۞، ويعظمون أبا بكر وعمر ۞. انظر: «الفصل في الملل والنحل» (١١٣/٢)، و«الملل والنحل» (١٥٤/١)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٥٠).

الباب، ولذلك ينبغي على طالب العلم اتباع السنة، ومنهج السلف الصالح، وأهل السنة والجماعة.

#### أقوال المذاهب في رؤية الله في الآخرة:

والواجب على الإنسان أن يلزم الحق، وأن يبحث عن ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيعمل به، ويعمل بما قرره أهل السنة والجماعة من الحق المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فرؤية الله في الآخرة مسألة عظيمة من أشرف مسائل أصول الدين، وقد اختلف الناس في رؤية الله في الآخرة على ثلاثة مذاهب مشهورة:

المذهب الأول: مذهب أهل السنة والجماعة: وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن تبعهم من الأئمة؛ أن الله يُرى في الآخرة بالابصار عياناً؛ مواجهةً لهم، وهذا مذهب الصحابة والتابعين والأئمة وتابعيهم، وأئمة الدين كالأئمة الأربعة - أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد - وسفيان الثوري، وأبي عمرو الأوزاعي، والليث بن سعد، وأبي يوسف، وغيرهم من الأئمة والعلماء، وكذلك أيضاً سائر الفقهاء، وأهل الحديث: كلهم على هذا الاعتقاد، وكذلك بعض الطوائف التي تنتسب إلى الحديث: كالكرامية، والسالية؛ كلهم يثبتون أن الله يرى في الآخرة بالابصار عياناً؛ مواجهةً؛ فهم يثبتون رؤية الله بالابصار، ويثبتون الفوقية أيضاً؛ وأنهم يرون ربهم من فوقهم، فهم يثبتون الأمرين: يثبتون الفوقية والعلو، ويثبتون الرؤية<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤٨٩/١)، (١١٧/١٢)، (٢٤٧، ٢٤٨، ٢٩٧)، و«منهاج السنة النبوية» (٢٥٥/٧)، و«بيان تلبس الجهمية» (١٩١-٤/٧)، و«حادي الأرواح» (ص ٢٠٤).

المذهب الثاني: نفاء رؤية الله في الآخرة؛ وهم القائلون بأن الله لا يُرى في الآخرة، ولا يُرى بالابصار، وليس له جهة، وليس له مكان؛ فهؤلاء نفوا الرؤية، ونفوا الفوقية، وهذا مذهب الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، والإمامية<sup>(٢)</sup>؛ فإن الإمامية لهم قولان: القدماء من الإمامية وهم الرافضة؛ يثبتون الرؤية، وجمهور المتأخرين؛ ينفون الرؤية؛ فيكون نفي الرؤية هو مذهب الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، وجمهور المتأخرين من الإمامية، ويسمون الإمامية؛ لأنهم يقولون: بإمامة اثني عشر إماماً، فهؤلاء ينفون الأمرين؛ ينفون الرؤية، وينفون الفوقية والعلو، ويقولون: إن الله ليس له مكان؛ فليس فوق المخلوقات؛ بل هو في كل مكان - نسأل الله السلامة والعافية -.

المذهب الثالث: مذهب بين مذهب أهل السنة، وبين مذهب الجهمية، وهم القائلون: إن الله يُرى لكن ليس في جهة؛ فأثبتوا الرؤية ونفوا الفوقية والعلو، فقالوا: يُرى لا في جهة، وهذا مذهب طائفة من الكلالية والأشاعرة، فهم مذنبون بين هؤلاء وبين هؤلاء؛ حيث أثبتوا الرؤية؛ فكانوا مع أهل السنة، ونفوا العلو والفوقية؛ فكانوا مع المعتزلة، وتجد في الغالب أن مذهب الأشاعرة مذبذب بين هؤلاء وبين هؤلاء، ولهذا يسميهم بعض العلماء «خثائي» أي: لا أتى ولا ذكر.

#### اجتلة أهل السنة في مسألة إثبات الرؤية

وأهل السنة اعتمدوا بالكتاب والسنة، واستدلوا بالنصوص الكثيرة من

(١) من فرق الرافضة سمووا بالإمامية؛ لأنهم يقولون بإمامة الاثني عشر. ويُسَمَّون الرافضة؛ لرفضهم زيد بن علي، حينما عُدَّ أباً بكر وعمر، فترخَّم عليهما، وقال: هما وزيراً جدي رسول الله ﷺ؛ فرفضوه. فقال: رفضتموني. رفضتموني.

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على إثبات الروية، واستدلوا أيضاً بالإجماع والعقل الصريح وأدلتهم كثيرة في هذا الباب منها:

اجتنبهم من القراء الكريم:

الدليل الأول: قول الله تعالى: ﴿لَمْ تَأْكَلُوا مِنْهَا وَلَكِنَّكُمْ مَرَدُّوا﴾ (٣١)؛ (٣٢)، والمعنى: أن المؤمنين (لهم ما يشاؤون) أي: في الجنة (ولدينا مزيد) أي: رؤية الله في الآخرة، فقد فسر العلماء المزيد بأنه: رؤية الله في الآخرة.

الدليل الثاني: قول الله - تعالى - : ﴿لَكِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرًا فَكُذِّبُوا﴾ (٣٣)، والمعنى: المراد بها: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم؛ كما جاء تفسير ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم بأن «الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم» (٣٤).

الدليل الثالث: قول الله - تعالى - : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْفُجَاءُ إِلَى رَبِّكَ نَظَرٌ﴾ (٣٥)؛ (٣٦)؛ (٣٧)، ناضرة - بالضاد - من النضرة والبهاء والحسن، ﴿إِلَى رَبِّكَ نَظَرٌ﴾ (٣٨)؛ (٣٩)، والمعنى: (٣٣) - بالطاء - من النظر بالعين، ووجه الدلالة من الآية على أن الله يرى في الآخرة: أن الله - سبحانه وتعالى - أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله، وعده بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وأخلى الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقة موضوعه؛ فدل على أن المراد: النظر بالعين التي في الوجه، إلى الرب - جل جلاله - وذلك: أن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتذنيبه:

فالنظر إذا عُذِّي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار؛ كقوله تعالى:

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب، وسيأتي لفظه.

﴿نَظَرُوا نَفْسَ يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ (الحديد: ١٨)؛ أي: توقفوا وانتظروا.

وإذا عُذِّي بـ«في» فمعناه: التفكير والاعتبار؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الاعراف: ١٨٥).

وإذا عُذِّي بـ«إلى» فمعناه: المعالجة بالأبصار؛ كقوله: ﴿نَظَرُوا إِلَى كُرُورٍ إِذْ تَبَرَّكَ وَرَبُّهُ﴾ (الأنعام: ٢٩٩).

فقوله هنا: ﴿إِلَى رَبِّكَ نَظَرٌ﴾ (٣٨)؛ (٣٩)، معناه: النظر بالعين.

الدليل الرابع: قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (٤٠)؛ (٤١)؛ (٤٢)؛ (٤٣)، وجه الدلالة: أن الله - سبحانه وتعالى - أخبر أن الكفار محجوبون عن الله فلا يرونه؛ فدل على أن أولياءه يرونه، وإلا فلو كان المؤمنون لا يرونه؛ لتساووا هم والكفار في الحجب، فلما أن حجب الكفار؛ دل على أن المؤمنين لا يُحجبون؛ وبهذا استدل الإمام الشافعي رحمه الله فقال: لما أن حجب هؤلاء في السخط دل أن أولياءه يرونه في الرضا. هذه أمثلة من الكتاب العزيز على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وأما السنة: فالأحاديث فيها متواترة رواها من الصحابة نحو ثلاثين صحابياً؛ فهي في «الصحاح» و«السنن» و«المسانيد» و«المعاجيم»، ساقها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (٤٤)، ومن المعلوم أن المتواتر يفيد العلم القطعي؛ فلا تجوز مخالفته، ومع ذلك خالف الجهمية والمعتزلة هذه النصوص؛ وهي متواترة؛ ومن أمثلتها:

(١) انظر الباب الخامس والستين من الكتاب (ص ١٩٦).

الدليل الأول: ما ثبت في «الصححين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ تَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ - رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

الدليل الثاني: ما ثبت في «الصححين» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنَظَّرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ - فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

الدليل الثالث: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «جَنَّاتَانِ مِنْ فَضْوٍ آتَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِوَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْبَى»<sup>(٣)</sup> رواه الشيخان.

الدليل الرابع: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه: «ثُمَّ لَيَقْفَرَ أَخْدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ يَرْجِمُ لَهُ ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَوْنِكَ مَالًا؟ فليقولَنَّ: بلى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فليقولَنَّ: بلى...»<sup>(٤)</sup>؛ والشاهد في الحديث قوله: «لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ»، وهذا صريح في الرؤية.

الدليل الخامس: ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث صهيب

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٨) والسياق له، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤) والسياق له، ومسلم (١٦٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠)، بهذا السياق.

(٤) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

الرومي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَرِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُحَنِّفُ الْحِجَابَ، فَمَا أَغْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الشُّظْرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَرَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup> رواه الإمام مسلم في «صحيحه».

هذه أمثلة من النصوص المتواترة، وهي كثيرة كما سبق، ولما ساق العلامة ابن القيم رحمته الله هذه النصوص قال بعد ذلك: فكانت تشاهد رسول الله ﷺ وهو يقول ذلك ويبلغه للامة، ولا شيء أقر لأعينهم منه.

وشهدت الجهمية والفرعونية<sup>(٢)</sup>، والرافضة، والقرامطة<sup>(٣)</sup>، والباطنية<sup>(٤)</sup>،

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، هكذا من طريق عبد الرحمن بن مهدي، ثم أخرجه من طريق يزيد بن هارون، وفيه زيادة، وهي: «ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَئِنْ لَمْ يَنُودُوا﴾» (بئس: ٢٦).

(٢) لقب يطلق على نفاة العلوم.

(٣) هم أتباع حمدان القرطبي، وكان رجلاً متوارياً صار إليه أحد دعاة الباطنية، ودعوه إلى معتقدهم قبل الدعوة، ثم صار يدعو الناس إليها، وضل بسببه خلق كثير، وكان ظهورهم في عام ٢٨١هـ في خلافة المعتضد، ودخلوا مكة سنة ٣١٧هـ، واقتلوا الحجر الأسود، وقتلوا المسلمين في الحرم، وقد أعيد الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي النسابوري رحمه الله. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٢٢).

(٤) سموا بذلك لأنهم يقولون: إن للنصوص ظاهراً وباطناً، ولكل تنزيل تأويلًا. ولهم ألقاب كثيرة: منها: القرامطة، والخرمية، والإسماعيلية، والمزدكية، والتعليمية، والباكية، والسجعية، والمملحة. ومنهم: النصيرية، والدروز، وهم يعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم، ولا هو معلوم ولا مجهول، ومنعهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة، ويقولون: إنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر، وانفقوا على إنكار القيامة، والمثول =

وفرق الصابئة<sup>(١)</sup> ، .....

= عنهم الإباحة المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات، وإنكار الشرائع، وهم يتكبرون ذلك إذا نُسب إليهم. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢٩/٢)، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١١٩)، و«فضائح الباطنية» للغزالي (٤٠، ٤٦).

(١) الصابئة: في «الملل والنحل» للشهرستاني (٧٠/٢)، و«الفرق في زمان إبراهيم الخليل» واجعه إلى صنفين: الصابئة والحفّاء، ويذكر أن كلا الصنفين قال: إنا نحتاج في معرفة الله وطاعته إلى متوسط، لكن قالت الصابئة: يجب أن يكون ذلك المتوسط روحانيًا لا جسمانيًا، وقالت الحفّاء: بل يكون من جنس البشر، وتكون له العصمة والتأييد.

يقول الشهرستاني (٧١/٢): «ثم لما ينطرق للصابئة الاقتصار على الروحانيات البتة، فزعت جماعة إلى هياكلها وهي السيارات السبع وبعض التراب».

وفي (٩٥/٢) يرجع لقب «الصابئة» إلى اللغة فيقول: «قد ذكرنا أن الصبوة في مقابلة الحنفية، وفي اللغة: صبا الرجل إذا مال وزاغ، فيحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قبل لهم الصابئة».

ويقول ابن تيمية «الرد على المنطقيين» (ص ٢٨٨): «إن الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون.

فالأولون هم الذين أنشئ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا الْإِنْسَانَ أَنَسْنَا وَأَلْفَيْكَ هَادُوا وَأَنْصَرَيْنَ وَالْقَبِيلَيْنِ مِّنْ مَّاءٍ يَّأْتِي وَالْأَيُّورَ الْأَيُّورَ وَعَوَّلَ سَلْبًا فَلَكُمُ الْإِبْرَهِيمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُوكَ﴾ (التين: ٢١).

ويقول البيهقي «الآثار الباقية من القرون الخالية» (ص ٢٠٥) عن صابئة حران: «نحن لا نعلم منهم إلا أنهم أناس يوحدون الله، ويزهرون عن القبائع، ويصفونه بالسلب لا الإيجاب، كقولهم: لا يُحَدُّ، ولا يُثَرَى، ولا يُظْلَم، ولا يجوز، ويسمونهم بالأسماء الحسنى مجازًا إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه، ويقولون بحياتها ونظفها وسمعها وبصرها، ويعظمون الأنوار». وابن تيمية يصف بعض الثغاة من فلاسفة ومعتزلة وغيرهم بالصابئة إما لتشابه تصور هذه الفرق لذات الله سبحانه وتعالى، أو أنه يلخص المعنى اللغوي (لصابئة): =

والمجوس<sup>(١)</sup>، واليونان بكفر من اعتقد ذلك وأنه من أهل التشبيه والتجسيد، وساعدهم على ذلك كل عدو للسنة وأهلها، والله ناصر كتابه وستة رسوله ولو كره الكافرون<sup>(٢)</sup>.

#### الرجاء على شبه نقاة الرؤية:

يقول ابن القيم: إن هؤلاء الجهمية والفرعونية والرافضة وغيرهم شهدوا بكفر من أثبت الرؤية؛ وقالوا: إنه من أهل التشبيه والتجسيم؛ لأنه شبه الله بخلقه؛ لأن الذي يُرى هو الجسم الذي يكون محدودًا ومجسمًا؛ أما الرب فلا يُرى؛ لأنه ليس بجسم وليس محدودًا، وليس له مكان يحصره، هكذا يقولون! من أثبت العلو وأن الله له مكان، وأثبت الرؤية: فهو كافر؛ لأنه مشبه ومجسم؛ ولهذا: فأهل البلد من هذه الأصناف

= وانظر لزبادة التفصيل عن الصابئة: «الآثار الباقية» (ص ٢٠٤-٢٠٧)، و«الملل والنحل» (٧٢-٧٠/٢)، (٩٥ وما بعدها)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي (ص ٩٠)، و«الخطبة للمقريزي» (٣٤٤/٢)، و«الرد على المنطقيين» (ص ٢٨٧-٢٨٩)، و«تفسير الطبري» ط - دار المعارف (١٤٥/٢-١٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٩-١٩١).

(١) هم الذين يعبدون النار؛ فهم يعتقدون أنها أعظم شيء في الدنيا، ويسجدون للشمس إذا طلعت، ويتكبرون نبوة آدم ونوح عليهما السلام، وقالوا: لم يرسل الله -عز وجل- إلا رسولًا واحدًا، لا ندرى من هو، ويقولون بإثبات أصليين: النور والظلمة، وفي باب الشريعة يستحلون نكاح الأمهات، والبنات، والأخوات، وسائر المحرمات، ويتطهرون بأبوال البقر تدنيسًا، ولذا قيل: إن أصل الكلمة النجوس، وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٣٤)، و«البرهان في عقائد أهل الأديان» (٥٧)، و«الملل والنحل» (٧٣).

(٢) انظر: «حادي الأرواح» (ص ٢١١).

يكنفون<sup>(١)</sup> أهل السنة والجماعة.

وقد أجابوا عن هذه التصوص من الكتاب والسنة، بالتأويل والتحريف، وقالوا على لسان بشر المريسي الجهمي المعتزلي: إن المراد بالروية في هذه الأحاديث: الروية القلبية، وهي: العلم، فمعنى قول النبي ﷺ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ<sup>(٢)</sup>، والمراد: تعلمون ربكم؛ لا تتوكلونكم فيه الشكوك والريب؛ كما تعلمون في القمر أنه قمر، وليس المراد الروية بالبصار.

ولم قالوا: وأنتم أيها المشبهة - يعنون أهل السنة - توهمتم أن المراد بالتروية؛ الروية بالبصار، وهذا تشبيه منكم للرب وتنقص له، فليس المراد: الروية بالبصر؛ لأن هذا تشبيه وتجسيم، وإنما المراد: الروية بالقلب.

ولم قالوا: اللغة العربية تدل على ما قلنا؛ فالعرب تقول للأعمى: ما أبصره! يعني: ما أعلمه، فالمراد: العلم، وتقول العرب: نظرت في المسألة، وليس للمسألة جرم ينظر إليه، وليس المراد: الروية - كما توهمون - بالبصار؛ لأن الله نفى ذلك عن نفسه بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولم قالوا: والدليل على ما قلنا: أن الروية بمعنى العلم؛ نصوص كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَخِيكَ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]؛ أي: ألم تعلم؛ فدل على أن الروية في هذه التصوص المراد بها: العلم. وهذا هو جواب نفاة الروية عن هذه التصوص.

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قريباً

وأجاب أهل السنة عن هذا الاعتراض بأجوبة:

الجواب الأول: أن النبي ﷺ فسر الروية في هذه الأحاديث بروية البصر، فالتبي تفسير بالحديث فلم يدع لمأول مقالاً؛ فقال: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»<sup>(١)</sup>، وهذا صريح في رؤية العين؛ أي: الروية بالبصر.

الثاني: أن تفسير الروية با تفسير مخالف لتفسير النبي ﷺ، مع كونه لم يؤثر عن عالم أنه فسر الروية في هذه الأحاديث بالعلم، إلا جاهل ظالم، فكيف يترك تفسير رسول الله ﷺ المقرون بحديثه، إلى تفسير جاهل ضال، ليس له مستند، ولا يؤثر عن عالم؟!

الجواب الثالث: أن أهل اللغة أجمعوا على أن اللقاة إنما يكون معانية بالأبصار، فنقل أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بـ«تعلب»؛ إجماع أهل اللغة أن المراد باللقاء في قول الله عز وجل: ﴿...وَكَانَ الْكَافِرِينَ رِجْماً﴾ [التوبة: ١٢٥] بـ«لَقَوْهُ سَلَمٌ» [المرآة: ٤٣-٤٤] أن اللقاء هو: المعانية بالأبصار؛ نقله عنهم بسند صحيح؛ فإجماع أهل اللغة على أن اللقاء هو: المعانية بالأبصار.

رابعاً: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ»<sup>(٢)</sup>، فادخل كاف التشبيه على ما المصدرة الموصولة بـ«ترون» التي تؤوّل مع صلتها بالمصدر، وهي الروية، فيكون المعنى: إنكم ترون ربكم كروية الشمس والقمر، ومعلوم أننا نرى الشمس والقمر بأبصارنا؛ من فوقنا، فيجب أن تكون رؤية الله كذلك بالأبصار من فوق.

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قبل قليل، دون ذكر الشمس فيه

(٢) سبق قريباً.

الخامس: أننا لا ننكر أن الرؤية لها معان متعددة؛ فتكون بالبصر، وتكون بالقلب، وتكون رؤية رؤيا منام؛ كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»<sup>(١)</sup>؛ أي: في النوم، ولكن لا بد من قرينة تبين المعنى المراد، وأي قرينة فوق هذه القرينة في قوله ﷺ: «فَهَلْ تُفَارِقُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ...»<sup>(٢)</sup>؛ فهل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو مما يتعلق برؤية القلب؟ وهل يخفى هذا على ذي البصيرة؟!

السادس: أن تفسير الرؤية بالعلم بتفسير مخالف لتفسير النبي ﷺ، ومخالف للغة، ويترتب عليه فساد المعنى، مع ما فيه من المعاندة لرسول الله ﷺ؛ فإن تفسيركم أيها النفاة للرؤية بالعلم وقولكم: معنى إنكم ترون ربكم كما ترون القمر أي: تعلمون أن لكم رباً؛ لا تشكون في ربوبيته، كما لا تشكون في القمر أنه قمر، نقول جواباً عليه: هذا الشك زائل عن المؤمنين وعن الكفار يوم القيامة؛ لأنه في موقف القيامة كل يعلم ربه؛ حتى الكفرة، وحتى النفاة، وحتى من أنكروا وجود الله؛ إذا كان يوم القيامة علموا بربهم وتيقنوا ربهم، فالشك في الربوبية زائل عن جميع أهل الموقف؛ مؤمنهم وكافرهم، والنبي ﷺ خص المؤمنين بالرؤية وبشرهم هذه

(١) أخرجه أحمد (٣٧٨/٥)، والدارمي (٢١٤٩)، واللفظ له، من حديث عبد الرحمن بن عائش، وقال الهيثمي (٣٦٨/٧): «وقد سئل الإمام أحمد عن حديث عبد الرحمن بن عائش، عن النبي ﷺ بهذا الحديث فذكر أنه صواب هذا معناه». وله شواهد من حديث ابن عباس، ومعاذ بن جبل، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة، وثوبان، وأم الطفيل. وانظر بتوسعة للكلام على طرق هذه الأحاديث وتصحيحها؛ «ظلال الجنة» للألباني (٣٣٨، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة.

البشرى؛ فما قيمة هذه البشرى، وما فائدة تخصيص المؤمنين بالرؤية إذا كان المراد بها مجرد العلم؟! فتفسير الرؤية بالعلم في هذه الأحاديث -مع كونه مخالفاً للغة- يُفْهِدُ المعنى ولا يكون للحديث معنى سليم، مع ما فيه من المعاندة للرسول ﷺ.

لكن النفاة للرؤية - لما أجيبوا بهذه الأجوبة - قالوا: ألقنا إلى نفي رؤية الله في الآخرة، حُكِّمَ العقل بأن رؤيته - تعالى - محال؛ لا يُتَصَوَّر إمكانها؛ فهم يرون - كما سيأتي في أدلتهم - أن الله ليس بجسم، ولا داخل العالم، ولا خارجه، وما كان كذلك لا يمكن رؤيته، ولا يتصور إمكانها.

وأجاب أهل السنة: فقالوا: قولكم: إن العقل يحكم بأن الرؤية محالة؛ فهذه دعوى خالفكم فيها أكثر العقلاء، بل لو عُرض على العقل السليم موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال.

#### طيل الإجماع:

أجمع الصحابة والتابعون ومن بعدهم من الأئمة قبل مجيء الجهمية، والرافضة، والمعتزلة، والخوارج، على أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم عياناً في الآخرة، وما زال العلماء والأئمة وأهل السنة يتناقلون هذا الإجماع؛ يرويه المتأخر عن المتقدم، والمتقدم يورثه للمتأخر؛ يقرؤون ذلك، ويفتون بذلك، ويقولون، ويتجملون به، ويتوارثونه جيلاً عن جيل، وقرناً بعد قرن؛ بل كان من أكثر رجائهم، وأجل ثوابهم عند الله؛ أنهم يرونه في الآخرة، فأنتم أيها النفاة نفيتم أعظم نعيم يعطاه أهل الجنة، وهو: الرؤية! وقد نقل البيهقي رحمته الله إجماع الصحابة على إثبات الرؤية<sup>(١)</sup>،

(١) انظر: «حادي الأرواح» (ص ٢٣٣).



ولا زال أهل السنة والجماعة والأئمة والعلماء يؤلفون في تقرير ذلك وإثباته المؤلفات، ويعدون من أنكر الرؤية معطلاً؛ من شَرَّ أهل التعطيل.

ومن تراجمهم في تلك الكتب والمؤلفات: باب إثبات الرؤية والرد على الجهمية، باب الوعيد لمنكر الرؤية، كما فعل شيخ الإسلام وغيره كثيرة.

أما دليلهم من العقل فقالوا: إن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ وَجُودًا؛ كَانَ أَحَقَّ بِالرُّؤْيَا مِنْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَكْمَلَ وَجُودًا مِنْ غَيْرِهِ؛ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَرَى مِنْ غَيْرِهِ، يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّ تَعَدُّرَ الرُّؤْيَا إِمَّا لَخَفَاءِ الْمَرْنِي وَإِمَّا لَضَعْفِ وَاقِفٍ فِي الرَّائِي، وَاللَّهُ - تَعَالَى - لَيْسَ بِهِ خَفَاءٌ؛ فَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ، وَإِنَّمَا تَعَدَّرَتْ رُؤْيَاهُ فِي الدُّنْيَا؛ لَضَعْفِ الْقُوَّةِ الْبَاصِرَةِ؛ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُشِيَ الْمُؤْمِنُونَ تَنْشِئَةً قَوِيَّةً؛ بِجَوَارِحٍ وَأَبْصَارٍ قَوِيَّةٍ؛ يَتَحَمَّلُونَ بِهَا رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ؛ أَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوْا اللَّهَ؛ لَضَعْفِ بَشَرِيَّتِهِمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ الرُّؤْيَا قَالَ اللَّهُ: ﴿لَنْ رَتَّبِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْكَبِيرِ﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٤٣]، فَلَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجِبَلِ تَكَدَّكَ الْجِبَلِ وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا، وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى الشَّمْسَ وَيُحَدِّثَ النَّظَرَ إِلَيْهَا؛ وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ؛ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى اللَّهَ؟! بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى الْمَلَكَ عَلَى صُورَتِهِ إِلَّا إِذَا قُوَّاهُ اللَّهُ؛ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ سَمِعْتُمْ مَلَكًا لَجِئْتُمْ بِجُلَاهُ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نُرَى لَعَلَّيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُتِينَا أَلَمْ تَرَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٨]، يَعْنِي: لَمَات، فَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَى الْمَلَكَ عَلَى صُورَتِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا رَأَى الْمَلَكَ عَلَى صُورَتِهِ رَعِبَ رَعْبًا شَدِيدًا وَذَهَبَ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَقَالَ: «دُرِّي دُرِّي» لَكِنْ قُوَّاهُ اللَّهُ. فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ رُؤْيَا الْمَلَكِ وَرُؤْيَا الشَّمْسِ؛ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى

الله في الدنيا؟! لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ يَنْشِئُهُمُ اللَّهُ تَنْشِئَةً قَوِيَّةً يَتَحَمَّلُونَ بِهَا رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

هَذِهِ أَدَلَّةُ أَهْلِ السَّنَةِ مِنَ الْكُتُبِ وَالسَّنَةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْعَقْلِ عَلَى إِثْبَاتِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أَمَّا الْكَلَابِيَّةُ وَالْأَشَاعِرَةُ فَقَدْ أَثْبَتُوا الرُّؤْيَا، وَنَفَوْا الْجَهَّةَ وَالْفَوْقِيَّةَ؛ وَأَرَادُوا بِذَلِكَ: أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْإِعْتِقَادَيْنِ: بَيْنَ إِعْتِقَادِ نَفْيِ الْجَسَمِيَّةِ عَنْ اللَّهِ، وَبَيْنَ إِثْبَاتِ الرُّؤْيَا لِمَا لَيْسَ بِجَسَمٍ بِالْحَسِّ، فَأَرَادُوا أَنْ يَثْبُتُوا الرُّؤْيَا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجْزُوا عَلَى إِكْثَارِهَا، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ وَرَدَتْ بِهَا، لَكِنْ أَرَادُوا أَنْ يُوَافِقُوا الْمُعْتَزِلَةَ فِي نَفْيِ الْجَهَّةِ وَالْفَوْقِيَّةِ؛ فَهَمَّ لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَفَارِقُوا الْمُعْتَزِلَةَ فِي هَذَا الْإِعْتِقَادِ؛ أَيْ: فِي نَفْيِ الْفَوْقِيَّةِ عَنْ اللَّهِ وَالْعُلُوِّ؛ لِأَنَّ كِلَاهُمَا يَنْفِيَانِ أَنَّ يَكُونَ اللَّهُ جَسَمًا؛ وَلَا يَكُونُ الْمَكَانُ إِلَّا لِلْأَجْسَامِ؛ فَمَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِجَسَمٍ: فَلَا يَكُونُ لَهُ مَكَانٌ، فَأَرَادَ الْأَشَاعِرَةُ أَنْ يَكُونُوا مَعَ أَهْلِ السَّنَةِ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَا، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ فِي نَفْيِ الْجَهَّةِ وَالْفَوْقِيَّةِ، فَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ؛ فَلَجُّوا إِلَى حِجِّجِ السُّفْطَانِيَّةِ؛ وَهِيَ الْحِجِّجُ الْمَوْهَمَةُ، الَّتِي تَوْهَمُ أَنَّهَا حُجَّةٌ وَلَيْسَتْ بِحُجَّةٍ؛ لِأَنَّ الْحِجِّجَ أَقْسَامٌ:

فَهَنَّاكَ حِجِّجٌ يَقِينَةٌ؛ تَغِيدُ الْيَقِينَ، وَهَنَّاكَ حِجِّجٌ دُونَ الْيَقِينِ، وَهَنَّاكَ حِجِّجٌ مُوْهَمَةٌ مَرَاتِيَّةٌ؛ وَهِيَ: الَّتِي تَوْهَمُ أَنَّهَا حُجَّةٌ وَلَيْسَتْ بِحُجَّةٍ، وَهَذِهِ كَحُجَّةِ الْأَشَاعِرَةِ هُنَا، كَمَا أَنَّ النَّاسَ أَقْسَامٌ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ هُوَ فَاضِلٌ تَامٌ الْفَضِيلَةِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ فِي الْفَضْلِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ هُوَ مَرَاءٍ يَوْهَمُ أَنَّهُ فَاضِلٌ وَلَيْسَ بِفَاضِلٍ، فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ قَالُوا: ثَبَّتِ الرُّؤْيَا، وَنَفَيْ الْجَهَّةَ وَالْفَوْقِيَّةَ فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ يُرَى لَا فِي جَهَّةٍ؛ لَا فَوْقَ، وَلَا تَحْتَ، وَلَا يَمِينٍ، وَلَا شِمَالٍ.

ناقشهم أهل السنة بجوابين:

الجواب الأول: وهو أن يقال: إنكم أيها الكلاية والأشاعرة انفردتم بهذا القول عن طوائف بني آدم، وخرجتم به عن ضرورات العقل، فإنه في بداءة العقول أن كل مرئي لا بد أن يكون مواجهاً للرائي؛ مباحثاً له، لا يمكن أن يكون هناك مرئي قائم بنفسه إلا بجهة للرائي، أما أن يوجد مرئي ليس في جهة فهذا لا يُعقل.

ولهذا ضحك جمهور العقلاء من الكلاية والأشعرية حينما أثبتوا الرؤية ونفوا الجهة، قالوا: هذا لا يمكن ولا يُصور؛ ولهذا أنكر على الكلاية والأشاعرة جميع طوائف بني آدم وضحكوا من إثباتهم الرؤية وإنكارهم الجهة والفوقية؛ ولهذا تسلط عليهم المعتزلة وقالوا: أنتم الآن وقعتم في الفخ؛ كيف تثبتون الرؤية ولا تثبون الجهة؟! لا بد أن تثبتوا الجهة والفوقية؛ فتكونوا أعداء لنا مع المشبهة، أو تنفوا الرؤية؛ فتكونوا معنا، أما أن تبقوا مذبذبين؛ تثبتون الرؤية، وتكفرون الجهة والفوقية؛ فهذا غير معقول، ولا يمكن.

الجواب الثاني: ما جاء في الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ الصريحة في أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة؛ كما في الحديث: أن النبي ﷺ سئل هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟ قَالُوا: لَا قَالَ: فَانْظُرُوا كَذَلِكَ»<sup>(١)</sup>، وفي الحديث الثاني يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ ضَخْواً كَيْسَ نَعْمَا سحاب؟ وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْوِ ضَخْواً لَيْسَ فِيهَا سحاب؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ

(١) سبق تخريجه.

وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا...»<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث الآخر: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَاناً»<sup>(٣)</sup>، يعني: مواجهةً، فهذه النصوص صريحة في أننا نرى ربنا كما نرى الشمس والقمر، ونحن نرى الشمس والقمر من فوقنا عياناً. فالأحاديث صريحة في هذا، وليس المراد من الأحاديث: تشبيه الله بالقمر والشمس - تعالى الله عن ذلك - بل المراد: تشبيه الرؤية بالرؤية؛ والمعنى: أننا نرى ربنا يوم القيامة رؤية واضحة؛ لا لبس فيها؛ كما أننا نرى الشمس والقمر رؤية واضحة؛ لا لبس فيها؛ من فوقنا، فالله ليس له مثيل: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»<sup>(٤)</sup> [النور: ٢١]، سبحانه «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً» [زمر: ٦٥].

وبطل بهذا دعوى الكلاية والأشاعرة من أنه يمكن أن تكون هنالك رؤية بلا جهة؛ لكنهم لمّا ألزموا بذلك وشيّق عليهم الخناق؛ قالوا: عندنا دليل عقلي على أن الرؤية ممكنة بدون جهة؛ وهو أن الإنسان يرى صورته في المرأة وليس في جهة منها؛ فهذه رؤية بدون جهة؛ فكذلك الله يُرى لا في جهة.

أجاب أهل الحق: بأن هذا تلبس منكم أيها الكلاية والأشاعرة؛ فإن الإنسان لا يرى صورته الحقيقية في المرأة، وإنما يرى خيال صورته التي تنطبع في الجسم الصقيل، وهو أيضاً في جهة منها؛ فنبيها بهذا أن هذا الدليل العقلي الذي زعموه: لا قيمة له، وبطل بهذا مذهب الأشاعرة والكلاية.

ومع أنه يلزم الكلاية والأشاعرة أن يثبتوا الجهة والعلو، حتى يكونوا

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) هذا لفظ البخاري (٧٤٣٥) من حديث جرير بن عبدالله رضى الله عنه، وسبق بالفاظ

من أهل السنة، أو ينفوا الرؤية فيكونوا كالمعتزلة، وأنه لا يمكن لهم البقاء على هذا المذهب، ومع ذلك: فهم أقرب إلى الحق من المعتزلة -نفاة الرؤية-؛ لأن من أثبت شيئاً من الحق؛ فهو أقرب؛ ولو كان متناقضاً؛ لأنهم أثبتوا الرؤية وهي حق، وإن كان يلزمهم أن يثبتوا الفوقية والعلو .

وأما النفاة الذين ينفون رؤية الله في الآخرة مثل: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، فإلهم شبه عقلية، وشبه شرعية، والمراد بالشبه الأدلة، لكن إذا كان المستدل غير محقق سمي ما لديه من الأدلة شيئاً.

والأصل الذي قادمهم إلى هذا هو اعتمادهم على العقل، وهو الأساس عند المعتزلة الثُّفَاة، فبلاؤهم إنما جاءهم من تقديم العقل على النقل، وَجَعَلِي العقل أساس فهمهم، وَتَرَكْهُمْ كتاب الله وراءهم ظهرياً؛ فلما اعتمدوا على العقل: أَوَّلُوا النصوص التي تدل على إثبات الرؤية؛ فلما كان العقل هو الأصل والأساس عند النفاة، حَرَفُوا لأجله النصوص من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ حتى يوافق عقولهم.

#### فهم الشبهة العقلية لنفاة الرؤية:

أولاً: هو أنهم قالوا: يلزم من إثبات رؤية الله؛ أن يكون الله ذا جهة، ويلزم من كونه ذا جهة أن يكون جسماً، أو أن يكون محدوداً ومتحيزاً، والله ليس في جهة، وليس جسماً، وليس محدوداً، ولا متحيزاً؛ فالرؤية منتفية؛ لانتهاء لازمها، وهو الجهة، ولو أثبتنا الجهة فإن هذا تنقُصٌ للرب . وقد يصوغون هذا الدليل بصياغة منطقية، فيصوغون الدليل مركباً من مقدمتين ونتيجة كما هو معروف عند أهل المنطق؛ فيقولون في صياغة الدليل: الله ليس في جهة؛ وكل ما ليس في جهة لا يرى، فالنتيجة: الله لا

يرى. هذا الدليل المنطقي، مكون من مقدمتين ونتيجة، والنتيجة مستخلصة من المقدمتين: الله ليس في جهة، هذه المقدمة الأولى مكونة من مبتدأ، أو خبر .

المقدمة الثانية: كل ما ليس في جهة لا يرى، النتيجة تؤخذ من المقدمتين، وهو أنك تحذف مبتدأ الجملة الأولى، وخبر الجملة الثانية، فتأخذ النتيجة وهي السابقة: الله لا يرى، وأنت إذا سلمت لهم المقدمتين، ألزموك بالنتيجة، لكن الطريقة في هذا: أنك تعارض المقدمة الأولى؛ فلا تسلم بها، أو تعارض المقدمة الثانية: فلا تسلم بها، أو تعارض كلا المقدمتين، حتى تُبْطِلَ النتيجة.

#### والجواب عن هذه الشبهة:

أولاً: أن يقال: ما قولكم في الجهة؟ تقولون: إنه يلزم من إثبات رؤية الله أن يكون في جهة، هل مرادكم بالجهة أمراً وجودياً؟ أو أمراً عديماً؟ هل مرادكم بالجهة أمراً مخلوقاً؟ أو أمراً عديماً؟ ومن المعلوم أنه ليس هناك في هذا العالم إلا الخالق والمخلوق، فإن أردتم بالجهة أمراً وجودياً؛ أي: أمراً مخلوقاً؛ فالله منزّه عن أن يكون في جهة بهذا المعنى، أو في شيء من مخلوقاته؛ فهو سبحانه لم يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته؛ فهو بائن عنهم - سبحانه وتعالى -، فإن أردتم بالجهة جهة وجودية مخلوقة؛ تحويه وتحصره، وتحيط به إحاطة الطرف بالمطروف؛ فالله منزّه عن الجهة بهذا المعنى؛ لأن الله ليس في جهة من خلقه، وليس في شيء من خلقه، ولا يحويه، ولا يحصره شيء من خلقه - سبحانه وتعالى -؛ فهو أعظم، وأعلى، وأجل من ذلك، وهو متميز عن خلقه، منفصل بائن عنهم - سبحانه وتعالى - .

فإنه ليس في جهة بهذا المعنى. وإن أردتم بالجهة أمراً عديمًا غير مخلوق، وهو ما فوق العرش؛ فإن نفيكم الجهة بهذا المعنى باطل، فإنه في جهة العلو بعد أن تنتهي المخلوقات إلى سقف عرش الرحمن؛ فإذا لا بد من التفصيل والاستفصال، فإن أردتم بالجهة أمراً مخلوقاً؛ فإنه ليس في جهة، وإن أردتم بالجهة أمراً عديمًا، وهو ما فوق العرش، فإنه في جهة بهذا الاعتبار. وعلى هذا نقول:

المقدمة الأولى باطلة؛ قولكم: الله ليس في جهة، إن أريد به أمراً عديمًا؛ نقول: هذه المقدمة باطلة، ولا دليل على إثباتها، بل نقول: الله في جهة بهذا المعنى؛ لأن الجهة أمر عديم، والمعنى: أن الله في العلو؛ فوق العرش، وإن أردتم بالجهة أمراً وجوديًا؛ بطلت المقدمة الثانية، وهو قولكم: كل ما ليس في جهة؛ لا يرى؛ لأنه لا يلزم أن يكون كل مرئي في جهة مخلوقة، فإن سطح العالم يمكن أن يُرى، وليس العالم في عالم آخر، وإلا لزم التسلسل فيكون العالم في عالم، والعالم في عالم، إلى ما لا نهاية، وإذا بطلت المقدمتان، أو بطلت إحداهما؛ بطلت النتيجة، وهي قولكم: الله لا يُرى.

هذا هو الدليل الأول؛ العقلي.

الدليل العقلي الثاني لنفاة الرؤية لله عز وجل قالوا: الله ليس بجسم، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، وما كان كذلك: لا تمكن رؤيته.

وأجيب عن هذا الجليل العقلي بأجوبة:

الجواب الأول: أن إثبات ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه، أمر لا يمكن الإحساس به، والحكم القطري يحيل إثبات شيء، أو أمر لا يمكن الإحساس به.

الجواب الثاني: سلمنا وجود أمر، أو شيء لا يمكن الإحساس به، وجود ما يمكن الإحساس به أولى - ولو سلمنا بهذا جدلاً، فقد سلمنا به من جهة لنرد من جهة أخرى -: فمن أثبت موجوداً فوق العالم ليس بجسم؛ يمكن الإحساس به، كان قوله أقرب إلى العقل ممن أثبت موجوداً لا يمكن الإحساس به، وليس داخل العالم، ولا خارجه.

الجواب الثالث: أن رؤية ما ليس بجسم ولا في جهة إما أن يُجوزه العقل، وإما أن يمنعه؛ فإن جوزه: فلا كلام، وإن منعه: كان مُنْعُ العقل لإثبات موجود لا داخل العالم، ولا خارجه؛ أشد وأشد.

الجواب الرابع: أن رؤية الباري - تعالى - إما أن تكون ممكنة، وإما أن لا تكون ممكنة؛ فإن كانت ممكنة، بطل قولكم بإثبات موجود لا يمكن الإحساس به، وهو ما لا يكون لا داخل العالم ولا خارجه، وإن قلتم: رؤيته غير ممكنة، قيل لكم: فحينئذ هو غير محسوس، فلا يقبل فيه حكم الوهم.

فثبت أنَّ رؤية الله - سبحانه وتعالى - مناسبة له، وليست كالرؤية المحمودة للأجسام، هذه الأدلة العقلية يصارع فيها الخصم بالأدلة التي يتقدها، دليلاً بدليلاً؛ دليل عقلي يُرد عليه برد عقلي.

أما أدلتهم الشرعية وشبههم الشرعية فاستدلوا بأدلة منها:

الدليل الأول: قول الله - تعالى -: ﴿لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْكَعْبِ فَإِنْ اتَّخَفَرْتُمْ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَهِجَ رَبُّهُ لِلْكَعْبِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا فَلَمَّا آفَقَ كَلَّ شُبُكَتِكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْغَائِبِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ووجه الاستدلال؛ قالوا: إن الله نفى رؤية موسى له بالن ﴿لَنْ نَرِيكَ﴾ فقال: ﴿لَنْ نَرِيكَ﴾

[الأعراف: ١٤٣] و «لن» تقتضي النفي المؤبد؛ فدل على أن الله لا يُرى في الآخرة.

أجاب أهل الحق عن استدلالهم بأجوبة:

أولاً: نحن لا نوافق أن «لن» تقتضي النفي المؤبد، بل نقول بأن القول بأن لن تقتضي النفي المؤبد قول ضعيف مرجوح عند النحاة وأهل اللغة<sup>(١)</sup>؛ بدليل تحديد الفعل بعدها كما في قول الله - تعالى - : ﴿فَلَنْ أُنَبِّئَ الْاَرَضَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ لِيَ اَنۡبَاُ وَهُوَ حَرٌّ لِّلْكٰفِرِيۡنَ﴾ [نور: ٨٠]، فلو كانت للنفي المؤبد لَمَّا حُدِّدَ الفعل بعدها.

ولهذا قال ابن مالك<sup>(٢)</sup> رحمه الله تعالى- في «ألفيته»:

ومن رأى النفي بلسن مؤبداً فقولهُ اردؤ وسواء فاعضدا يعني: من رأى هذا القول؛ فقلوه ضعيف مردود.

(١) انظر: «معني اللب» لابن هشام (٣٧٤/١).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجبالي الأندلسي المعروف بابن مالك النحوي المالكي ولد سنة ٦٠٠هـ نشأ راعياً في طلب العلوم والفنون، وصرف همه في إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، تصدر بحلب لإقراء العربية، وأرعى على المتقدمين وكان إماماً في الفرائد وعللها صنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها. توفي سنة ٦٧٢هـ في دمشق الشام بعد أن قدم إليها من القاهرة.

من كتبه: الأفعال وتصريفها، ألفية في النحو منظومة، بغية الأريب وغنية الأديب في الأصول، الضرب في معرفة لسان العرب، الفوائد في النحو، قصيدة دالية في القراءات، لامية الأعمال، النظم الأوجز فيما يهزم وما لا يهزم، وغيرها كثير. وهذا البيت في «الكافية الشافية» بشرح ابن مالك (١٥١٥/٣). انظر ترجمته في «البداءة والنهاية» (٢٦٧/١٣)، و«غاية النهاية» لابن الجزري (ص ٣٥٦)، و«الوافي بالوفيات» (٤٤٣/١).

الجواب الثاني: أن (لن) لا تفيد النفي المؤبد، ولا تفيد دوام النفي في الآخرة حتى ولو قيدت بالتأييد؛ فحتى ولو جاء التأييد بعدها؛ فهي لا تفيد دوام النفي المطلق؛ على التأييد، والدليل على ذلك قول الله - تعالى - عن اليهود: ﴿وَلَن يَسْمَنُوهُ اَبَدًا يَمَّا قَدَّمْتُ اَيْدِيَّ وَاللّٰهُ عَلِيۡمٌۭ بَاطِلِيۡنَ﴾ [البقرة: ٩٥]، فأخبر الله عن الكفار أنهم لن يتمنوا الموت بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر، و «لن يتمنوه» قيدت «لن» بالتأييد، ثم أخبر الله عن أهل النار أنهم سيتمنون الموت في الآخرة؛ كما في قوله: ﴿وَكَاذِبًا يَكْتُمُكَ اِيۡقِيۡصَ عَنۡكَا رَدۡكُ﴾ [الحجرات: ٢٧]، فأخبره عن تمنيهم الموت مع قوله: ﴿وَلَن يَسْمَنُوهُ اَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] دليل على أن (لن) لا تفيد دوام النفي في المستقبل، حتى ولو قيدت بالتأييد، فكيف إذا لم تفيد بالتأييد!

الجواب الثالث: أن نقول: إن الآية الكريمة وهي قول الله - تعالى - لموسى: ﴿لَن تَرٰنِي وَلٰكِنۡ اَنۡظُرْ اِلَآ اَلۡجَبَلِۡ فَاِنۡ اَسۡتَوٰى مَّكَانُهُۥ فَسَوٰى رَءۡيِيۡ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ تدل على ثبوت الرؤية في الآخرة من وجوه متعددة:

الوجه الأول: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - سأل ربه الرؤية، ولو كانت الرؤية مستحيلة، وغير ممكنة؛ لما سأله موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو كليم الرحمن، وأعلم الناس بربه في وقته، ومثلّه لا يجهل الجائر في حق الله - تعالى -؛ فلما سأله موسى؛ دلّ على أن الرؤية ممكنة؛ ليست مستحيلة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت الرؤية مستحيلة وغير ممكنة؛ لأنكر الله على موسى سؤاله رؤيته، كما أنكر الله على نوح سؤاله نجاة ابنه، فإن نوحاً - عليه الصلاة والسلام - لما أغرق ابنه الكافر نادى ربه؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ كُوۡنَ رَبُّكَ فَقَالَ رَبِّ اِنِّ اَتٰنِيۡ مِنْ اٰهْلِ وَاِلَآ وَعَدَكَ اَلۡحَقُّ وَاَنْتَ

أَكْمَرُ الْمَكِينِ ﴿٤٥﴾ (مُحَمَّد: ٤٥) [سورة هود آية: ٤٥]، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿قَالَ يَبْنُوهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُخْشَى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (مُحَمَّد: ٤٦)، فَلَوْ كَانَتْ الرَّوْيَةُ غَيْرَ جَائِزَةٍ؛ لَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى سُؤَالَهُ، كَمَا أَنْكَرَ عَلَى نُوحٍ سُؤَالَهُ نَجَاجَةِ ابْنِهِ، لَكِنْ اللَّهُ لَمْ يَنْكَرْ عَلَى مُوسَى سُؤَالَهُ؛ فَذَلَّ عَلَى جَوَازِهَا .

الوجه الثالث: أن الله - تعالى - أجاب موسى بما يدل على جواز الرؤية، ولم يجبه بما يدل على نفيها، ولو كانت الرؤية غير جائزة لأجاب الله موسى بما يدل على نفي الرؤية واستحالتها، فقال له: «إني لا أرى» أو: «لا تمكن رؤيتي»، أو: «لست بمريء»، وإنما أجابه فقال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأنعام: ١٤٣]، والفرق بين الجوابين ظاهر.

الوجه الرابع: أن الله لم يعلق الرؤية بشيء مستحيل؛ كالأكل، والشرب، والنوم؛ لأن الأكل، والشرب، والنوم؛ مستحيل على الله، وإنما علقه بشيء ممكن، وهو استقرار الجبل فقال: الله لموسى: ﴿لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأنعام: ١٤٣]، فالله قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا، فلم يعلقه بشيء مستحيل، كالأكل، والشرب، والنوم، وإنما علقه بشيء ممكن، وهو استقرار الجبل، فلو كانت محالًا، لكان نظيره أن يقول: إن استقرَّ الجبل؛ فسوف أكل، وأشرب، وأنام .

الخامس: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - لم يستطيع رؤية الله - تعالى - في الدنيا؛ لضعف القوة البشرية عن تحمّل ذلك، فإذا كان يوم القيامة نشأ الله المؤمنين نشأة قوية يستطيعون بها الكيوت لرؤيته - سبحانه وتعالى - .

السادس: أن الله تجلّى للجبل وهو جمادى، ولا ثواب له ولا عقاب عليه، فلتن يتجلّى الله لرسله وأوليائه وعباده المؤمنين في دار كرامته؛ من باب أولى .

السابع: أن الله نادى موسى وناجاه، وكلمه، ومن جاز عليه التكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه؛ جاز عليه رؤيته في الآخرة من باب أولى .

الثامن: أن رؤية الله نعيم، وهو أعظم نعيم كما جاء في الحديث، والنعيم يكون لأهل الجنة ولا يكون لأهل الدنيا؛ فلذلك مُنِعَ موسى من رؤية الله؛ فإذا كشف الله - سبحانه وتعالى - الحجاب ورآه المؤمنون، نسوا ما هم فيه من لذة، فلذلك نفى الله رؤية موسى له في الدنيا.

وبهذا يطل استدلال نفاة الرؤية بهذه الآية الكريمة .

الدليل الثاني: استدلوا بقول الله - تعالى - : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٢٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وجه الاستدلال:

قالوا: إن الله نفى إدراك الأبصار له؛ فدل على أن الله لا يرى في الآخرة، وهذا نفى للرؤية، وأجيب بجوابين:

الجواب الأول: أن الله نفى الإدراك، ولم ينفي الرؤية؛ والإدراك قُدْرٌ زائد على الرؤية وهو أخص من الرؤية، فالرؤية أعم، ونفي الأخص لا يدل على نفي الأعم، فالله نفى الإدراك ولم ينفي الرؤية؛ فَفَرَّقَ بين الرؤية وبين الإدراك؛ فالرؤية أعم من الإدراك، والإدراك أخص، ونفي الأخص لا يدل على نفي الأعم - كما سبق -، فأنت ترى السماء لكن لا تحيط بها رؤية، وترى البستان الواسع لكن لا تحيط به رؤية، وترى الجبل ولا

تحيط به رؤية، وترى المدينة ولا تحيط بها

فإذا كان الإنسان يرى بعض المخلوقات ولا يحيط بها رؤية، فكيف يحيط بالله - سبحانه وتعالى -؟ فالله - تعالى - يرى ولا يحاط به رؤية، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً - سبحانه وتعالى -؛ لكمال عظمته، وكونه أكبر من كل شيء .

والدليل على أن نفي الرؤية غير نفي الإدراك، ما أخبر الله - سبحانه وتعالى - عن موسى - عليه الصلاة والسلام - حينما سار بالجيش وتبعه فرعون وقومه كما في قوله: ﴿وَلَحِيجًا إِلَى مُوسَى أَنَّ أَشْرَ يَبَايَئُ إِلَّاكَرَ مُتَّبِعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، فسرى موسى بالجيش وتبعه فرعون بجيشه، فلما تراءى الجمعان قال الله: ﴿قَالَ أَمْحَبْتُ مُوسَىٰ إِيَّاكَ لَتَذْكُرَنَّ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، فلما تراءى رَفَى سَبَّيْنِ ﴿[الشعراء: ٦٢-٦١]، فالرؤية ثابتة بقوله: «فلما تراءى الجمعان»؛ والجمعان هما: الجيشان: الجمع الذي يقوده موسى؛ والجمع الذي يقوده فرعون: تراءى، أي: رأى بعضهم الآخر؛ فهذا ثبوت الرؤية وقوله: ﴿قَالَ أَمْحَبْتُ مُوسَىٰ إِيَّاكَ لَتَذْكُرَنَّ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ أي: لمحاط ببناء، فنفى موسى الإدراك فقال: كلا لستم بمدركين: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَفَى سَبَّيْنِ﴾ [الشعراء: ٦٢] .

يعنى: يقول قوم موسى - عليه الصلاة والسلام لموسى-: ﴿إِنَّا لَنَذْكُرَنَّ﴾ [الشعراء: ٦١]، وسوف يحيط بنا فرعون فماذا نفعل؟! البحر أمامنا؛ فإن خضناه: غرقنا، وفرعون وجيشه خلفنا؛ فإن وقفنا: أدرنا، فماذا نفعل؟ ﴿إِنَّا لَنَذْكُرَنَّ﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال موسى «كلا» لستم بمدركين: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَفَى سَبَّيْنِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فَأَمَرَ الله موسى فضرب البحر بعصاه، فصار يبساً في الحال؛ اثني عشر طريقاً، فسلكه موسى

وقومه، وتبعه فرعون وقومه، فلما خرج موسى من الجهة الثانية وتكامل جيش فرعون، أمر الله البحر أن ينطبق عليهم، وأن يعود إلى حالته، والقصة معروفة. إذاً: فالرؤية ثابتة؛ لأنَّ الجمعَيْن قد تراءى، مع أن موسى نفى الإدراك؛ فدلَّ على أن الإدراك قدر زائد على الرؤية، وهو الإحاطة، فالله - تعالى - يرى ولكن لا يحاط به رؤية؛ لكمال عظمته؛ وكونه أكبر من كل شيء .

الجواب الثاني: أن الآية سيقَّت مساق المدح، والمدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، أو بالنفي الذي يتضمن إثبات ضده من الكمال؛ لا بالنفي المحض، فالله أثبت على نفسه بأنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فالآية سيقَّت مساق المدح، والمدح إنما يكون بشيئين:

الأول: الصفات الثبوتية؛ كما يمدح نفسه بأنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً .

والثاني: النفي الذي يتضمن إثبات ضده من الكمال؛ كنفي السَّنة والنوم؛ لكمال قيوامته؛ قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فهذا نفي، لكنه يتضمن إثبات ضده من كمال حياته وقيوامته؛ وقوله: ﴿وَلَا يَأْخُذُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا يحجزه شيء لكمال قوته، واقتداره، وقوله: ﴿وَوَكَّلْنَا عَلَىٰ آلَيْهِ لَا يَمُوتُ﴾ [الشعراء: ٢٥٨]، فنفى الموت لكمال حياته، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَطْلُبُ رَبِّكَ أَمْكًا﴾ [الكهف: ٢٤٩]، فنفى الظلم عن نفسه لكمال عدله، ونفى الولد والشريك والصاحبة؛ لكمال ربوبيته، وقوله: ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُ مَقَالٌ ذَرَّةٌ فِي الْأَسْوَكَتِ وَلَا فِي الْأَنْفُسِ﴾ [سجدة: ١٣]، أي: لكمال علمه، فكذلك قوله في هذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ فلكمال عظمته، وكونه أكبر من كل شيء .

فالكمال إنما يكون بالنفي الذي يتضمن إثبات ضده من الكمال، كما في هذه الآيات، أو يكون بالصفات البتوتية .

أما النفي المحض؛ الصرف: فهذا لا يكون كاملاً؛ لأن المعلوم يوصف بالنفي الصرف المحض، والمعلوم لا يُمدح، فلو كان المراد من الآية نفي الروية فقط؛ لما كان ذلك كاملاً، ولَمَّا كان مدحاً؛ فلو قيل: معنى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (النجم: ١٠٣)؛ لا تراه العيون؛ لم يكن في هذا مدح؛ لأن المعلوم لا يُرى، فما فائدة هذا النفي؟! ولكن إنما يكون كاملاً إذا تضمن إثبات ضده من الكمال؛ وهو إثبات الروية ونفي الإدراك، والمعنى: تراه الأبصار ولكن لا تحيط به، ولا تدركه؛ لكمال عظمتها، ولكونه أكبر من كل شيء - سبحانه وتعالى -، فتبين أن الآية تدل على إثبات الروية، ولكن المنفي هو الإدراك .

الدليل الثالث: استدلووا بقول الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَبُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥)، ويقول تعالى: ﴿يُنْزِلُكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء: ١٥٣).

واستدلووا أيضاً بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّوْا أُولَٰئِكَ خَلَقَتْهُمْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (الفرقان: ٢٣).

قالوا: وجه الدلالة من هذه الآيات: أن الله - تعالى - أنكر على هؤلاء حينما سألوهم رؤية الله وذمهم وعاقبهم بالصاعقة والصيحة؛ لظلمهم؛ فدل على أن الله لا يُرى في الآخرة، فلو كان الله يرى؛ لما أنكر على

هؤلاء الذين طلبوا رؤيته، وَلَمَّا ذمهم وعاقبهم بالصاعقة، كما في الآيات السابقة، فدل على أن الله لا يُرى في الآخرة؛ هذا وجه استدلالهم بهذه الآيات .

والجواب: أن يقال: إن هؤلاء القوم، إنما ذمهم الله وعاقبهم وأنكر عليهم؛ لأنهم سألوهم شيئاً ممنوعاً؛ سألوهم رؤية الله في الدنيا؛ إلحافاً في السؤال، فذمهم الله وأنكر عليهم، وعاقبهم بالصاعقة .

لكن لو سألوهم رؤية الله في الآخرة لَمَّا ذمهم الله، فإن الصحابة - رضوان الله عليهم - سألو النبي ﷺ رؤية الله في الآخرة فقالوا: «هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صُحُورًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»<sup>(١)</sup>، فلما سألوهم رؤية الله في الآخرة أثبت الروية، وبشرهم بذلك بشرى حسنة، وهي أنهم يرون الله في الآخرة، لكن أولئك الذين أنكر الله عليهم وذمهم وعاقبهم بالصاعقة؛ فلأنهم سألوهم شيئاً ممنوعاً في الدنيا .

نتنقل بعد ذلك إلى حكم رؤية الله في الدنيا: هل رؤية الله في الدنيا ممكنة؟ أو غير ممكنة؟ وهل هي واقعة؟ أو غير واقعة؟ هذا التحرير محل النزاع:

أولاً: اتفقت جميع الطوائف على أن الله يُرى في المنام كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٢)</sup>، إلا الجهمية فإنهم أنكروا ذلك لشدة إنكارهم للروية، لكن رؤيته في المنام جائزة عند جميع الطوائف، ولا يلزم من ذلك أن يراه الإنسان على صفته التي هو عليها، بل إن رؤية الإنسان لله في

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه.

(٢) انظر: «بيان تلبس الجهمية» ابن قاسم (١/ ٧٢-٧٣).



المنام على حسب اعتقاده، فإن كان اعتقاده صحيحاً رأى ربه في صورة حسنة، وإن كان اعتقاده فيه خلل رأى ربه في صورة مناسبة لاعتقاده. كما قال ذلك أبو العباس ابن تيمية رحمته.

أما رؤية الله في الدنيا في البقعة فهذا محل نزاع:

فذهبت المشبهة إلى أن الله يرى في الدنيا، وأنه يُحَاصِرُ ويُسَاسِرُ ويُصَاحُّ ويَعَانِقُ وينزل عشيّة عرفة على جَمَلٍ - قبحهم الله وأزاهم -، فهؤلاء المشبهة من غلاة الشيعة، وهم كفرة يقولون: إن الله على صورة الإنسان، وإن الله يشبه الإنسان في ذاته وصفاته - قبحهم الله - .

كذلك بعض الصوفية<sup>(١)</sup> قالوا: يمكن أن يكون الله في الخضرة، فإذا رأيت شيئاً أخضر، قالوا: لا ندري لعل ربنا يكون في هذه الخضرة - قبحهم الله - .

أما ما عدا المشبهة فأجمعت الأمة على أن الله - تعالى - لا يراه أحد في الدنيا، ولم يختلفوا في ذلك، إلا في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فاختلَفوا في رؤيته لربه ليلة المعراج هل رأى ربه؟ أو لم ير ربه؟

واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه في الأرض؛ هذا بالإجماع، واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين قلبه لا بعين رأسه، والمراد بالرؤية

(١) سموا بذلك نسبة إلى اللبسة الظاهرة وهي الصوف غالباً. ولقد مرّ التصوف بعدة مراحل، فقد كان في أوله زهداً في الدنيا وانقطاعاً لعبادة الله - عز وجل -، ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة، ثم صار إلحاداً وخروجاً عن دين الله؛ فقالوا بالحلول، ووحدة الوجود، وإباحة المحرمات، وترك الواجبات، وعلم الباطن. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين» (٨٧، ١١٥)، و«المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين» وهو في الهامش (١١٢، ١٣٠).

بعين القلب: العلم الزائد عن العلم العادي .

والخلاف بين العلماء في رؤية النبي لربه بعيني رأسه ليلة المعراج في السماء، هل رآه؟ أو لم يره؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج خاصة .

وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنه<sup>(١)</sup> وأصحابه، وهي رواية عن الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> رحمته، واختار هذا القول النووي في «شرح صحيح مسلم»<sup>(٣)</sup>، وأبو الحسن الأشعري وأتباعه<sup>(٤)</sup>، واختاره الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد<sup>(٥)</sup>، واختاره أبو إسماعيل الهروي<sup>(٦)</sup>، وكل هؤلاء رأوا

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٥٣٩)، والحاكم في «المستدرک» (١/١٣٣)، و(٥٠٩/٢) تحقيق: مصطفى عبدالقادر، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٩٢/١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٧٢)، وصححه الحافظ في «الفتح» (٦٠٨/٨)، والحاكم في «المستدرک» - كما في المواضيع المشار إليها -، والألباني، ولكنه ليس صريحاً في رؤية العين. وجاء مثله عن أنس عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦٠١٤)، لكن في سنده رشدين بن سعد، وهو سيء الحفظ. ورؤي بلفظ آخر عند الترمذي (٣٢٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٣٧)، وقال: «فيه كلام». وضعفه الألباني، وليس صريحاً أيضاً.

(٢) انظر: الروايتين والوجهين للقاضي أبي يعلى «مسائل في أصول الديانات» (ص ٦٣-٦٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٩/٣).

(٤) انظر: «شرح جوهرة التوحيد» (ص ١١٨).

(٥) «كتاب التوحيد» لابن خزيمة (٢/٤٧٧-٥٢٢).

(٦) هو عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري، أبو إسماعيل. كان يُدعى شيخ الإسلام، وكان إمام أهل السنة بهراة، ويسمى خطيب العجم؛ لتبحر علمه وفصاحته وتبله. توفي سنة ٤٨١هـ. انظر: «طبقات الخبائبة» (٢/٢٤٧، ٢٤٨)، و«الذليل» لابن رجب (١/٥٠-٦٨)، و«الأعلام» (٤/٢٧٧). وانظر اختياره بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه في كتابه «الأربعين في دلائل التوحيد» (٨١).

أن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه<sup>(١)</sup> ليلة المعراج.

واستدلوا بقول الله - تعالى -: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أُنْزِلَتْ بِهِ حَبَابُهُ يُنْزِلُ السَّحَابَ إِلَى السَّجْدِ أَفْصَحَ الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِيُرِيَهُ مِنْ مَلَكُوتِهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وروي عن ابن عباس ؓ أنها رؤية عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به<sup>(٢)</sup>، ذكر ذلك الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد، وغيره .

القول الثاني: أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه ليلة المعراج وإنما رآه بعين قلبه، وهذا مروى عن عائشة ؓ فإنها قالت لمسروق لما سأله: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قالت: لقد فُتِّ شُعْري مما قلت، ثم قالت: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَّبَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٨)، و(٤٧١٦)، و(٦٦١٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/٣٨٠)، والطبري في «التفسير» (١١٠/١٥)، والترمذي في «السنن» (٣١٣٤)، وأحمد في «المسند» (٢٢١/١)، والحاكم في «المستدرک» (٣٩٤/٢)، تحقيق: مصطفى عبد القادر، وابن حبان في «الصحیح» (٥٦)، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (٤٩٣/٢)، والهروي في «الأربعين» (ص ٨١-٨٣) من طريق ابن خزيمة.

فائدة: قال الحافظ في «الفتح» (٣٩٨/٨-٣٩٩): «واستدل به على إطلاق لفظ الرؤيا على ما يُرى بالعين في اليقظة. وقد أنكره الحريري تبعا لغيره وقالوا: إنما يقال: رؤيا في المنام، وأما التي في اليقظة، فيقال: رؤية. ومن استعمل الرؤيا في اليقظة التَّسَنُّي في قوله: رؤياك أحلى في العيون من الغمض. وهذا التفسير يرد على مَنْ خَطَأَهُ».

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) واللفظ له.

وفي رواية أنها قالت: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَغْطَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ»<sup>(١)</sup>.

وهذا مروى أيضا عن ابن مسعود<sup>(٢)</sup> وعن أبي هريرة<sup>(٣)</sup>، واختلف فيه جماعة من الصحابة والتابعين، وهو قول كثير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، بل هو قول جمهور العلماء، وهو الصواب<sup>(٤)</sup> كما سيأتي .

واستدلوا على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعين رأسه بأدلة:

الدليل الأول: قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِيهِ مَا يَسْكُرُهُ اللَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١]، فهذه الآية فيها بيان أنواع الوحي، وأن الله - تعالى - إذا كلم الرسول فاما أن يكون ذلك وحيا يُلْقَى في روعه، أو يرسل رسولا، أو يكون التكليم من وراء حجاب؛ كما كلم الله موسى من وراء حجاب، وكما كلم محمدا ﷺ من وراء حجاب أيضا؛ قال تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِيهِ مَا يَسْكُرُهُ﴾ [الشورى: ٥١]، فقول الله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ [الشورى: ٥١] لفظ عام؛ يدخل في ذلك محمد ﷺ؛

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٤) إلى قوله: «فقد أغطم»، وأخرجه بنحوه في مواضع متفرقة من الصحيح، لكن السياق يتشابه عند مسلم في الصحيح (١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، و(٤٨٥٦)، و(٤٨٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٥).

(٤) انظر: «مجموع النوازل» (٢/٣٣٦)، و(٥١٠-٥٠٧/٦)، و«منهاج السنة» (٥/٣٨٧-٣٨٨)، والتنبیان في أقسام القرآن؛ لابن القيم (١٦٠)، و(١٦١)، و«دره المعارض» (٤١-٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/٤٢٢)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/٢٢٢، ٢٧٥)، و«فتح الباري» (٨/٤٧٤)، و«الواعظ الأنوار» (٢/٢٥٠-٢٥٦).

لأنه بشر، فيشمله قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [النسبي: ٥١]، فيكون محجوباً عن رؤية الله؛ كلمه الله بدون واسطة؛ فسمع كلام الله، وفرض الله عليه الصلوات خمسين صلاة في اليوم والليلة، ثم خففها الله إلى خمس صلوات.

فالله تعالى إذن: كلم محمد ﷺ ليلة المعراج؛ من وراء حجاب، ولم يكشف له الحجاب حتى يراه، وإنما كلمه من وراء حجاب.

الدليل الثاني: ما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي ذر ﷺ أنه سأل النبي ﷺ فقال: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟» فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «نُورٌ أَتَى أَرَاهُ؟»<sup>(١)</sup>؛ و«أَتَى» اسم استفهام بمعنى «كيف». والمعنى: نوراً! كيف أراه؟ وهذا يعني: أن النور حجاب متعني من رؤية الله.

الدليل الثالث: ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنَامُ وَلَا يَبْتَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقَنَظَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية: «النَّارُ»، والمعنى واحد؛ فالنار بمعنى النور، قال: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ سُبُحَاتٍ وَجْهًا مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»؛ ومحمد ﷺ من خلقه.

فهذه أدلة على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه في ليلة المعراج؛ لأن الحجاب منعه من رؤية الله؛ لأنه احتجب عن جميع خلقه بالنور، ولأنه لو كشف الحجاب، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهذا يشمل النبي ﷺ، وغيره.

(١) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩).

وأما أهل القول الثالث: الذين توفقوا فقالوا: لا نقول: إن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، ولا نقول: إنه لم يره، وهذا رأي القرطبي<sup>(١)</sup> والقاضي عياض<sup>(٢)</sup> وغيرهما، قالوا: لأن الأدلة متكافة، فليس في المسألة دليل قاطع، فما استدل به هؤلاء وما استدل به هؤلاء ظواهر قابلة للتأويل؛ فلذلك توفقوا في المسألة.

والصواب في المسألة: مع أصحاب القول الثاني وهم القائلون: بأن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه؛ لأن الأدلة التي استدلوا بها صريحة واضحة، وكون القاضي عياض والقرطبي لم يتبين لهم هذه الأدلة، فهذا يدل على تفاوت الناس في الأفهام، ولكن هذا قد يتبين لغيرهم فقول الله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [النسبي: ٥١] صريح في أن النبي ﷺ إنما كلمه الله من وراء حجاب.

وكذلك حديث أبي موسى الأشعري: «حِجَابُهُ النُّورُ»<sup>(٣)</sup>، أو «النَّارُ»، وحديث أبي ذر: «رَأَيْتُ نُورًا»<sup>(٤)</sup>؛ صريح الدلالة في أن النبي ﷺ محجوب عن ربه بالنور، وأن الله احتجب عن جميع خلقه، ومنهم محمد ﷺ، وأن أي مخلوق لا يثبت لرؤية الله في الدنيا، وذلك لأن الرؤية نعيم فلا تكون إلا لأهل الجنة؛ فلا تكون للأنبياء، ولا لغيرهم، فالإنسان لا يستطيع أن يثبت لرؤية الشمس وهي مخلوقة؛ فكيف يستطيع البشر أن يرى الله؟!!

(١) انظر توفقه عن القول بأن محمداً ﷺ رأى ربه بعيني رأسه في «تفسيره» (٥٥/٧)، (٥٦).

(٢) انظر توفقه عن القول بأن محمداً ﷺ رأى ربه بعيني رأسه في كتابه «الشفاء» (ص ١٩٥-٢٠٢).

(٣) سبق قبل قليل، وهو من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) سبق تخريجه قبل قليل.

ولهذا لما اقترح المشركون أن يكون الرسول من الملائكة أخبر الله أن هذا لا يكون، وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَكَلِّمْنَا لَوْلَا أَرْبَلٌ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَكَوْزَلْنَا مَلَكًا لَقُيْتُ الْأَنْزَلُ﴾ (الأنعام: ٢٨)، يعني: لماتوا، وقال تعالى: ﴿وَكَلِّمْنَا مَلَكًا لَقُيْتُ لَوْلَا﴾ (الأنعام: ٢٩)، فيمكن لكم مقارنته والأخذ عنه. فإذا كان البشر لا يستطيعون أن يروا المَلَك على الصورة التي خُلِقَ عليها، فكيف يستطيعون أن يروا الله؟ لكن النبي ﷺ ثبت الله حينما رأى جبريل في أول بعثه على الصورة التي خُلِقَ عليها، وجاء برجف فؤاده إلى زوجته وقال: «غَشِيْتُ عَلَى نَفْسِي»، فإذا كان البشر لا يستطيعون أن يروا الملك، وهو مخلوق، فكيف يستطيعون أن يروا الله؟!

ومن الأدلة على أن النبي ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج يعني رأسه قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلْفَ رَبِّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (الاسراء: ٩٠)، وقوله: ﴿فَتَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ﴾ (التنظيم: ١٢)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أَمْرِ﴾ (التنظيم: ١٣)، فالله أخبر أنه رأى الآيات ورأى جبريل، ولو كان الله أراه نفسه لكان ذكر ذلك أهم وأولى من ذكر الآيات، فالله - تعالى - أخبر أنه «الَّذِي أَمَرَ بِمَنْبُوتِهِ، فَلَمَّا رَأَى أَمْرَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِرَبِّهِ مِنْ مَلَكَيْنَا» (الاسراء: ٩١)؛ فهذه رؤية الآيات، وقال: ﴿فَتَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ﴾ (التنظيم: ١٢)؛ أي: من الآيات، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أَمْرِ﴾ (التنظيم: ١٣)، أي: جبريل. فلما نَوَّه الله على رؤيته للآيات ورؤيته لجبريل، دل على أنه لم يره نفسه.

أما ما روي عن ابن عباس رضيه الله عنه، وما روي عن الإمام أحمد بن حنبل في هذا الباب فإن الروايات التي رويت عن ابن عباس مطلق بعضها وبعضها مقيد، فما روي عن ابن عباس أنه قال: «رأه»، وفي رواية: «رأه بفؤاده»، فيحمل المطلق على المقيد، وكذلك ما روي عن الإمام أحمد

ﷺ فإنه تارة يطلق الرواية بـ«رأه»، وتارة يقول: «رأه بفؤاده»، فيحمل المطلق على المقيد، وليس هناك رواية عن ابن عباس، وعن الإمام أحمد صريحة بأن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وإنما الروايات إما مطلقة برأه، أو مقيدة برؤية الفؤاد، ففي رواية: «رأه بفؤاده».

وكذلك ما ورد عن السلف وعن العلماء من الروايات بأن النبي ﷺ رآه: فهي محمولة على رؤية القلب والفؤاد، وما ورد عن الصحابة وعن السلف والعلماء والأئمة من الروايات بأن النبي ﷺ لم ير ربه، فهي محمولة على أنه لم ير ربه بعين رأسه، وهذا هو الصواب، وهو الذي عليه المحققون، وبذلك تجتمع الأدلة والآثار ولا تختلف، كما بين ذلك أهل التحقيق، كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى - والله الموفق للصواب<sup>(١)</sup>.

مسألة - ورد الحديث: «فَأَسْتَحْيَا فَأَسْتَحْيَا اللَّهُ مَنَّهُ»<sup>(٢)</sup>، وورد في الحديث الآخر: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>، فهل يوصف الله بالحياء والغيرة أم لا؟

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣٥/٢، ٣٣٦، ٣٣٧)، (٥١٠-٥٠٧/٦)، و«مهاج السنة» (٥/ ٣٨٤-٣٨٧)، والتبيان في أقسام القرآن: لابن القيم (١٦٠، ١٦١).

قال شيخ الإسلام في «جامع المسائل» (١٠٥/١): «أما رؤية النبي ﷺ ربه بعين رأسه في الدنيا فهذا لم يثبت عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة، ولا عن أحد من الأئمة المشهورين، لا أحمد بن حنبل ولا غيره...»، وينظر بقية كلامه إلى (ص ١٠٧) فإنه مهم جدًا.

وقال الشافعي في «أضواء البيان» (١٠١/٣): «التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع: أنه ﷺ لم يره بعين رأسه. وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه؛ فالمراد به الرؤية بالقلب. كما في صحيح مسلم: «أنه رآه بفؤاده مرتين» لا بعين الرأس».

(٢) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الجواب: نعم يوصف الله بالحياة قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ دَلِيلَكُمْ صَكَّانَ يُؤْذِي النَّاسَ فَيَسْتَعْتِبُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعْتِبُ مِنْ أَحَدٍ﴾ [الاحزاب: ٥٣]، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَعْتِبُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا يَوْضَعُ كَمَا قَوَّيْهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، وفي الحديث: «فَأَسْتَحْيَا فَاَسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>، وهو من الصفات التي تليق بالله - عز وجل - ولا يماثل فيها أحدًا من صفاته كسائر الصفات، ولا يلزم منه ما يلزم من حياة المخلوق، وكذلك الغيرة من الأوصاف الفعلية؛ قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغَيْرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغَيْرُ مِنِّي»<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث الآخر: «لَا أَخَذَ أَغْيَرٌ مِنْ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»<sup>(٣)</sup>، فهذا فيه إثبات الغيرة لله كما يليق بجلاله وعظمته، فالله تعالى يوصف بالغيرة كسائر الصفات الفعلية؛ مثل الغضب، والرضا، والسخط، والمحبة، والكراهية، والحياة؛ كلها صفات تليق بجلال الله وعظمته، وهي صفات كاملة ليس فيها نقص، ولا يماثل فيها أحدًا من خلقه - سبحانه وتعالى - .

مسألة: هل يصح التسمي بـ(عبد المنعم، وعبد المحسن، وعبد الناصر)؟

الجواب: إذا ثبت أنه اسم من أسماء الله فيجوز، فـ«عبد المحسن» ثابت ولا يزال الأئمة والعلماء يعيدون له، وكذلك «المنعم» يغلب على الظن أنه ثابت، أما «الناصر» فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦)، من حديث أبي وأند الليثي ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، واللفظ له. ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة ؓ.

(٣) هو بعض ألفاظ الحديث الذي تقدم تخريجه.

الكثيرين» [ال عمران: ١٥٠]، ولكنه يحتاج إلى تأمل؛ هل هو من أسماء الله أو لا.

مسألة: ما الفرق بين الاعتقاد واليقين؟ وهل لو عبر أهل السنة بقولهم: «اليقين» لكان أولى؛ لأن الاعتقاد فيه شيء من عدم الثبوت؟

الجواب: الاعتقاد يفيد اليقين، والاعتقاد من العقد والربط، ومنه عقد البيع، ويطلق على التصديق الجازم، لكن إذا كان هذا الاعتقاد موافقًا للحق؛ فهو اعتقاد صحيح، وإذا كان باطلاً؛ فهو اعتقاد باطل؛ مثل يقين اليهود والنصارى على ما هم عليه، ويقين أهل البدع على ما هم عليه أنه يقين، أما اعتقاد أهل الحق فهو اعتقاد صحيح، والاعتقاد ليس ظناً إنما هو يقين.

مسألة: هل يرى الملائكة يوم القيامة؟

الجواب: إذا كان الله تعالى -وهو أعظم- يرى، فالملائكة من باب أولى؛ قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [سورة الحديد: ٢٤-٢٣]، فكيف يدخلون عليهم وهم لا يرونهم؟! فظاهر الأدلة أنهم يرونهم، ورؤية الله أعظم نعم يرضاه أهل الجنة، أما رؤية الملك فدون ذلك بكثير .

مسألة: ما رأيكم في وصف الله بالحمية فيقال: إن الله حمية على عباده المؤمنين؟

الجواب: القاعدة عند أهل السنة والجماعة أن الأسماء الصفات توقيفية؛ فليس لنا أن نسمي الله بأسماء مخترعة من عند أنفسنا وكذلك الصفات، فلا يقال: إن من صفات الله الحمية إلا بدليل، ولا أذكر أن الله وصف نفسه أو وصفه رسوله ﷺ بالحمية .

مسألة: قد يقول قائل بالنسبة لرؤية الرب - سبحانه - دفاعاً عن الزمخشري في كتاب «الكشاف»: إن دخول الجنة يتضمن رؤية الرب، وبذلك فإن أقصى ما يتمناه العبد دخول الجنة؛ لأن بحصوله يرى الرب؟

الجواب: معروف عن الزمخشري أنه معتزلي وأنه ينفي الرؤية ويدافع عن ذلك بشدة؛ ولهذا قال البلقيني: استخرجت منه اعتزالاً بالمناقش؛ لأنها أشياء خفية؛ فمنها أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِيَ عَنِ الْكَوْثَرِ وَأُذِلَّ الْجَنَّةُ فَقَدْ فَازَ﴾ [١٧٥] قال: أي فوز أعظم من الجنة؟ وقصد بذلك: إنكار الرؤية، وهو معروف عنه فإذا حُسم كلامه بعضه إلى بعض وبيّن أنه من نفاة الرؤية .

مسألة: سبق أن الصفات لها نظران؛ النظر إلى المعنى: وهذا يثبت به أهل السنة والجماعة، والنظر الثاني: الكيفية: وهذه يفوضونها، وبناء على ذلك فكيف يحمل قول الإمام الطحاوي: «فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ»؟

الجواب: هو يعني: أن من وصف الله بصفات البشر، التي هي من خصائصهم بأن قال: إن صفات الله كصفات البشر، أو قال: إن الله كالbشر، أو قال: إن الله كالbشر في الحاجة، أو في غير ذلك -فمن خصائص البشر الفقر، والحاجة، والنقص في صفاتهم وأعمالهم- فمن قال ذلك: كفر؛ لأن الله كامل في ذاته وصفاته، ولا يوصف بنقص البشر .

مسألة: أليس ما قرئناه سابقاً: أن الله بصفات ثابتة ولو كانت صفات للمخلوقين كالعلم والقدرة، ن الممحذو هو عدم تفويض الكيفية؟ فكيف التوفيق بين ما قرئناه سابقاً وبين قول الإمام الطحاوي؟

الجواب: إن الصفات المشتركة مثل العلم ثابتة للخالق والمخلوق لكن

من دون مشابهة أو مماثلة، فمقصود الطحاوي: من قال إن علم الله مثل علم المخلوق، وأما من قال: إن الله يوصف بالعلم والمخلوق يوصف بالعلم، فللخالق علمه يخصه وللمخلوق علمه يخصه؛ فلا إشكال في ذلك.

مسألة: ما الضابط للتأويل الذي يدرأ به التكفير عن المبتدعة؛ لاسيما وأن أكثرهم يكون معتمداً على أدلة أو شبهة؟

الجواب: المقصود أن يكون عنده شبهة؛ فلا يكون جاحداً، أما من جحد الصفات: فهذا يكفر، وأما من كانت له شبهة فإنه يدرأ عنه التكفير بالشبهة، وقد يكفر لكن بالعموم مثلما كثر السلف القائلين بخلق القرآن، على جهة العموم فقالوا: من قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر -والمعتزلة يقولون: إن القرآن مخلوق- أما الشخص المعلن فهذا لا يكفر حتى تقام عليه الحجة؛ فيُبين ويوضح له الحق، فإن أصر يحكم بكفره بعد ذلك .

مسألة: سبق أن أجبتم عن سؤال من قال للميت: ادع الله لي فقلتم: إن فيه قولاً قوياً أنه شرك أكبر؛ فلمَ لم تجزموا بأنه شرك أكبر؟

الجواب: هذا؛ لأنه ما دعا الميت وطلب منه المدد، أو طلب منه الاستغاثة، إنما طلب منه شيئاً يخصه، وهذا فيه كلام لشيخ الإسلام وفيه كلام لبعضهم، والأقرب أنه شرك أكبر؛ إذا كان يدعو الميت وهو عظام رميم مثل لو قال: يا فلان اشفع لي عند ربك، كذلك إذا قال: أعطني كذا أو كذا، فالأقرب عندي أن الحكم واحد، لكن المسألة بحاجة إلى تحرير أكثر حتى يمكن أن نجزم بأحد الخُكْمَيْنِ .

مسألة: ما المقصود بالإمامية المتقدمين والإمامية المتأخرين مع التمثيل - أتابكم الله -؟

الجواب: الإمامية هم الرافضة، ولهم أسماء غير ذلك؛ فيقال لهم

«الرافضة»؛ لأنهم رفضوا زيد بن علي حينما سأله عن أبي بكر وعمر فقال: هما وزيرا جدي رسول الله، فرفضوه فسموا بالرافضة، وسموا «الإمامية»؛ لأنهم يقولون: بإمامة اثني عشر إماماً منصوب عليهم؛ معصومين؛ من سلالة علي بن أبي طالب، وهم:

- علي بن أبي طالب.
- ثم الحسن بن علي.
- ثم الحسين بن علي.
- ثم علي بن الحسين زين العابدين.
- ثم محمد بن علي الباقر.
- ثم جعفر بن محمد الصادق.
- ثم موسى بن جعفر الكاظم.
- ثم علي بن موسى الرضا.
- ثم محمد بن علي الجواد.
- ثم علي بن محمد الهادي.
- ثم الحسن بن علي العسكري.

ثم محمد بن الحسن المهدي المنتظر الذي دخل سرداب سامراء بالعراق سنة ستين ومائتين ولم يخرج إلى الآن، وهي شخصية وهمية؛ لا وجود لها إلا في خيال الشيعة.

قال شيخ الإسلام: مضى عليه أربع مائة سنة، ونحن نقول: مضى عليه في زماننا الآن ألف ومائتا سنة، ولم يخرج.

فالمقدمون من الإمامية - جمهورهم - يثبتون الرؤية، والمتأخرون

ينفوها .

مسألة: هلا أوضحتم الفرق بين ابن عربي وابن العربي الأشبيلي لما في ذلك من اللبس؟

الجواب: ابن عربي محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائفي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨هـ، صاحب «الفصوص»، و«الفتوحات المكية»، - بدون «أل» - هذا رئيس وحدة الوجود، وقُدُّوْهُمْ؛ زَنَدَقَةُ علماء عصره، وعملوا على إراقة دمه، وأخباره معروفة .

أما أبو بكر: محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي: ابن العربي - المَعْرُوفُ بـ: «أل» - فمقدم الوفاة عن الأول؛ توفي سنة ٥٤٣هـ، وولادته بإشبيلية، وهو من حفاظ الحديث، وقد ولي القضاء، وله مصنفات مشهورة، منها: «عارضة الأحوذى في شرح الترمذي»، و«أحكام القرآن» و«المواصم من القواصم» وغيرها وكان عَظَمَةُ أشعرى، وقد نقل علماً كثيراً من علماء المشرق إلى المغرب.

مسألة: هل ثبت عن أحد من السلف أنه رأى الله في المنام كما ذكرت ذلك بعض الكتب؟ وما مدى صحة ذلك؟

الجواب: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن رؤية الله في المنام ثابتة، وأن جميع الطوائف أثبتوا الرؤية في المنام إلا الجهمية؛ من شدة إنكارهم لرؤية الله، ويقول شيخ الإسلام عَظَمَةُ: إن جميع الطوائف يثبتون الرؤية في المنام ولا شيء في ذلك، لكن لا يلزم من ذلك أن يكون ما رآه الإنسان مشابهاً له، بل يقول: إن رؤية الله على حسب اعتقاد الرائي، فإذا كان اعتقاده صحيحاً رأى الله برؤية حسنة، وإذا كان اعتقاده غير صحيح رأى الله رؤية مناسبة لاعتقاده، ولما كان النبي | أصح الناس اعتقاداً، وأكمل

الناس عبودية؛ فقد رأى الله في أحسن صورة كما في حديث اختصاص الملائكة الأعلیٰ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ قُوضِعَ كَتْفِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ بَرِيءٌ فِيمَ يَخْتَصِمُ النَّاسُ؟ قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، قُوضِعَ يَدُهُ بَيْنَ كَتِفِي حَتَّى وَجَدْتُ بَرَّةً أَنَا وَلِلَّهِ قَلْبُشْتُ مَا بَعْدَ ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

مسألة: ما الضابط الذي يفرق بين الله الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة؟

الجواب: ما ورد إطلاقه على الله فهو اسم؛ مثل: العليم، الحكيم، السميع، البصير، أما الصفة فهي ما ورد على نص الصفة مثل قوله تعالى: «يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا» [الطلاق: ٢١٢]، فما ورد على نص الصفة هكذا؛ نقول: إنه صفة، وما ورد إطلاقه على الله فهو اسم؛ مثل قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [التوبة: ٢٨]، ومثل قوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ١٠٦]، ومثل قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [يوسف: ٢٦]، ومثل قوله تعالى: «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [يوسف: ٢٨]، ومثل قوله تعالى: «إِنَّهُ كَانَ كَلِيمًا غَفُورًا» [الإنسان: ٢٤٤]، فهذه كلها أسماء أطلقت على الله، والأسماء ليست أسماء جامدة، وإنما هي مشتقة متضمنة للصفات؛ فكل اسم يتضمن صفة؛ فالعليم يتضمن: صفة العلم، والتقدير يتضمن: صفة القدرة، والحليم يتضمن: صفة الحلم، والرحيم يتضمن: صفة الرحمة، والله يتضمن: صفة الألوهية، وهكذا؛ كل اسم يتضمن صفة.

(١) الحديث مضمّن تخريجه (ص ٢٢٨)

♦ قال المؤلف: ﷺ: (وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَغْيَرُ إِحَاطَةً وَلَا كَيْفِيَّةً):

### الشرح

سبق أن المؤمنين يرون ربهم أيضًا في موقف القيامة قبل دخولهم الجنة، وهذا متفق عليه، واختلف في غير المؤمنين هل يرون ربهم أم لا يرونه؟ على أقوال ثلاثة سبقت.

والأحاديث ثابتة في رؤية المؤمنين لربهم في موقف يوم القيامة، وأنهم يرونه أربع مرات، كما ثبت في بعض الأحاديث: يرونه في المرة الأولى، ثم في المرة الثانية يتحول في غير الصورة التي يعرفونه، فيكبرون ويقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا، فيأتينا ربنا فإذا أنا ربنا عرفناه، ثم في المرة الثالثة يتحول في الصورة التي يعرفونه؛ فيسجدون له، حينما يجعل بينه وبينهم علامة، وهي كشف الساق، فإذا وقفوا رأوه في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فيرونه أربع مرات - سبحانه وتعالى - قبل أن يدخلوا الجنة.

وأما بعد دخولهم الجنة، فهناك أحاديث متواترة سبقت في هذا .

### الخلاصة في مبحث الرؤية:

أن رؤية الله - سبحانه وتعالى - بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة؛ لأن كل موجود يجوز أنه يرى.

ومن الأدلة على جوازها عقلاً: سؤال موسى ربه أن ينظر إليه؛ «قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» [الأعراف: ١٤٣]، فموسى لا يسأل إلا جائزًا في حق الله - تعالى -.

وأما شرعاً: فهي جائزة وواقعة في الآخرة وممتنعة في الدنيا، ومن



أصلح الأدلة على ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «تعلموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربه - عز وجل - حتى يموت»<sup>(١)</sup>، وجاء بنحوه أيضاً من حديث عبادة بن الصامت<sup>(٢)</sup>، ورواه ابن خزيمة أيضاً في كتاب التوحيد أن النبي ﷺ قال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»<sup>(٣)</sup>، والأحاديث في رؤية المؤمنين لربهم متواترة كما سبق ورد عن نحو ثلاثين صحابياً رضوان الله عليهم.

(١) صحيح مسلم (١٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٢٤/٥)، وعبدالله بن أحمد في «السنة» (١٠٠٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٦٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٧)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٢٦٤/٨)، و(٢٦٥/٨)، وأخرجه أيضاً الزبيري في «المسنَد» (١٢٩/٧)، والشافعي في «المسنَد» (١٢٢٦)، واللالكائي في «السنة» (٨٤٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٢٨)، والأجري في «الشرعية» (١٣١٠/٣ - ١٣١١ - بتحقيق: الدميحي)، من حديث عبادة بن الصامت، وأعله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٨/٧) بعد ما عراه للبخاري - بعنقة بقة بن الوليد؛ وهو مدلس، لكن زال ما يخشى من تدليس؛ حديث صرح بالتحديث عند كل من: الإمام أحمد، واللالكائي، وابن أبي عاصم، وابن الإمام أحمد، والنسائي.

(٣) أخرجه من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ كل من: ابن ماجه (٤٠٧٧)، والحاكم في «المستدرک» (٥٨٠/٤)، وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم». وأخرجه أيضاً: ابن أبي عاصم في «الأحاديث المشافعي» (١٢٤٩)، وفي «السنة» (٣٩١)، و(٤٢٩)، وابن الإمام أحمد في «السنة» (١٠٠٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٤٥٩ - ٤٦٠)، وقوام السنة في «الحجة» (٤٦٤/٢ - ٤٦٥).

والحديث صححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٨٧/١)، والحاكم - كما تقدم، والله أعلم.

◆ وقول المؤلف رحمه الله: (بَقَرٍ إِحْاطَةٍ وَلَا كَثِيرَةٍ):

### الشرح

يعني أن الله سبحانه يُرى، ولكن لا يحاط به رؤية؛ لكمال عظمته، ولكونه أعظم وأكبر من كل شيء، كما قال - سبحانه -: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] .

وإذا كانت بعض المخلوقات ترى ولا يحاط بها رؤية، فكيف بالخالق؟ فأنت ترى البستان، ولا تحيط به رؤية، وترى الجبل ولا تحيط به رؤية، وترى السماء ولا تحيط بها رؤية، وترى المدينة ولا تحيط بها رؤية، وهي كلها مخلوقات، فالخالق أولى ألا يحاط به رؤية، كما أنه - سبحانه وتعالى - يُعَلِّم، ولا يحاط به علماً، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وهذا المعنى سبق تقريره .

وقوله: (بلا كيفية): أي لا نكيف الصفات، فلا نقول: يُرى على كيفية كذا، وعلى كيفية كذا.

### من أدلة رؤية المؤمنين لربهم

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبَّنَا: ﴿وَجِبْرِيلُ بِمَا يَشَاءُ﴾ ۞) إِلَى رَبِّكَ كَاطِرٌ ۞ [البَيِّنَات: ٢٢-٢٣]:

#### الشَّرح

الآية صريحة في النظر في رؤية المؤمنين لربهم؛ لأن الله أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله، وعدَّاه به «إلى» الصريحة في نظر العين، وأخلى الكلام عن قرينة تدل على أن المراد بالنظر هنا خلاف حقيقته. وموضوعه صريح في أن المراد: النظر؛ النظر بالعين؛ التي في الوجه؛ إلى الرب - جل جلاله - .

### النهي عن الخوض في الصفات

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَتَقْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ -تَعَالَى- وَعَلِمَهُ):

#### الشَّرح

يعني: الصفات لا تُكَيَّف، وعلمها يُرَدُّ إلى الله - سبحانه وتعالى - .

ما جاء في أحاديث الرسول مفسر لما أراد الله

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَبِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ):

نعم! كل ما جاء من الأحاديث؛ فهو مفسر على ما أراد الله، وعلى ما أراد رسول الله؛ كما جاء عن الإمام الشافعي ۞ أنه قال: «أمنت بالله، وبما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وأمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، وعلى مراد رسول الله»<sup>(١)</sup>.

(١) أوردته شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣٥٤/٦) وقال عقبه: «أما ما قاله الشافعي؛ فإنه حق على كل مسلم أن يعتقده، ومن اعتقده ولم يأت بقول يناقضه، فإنه سالك سبيل السلامة في الدنيا والآخرة».

### النهي عن الخوض في كيفية الرؤية

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِأَرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا):

#### الشرح

يعني: لا ندخل في الكيفية؛ بأن نتوهم بأهوائنا وظنوننا كما توهمت المعتزلة بأهوائهم وظنونهم؛ أنه يلزم من رؤية الله أن يكون جسماً، أو أن يكون متحيزاً، أو أن يكون محدوداً، وقالوا: لو ثبت رؤية الله بالابصار للزم من ذلك أن يكون الله في جهة، وأن يكون محدوداً، وأن يكون جسماً، وأن يكون متحيزاً، فلما توهموا ذلك نفوا الرؤية، وتأولوا بأرائهم؛ فقالوا: معنى الرؤية: العلم .

فالمقصود: ألا ندخل في الكيفية حتى لا نتوهم بأهوائنا وظنوننا كما توهمت المعتزلة، وغيرهم من أهل الضلال.

### التسليم لله والرسول ورد المتشابه للعلماء

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِهَذَا عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ):

#### الشرح

فالأمر كما قال الشيخ ﷺ: فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل بنصوص الشرع - الكتاب والسنة - ، فالواجب كمال التسليم لله ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه إلى عالمه، ولا يُعترض عليهما - يعني الكتاب والسنة - بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة: كأن يقول مثلاً: العقل يشهد بفساد ما دلَّ عليه النقل، أو: العقل أصل النقل؛ فإذا عارضه قدمنا العقل! وهذا من يبطل الباطل؛ فالواجب التسليم لله ولرسوله ﷺ، والتسليم لنصوص الوحيين.

## التسليم والانقياد والإذعان لنصوص الوحيين

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته: (وَلَا تُنَبِّئْ قَدَمَ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهَرِ التَّسْلِيمِ وَالْإِسْتِسلامِ):

## الشرح

أي: لا يثبت إسلام من لم يُسلم بنصوص الوحيين، وينقذ إليهما، ولا يعترض عليهما، ولا يعارضهما برأيه ومعقوله وقياسه، كما قال الإمام محمد بن شهاب الزُّهري فيما رواه البخاري عنه: «مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ، وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ»<sup>(١)</sup>، وهذا كلام جامع نافع، ولا نجاة للعبد إلا بتوحيد الله عز وجل، وتوحيد متابعة الرسول، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهذين التوحيدين: توحيد المرسل، وهو الله - سبحانه وتعالى -، وتوحيد متابعة الرسول، فتوحد المرسل - وهو الله - بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، وتوحد الرسول ﷺ بالتحاكم إليه، فلا نتحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غير حكمه، بل نقفد لأمره - عليه الصلاة والسلام -، ونلتقي خبره بالقبول والتصديق؛ دون معارضة بخيال باطل، نسميه معقولاً، أو نحمله شبهة أو شكاً، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، أو نتوقف في تنفيذ أمره وتصديق خبره؛ لعرضه على قول شيخ أو إمام أو مذهب أو طائفة؛ فإن أذنوا: نُقِّدْ وقيل خبره، وإلا فُؤُضْ؛ كما يفعل ذلك الذين لم يستسلموا لنصوص الوحيين، بل الواجب: التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، ولا يمكن أن يكون العقل الصريح مخالفاً نقلاً صحيحاً؛ لأن ما جاءت به الشريعة:

(١) البخاري (٥٠٣/١٣) - فتح الباري

يوافق العقول الصحيحة، ولا يمكن أن يخالف نقلاً صحيحاً عقلاً صريحاً أبداً، لكن إذا جاء من ينكر ذلك مع كون النقل صحيحاً؛ فذلك الذي يدعي أنه معقول؛ ليس عقلاً صريحاً ولا بُدَّ، بل هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر له ذلك، أما إذا كان النقل غير صحيح فإنه لا يصلح للمعارضة أصلاً، وبعض الناس يقول: إذا تعارض العقل والنقل؛ وجب تقديم النقل؛ لأن كلاً من العقل والنقل مدلول، والجمع بين المدلولين جمع بين التقيضين، ورفعهما رفع التقيضين، وتقديم العقل ممتنع؛ لأن العقل قد دل على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل، لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل؛ لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضته شيء من الأشياء؛ فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه.

وأهل الكلام وأهل البدع من معتزلة وغيرهم، إنما أوتوا من تقديمهم العقل على النصوص. وتقديم العقل له آثار سيئة في نقصان التوحيد؛ فمن لم يسلم للرسول - عليه الصلاة والسلام - نقض توحده، لأنه يقول برأيه وهواه.

وتقديم العقل على النصوص؛ من أسباب الفساد في العالم؛ وذلك أن الفساد في العالم دخل من ثلاث فِرَق:

- من الملوك الجائرة.

- ومن علماء وأخبار وهرابن السوء.

- ومن عُباد السوء الذين يتعبدون على جهل وضلال.

فالملوك الجائرة: يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وعلماء السوء: هم العلماء الخارجون عن الشريعة بأرائهم، وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرّم الله ورسوله، أو تحريم ما أباحه الله ورسوله، هؤلاء يخرجون عن الشريعة، ويقدمون آراءهم ومقاصدهم الناقصة الفاسدة على نصوص الوحيين.

ورهبان السوء: وهم جهال المتصوفة الذين يعترضون على حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق، والمواجيد، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية.

فالملوك الجورة؛ الجائرون، يقولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدّمنا السياسة، وعلماء السوء يقولون: إذا تعارض العقل والنقل؛ قدّمنا العقل، ورهبان السوء، وعباد السوء يقولون: إذا تعارض الذوق والكشف، وظاهر الشرع؛ قدّمنا الذوق والكشف.

ولهذا قال عبد الله بن المبارك الإمام المعروف رحمه الله:

وهل أفسد الدين إلا الملوك، وأحبأ سوء ورهبانها<sup>(١)</sup>

والعلماء يضربون مثلاً للنقل مع العقل؛ وذلك أن العقل مع النقل كالعامي المقلّد مع العالم المجتهد، فالعقل كأنه عامي مقلّد، والنقل كالعالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً ويتعلم، ولا يمكن للعالم أن يكون نبياً أو رسولاً، فإذا عرف العامي المقلّد عالماً فجاء عامي آخر يريد أن يستفتي فدلّه هذا العامي على العالم ليستفتي، ثم اختلف المفتي والدال - العامي - الذي دلّه، فإن المستفتي يجب أن يأخذ بقول العالم المفتي دون الدال، فلو قال العامي الدال:

(١) انظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٢٤/٦)، و«إعلام الموقعين» (١٠/١)

الصواب معي دون المفتي؛ لأنني أنا الأصل في علمك بأنه مفتي، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتي، فلزم القدح في الفرع دون الأصل، فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفتي، ودللت عليه، وشهدت له بوجوب تقديمه دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين لا تستلزم موافقتي إياك في كل مسألة، وخطوك فيما خالفته فيه المفتي الذي هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفتي، هذا مع علمه بأن ذلك المفتي قد يخطئ، والعقل يعلم أن الرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله - تعالى - لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له، والانقياد لأمره.

النهي عن التكلم في أمور الدين بغير علم

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته الله: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّشْلِيمِ فَهَمُّهُ؛ حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ وَصَافِي الْمَعْرِفَةِ وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ):

#### الشرح

«من رام...»: يعني: من أراد وقصد أن يعلم علمًا محظورًا عليه، ممنوعًا منه شرعًا، كان يريد أن يعلم الكيفية؛ أي: كيفية الصفات، أو يريد أن يعلم حقائق الآخرة أو شيئًا مما مُنِعَ منه؛ حجبته ذلك عن صافي المعرفة، وصحيح الاعتقاد، وصحة الإيمان، فصار في إيمانه خلل، وفي تحقيقه للتوحيد دخن؛ لأنه طلب شيئًا ممنوعًا منه.

وسبب اختلال كثير من الناس؛ هو الإعراض عن كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، والاشتغال بكلام اليونان، والآراء المختلفة؛ ولهذا يُسَمُّونَ: أهل الكلام، وإنما سُمُّوا: أهل كلام؛ لأنهم لم يشيدوا علمًا لم يكن معروفًا، وإنما أتوا بزيادة كلام لا يفيد، فهم يضربون من القياس لإيضاح ما عُلم من الحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله امتحتوا به في موضع آخر.

انتياب الحيرة من عدل عن الكتاب والسنة إلى غيرهما

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته الله: (فَيَتَذَبَّدُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّضْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوسَّوسًا تَائِهًا شَاكًا، لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاحِدًا مُكْذِبًا):

#### الشرح

يعني هذا الإنسان الذي يريد أن يعلم أو يصل إلى العلم الذي مُنِعَ منه؛ يبقى في حيرة وشك، ويتذبذب ويضطرب بين الإيمان وبين الكفر، وبين التصديق أو التكذيب، وبين الإقرار وبين الإنكار، ويكون موسوسًا تائها حائرًا ضالًا، بسبب عدم ثباته، ويسبب تجاوزه لحده؛ فإن الإنسان حده أن يعلم ما أمر الله بمعرفته من العلم النافع، كان يعلم أسماء الرب وصفاته ومعانيها، ويعلم ما شرعه الله في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، ويعلم ما يكون من الجزاء في يوم المعاد من أمور البرزخ وأمور الآخرة.

أما الحقائق والكيفية والكُنْه؛ فهذا لا ينبغي له أن يسعى في طلبها؛ لأنه إذا فعله فقد تجاوز حدَّه وبقي بين الشك واليقين، وبين الإقرار والتكذيب، وبين الإيمان والتكذيب؛ موسوسًا تائها؛ حائرًا، - نسأل الله السلامة والعافية -.

الرد على من تأول رؤية الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنْ اِعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ يَوْمٌ أَوْ تَأَوَّلَهَا بِقَهْمٍ):

الشَّيْخُ

● قوله: (ولا يصح الإيمان بالرؤية).

يعني: برؤية الله يوم القيامة، وقوله: (لمن اعتبرها منهم يومهم أو تأولها بفهمهم) يعني: أن من تأول أو توهم الرؤية بأنها تشبه رؤية المخلوقين، أو أن الله يشبه أحدًا من خلقه، أو يماثله أحد من خلقه، أو أن الله يرى على صفة كذا؛ فهذا كله توهم يظنه؛ لأنه بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف: كان مشبهًا، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل هذا التوهم: صار جاحدًا معطلًا، فلا يصح الإيمان بالرؤية لمن توهمها بهم، أو ادعى أن لها فهمًا يخالف ظاهرها، أو يخالف ما يفهمه العرب، فحرف الرؤية، وسمى تحريفه تأويلًا؛ كما فعلت المعتزلة؛ حيث تأولوا الرؤية بالعلم، وقالوا: إنه يلزم من إثبات رؤية الله في الآخرة أن يكون الله شبيهًا بالمخلوقين، فلذلك تأولناها!! فمثل هذا الإيمان لا يصح.

ومن أي إلا تحريف أدلة الرؤية؛ فإنه يكون بهذا قد فتح بابًا للملاحدة الباطنية؛ حيث إنهم أولوا نصوص المعاد، والجنة والنار، والحساب؛ فقالوا: إن الجنة والنار، بل والمعاد: خيال، فلما قال لهم المعتزلة وأهل الكلام: نصوص المعاد والجنة والنار صحيحة ثابتة بالأدلة القطعية. ومعناها واضح، قال لهم الباطنية: أنتم أولتم نصوص الرؤية، ونصوص الرؤية أيضاً ثابتة، ومعناها ثابت، فما الذي يبيح لكم أن تتأولوا نصوص

الصفات، ويمنعنا من تأويل نصوص المعاد والجنة والنار؟! ففتحوا بذلك باب التأويل للملاحدة.

وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وقد حذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم.

### صفات الله

كل صفة تضاف إلى الرب تفسيرها بترك التأويل

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَى وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ بِتَرْكِ التَّأْوِيلِ وَكُلُّهُمُ التَّشْلِيمُ، وَعَلَيْهِ دِينَ الْمُسْلِمِينَ):

### الشرح

التأويل في قوله: (تأويل الرؤية) معناه: التفسير، والتأويل الثاني معناه: التحريف.

والمعنى: تفسير الرؤية، وتفسير كل معنى أو صفة تضاف إلى الرب؛ تفسيرها الصحيح: إنما يكون بترك التحريف، وجريان النصوص على ظاهرها، فالمعنى كما قال الإمام مالك ﷺ تعالى - لما سُئِلَ عن الاستواء قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٢٥-٣٢٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص ٦٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٠٤-٣٠٦)، والاستذكار، لابن عبد البر (١٥١/٨). وقال الذهبي في «العلو» (ص ١٣٩): «هذا ثابت عن مالك»، وجوّده إسناده الحافظ في «الفتح» (٤٠٧/١٣) من رواية ابن وهب عن مالك. وانظر في هذا الأثر رواية ودراية رسالة الشيخ عبدالرزاق العباد «أثر مالك في الاستواء» فهي نفيسة جدًا.

### النفي والتشبيه من أمراض القلوب

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ):

### الشرح

أي: من لم يتوق النفي في الصفات، أو التشبيه؛ زل ولم يصب التنزيه، فلا بد من توقى هذين الأمرين؛ نفي الصفات وتعطيلها كما فعلت الجهمية والمعتزلة والأشاعرة فيما نفوا من الصفات، وكذلك يتوقى التشبيه كما فعلت المشبهة؛ فقالوا: إن صفات الخالق كصفات المخلوق، فلا بد أن يتوقى النفي في باب التنزيه، ويتوقى التشبيه والتمثيل في باب الإثبات. وهذا هو الذي فعله أهل السنة والجماعة؛ أثبتوا الصفات لله عز وجل، وتوقوا النفي في باب التنزيه؛ فلم يعطلوا ولم ينفوا الصفات، وتوقوا التشبيه في باب الإثبات؛ فلم يقولوا: إنها مماثلة لصفات المخلوقين بل أثبتوا الصفات ونفوا الكيفية.

وهذان النوعان - مرض النفي ومرض التعطيل والتشبيه - مرضان عظيمان؛ المرض الأول: مرض شبهة، والمرض الثاني: مرض شهوة.

وكلاهما - الشهوة والشبهة - مذكوران في القرآن؛ فمن الأدلة على مرض الشهوة قول الله - تعالى -: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، ومن الأدلة على مرض الشبهة قول الله - تعالى -: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَمَضًا﴾ (البقرة: ٢١٠)، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ فَزَادَهُمُ رَجَسًا إِنَّ يَجْهِيهِمْ وَمَاؤُهُمْ كَعَرُورٍ﴾ (التوبة: ٢١٢)، ومرض الشبهة أشد من مرض الشهوة؛ لأن مرض الشهوة



يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إلا أن ينداركة الله برحمته، والشبهة تكون في الصفات، وتكون في مسألة القدر، وأشد الشبهتين ما كان في أمر القدر.

تَنْزِيَهُ الرَّبِّ هُوَ: وَصْفُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (فَإِنَّ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مُنْعَوَتٌ بِنَعَوَاتِ الْفَرْدَانِيَّةِ لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ):

### الشرح

والمؤلف ﷺ أتى بهذه الكلمات وهي من باب السجع، ولو لم يلتزم السجع لكان أحسن.

والمعنى: أن الله - سبحانه وتعالى - موصوف بما وصف به نفسه من النفي والإثبات؛ فهو موصوف بصفات الوجدانية، وهذا مأخوذ من قول الله - تعالى - في سورة «الإخلاص»: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ومنعوت بنعوت الفردانية، كما في قوله - تعالى - في السورة نفسها: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الصمد: ١]، ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْلٌ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ كُفْلٌ﴾ [الإخلاص: ٢-٣]، فالله تعالى ليس في معناه أحد من البرية؛ يعني: لا يماثله أحد من خلقه، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْلًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، والوصف والنعت: متقاربان، فالوصف يُطلق على الذات، والنعت يطلق على الفعل، وهما إما مترادفان أو متقاربان.

وكذلك الوجدانية والفردانية: متقاربان، فالوجدانية يُقصد بها الذات، والفردانية للصفات، فهو - سبحانه وتعالى - متوحد في ذاته، منفرد في صفاته، لا يشبه أحدًا من خلقه.

فقوله: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ) هو معنى قول الله - سبحانه -: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْلًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وهو أيضًا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [التور: ١١]، وكان من الأحسن أن يسوق هاتين الآيتين، بدلاً من قوله هذا.

الله تعالى لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ڪَلَّمَ: (وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُّ كَسَائِرِ الْمُتَبَدِّعَاتِ):

#### الشرح

هذه العبارات التي أطلقها المؤلف ڪَلَّمَ فيها إجمال، وفيها احتمال وإيهام، ولهذا: فإن شُرّاح «الطحاوية» الذين شرحوها قبل ابن أبي العز، فسروها على ما يتأولونه من الصفات. فهذه العبارات موهمة، وإن كان ڪَلَّمَ أراد بها معنى حسناً، وهو: نفي التشبيه، وأن الله - تعالى - لا يماثل أحداً من خلقه، ولا يريد بها نفي العلو الإلهي .

ولكن بعضهم زعم بأن مراد الطحاوي: نفي العلو؛ بدليل قوله: (لا تحويه الجهات الست)؛ وهي: الفوقية، والتحتانية، والأمام، والخلف، واليمين، والشمال؛ فهذا واضح بأن مراده: إنكار علو الله، وهذا ليس بصحيح كما سيأتي النقل عنه بذلك .

فهو ڪَلَّمَ قد أثبت الفوقية؛ فلا بد أن يُفسّر كلامه المشتبه بكلامه الواضح، فهو لا يقصد ڪَلَّمَ نفي العلو، وإنما أراد تنزيه الرب - سبحانه وتعالى - عن مشابهة المخلوقات، لكن الأولى في مثل هذا ألا تُطلق هذه العبارات، وأن يلتزم بالنصوص .

فالواجب الوقوف في باب أسماء الله وصفاته عند ما جاء في الكتاب والسنة نفيًا وإثباتًا والتقيّد بذلك، وأن يُنظر في هذا الباب: فما أثبتته الله ورسوله؛ أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله؛ نفينا، فالألفاظ التي ورد بها النص، يُعْتَصَمُ بها في الإثبات والنفي، فيثبت ما أثبتته الله ورسوله من

الألفاظ والمعاني، وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تُطلق حتى يُنظر في مقصود قائلها، فإن كان أراد معنى صحيحًا: قُبِلَ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد، والحاجة: مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يُكَلِّبْ بها، مثل هذه الألفاظ الذي ذكرها المصنف، ومثلها أيضاً: أَلْفَافٌ مثل: المركب، والجسم، والحيز، والجوهر، والجهة، والعرض، والحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، ولا تحويه الجهات الست؛ كل هذه الألفاظ: أَلْفَافٌ مجملة؛ تحتل حقًا وباطلاً .

والناس لهم في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال:

- طائفة من الناس تنفيها وتقول: ليس مركبًا، ولا جسمًا، ولا حيًّا، ولا جوهرًا، ولا تحويه الجهات .

- وطائفة تثبتها، وتقول: هو جوهر؛ هو عَرَضُ .

- وطائفة تفصل، وهم المتيبون للسلف الصالح؛ فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبيّن أن ما أثبت بها ثابت، وما نفي بها فهو منفي؛ لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإيهام، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية؛ وهذه الألفاظ لم يرد بها نص من الكتاب ولا من السنة نفيًا ولا إثباتًا، فمثلًا إذا قال: الله ليس مركبًا، نقول: ما مرادك بـ«مركب»؛ فالتركيب له معاني:

أحدها: التركيب من متباينين فأكثر؛ ويسمى: تركيب مزج؛ كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء، وهذا المعنى منفي عن الله .

والثاني: تركيب الجوار؛ كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم من

ثبوت صفاته - تعالى - إثبات هذا النوع من التركيب .

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة - ويسمونها الجواهر المفردة -؛ وهذا يكون الجسم فيه مركباً من الجواهر المفردة، ولكن: هل يمكن التركيب من جزئين أو أكثر؟ كل هذا باطل، فلا يقال: إن صفات الله مركبة بهذا المعنى .

الرابع: التركيب من الهولي؛ والصورة كالكخاتم مثلاً؛ هيولاً؛ الفضة، وصورته: معروفة؛ وهذا التركيب ليس لازماً لثبوت صفات الله تعالى .

الخامس: التركيب من الذات والصفات؛ وهذا يسمونه تركيباً؛ لأجل أن ينفوا به الصفات، وهم يقولون بصحة ذلك في حق الله؛ فيقولون: الله مركب يعني: له ذات وصفات.

ونحن نقول: هذا صحيح؛ الله له ذات وصفات؛ لكن بتسمية غير تسميتكم؛ وهذا تركيب باطل، لا يُعرف في اللغة، ولا في استعمال الشرع، فلا نوافقكم على هذه التسمية .

السادس: التركيب من الماهية - الجسم - ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران؛ وأما في الخارج: فمن المُحال أن تكون ذات مجردة عن وجودها، ووجودها مجرد عنها، فإذا قالوا: الله ليس بجسم، فنقول: ما مرادكم بالجسم؟ فالجسم يُطلق على ما تركيب من جزئين، أو ما تركيب من ثلاثة أجزاء فصاعداً، ويقال أيضاً: الحق أن لفظ الجسم لفظ مجمل، لا يُثبت ولا يُنفي إلا بعد الاستفسار، فإن أردتم بنفي الجسم؛ نفي الصفات؛ فهذا باطل، وإن أردتم به: أن الله مستغنى عن غيره، عال على خلقه، بائن منهم؛ فهذا حق، لكن لا ينبغي التعبير بالجسمية؛ لأن هذه

الألفاظ لم تأت في النصوص بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح .

وكذلك يعبرون بـ«الجوهر»؛ فيقولون: الله جوهر، أو: ليس بجوهر، فيقال: فما مرادكم بالجوهر؟ الجوهر يطلق على ما يقابل العَرَضَ، ويطلق عند أهل الكلام على العين التي لا تقبل الانقسام، وكل هذه معانٍ باطلة، فهي كغيرها من الألفاظ المجملة، ومثلها كذلك لفظ «التحيز، والحيز»، ويرادُ بالتحيز: الوجود في محل أو مكان، والحيز المكان والمحل، وبهذا الكلام اصطلاحوا على تسمية استواء الله على العرش وعلوه على خلقه: تحيزاً. فنقول: الله مستوي على عرشه، وأما تسميته التحيز تحيزاً بهذا الاصطلاح فهذا باطل .

ومن المعروف أن الموجود شيء ينسب إلى الوجود، فإن كان موجوداً هو أشرف الموجودات؛ فواجب أن ينتسب من الموجود المحسوس إلى الحيز الأشرف، وهي السماوات، ولشرف هذا الحيز قال الله - تعالى - : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ الْكَافِرِينَ وَلَكِنْ أَكْثَرَ أَتَّائِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [نمل: ٢٥]، أما إذا أردتم بنفي التحيز والحيز أن الله مستغنى عن خلقه بائن منهم، عالٍ عليهم؛ فهذا حق، لكن ينبغي التعبير بالألفاظ النصوص.

وكذلك القول: بأن الله له حدٌّ، أو ليس له حدٌّ؛ وهو قولٌ مجمل، ولا بد من الاستفصال عن هذا الإطلاق، نفياً وإثباتاً، فالشيخ الطحاوي رحمه الله أراد بلفظ الحد الرد على المشبهة؛ كداود الجواربي، وأمثالهم من القائلين بأن الله جسم، وأنه جثة، وله أعضاء، لكن أهل الكلام جروا الطحاوي وأدخلوا في عباراته معنىً باطلاً، فنقول: ما مرادكم بالحد؟ إن أردتم بالحد: العلم والقول؛ والمعنى: أن العباد يحدون الله، ويعلمون الله

العرش؛ بائن من خلقه. قيل: بحد؟ قال: بحد<sup>(١)</sup>.

يعني: أنه متميز عن خلقه، منفصل عنهم، لم يدخل في ذاته شيء من ذواتهم، ولا في صفاته شيء من صفاتهم، ولا في خلقه شيء من ذاته، ومن نفى الحد بهذا المعنى وقال: ليس لله حد، يعني: أن الله منفصل عن مخلوقاته، بائن منهم؛ فقد جعل الله فوق المخلوقات؛ وهذا صحيح.

- وإذا قال: ليس لله حد وأراد بذلك: أن الله خلُق من المخلوقات؛ فهذا باطل.

- وإذا قال: لله حد يعني: الله حد يعلمه هو؛ تعالى؛ فهذا صحيح.

- وإذا قال: ليس لله حد، يعني: أنَّ العباد لا يعلمون الله حدًا؛ فهذا صحيح؛ فلا بد من التفسير، والتبيين؛ حتى يتضح المراد.

وكذلك قول الطحاوي: (يتعالى عن الحدود والغايات) فيه إجمال وإيهام، فإنَّ نفاة الحكمة والتعليل من الجبرية والمعتزلة وغيرهم، اصطلاحوا على تسمية الحكم والغايات التي يفعل من أجلها أغراضًا؛ يسمونها الغاية، فيقولون: إن الله منزّه عن الغايات التي يتكلم ويفعل لأجلها وليُسَوِّدَ على ضعفاء العقول: وقالوا لهم: اعلموا أن ربكم منزّه عن الأعراض، والأغراض، والأعضاء، والجهات، والتركيب، والتجسيم، والتشبيه، واستقر ذلك في قلوب المبلّغين عنهم، فإذا صرحوا بذلك يبقى السامع متحيرًا بين نفى هذه الحقائق التي أثبتّها الله لنفسه، وأثبتّها له جميع رسله وسلف الأمة، وبين إثباتهم، فنقول لهم -حيثن-: أنتم قلتم: إن الله منزّه عن الغايات، فما مرادكم بالغايات؟ إن أردتم بالغايات أنه سبحانه لا يفعل

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٦٢/١)، (٢٦٣).

حدًا؛ فهذا منتف بلا منازعة، لأن العباد لا يعلمون الله حدًا كما قال سهل بن عبد الله، وقد سئل عن ذات الله فقال<sup>(٢)</sup>: «ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في المعنى ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كُنْهِ ذاته ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية».

فإن أردتم بقولكم: إن لله له حد، وأن العباد قد يعلمون الله حدًا؛ فهذا باطل، وإن أردتم بنفي الحد، وقلتم: إن الله ليس له حد -يعني: أن البشر لا يعلمون له حدًا، ولا يحدون شيئًا من صفاته -؛ فهذا حق؛ فإن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون الله حدًا، وأنهم لا يحدون شيئًا من صفاته.

قال أبو داود الطيالسي: «كان سفيان، وشعبة، وحمام بن زيد، وحمام بن سلمة، وشريك، وأبو غوانة؛ لا يحدون، ولا يشبهون، ولا يمثلون؛ يروون الحديث ولا يقولون: كيف، وإذا سئلوا، أجابوا بالآثر»<sup>(٣)</sup>.

فمراد الطحاوي بكثرة - هنا أن الله سبحانه يتعالى عن الحدود، وأنه يتعالى عن أن يحيط أحد من خلقه بحدّه؛ وهذا معنى قوله: (وتعالى عن الحدود) أي: أنَّ الله متميز عن خلقه، منفصل عنهم مباين لهم.

سئل عبد الله بن المبارك بكثرة: «بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص ٢١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/٣).

ولا يتكلم لحكمة ومصلحة، ورحمة؛ فهذا باطل، فإن هؤلاء المتكلمين عندهم: أن الله لا يفعل شيئاً؛ لشيء، ولا يأمر بشيء؛ لحكمة، ولا جعل شيئاً من الأشياء سبباً لغيره، وما ثم إلا مشيئة محضة وقدره ترجح مثلاً على مثل؛ بلا سبب ولا علة<sup>(١)</sup>، ثم يقال لهم: وإن أردتم بنفي الغايات: أن الله لا يحتاج إلى أحد، ولا يفعل حاجة، ولا يفعل لمؤثر يؤثر فيه، وموجب يوجب عليه؛ فهذا حق، لكن ينبغي الاعتصام بالفاظ النصوص؛ لأنها أسلم.

**فَقُولُ الطحاوي: (يَتَمَالَى عَنِ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ وَالْجَوَارِحِ):**

فيه عبارات موهمة، وفيه من مصطلحات أهل الكلام الذين يسمون إثبات الصفات لله، تجسيماً، وتشبيهاً، وتمثيلاً، ويسمون العرش: حيزاً وجهة، ويسمون الصفات: أعضاً، ويسمون الأفعال: حوادث، ويسمون الحكم والغايات التي يفعل لأجلها: أعضاً، ويسمون إثبات الوجه، واليدين: أبعاضاً؛ فيقولون: الله منزّه عن الأعراض والأغراض، والأبعاض، والجهات، والتركيب، والتجسيم، والتشبيه؛ فيستدلون بهذه الألفاظ كالأركان، والأعضاء، والأدوات، والجوارح على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية: كاليد والوجه، وغيرهما.

ولكن لا يقال لهذه الصفات: إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان؛ لأنها تحتمل معاني باطلة؛ لأن الركن جزء الماهية، فيقال: إذا

(١) انظر: «شفا العليل» لابن القيم (ص ١٨٥ - ط: الأولى - الخانجي سنة ١٣٣٣هـ، نشر: مكتبة الرياض الحديثة).

سميتها أركاناً، فاله - تعالى - هو الأحد الصمد؛ لا يتجزأ ولا يتفرق: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإحسان: ٢-١]، وقولكم: «الأعضاء»؛ فيه معنى التفريق والتفصية أي: التقطيع وجعل الشيء قطعاً، وهذا المعنى منفي عن الله، ومن هذا المعنى قول الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفَرَكَانَ عَيْنَيْنِ﴾ [البقر: ٩١]، وكذلك: لفظ الجوارح: فيها معنى الاكتساب والانفتاح، والأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة. فكل هذه المعاني منتفية عن الله - تعالى -، ولهذا: لم يرد ذكرها في صفات الله. والذي ينبغي في هذا المقام التعبير بالألفاظ الشرعية؛ لأن الألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فلا يجوز العدول عنها نفيًا ولا إثباتًا، لئلا يثبت بها معنى فاسد أو يُنفى معنى صحيح.

كذلك قد يستدل بعض النفاة بقول الطحاوي المتقدم، على نفي بعض الصفات الثابتة بالنصوص، فيقال: إن أريد بنفي الصفات نفي الصفات الثابتة، كالوجه، واليدين وغيرهما: فهذا باطل؛ لأنها ثابتة، كما قال أبو حنيفة رحمته الله في «الفقه الأكبر»<sup>(١)</sup>: «له يد ووجه ونفس كما ذكر الله - تعالى - في القرآن، فله صفة بلا كيف، ولا يقال: إن يده: قدرته ونعمته؛ لأن فيها إبطال الصفة».

وهذا الذي قاله الإمام أبو حنيفة ثابت بالأدلة القطعية قال الله - تعالى -: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَنِينًا مَّقْشُومًا ۖ ذُرِّيَّةَ الْفَلَكَاتِ وَالسُّجُوتِ مَطْوِيَةً ۖ تَبَسِّمِينَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال - تعالى -: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٢٨]، وقال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُهُ﴾

(١) انظر: «الفقه الأكبر مع شرحه» للملا علي القاري (ص ٦٦، ٦٧)

رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِ الْأَكْبَرِ ﴿٢٧﴾ [الرَّحْمَن: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿تَدْعُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَهْتُمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [السَّجْدَةِ: ١٦٦]، وقال: ﴿كُنْكُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْشَدًا﴾ [الْبَنَات: ٥٤]، وقال: ﴿وَيَسِّرْكُمْ اللَّهُ نَتَاجًا﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٨]، وقال في حديث الشفاعة: لما يأتي الناس آدم فيقولون له: «خَلَقَكَ اللَّهُ يَبِيدُو، وَأَسْجِدْ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «جِئَابُ النَّورِ لَوْ كُفِّهَ لَأَخْرَجَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»<sup>(٢)</sup>، فهذا كله ثابت.

وكذلك لفظ (الجهة) نفهم لها قولٌ مجمل؛ فلا يجوز إطلاق نفهيا، ولا إثباتها إلا مع البيان التفصيلي، كما سبق.

كذلك أيضًا: قول الطحاوي ﷺ: (وَلَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُّ كَسَائِرِ الْمُتَبَعَاتِ)؛

مراده ﷺ أن الله لا يشبه المخلوقات، لكن أهل الكلام قالوا: مراده نفي العلو؛ لأن العلو من الجهات الست، ولكن هذا ليس بصحيح؛ بل مراده أن الله ليس في جهة مخلوقة، بليل أنه أثبت العلو فيما بعد، وقال: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقُوَّةٌ).

لكن الطحاوي ﷺ يُنْتَقَدُ؛ لكونه عبر بهذه العبارات التي تشتمل على حق وباطل، وكان الأولى ألا يعبر بها، ويكتفي بنصوص الكتاب والسنة<sup>(٣)</sup>، ويعتصم بها.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وقد تقدم.

(٣) قال شيخ الإسلام: «التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، =

ثم أيضًا في قول الطحاوي ﷺ: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُّ كَسَائِرِ الْمُتَبَعَاتِ) إشكالات:

الإشكال الأول: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال كان تركه أولى، وإلا تسلط عليه الخصوم، وألزموه بالتناقض في إثبات الإحاطة والوقفية، ونفي جهة العلو، فيقولون: أنت متناقض حيث تقول: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُّ) فتنتفي العلو، ثم تقول: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقُوَّةٌ) وتثبت العلو؛ فالزموه لذلك بالتناقض.

لكن نقول: إن الطحاوي مقصوده أن الله منزّه عن الجهات الست المخلوقة؛ فهو يقصد معنى صحيحًا، لكن مع ذلك نقول: الأولى أن يتعصم الطحاوي وغيره بالألفاظ الشرعية حتى لا يتسلط عليه الخصوم.

الإشكال الثاني: أن قول الطحاوي: (كَسَائِرِ الْمُتَبَعَاتِ)؛ أي:

= والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن نفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تقضي عجايبه. والألفاظ المحدث فيها إجماع واشتاء ونزاع؛ انظر: «النبات» (٨٧٦/٢).

وقال شيخ الإسلام: «الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين، مثل لفظ «الجسم» و«الجوهر» و«المتحيز» و«الجهة»، ونحو ذلك، فلا تطلق نفيًا ولا إثباتًا، حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان قد أراد بالنفي والإثبات معنى صحيحًا موافقًا لما أخبر به الرسول، صُوبَ المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بألفاظ النصوص، لا يُعَدُّ إلى هذه الألفاظ المتبدعة المجملة إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد بها، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، وأما إن أريد بها معنى باطل، نُفِيَ ذلك المعنى، وإن جُمع بين حق وباطل، أثبت الحق وأبطل الباطل؛ انظر: «منهاج السنة» (٥٥٤/٢)، و(٢/٦١١). وانظر: «الدرء» (٢٣٣/١)، ٢٢٩، ٢٢٤، و«الفناوي» (٢٢٩/٥)، و(٦/٣٦)، و(٤٢٦/١٦)، و(٣٠٤/١٧).

المخلوقات يفهم منه أنه ما من مخلوق إلا وهو محوي، وهذا فيه نظر، فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي؛ فممنوع؛ لأن العالم ليس في عالم آخر، وإلا لزم التسلسل؛ فلأننا نرى العالم ليس محويًا بعالم آخر، وإن أراد أمرًا عديمًا؛ فليس كل مبتدع في العدم، بل المبتدعات منها ما هو داخل في غيره كالسموات والأرض مع الكرسي، ومنها ما هو منتهى المخلوقات؛ كالعرش، فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات قطعًا للتسلسل. ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال بأن قول الطحاوي: (كسائر المبتدعات) بمعنى (البقية) لا بمعنى (الجميع)، ويؤيد هذا: أن أصل معنى «سائر» البقية، ومنه السُّور؛ وهو ما يُبْقِيه الشارب في الإناء، فيكون مقصوده: (غالب المخلوقات)، لا جميعها، إذ (السائر) على الغالب؛ أدل منه على الجميع، فيكون المعنى: أن الله - تعالى - غير محوي؛ كما يكون أكثر المخلوقات، بل هو غير محوي بشيء - سبحانه تعالى -.

**والخلاصة:** أن الطحاوي رحمه الله أراد بهذه الألفاظ معاني صحيحة، وأن الله منزّه عند الحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، فمراده: إثبات صفات الله - عز وجل -، وأن الله لا يشابه المخلوقين، وأن الله ليس فيه شيء من مخلوقاته؛ ليس مفترقًا إلى شيء منها.

### الإسراء والمعراج

ثبوت الإسراء والمعراج للنبي ﷺ بشخصه في البقعة

◆ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷺ: (وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَغُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْبَقْعَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَأِ، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى).

### الشروح

هذا البحث في: إثبات الإسراء والمعراج للنبي ﷺ، والإسراء ثابت في كتاب الله عز وجل قال - تعالى -: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِمَنْبِيِّهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، ومن أنكر الإسراء كفر؛ لأنه مكذب لله. والمعراج ثابت بالأحاديث الصحيحة التي تفيد العلم والقطع، فمن أنكره: تقام عليه الحجة وبين له.

وأصل الإسراء لغة: السير ليلًا، يقال: أسرى يسري إسراء، ويأتي لازمًا فيقال: سرى الرجل، ويأتي متعديًا فيقال: أسرى به<sup>(١)</sup>.

وأما الإسراء شرعًا واصطلاحًا: فهو السفر برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلًا على البراق، والبراق دابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض طويل.

(١) انظر: «لسان العرب» (١٤/٣٨١)، (٣٨٢).

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: أنهما يشتركان في السير ليلًا؛ لكن المعنى اللغوي أوسع، ثم يأتي المعنى الاصطلاحي بقيود وشروط زائدة على المعنى اللغوي وهو: كونه سفرًا، وبرسول الله ﷺ وعلى البراق، ومن مكة إلى بيت المقدس.

أما المعراج لغة: فهو على وزن «مِفْعَال»، مشتق من العروج وهي آلة العروج التي يُمرج فيها ويصعد، فيشمل السُّلم، ويشمل الدرجة<sup>(١)</sup>.

والمعراج شرعًا واصطلاحًا: هو العروج برسول الله ﷺ ليلًا من بيت المقدس إلى السماء، والآلة التي عرج عليها - عليه الصلاة والسلام - هي بمنزلة السُّلم، ولا يُعلم كيفية هذه الآلة، وحكمه حكم غيره من المغنيات، تؤمن به، ولا تشتغل بكيفيته.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في المعراج: أنهما يشتركان في أن كلًّا منهما صعود وعروج من أسفل إلى أعلى، وهذا قدر مشترك، ثم يأتي المعنى الاصطلاحي بقيود وشروط زائدة على المعنى اللغوي؛ وهو أن العروج بالآلة خاصة، وغيبية، ومن مكان خاص، وإلى علو خاص؛ من بيت المقدس إلى السماء، فالمعنى اللغوي أوسع دائرة.

والعلماء لهم أقوال في الإسراء والمعراج: هل أُسري به - عليه الصلاة والسلام - وعرج به وهو نائم أم في اليقظة؟ وهل أُسري به بروحه، أو بروحه وجسده؟ فللعلماء في ذلك أقوال أربعة:

القول الأول: أن الإسراء كان منامًا، وهذا أضعفها.

القول الثاني: أن الإسراء كان بروحه ﷺ دون جسده، وهذا نقله ابنُ

إسحاق<sup>(١)</sup> عن عائشة رضي الله عنها، ونقل عن الحسن البصري نحوه.

القول الثالث: أن الإسراء كان مرارًا؛ مرة منامًا ومرة يقظة، وبعضهم قال: مرة قبل الوحي، ومرة بعد الوحي، وبعضهم قال: الإسراء ثلاث مرات: مرة قبل الوحي، ومرتان بعده، وهذا يقول به ضعفاء الرواة للحديث - كما سيأتي - وهؤلاء كلما اشتبه عليهم لفظًا زادوا مرة؛ فيقولون: مرة في المنام كالوطننة والتحميد لِمِرَّةِ اليقظة؛ كما حصل في الوحي؛ فإن النبي ﷺ في الوحي أول ما ابتدأ به: الرؤيا الصالحة؛ ستة أشهر، فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح، فقالوا: كما أن الوحي كان في المنام ثم في اليقظة، فكذا الإسراء والمعراج كان مرة منامًا كتوطئة؛ ثم كان يقظة!!

القول الرابع: أن الإسراء كان بروحه وجسده؛ مرة واحدة؛ بعد الوحي؛ يقظة لا منامًا، وهذا أرجح الأقوال وأصحها، بل هذا هو الصواب. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء والمحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت على هذا القول ظاهراً الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، وليس في العقل ما يحيل ذلك حتى يحتاج إلى تأويل<sup>(٢)</sup>.

الفرق بين القول الأول - من قال: إن الإسراء كان منامًا - والثاني - من قال: إن الإسراء كان بروحه -:

أُنْ من قال: إن الإسراء كان منامًا قال: إن رسول الله ﷺ رأى في نومه أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة؛ من قبيل الحلم؛ فيرى كأنه قد عُرج به إلى السماء، وذُهب به من مكة؛ وجسده باقي، وروحه باقية

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

انظر: «بدائع الفوائد» (٤/١٣٧٩)، و«زاد المعاد» (٣/٣٥-٣٦).

(١) انظر: «النهاية في غريب الأثر» للجزري (٤٣٢/٣).



أَيْضًا؛ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ، وَإِنَّمَا مَلَكَ الرَّوْيَا ضَرْبَ لَهُ الْأَمْثَالُ. وَهَذَا مَعْنَى الْإِسْرَاءِ مَنَامًا.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ بِرُوحِهِ يَقُولُ: إِنَّ الرُّوحَ ذَاتَهَا أُسْرَى بِهَا فَفَارَقَتْ الْجَسَدَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ؛ قَالُوا: وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَنْ غَيْرَهُ لَا تَنَالُ رُوحَهُ الصُّعُودَ الْكَامِلَ إِلَى السَّمَاءِ، إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَالْقَدَرُ الْمَشْتَرَكُ الَّذِي اتَّفَقَ فِيهِ الْفُلَانُ: هُوَ أَنَّ الْجَسَدَ بَاقٍ، لَكِنْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَنَامًا قَالَ: الرُّوحُ أَيْضًا بَاقِيَةٌ وَالْمَلِكُ هُوَ الَّذِي ضَرْبَ لَهُ الْأَمْثَالُ، وَمَنْ قَالَ: الْإِسْرَاءُ كَانَ بِرُوحِهِ قَالَ: الْجَسَدُ بَاقٍ وَالرُّوحُ هِيَ الَّتِي صَعِدَتْ، وَأُسْرِيَ بِهَا ثُمَّ رَجَعَتْ.

#### أَدَلَّةُ الْفَرِيقَيْنِ:

اسْتَدَلَّ أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَنَامًا بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، وَدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ:

#### أَمَّا الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ:

فَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ الَّذِي رَوَاهُ شَرِيكُ بْنُ أَبِي نُوَيْرٍ فَإِنَّهُ نَقَلَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ: فِي خَتَامِ الْقِصَّةِ قَوْلُ الرَّائِي: «وَأَسْتَقِظَ وَهُوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ»<sup>(١)</sup>، يَعْنِي: النَّبِيُّ ﷺ. قَالُوا: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ

(١) الْحَدِيثُ يَطْلُوهُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥١٧)، وَهُوَ فِي مُسْلِمٍ (١٦٢) مُخْتَصَرٌ جَدًّا، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ رِوَايَةِ شَرِيكِ هَذِهِ: «وَقَدْ مَ فِي شَيْئًا وَآخَرًا، وَزَادَ وَنَقَصَ». وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٣ - دَارُ الْفِكْرِ): «فَإِنَّ شَرِيكَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نُورٍ أَضْطَرَبَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَسَاءَ حِفْظُهُ». فَشَرِيكَ لَهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَفَرُّدَاتٌ وَأَوْهَامٌ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ مَجْمُوعَ مَا خَالَفَتْ فِيهِ رِوَايَتُهُ غَيْرَهُ مِنْ الْمَشْهُورِينَ وَهِيَ عَشْرَةٌ. انْظُرْ: «مَنْحَ الْبَارِي» (٤٨٥/١٣) وَ (١٩٧/٧)، (١٩٨).

كَانَ مَنَامًا .

وَالْجَوَابُ: مَا أَجَابَ بِهِ نِقَادُ الْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ بِأَنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ الْأَحَادِيثَ لَمْ تَرِدْ بِذِكْرِهَا، وَشَرِيكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نُورٍ لَهُ أَغْلَاطٌ، وَقَدْ غَلَطَهُ الْحَفَاطُ فِي أَلْفَاظِ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ ﷺ بَعْدَمَا رَوَى حَدِيثَ شَرِيكِ: فَقَدَّمَ وَآخَرَ، وَزَادَ، وَنَقَصَ.

وَأَيْضًا: مَنْ أَدْلَتَهُمُ الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا: قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا قَفِدَ جَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنْ أُسْرِيَ بِرُوحِهِ»<sup>(١)</sup>.

نَقُولُ: وَهَذَا إِنْ صَحَّ عَنْ عَائِشَةَ، فَهُوَ اجْتِهَادٌ مِنْهَا لَا تُعَارَضُ بِهِ النُّصْرُوصُ.

وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ: فَقَالُوا: إِنَّ الْأَجْسَامَ الْأَرْضِيَّةَ مِنْ طَبِيعَتِهَا النُّقْلَ، فَلَا يَعْقِلُ أَنْ تَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ؛ كَالْمَلَائِكَةِ؛ فَلَا أَجْسَامَ ثَقِيلَةً بِخِلَافِ الرُّوحِ وَالْمَلَائِكَةِ، فَإِنْ مِنْ طَبِيعَتِهَا الْخَفَّةُ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ نَقُولَ: الْعَقْلُ لَا يَمَارِضُ النُّقْلَ، فَإِذَا صَحَّ النُّقْلُ فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَعَارِضَهُ، بَلِ الْوَاجِبُ التَّسْلِيمُ وَالْخُضُوعُ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَأَنْ نَتَلَقَّاهُ بِقَبُولٍ وَتَسْلِيمٍ، وَلَا نَعَارِضُهُ بِعُقُولِنَا .

وَأَيْضًا نَرِدُّ عَلَيْهِمْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ؛ مِنْ جِنْسِ اسْتِدْلَالِهِمْ؛ حَتَّى نَقَارِعَ الْحِجَّةَ بِالْحِجَّةِ، فَنَقُولُ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ: الْأَجْسَامُ الْأَرْضِيَّةَ مِنْ طَبِيعَتِهَا النُّقْلَ فَلَا يَعْقِلُ أَنْ تَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَنَحْنُ نَقُولُ لَكُمْ: الْمَلَائِكَةُ مِنْ طَبِيعَتِهَا

(١) رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (٢٧٥/٥) قَالَ: «حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَائِشَةَ ثُمَّ ذَكَرَهُ، وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ» (١٧/٣٥٠)، وَفِي «تَهْذِيبِ الْأَثَارِ» مَسْنَدُ ابْنِ عَبَّاسٍ (٧٣٣)، وَفِي سَنَدِ الْخَبَرِ رَأَوْهُمْ.

العلو والخفة فلا يعقل أن تنزل إلى الأرض، فلو جاز استبعاد صعود البشر؛ لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة والوحي، وهذا كفر.

ويرد على هذا القول أيضًا: يقول الله سبحانه: ﴿شَيْخَ الْأَيَّةِ أَتَرَى يَسْتَبِيهِ كَيْلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، والعبد يطلق على مجموع الروح والجسد.

ويُردُّ أيضًا على من قال: إن الإسراء كان منامًا أو كان بالروح: أنه لو كان الإسراء منامًا، وكان جسد النبي ﷺ وروحه باقيين في مكة: لما بادرت كفار قريش إلى تكذيب النبي ﷺ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم كما ثبت ذلك؛ فإنهم أنكروا أن يسافر إلى بيت المقدس مسافة شهر، في ليلة واحدة، ثم يصعد إلى السموات - وبين كل سماء إلى سماء مسافة خمسمائة عام - ويرجع في ليلة واحدة؟! فارتدوا، فلو كان منامًا: لما أنكروه، ولما كان هناك كبير شيء أو شأن في النوم والله - تعالى - قال: ﴿شَيْخَ الْأَيَّةِ أَتَرَى يَسْتَبِيهِ﴾ [الإسراء: ٢١]، والتسبيح إنما يكون في الأمور العظام.

وهذا يدل على أن الإسراء كان بروحه وجسده. وبهذا يبطل قول الذين قالوا: إن الإسراء كان بروحه - عليه الصلاة والسلام -.

أما أهل القول الثالث: الذين قالوا:

- كان الإسراء مرة منامًا ومرة يقظة.
- أو مرتين مرة قبل الوحي ومرة بعده.
- أو مرة قبل الوحي ومرتين بعده .

فقد أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله حين ختم القصة:

«واستيقظ وهو في مسجد الحرام»<sup>(١)</sup>، وبين سائر روايات الحديث التي لم تذكر هذه الألفاظ، فقالوا: إن الإسراء كان مرارًا مرة منامًا كما يفيد حديث شريك، ومرة يقظة كما تفيد سائر الروايات، وبعضهم قال: مرة قبل الوحي ومرة بعده، وبعضهم قال: ثلاث مرات: مرة قبل الوحي ومرتين بعده؛ جمعًا بين الأدلة في زعمهم، فكلما اشبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق بين الأدلة - في نظرهم - وهذا يفعله ضعفاء رواة الحديث .

والجواب عن شبهتهم: أجاب عنها العلامة ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»<sup>(٢)</sup> قال: إنه ثبت في حديث الإسراء والمعراج أن الله فرض على نبينا محمد ﷺ الصلاة في أول الأمر خمسين صلاة في اليوم والليلة، ثم جعل النبي ﷺ يتردد بين ربه وبين موسى في السماء السادسة وفي كل مرة يأمره موسى - عليه الصلاة والسلام - بأن يسأل ربه التخفيف لأمته، فيحط الله - تبارك وتعالى - عنه خمسًا وعشرًا حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم قال: «ناداني مُنَادٍ: أَتَضَيِّقُ قَرِيضَتِي وَتَحْفَقُ عَنْ عِبَادِي»<sup>(٣)</sup>، فلو كان الإسراء والمعراج منامًا للزم من ذلك أن يعيد الله فرضية الصلاة مرة ثانية خمسين، ثم يحطها إلى خمس؛ وهذا فاسد. وبهذا يبطل هذا القول.

أما أهل القول الرابع: الذين قالوا: إن الإسراء كان مرة واحدة؛ بجسده وروحه؛ يقظة لا منامًا؛ في ليلة واحدة؛ قبل البعثة وبعدها وقبل الهجرة، فهذا القول هو الصواب وهو ما تؤيده النصوص من الكتاب والسنة.

(١) سبق تخريجها قبل قليل، وهي رواية شريك بن أبي نمر.

(٢) زاد المعاد (٤/٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث مالك بن مسمعة رحمه الله.

ومن أيلة هذا القول:

الدليل الأول: قول الله - تعالى - ﴿سَيَحْنُ الَّذِينَ أُسْرِيَ يَمْلِكُوهُ لَيْكَا مَرَكْ أَنْسَجِدَ الْكَرْكُو إِلَى كَسَجِدَ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ٢١]، ووجه الدلالة: أن العبد إذا أطلق فهو عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح؛ إذا أطلق، وهذا يدل على أن الإسراء بروحه وجسده، ولهذا قال الطحاوي رحمه الله: (وُجِرْ بِشَخْصِهِ فِي الْبَقَّةِ) والشخص اسم للروح والجسد، فالطحاوي رحمه الله يثبت أن الإسراء بروحه وجسده كما عليه المحققون.

الدليل الثاني: ما ثبت في «الصحاحين» - رحم الله صاحبيهما - بروايات متعددة أنه أسري برسول الله ﷺ وُجِرْ بشخصه إلى السماء، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم إمامًا، وأنه التقى بعدد من الأنبياء في كل سماء، وأن الله فرض عليه الصلاة خمسين، ثم خففها إلى خمس بترده بين ربه وبين موسى، وأنه رأى جبريل عند سدره المنتهى على صورته التي خُلِقَ عليها، وكل هذه الروايات ظاهرها أنه أسري بروحه وجسده - عليه الصلاة والسلام - وبهذا يتبين أن الصواب أنه أسري بروحه وجسده - عليه الصلاة والسلام -، وأنه لا بد للمسلم أن يؤمن بالإسراء والمعراج، ومن أنكر الإسراء كفر؛ لأنه مكذب لله، وللقرآن ومن أنكر المعراج فلا بد من إقامة الحجة عليه.

**الفوائد المستنبطة من حديث الإسراء والمعراج:**

**أولاً: الفوائد الأصولية:**

١- جواز النسخ قبل التمكن من الفعل؛ حيث فُرِضَت الصلاة خمسين أولاً، ثم نسخت بأن خُفِّضَتْ إلى خمس، وهذا كان في السماء قبل

تمكن العباد من الفعل.

٢- جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة، حيث أعلم النبي ﷺ الأمة بفرضية الصلاة إجمالاً بدون تفصيل لأركانها وشروطها وهيئاتها وأوقاتها، ثم لما جاء وقت الصلاة، نزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، ووجد له الأوقات.

**ثانياً: الفوائد العامة:**

١- إثبات علو الله عز وجل؛ من وجوه: حيث إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - عُجِرَ به إلى ربه عز وجل، ثم جاوز السبع الطباق، ثم لما كان يتردد بين ربه وبين موسى في كل مرة؛ يعلو به جبرائيل إلى الجبار -تبارك وتعالى-؛ ففيه الرُّدُّ على من أنكر العلو، من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، وغيرهم.

٢- إثبات الكلام لله عز وجل؛ حيث فرض الله - سبحانه - عليه الصلاة بدون واسطة؛ وفيه الرُّدُّ على من أنكر الكلام.

٣- فضيلة نبينا محمد ﷺ وعظم منزلته عند الله عز وجل؛ حيث جاوز الأنبياء كلهم، وجاوز السبع الطباق، وصلى بالأنبياء إمامًا، وبعضهم استنبط أن رسول الله رآه بعين رأسه لكن هذا ضعيف كما سبق.

٤- مشاركة نبينا محمد ﷺ لموسى - عليه الصلاة والسلام - في التكليم، وأن التكليم ليس خاصًا بموسى، كما أن الخَلَّةَ ليست خاصة بإبراهيم، بل يشاركه فيها نبينا أيضًا، فكما أن إبراهيم خليل الله؛ فمحمد خليل الله، وكما أن موسى كلمه الله؛ فمحمد كلمه الله؛ كلمة الله بدون واسطة؛ ليلة المعراج.

- ٥- شفقة موسى ورحمته بهذه الأمة؛ حيث أمر نبينا محمد ﷺ أن يسأل ربه التخفيف لأمته في شأن الصلاة .
  - ٦- عظم مخلوقات الله - تعالى - وسعتها، وهذا يدل على عظمة الخالق .
  - ٧- معجزة الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الإسراء والمعراج؛ حيث كانا في ليلة واحدة.
  - ٨- استشارة أهل الفضل والصالح؛ حيث التفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير .
- مسألة: ما الحكمة من تقديم الإسراء إلى بيت المقدس على المعراج؟
- الجواب: الحكمة - والله أعلم - إظهار صدق دعوى النبي ﷺ المعراج، حيث سألته قریش عن نعت بيت المقدس، فَنَعَتْهُ لَهُمْ وأخبرهم عن عيبرهم التي مرَّ عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة؛ لما حصل ذلك؛ إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء، فلو أخبرهم عنه ما استطاعوا أن يحكموا بصدقه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته.
- وقيل: الحكمة أن يجمع ﷺ في تلك الليلة بين رؤية القبلتين.
  - أو: لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله، وحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أشرف الفضائل.
  - أو: لأنه محل الحشر وغالب ما اتفق له في تلك الليلة يناسب الأحوال الأخروية فكان المعراج منه أليق بذلك.
  - أو: ليحصل التفاعل بحصول أنواع التقديس له حساً ومعنى.
  - أو: ليجتمع بالأنبياء جملة.

وذهب بعض العلماء إلى أن الحكمة هي تحصيل العروج مستويًا بغير تعويج<sup>(١)</sup>؛ لأن كعب الأحبار روى أن باب السماء الذي يقال له «مصعد الملائكة» يقابل بيت المقدس، لكن هذا فيه نظر لورود أن في كل سماء بيتًا معمورًا، وأن الذي في السماء الدنيا حيال الكعبة<sup>(٢)</sup>، فكان المناسب أن يصعد من مكة ليصعد إلى البيت المعمور بغير تعويج، وهذا ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: «روح المعاني» للألوسي (١٢/١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في «تفسير ابن كثير» (٤٢٨/٧)، والطبراني في «الكبير» (٤١٧/١١)، وعبد الرزاق (٨٨٧/٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠١٥) قال ابن كثير - عما رواه ابن أبي حاتم: - «هذا حديث غريب جدًا، تفرد به روح بن جناح هذا وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعيد الدمشقي، وقد أنكر عليه هذا الحديث جماعة من الحفاظ منهم الجوزجاني، والمقبلي، والحاكم، وغيرهم.

(٣) انظر: «فتح الباري» (١٩٦/٧-١٩٧).

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وَغُرِجَ بِهِ):

#### الشرح

• قوله: (المِعْرَاجُ حَقٌّ):

يعني: ثابت، وكذلك قوله: (أُسْرِيَ بِشَخْصِيهِ) حق ثابت لا بد من الإيمان به .

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَا وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [التخيم: ١١])، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَجْرَةِ وَالْأُولَى):

#### الشرح

لا شك أن الله أكرمهم في ذلك العروج، وفي صلاته بالأنبياء ورفعته فوقعهم، وأكرمهم الله بتكليمه له، وفرضه الصلاة عليه.

وقوله: ﴿﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾﴾ [التخيم: ١١])، قال تعالى: ﴿﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾﴾ [التخيم: ١٧])، فلم يزع بصره، ولم يكذب فؤاده عليه الصلاة والسلام، بل كل ما رآه فهو حق.

وقوله: (فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَجْرَةِ وَالْأُولَى): صلاة الله على عبده أحسن ما قيل فيها كما رواه البخاري عن أبي العالية - رحمه الله - ورحمه - أنه قال: «صلاة الله على عبده كُتِبَتْ فِي الْمَلَا الْأَعْلَى»<sup>(١)</sup>.

(١) أورد البخاري (٥٢٢/٨) - فتح معلقا بصيغة الجزم عن أبي العالية - رحمه الله، وعزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٥٣٣/٨) لابن أبي حاتم رحمه الله، وساق سنده عنه، وأخرجه أيضاً إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» (٩٥).

سوق حديث الإسراء لإجمالا ما سبق:

كان من حديث الإسراء أنه ۞: «أُسْرِيَ بِخَسَدٍ فِي الْبَقْلَةِ - عَلَى الصُّبْحِ - مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى رَاكِبًا عَلَى الْبُرَاقِ بِصُحْبَةِ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَنَزَلَ هُنَاكَ، وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَرَبَّطَ الْبُرَاقَ بِحُلُقَةٍ بَابَ الْمَسْجِدِ.

وقد قيل: إنه نزل بيت لحم فصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة، «ثُمَّ غُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي بَلَدِ الْكَلِيلَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ جِبْرَائِيلُ فَفُتِحَ لَهُ، فَرَأَى هُنَاكَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ قَسَلَمَ عَلَيْهِ، فَوَحَّشَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَأَقْرَأَ بِنُبُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَى فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، فَلَقِيَهُمَا قَسَلَمَ عَلَيْهِمَا فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ وَوَحَّشَا بِهِ وَأَقْرَأَا بِنُبُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِيَةِ فَرَأَى فِيهَا يُوشَعَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَسَلَمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَوَحَّشَ بِهِ وَأَقْرَأَ بِنُبُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ قَسَلَمَ عَلَيْهِ وَوَحَّشَ بِهِ وَأَقْرَأَ بِنُبُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ ابْنَ عِزْرَانَ، قَسَلَمَ عَلَيْهِ وَوَحَّشَ بِهِ وَأَقْرَأَ بِنُبُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى قَسَلَمَ عَلَيْهِ وَوَحَّشَ بِهِ وَأَقْرَأَ بِنُبُوتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ بِحَى مُوسَى قَبِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَتَبْكِي لِأَنَّهُ غَلَامٌ بَعَثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَثْنِوِ أَكْثَرُ مِنَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أَثْنِوِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، قَسَلَمَ عَلَيْهِ وَوَحَّشَ بِهِ وَأَقْرَأَ بِنُبُوتِهِ، ثُمَّ رَفَعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى ثُمَّ رَفَعَ لَهُ الْبَيْتَ الْمُعْمُورَ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ -، فَكُنَّا مِنْهُ حَتَّى كَانَتْ قَابُ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، وَفُزِّنَ عَلَيْهِ خَمْسُونَ صَلَاةً، فَرَجَعَ حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أَمِرتُ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنَا

أعلم بالناس منك، عالجُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وإن أمتك لا تُطبق، فارجع إلى ربك فَسَلِّهْ، فرجع فسأله فجعلها أربعين، ولا زال يراجع حتى جعلها خمساً. فنودي: إني قد أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي، وأجزيتُ الحسنه عشرًا.

هذا معنى ما ذكره البخاري في «صحيحه»<sup>(١)</sup> من حديث مالك بن صعصعة .

وفيه أيضاً لكن من حديث أنس: «أَنَّهُ لَمَّا مَرَّ عَلَى مُوسَى، وَسَأَلَهُ: يَا مُحَمَّد، مَاذَا عَهْدَ إِلَيْكَ رَبِّكَ؟ قَالَ: عَهْدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: إِنْ أَمَتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ: أَنْ نَعْمَ إِنْ شِئْتَ، فَعَلَا بِهِ إِلَى الْجَبَارِ فَقَالَ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنْ أَمَتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا، فَوَضَعَ عُنُقُهُ عَشْرًا، ثُمَّ نَزَلَ حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حَتَّى جَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَمَرَهُ مُوسَى بِالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣٢٠٧)، و(٣٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٧) من حديث أنس بن مالك. ﷺ

## الحوض

### ثبوت الحوض

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْحَوْضُ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ -تَعَالَى- بِهِ عِبَادًا لِأَمْرِهِ حَقٌّ):

### الشرح

الحوض مما تواترت فيه الأحاديث الصحيحة.

وأصل الحوض في اللغة: مجمع الماء، أو ما يكون محلاً لجمع الماء في الحقل، - مشتق من السيلان - ومنه قولهم: حاض الوادي إذا سال.

وأما الحوض الوارد في الأحاديث فالمراد به شرعاً: الحوض المورود للنبي ﷺ في عرصات القيامة.

وقد أنكر الحوض بعض طوائف الخوارج، وبعض المعتزلة، وأما أهل الحق - أهل السنة - فإنهم يؤمنون بالحوض، وهو حق يجب اعتقاده والإيمان به، والأدلة على ثبوته كثيرة، تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً؛ منها:

- حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا بَيْنَ نَاجِيَتَيْنِ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ ضَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخر - مسلم (٢٣٠٣) من حديث مُعْتَمِرٍ، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بلفظ: «مَا بَيْنَ نَاجِيَتَيْنِ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ ضَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ»، وساقه أيضاً عن هشام، وأبي عوانة كلاهما عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بـ «لَكُنَّ مُسْلِمًا قَالَ: «غَيْرُ أَهْمَا شُكَّا فَقَالَا: أَوْ يَثَلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَعَشَاءً...». ومن طريق هشام به أخرجه =

- وَعَمَّانَ - بفتح العين وتشديد الميم - هي مدينة معروفة، يقول ابن الأثير في «النهاية»: إنها مدينة قديمة بالشام من أرض البلقاء.
- ومنها: حديث أنس رضي الله عنه: «إِنَّ قَلْبَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنْ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْكَبَائِرِ كَعَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ»<sup>(١)</sup>.
- ومنها: حديث يزيد الرقاشي عن أنس أيضاً: «إِنَّ لِي حَوْضًا عَرْضُهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْكَبَةِ - أَوْ قَالَ - صَنْعَاءَ»<sup>(٢)</sup>.
- ومنها: حديث ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه: «حَوْضِي كَمَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى الْيَمَنِ»<sup>(٣)</sup>.
- ومنها: حديث ثوبان: «إِنَّ حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ الْبَلْقَاءَ»<sup>(٤)</sup>.

- = ابن ماجه (٤٣٠٤)، باللفظ المزبور، وكذا أخرجه غيره من طريق هشام به. وهو في الصحيحين بلفظ الحديث التالي.
- (١) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣)، وليس في رواية مسلم قوله: «إِنَّ».
- (٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٤٠٩٩) من حديث أنس بن مالك. وفي سنده عكرمة بن عمار المعجلي، قال الحافظ في «التقريب» (٤٦٧٢): «... صدوق يغلط»، وفيه أيضاً: يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.
- (٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٥٤/٥)، وقال محمد طاهر المقدسي في « ذخيرة الحفاظ» (١٢٥٠/٣): «رواه عائد بن سيرر المعجلي، عن علقمة بن مرثد، عن ابن بريدة، عن أبيه، وهذا يرويه عائد، وعنه يحيى بن يمان. ويحيى في جملة أهل الصدق إلا أنه بهم ويغلط، وعائد ضعيف».
- (٤) أخرجه الترمذي (٢٤٤٤)، وأحمد في «المستدرک» (٢٧٥/٥)، والحاكم في «المستدرک» (٢٠٤/٤) -تحقيق: مصطفى عبدالقادر، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦) -تحقيق: طارق عوض الله، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٠٦)، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٢٠٤/٤)، والألباني في «ظلال الجنة» (٧٠٦، ٧٠٧)، والحديث له عن ثوبان طرق وألفاظ أخرى، في الصحيح، وفي السنن.

- ومنها: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «حَوْضِي مَسِيرَةٌ شُهُورٌ، وَزَوَائِجُهُ سَوَاءٌ»<sup>(١)</sup>.
- ومنها: عند ابن ماجه: «حَوْضِي مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»<sup>(٢)</sup>.
- ومنها في رواية الدارقطني: «مَا بَيْنَ تَاجِيئَتِي حَوْضِي كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَجَرَبَاءَ وَأَذْرَحَ»<sup>(٣)</sup>. وهما قريتان بالشام قيل: بينهما مسيرة ثلاثة أيام.
- فهذه ثمانية أحاديث، وهي أحاديث مختلفة في تحديد المسافة، واختلف العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث على أقوال؛ منها:
- ١- أن اختلافها إنما هو على وجه التقريب لا التحديد.
- ٢- ومنها: أن اختلافها إنما هو بالنسبة للطول والعرض.
- ٣- ومنها: أن اختلافها بحسب ما يعرفه السائل من حجازي أو يمني أو شامي.
- ٤- ومنها: أن اختلافها إنما هو بالنسبة للمُجِدِّ في السير والبطيء فيه.
- ٥- ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بالمسافة القريبة أولاً ثم أعلمه الله بالزيادة فضلاً منه ورحمة.

- (١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) واللفظ له.
- (٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠١)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٢٣)، بسند ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه (الكعبة) بدل (المدينة)، وصححه الألباني، رحمته الله في «ظلال الجنة» (٧٢٣).
- (٣) هو في الصحيحين وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه، نحوه، وليس فيه ذكر المدينة. وانظر: «البخاري» (٦٥٧٧)، و«مسلم» (٢٢٩٩)، ورواية الدارقطني المشار إليها، عزأها إليه الحافظ في «الفتح» (٤٧٢/١١).

أما القول الأول من هذا الاختلاف: وهو أنها على وجه التقريب لا التحديد: فالمعنى: أنه يقرب في كل منها؛ لُبْدُ أَطْفَارِ الْحَوْضِ وَسَعَتُهُ بِمَا تَسْنَحُ لَهُ الْعِبَارَةُ - عليه الصلاة والسلام -، فهو يقرب ذلك؛ للعلم يُبْعِدُ مَا بَيْنَ الْبِلَادِ الثَّانِيَةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، لَا عَلَى إِرَادَةِ الْمَسَافَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ. لكن يجاب عن هذا القول بأن ضرب المثل والتقدير إنما يكون فيما يتقارب، وأما هذا الاختلاف المتباعد الذي يزيد تارة على ثلاثين يوماً وينقص إلى ثلاثة أيام فلا يَتَأَثَّرُ.

وأما القول الثاني: وهو أن الاختلاف بالنسبة إلى الطول والعرض، فبرده حديثُ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «خَوْضِي مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءً»<sup>(١)</sup>.

وبهذا يكون هذان القولان ضعيفين، وأرجح هذه الأقوال: الثلاث الأخيرة؛ وهي: أن الاختلاف بالنسبة إلى السَّجْدِ فِي السَّيْرِ وَالْبَطْيِ، أو أن النبي ﷺ أخبر بالمسافة القريبة أولاً، ثم أعلمه الله بالزيادة، أو أن الاختلاف بحسب ما يعرفه السائل، لكن أرجحها الرابع؛ وهو أن النبي ﷺ أخبر بالمسافة القريبة أولاً، ثم الثالث؛ وهو بحسب ما يعرفه السائل، ثم الرابع؛ وهو أن اختلافه بالنسبة إلى المجد في السير<sup>(٢)</sup>.

مسألة: هل في العرصات أحواض أخرى غير حوض النبي؟

الجواب: ورد في الأحاديث أن هناك أحواضاً أخرى للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وأن لكل نبيٍّ حوضاً، لكن حوض نبيينا محمد ﷺ

(١) سبق قبل قليل.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٤٧١/١١)، (٤٧٢)

أعظمها، وأوسعها، وأحلاها، وأكثرها وروداً - جعلنا الله ممن يرده بمنه وكرمه.

ومر الإطالة على أن لكل نبي حوضاً:

حديث الحسن عن سمرة الذي أخرجه الترمذي في «جامعه»: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا يَنْبَئَاهُونَ أَهْلُهُمْ أَكْثَرُ وَإِرَادًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَإِرَادًا»<sup>(١)</sup>، لكن هذا من رواية الحسن عن سمرة، وسماع الحسن عن سمرة اختلفوا فيه؛ والأرجح أنه لم يسمع منه إلا حديث العقبة.

ومنها: حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إِنَّ لِي حَوْضًا طَوَّلُهُ مَا بَيْنَ الْكَعْبَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، أَيْبَنُهُ عَدَدُ نَجْمِ السَّمَاءِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ يَدْعُو أَهْلَهُ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْفَقَامُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْعُطْبَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْفَقْرُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الرَّجُلَانِ وَالرَّجُلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ فَيَقَالُ: لَقَدْ بَلَّغْتَ، وَإِنِّي لَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ بَيَاضًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤٤/١)، والطبراني في «الكبير» (٢١٢/٧)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٣٤)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وقد روى الأئمة بن عبد الملك هذا الحديث، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلًا، ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح». قال الألباني: «إن الحديث بجمع طرق حسن أو صحيح». انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩)، و«فتح الباري» (٤١٧/١١).

(٢) أخرجه مطولاً أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١١٠/١)، وابن أبي الدنيا في «كتاب الأهمال» كما ذكره ابن كثير في «النهاية» في الفتن والملاحم (٣٦٣/١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢١١٨)، وأخرجه مختصراً بدون ذكر موضع الشاهد ابن ماجه (٢٧٩/٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٦٨١)، و(٣٤١٠٤)، وأبو يعلى (١٠٣٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٩٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٣٣). قال الترمذي: «وقد روى =



مسألة: الحوض قبل الصراط أم بعد الصراط؟

الجواب في هذه المسألة للسلف قولان:

أحدهما: أن الحوض يورد بعد الصراط؛ فيكون المرور على الصراط أولاً ثم يورد الحوض، واختار هذا الحافظ ابن حجر والسيوطي -رحمهما الله-، واحتج هؤلاء بحديث النضر بن أنس؛ فإن ظاهره يقتضي ذلك، وذلك أن أنس قال: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: أَنَا فَاعِلٌ، قَالَ: فَلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَأَيْنَ أَظْلَمُكَ؟ قَالَ: أَظْلَمُنِي أَوَّلَ مَا نَطْلُبُنِي عَلَى الصَّرَاطِ، قَالَ: فَلْتُ: فَإِنَّ لَمْ أَلْفَكَ عَلَى الصَّرَاطِ؟ قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْجَبَرَانِ فَلْتُ: فَإِنَّ لَمْ أَلْفَكَ عِنْدَ الْجَبَرَانِ؟ قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ، فَإِنِّي لَا أَخْطُرُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ»<sup>(١)</sup>.

- وكذلك أيضاً من أدلتهم حديث لقيط وافد بني المنتفق فإن فيه أنه قال في آخر الحديث: «فَتَطْلُبُونُ عَلَى حَوْضِ الْمُرْسُولِ»<sup>(٢)</sup>، يعني: بعد

= الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلًا. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩)، وصحح الرواية المرسلّة وضعف الموصولة الحافظ في «الفتح» (٤٦٧/١١)، والرواية المختصرة مع أن في سندها عطية المؤفي، فقد صحح الحديث الألباني في «ظلال الجنة» (٧٢٣) لشواهد كثيرة، وأشار إلى أن أصل الحديث من رواية أبي سعيد في الصحيحين وغيرهما؛ من طرق عنه.

(١) أخرجه الترمذي: (٢٤٣٣) والسياق له، وأحمد: (١٧٨٣)، واللائكاني في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٢٢٠)، وابن عساکر في «تاريخه» (٣٦٠/٩-٣٦١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وصححه الألباني. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٣٠).

(٢) الحديث بطوله أخرجه ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (١٣/٤)، وفي «السنّة» (١١١٢٠)، والحاكم (٦٠٥/٤-٦٠٦)، والطبراني في «الكبير» (٤٧٧)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (٦٣٦)، وابن خزيمة في «الشوحيد» (٤٦٠/٢-٤٧٠)، =

المرور على الصراط .

القول الثاني: أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط وهذا هو الصواب؛ لما يأتي من الأدلة الشرعية والعقيلة.

فهم الإجابة الشرعية:

الأحاديث التي تدل على منع المرتدين على أعقابهم وأنهم يُنادون عن الحوض:

- كحديث أنس ﷺ: «لَبِردَنَ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضِ حَتَّى إِذَا عَرَفْتَهُمْ اخْتَلَجُوا دُونِي فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، يَقُولُ: لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُوا بِئِذِكَ»<sup>(١)</sup>.

- ومنها حديث سهل بن سعد الأنصاري ﷺ: «إِنِّي فَرَطْتُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَن مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَن شَرِبَ لَمْ يَطْمَأْ أَبَدًا، لَبِردَنَ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعرَفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ - وزاد أبو سعيد الخدري: ﷺ - فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، يُثَقَّلُ: إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُوا بِئِذِكَ، فَأَقُولُ: سَحَقًا سَحَقًا لِمَن غَيَّرَ بَعْدِي»<sup>(٢)</sup>.

فهذه الأحاديث تدل على أن الحوض يورد قبل الصراط من وجهين:

= والحديث قوُّه الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» (٦٧٧/٣-٦٧٨)، وفي «حادي الأرواح» (ص ١٧٠)، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٦٠٧/٤). لكن قال الحافظ ابن كثير في «البداية» -بعد أن ساقه من رواية ابن الإمام أحمد- (٨٢/٥): «هذا حديث غريب جداً والفاظه في بعضها تكارة...».

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، واللفظ له (٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩٠)، و(٢٢٩١)، وفي الصحيح عن غيرهم من الصحابة ﷺ.

**الأول:** لو كان الورد على الصراط قبل الحوض لكان مثل هؤلاء المذاين الذين يذاون عن الحوض ويطردون لا يجاوزون الصراط؛ لأنهم إن كانوا كفاراً فالكافر لا يجاوز الصراط بل يكب على وجهه في النار قبل أن يجاوز، وإن كانوا عصاة وهم من المسلمين فجازوا الصراط لم يشفع لهم في دخول النار أو عفا الله عنهم بدون شفاعته، وإن لم يكن شفاعته ولا عفو دخلوا النار ولبثوا فيها بقدر عصيانهم، وحينئذ يلزم حجبهم عن الحوض مع أنهم من المسلمين، وهذا لا سيما أن عليهم سيما الوضوء كما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَرَوْ عَلَيَّ أَمْنِي الْحَوْضُ وَأَنَا أَزُودُ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَزُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ. قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ: نَعَمْ لَكُمْ سِيْمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ؛ تَرُدُّونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ...»<sup>(١)</sup>

**الثاني:** لو كان الورد على الصراط قبل الحوض، للزم ألا يُحجب عن الحوض أحد؛ لأن من جاوز الصراط؛ لا يكون إلا ناجياً مسلماً؛ ومثل هذا لا يُحجب عن الحوض.

**ومن الأدلة العقلية:**

- أن الناس يردون الموقف عطاشى، فمن المناسب ورود المؤمنين الحوض قبل مرورهم على الصراط.
- وأما حديث النضر بن أنس الذي استدل به أهل القول الأول على أن الصراط يكون قبل الحوض؛ فيجواب عنه بأجوبة؛ منها:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رَوَاهُ أَيْضاً (٢٤٩) عن أبي هريرة بسياق آخر، وفيه موضع الشاهد بلفظ مقارب. وأخرجه أيضاً (٢٤٨) من حديث حذيفة وفيه موضع الشاهد بسياق مقارب أيضاً.

**أولاً:** أن المراد بالحوض في الحديث؛ حوض آخر يكون بعد الجواز على الصراط، لا يذا عنه أحد، كما جاء في بعض الأحاديث؛ كحديث لقيط بن عامر وفيه: «ثُمَّ يَنْصُرُ نَبِيُّكُمْ وَيَنْصُرُ عَلَى أَقْرَبِ الصَّالِحِينَ قَسَلُكُمْ جِسْرًا مِنَ النَّارِ، قَطَطٌ أَحَدَكُمْ الْخَيْرُ فَيَقُولُ: حَسَنَ يَقُولُ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ: أَوْ أَنَّهُ لَا تَقْطِلُوهُمْ عَلَى حَوْضٍ نَبِيُّكُمْ عَلَى أَظْمَأَ - وَاللَّهِ - نَاهِلَةٌ عَلَيْهَا قَطَطٌ مَا رَأَيْتُهَا، فَلَعَنَ إِلَهُكَ مَا يَبْسُطُ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدَهُ إِلَّا وَضَعَ عَلَيْهَا قَدَحٌ يُظْهِرُهُ مِنَ الطَّوْفِ وَالْبَوْلِ وَالْأَذَى»<sup>(١)</sup>.

**ثانياً:** أن الحوض نفسه يمتد إلى ما وراء الجسر كما يفيد حديث لقيط هذا، وأن المؤمنين إذا جاوزوا الصراط وقطعوه دنا لهم الحوض فشرّبوا منه، فإنه ورد أن طوله شهر وعرضه شهر، فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده إلى ما وراء الجسر؟ وعلى هذا: قَبْرُهُ الْمُؤْمِنُونَ مرتين؛ مرة قبل الصراط، ومرة بعده؛ جمعاً بين الأدلة، وهذا ما في حيز الإمكان، ووقوعه موقوف على خبر الصادق .

وهذا كلام العلامة ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» يقول<sup>(٢)</sup>: إذا كان الحوض بهذه السعة مسافته شهر، فهذا يدل على أنه يمتد، وأنه طويل، وأنه يكون ما وراء الجسر، وأن الناس يردونه مرة قبل الصراط، ومرة بعد المرور على الصراط.

وسلك بعض أهل العلم طريقاً للجمع آخر، فقالوا: إن للنبي ﷺ حوضين: أحدهما في الموقف قبل الصراط، والآخر داخل الجنة وهو

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/٥٨٨)

الكوثر، وكل منهما يسمى كوثرًا<sup>(١)</sup>. ولكن هذا لا يصلح جوابًا عن حديث النضر؛ لأنه صرح أنه يوم القيامة. وأجاب الحافظ ابن حجر رحمته عن هذا فقال: وفيه نظر؛ لأن الكوثر نهر داخل الجنة، وماؤه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثرًا؛ لكونه يُنَدُّ من نهر الكوثر<sup>(٢)</sup>.

وقال الحافظ أيضًا: ظاهر الأحاديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها، وهذا يدل على أن الحوض بعد الصراط؛ إذ لو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر فيه.

وأجاب الحافظ عن الأحاديث التي تدل على منع المرتدين على أعقابهم من الشرب من الحوض، فقال ما مفاده: وأما ما أورد عليه من أن جماعة يُدفعون عن الحوض بعد أن يروه ويُذهب بهم إلى النار، فجوابه أنهم يقربون من الحوض بحيث يرونه ويرون الجنة، يُدفعون في النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط.

قُلْتُ: وهذا تأويل بعيد.

وأجاب السيوطي عن إشكال يَرُدُّ على القول بأن الحوض يورد بعد الصراط؛ قال: فإذا قيل: إذا خلصوا من الموقف دخلوا الجنة فلا يحتاجون إلى الشرب من الحوض، فالجواب: بل هم محتاجون إلى ذلك؛ لأنهم محبوبون هناك لأجل المظالم؛ فكان الشرب في موقف القصاص، - يعني: يكون الشرب على ما ذكر السيوطي بعد المرور على الصراط؛ لأنه ثبت أن المؤمنين إذا تجاوزوا الصراط حَبِسوا على قنطرة بين الجنة

(١) انظر: «الذكرة» للقرطبي (ص ٣٤٧).

(٢) (١١ / ٤٦٦).

والنار قيل: إنها طرف الصراط، وقيل: إن الصراط خاص بالمؤمنين حتى يقتصر بعضهم من بعض المظالم التي بينهم، فإذا هُذِبُوا وَتُقُوا دخلوا الجنة.

قال السيوطي رحمته: يكون الحوض في هذا المكان.

قلت: ولكن هذا أيضًا بعيد؛ لأن هذا التأويل تَرُدُّه الأحاديث الكثيرة التي صرحت بأنه يُزاد عن الحوض أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، وهذا يدل على أن الحوض في موقف الحساب لا في موقف قصاص المؤمنين بعضهم من بعض.

وجمع بعض العلماء بين الأحاديث، بجمع آخر وهو: أنه يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم ويتأخر الشرب بعد الصراط لآخرين؛ بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار حتى يُهذَّبوا منها على الصراط. قال بعض أهل العلم: وهو جمع حسن القول، وعلى هذا الجمع؛ يكون هناك حوضان: أحدهما: حوض قبل الصراط، والآخر: حوض بعده، أو أن الحوض نفسه يمتد إلى ما وراء الجسر، كما سبق هذا في الجواب عن حديث النضر.

هذه أقوال العلماء في الحوض هل قبل الصراط أو بعد الصراط؟ لكن سماحة شيخنا: الشيخ عبد العزيز بن باز - غفر الله له ورحمه وجمعا به في الفردوس الأعلى - تنبه لأمر لم ينتبه له هؤلاء العلماء الذين قالوا: إن الحوض قبل الصراط فقال سماحة شيخنا رحمته: إن صحت الأخبار أنهم يَرُدُّون بعد الصراط؛ فهذا نهر يردونه في الجنة؛ لأن الصراط ممدود على متن جهنم؛ يصعد الناس عليه إلى الجنة، فمن جاوز الصراط وصل إلى الجنة، والحوض في الأرض؛ فلا يرجعون إلى الأرض مرة ثانية بعد صعودهم إلى الجنة، وهذا هو الذي تدل عليه الأحاديث، ويدل على ذلك

أنه يثاد أقوام قد غيروا وبدلوا، وهذا يكون في موقف القيامة، أما بعد المرور على الصراط؛ يكون الأمر قد انتهى؛ فمن سقط في النار فقد سقط، ومن تجاوز الصراط وصل إلى الجنة .

مسألة: هل الحوض قبل الميزان أو بعده؟

الجواب: في المسألة قولان لأهل العلم:

أحدهما: أن الميزان أسبق من الحوض، وحجة هذا القول؛ ظاهر حديث النضر بن أنس؛ فإنه قدّم الميزان على الحوض.

الثاني: أن الحوض قبل الميزان، وهذا هو الراجح، وحجة هذا القول؛ الأحاديث التي تدل على أنه يزداد عن الحوض أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، فلو كان ورود الحوض بعد الميزان؛ لما حُجب عنه أقوام؛ لأن هؤلاء الذين خفت موازينهم، يعرفون أنه لا سبيل لهم إلى الشرب من الحوض، فلا يردونه إطلاقاً .

ويدل على ذلك أيضاً العقل؛ لأن المعنى يقتضيه؛ فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشي؛ فمن المناسب أن يكون الورد على الحوض قبل الميزان؛ للحاجة الشديدة إلى الشرب، فيُقدم قبل الميزان<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «التذكرة للقرطبي» (ص ٣٤٧)، وفتح الباري» (١١/٤٦٦)

## صفة الحوض

### الشرح

الذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وأنه في غاية الاتساع، وأن عرضه وطوله سواء، وأن كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وكلما شُرب منه؛ فهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك، والرضراض من اللؤلؤ، وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، - فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء - .

## مكان الحوض

### الشرح

بين القرطبي رحمه الله في «التذكرة» أن مكان الحوض لا يكون على هذه الأرض، وإنما يكون في الأرض المبدلة التي قال الله فيها: ﴿يَوْمَ يُدْعَى الْأَرْضُ بِأَرْضِهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤٨]، والأرض المبدلة تظهر لنزول الجبار - تعالى - لفصل القضاء، قال القرطبي رحمه الله: «ولا يخطر ببالك أو يذهب وهمك، إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض، وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة على مسامتة هذه الأقطار أو في المواضع التي تكون بدلاً من هذه المواضع في هذه الأرض. وهي أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يُظلم على ظهرها أحد، تظهر لنزول الجبار بحلّ جلاله؛ لفصل القضاء»<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «المفهم» (٦/٩٠)

## تُسَبُّهُ الْمُنْكَرِينَ لِلْحَوْضِ

### الشرح

قال القرطبي تَبَيَّنَا لِلْقَاضِي عِيَّازٍ <sup>(١)</sup> - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - : مَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَهُ وَيُصَدِّقَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّ نَبِيَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَوْضِ الْمَصْرُوحِ بِاسْمِهِ وَصَفَتِهِ وَشَرَاهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِمَجْمُوعِهَا الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ ؛ إِذْ قَدْ رَوَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الصَّحَابَةِ مَا يَنْبَغُ عَلَى الثَّلَاثِينَ ، مِنْهُمْ فِي «الصَّحِيحِينَ» مَا يَنْبَغُ عَلَى الْعِشْرِينَ ، وَفِي غَيْرِهَا بَقِيَّةُ ذَلِكَ مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ ، وَاشْتَهَرَتْ رَوَاتُهُ ، ثُمَّ رَوَاهُ مِنَ التَّابِعِينَ أَمْثَالُهُمْ ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ أَعْوَافُ أَعْوَافِهِمْ ، وَهَلُمَّ جُرًّا .

وَأَجْمَعَ عَلَى إِبْطَائِهِ السَّلَفُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْخَلْفِ ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَحَالُوهُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَغَلَوُا فِي تَأْوِيلِهِ ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَلَا عَادِيَّةٍ تَلْزَمُ مِنْ حَمَلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَأْوِيلِهِ ، فَخَرَّقَ مَنْ خَرَّفَهُ إِجْمَاعُ السَّلَفِ ، وَفَارَقَ مَذْهَبُ أُمَّةِ الْخَلْفِ .

وَالَّذِي أَنْكَرَهُ : الْخَوَارِجُ وَبَعْضُ الْمَعْتَزِلَةِ ، وَمِمَّنْ كَانَ يَنْكَرُ الْحَوْضَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ - أَحَدُ أَمْرَاءِ الْعِرَاقِ لِمَعَاوِيَةَ <sup>(٢)</sup> - ، وَوَلَدَهُ الَّذِي يَطْرُدُ مِنَ الْحَوْضِ وَيَذَادُ عَنْهُ ، فَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا ؛ كَالْأَعْرَابِ الَّذِينَ ارْتَدَوْا بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ يَطْرُدُونَ وَيَذَادُونَ ، وَلِهَذَا أَخْبَرَنَا هَذَا الْحَدِيثُ أَنَّهُ : «يُذَادُ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ النَّبِيُّ : أَصْحَابِي أَصْحَابِي» <sup>(٣)</sup> ، وَفِي لَفْظِ :

(١) انظر : «الذكرة» (ص ٣٥٠ - ط : دار الريان).

(٢) نقل هذا الإنكار عنه الحافظُ فِي «الفتح» (١١/٤٦٧) ، ثُمَّ نَقَلَ مَا يَدُلُّ عَلَى رُجُوعِهِ عَنْهُ .

(٣) انظر البخاري عقب (٦٥٨٥) ، ومسلم (٢٤٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

«يَا رَبِّ أَصْحَابِي ، قِيْلَ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُمَا بَعْدَكَ ... إِنَّ هَؤُلَاءِ إِيَّاهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَغْطَائِهِمْ مُنْذُ قَارَعْتَهُمْ» <sup>(١)</sup> .

قال السفاريني <sup>(٢)</sup> : إِنَّهُ يَطْرُدُ عَنِ الْحَوْضِ أَقْوَامٌ ، أَنْوَاعُ جِنْسٍ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْمُخْلِصِينَ فِي الدِّينِ ؛ كَالْخَوَارِجِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ الْمَضَلَّةِ .

وَنَائِبًا : كُلٌّ مِنْ يَرْتَدُّ عَنِ دِينِ اللَّهِ أَوْ أَحْدَثَ فِيهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ وَلَمْ يَأْذَنْ بِهِ ، وَأَشْدَهُمْ مِنْ خَالَفَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ ؛ كَالْخَوَارِجِ ، وَالرَّوَافِضِ ، وَالْمَعْتَزِلَةِ .

وَنَائِلًا : الظُّلْمَةُ الْمُسْرِفُونَ فِي الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ وَطَمَسَ مَعَالِمَ الْحَقِّ ، وَإِذْلَالَ أَهْلِهِ .

وَرَابِعًا : الْمُتَهَكِّمُونَ فِي ارْتِكَابِ الْمُنَاهِي ، وَالْمُعَلَّنُونَ فِي اقْتِرَافِ الْمَعَاصِي ، الْمُسْتَخْفُونَ بِهَا .

هَذَا قَوْلُ السَّفَارِينِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَرَى أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ يَطْرُدُونَ عَنِ الْحَوْضِ ، لَكِنْ ظَاهِرُ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الَّذِينَ يَذَادُونَ إِنَّمَا هُمْ الْكُفَرَةُ الْمُرْتَدُونَ عَلَى أَغْطَائِهِمْ عَنِ الدِّينَةِ ؛ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْأَحَادِيثِ ، أَمَّا هَذِهِ الْأَنْوَاعُ الَّتِي ذَكَرَهَا - هُمْ : الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، وَعَلَى رَسُولِهِ الْكُفْرَةَ - فَلَا بَأْسَ وَلَا غِبَارَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ ، أَمَّا كَوْنُ الْعَصَاةِ يَذَادُونَ ، فَهَذَا مُحَلٌّ لِنَظَرٍ وَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٢٥) ، وَمُسْلِمٌ (٢٨٦٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي عِيَّازٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) انظر : «الأمعان» للسفاريني (١٩٧/٢) ، وَ«الذكرة» للقرطبي (٣٥٢) .

## الشفاعة

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته: (وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَتَّى كَمَا دُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ):

## الشرح

الشفاعة في اللغة: قيل: الوسيلة والطلب، والحق أنها مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر، فهي إذاً في اللغة: ضم الشيء إلى الشيء به يصير الشيء زوجاً بعد إذ كان مفرداً؛ فكان الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له.

واصطلاحاً: قيل: سؤال الخير للغير، وقيل: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، وقيل: هي مساعدة ذي الحاجة عند من يملك الحاجة، والمشفَّع والمشفَّع المُشَفَّع اسم فاعل من شفع يشفع فهو شافع وشفع، وهو الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع اسم مفعول من شفع يشفع، وهو الذي تقبل شفاعة.

## أقسام الشفاعة:

مُتَّبِعَةٌ: وهي لأهل التوحيد: وهي لا تكون إلا للموحدين الذين ماتوا على التوحيد.

ومنفية: وهي لأهل الشرك الأصلي كما قال الله: ﴿فَمَا تَعْمَلُونَ لِمَا كنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٨].

## أنواع الشفاعة المُتَّبِعَةِ:

النوع الأول: الشفاعة العظمى: وهي التي تكون في موقف القيامة

لإراحة الناس من الموقف، وهي خاصة بنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، ودليها حديث الصور الطويل وفيه: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ يَأْتُونَ بَنِيَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فَيَذَعُوبُ فَيَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْفُحْصُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا سَأَلْتُكَ -وَهُوَ أَعْلَمُ؟- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فَأَقُولُ: يَا رَبِّي، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ، فَأَقْبَضَ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ الرَّبُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَكُمْ قَالَ: فَأَرْجِعْ فَأَقِفْ مَعَ النَّاسِ»<sup>(١)</sup>.

ولكن الأئمة حينما يوردون حديث الشفاعة من طرق متعددة لا يذكرون

(١) أخرجه اسحاق ابن راهويه في «مسنده» (١٠)، والطبراني في «التفسير» (١٢/٥٧٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٢٢/٣-٨٢٧)، والطبراني في الأحاديث الطوال (ص ٢٦٦-٢٧٧) كلهم من طريق إسماعيل بن رافع المدني، عن يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث طويل، قال ابن كثير في «التفسير» (١٩٦/٢) بعد إيراد الحديث من طريق الطبراني: «ثم ذكره بطوله ثم قال: هذا حديث مشهور وهو غريب جداً، ولبعض شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، فنرد به إسماعيل ابن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمر بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديث كلها فيها نظر إلا أنه يُكتب حديثه في جملة الضعفاء. قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة وأما سياقه فغريب جداً. ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأذكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فآله أعلم، وأصل حديث الشفاعة في الصحيحين: أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

فيه الشفاعة العظمى، في أن الرب يأتي لفصل القضاء، كما ورد في حديث الصور، مع أن فصل القضاء هو المقصود في هذا المقام، وهو مقتضى سياق أول الحديث؛ فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء، إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة، وإخراجهم من النار، فما الحكمة من ذلك؟

الجواب: أن مقصود السلف في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث؛ هو الرد على الخوارج، والمعتزلة، والزيدية، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم في بدعتهم هذه المخالفة للأحاديد.

النوع الثاني: الشفاعة لأهل الجنة في الإذن لهم في دخولها: ودليلهم ما في «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>.

النوع الثالث: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب: ودليله حديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهو في «الصحيحين»<sup>(٢)</sup>.

ومن الأدلة أيضاً قول الله - تعالى - في جواب قول النبي ﷺ لما قال: «أُمِّي أُمِّي» قال: «أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ الْأَيْمَنِ»<sup>(٣)</sup>، والذين يدخلون الجنة بغير حساب هم شركاء الناس في

(١) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٥٧٠٥)، وصحيح مسلم (٢١٨، ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بقية الأبواب.

النوع الرابع: الشفاعة في رفع درجات قوم من أهل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثوابهم ومن دليل ذلك حديث أنس: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>. فهذه أربعة أنواع لم يخالف فيها أحد، بل إن الخوارج والمعتزلة وافقوا فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ليدخلوا الجنة: ودليلها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «السَّائِقُ بِالْخَيْرَاتِ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَالظَّالِمُ نَفْسَهُ وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

النوع السادس: الشفاعة في قوم قد أمر بهم إلى النار ألا يدخلونها: ودليلها حديث حذيفة عند مسلم وفيه: «وَتُنِيَّهُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ»<sup>(٣)</sup>.

(١) سبق قبل حديث قال الحافظ في «الفتح» (٤٢٨/١١) - بعد أن سرد أدلة بعض أنواع الشفاعات: - «ودليل الخامسة: قوله في حديث أنس عند مسلم: (أنا أول شفيع في الجنة)، كذا قاله بعض من لقيناه؛ وقال: وجه الدلالة منه: أنه جعل الجنة طرفاً لشفاعته. قلت: وفيه نظر؛ لأنني سأبين أنها طرف في شفاعته الأولى المختصة به، والذي يطلب هنا أن يشفع لمن لم يبلغ عمله درجة عالية؛ أن يبلغها بشفاعته. وأشار النووي في «الروضة» إلى أن هذه الشفاعة من خصائصه، مع أنه لم يذكر مستنداً».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨٩/١١) حديث (١١٤٥٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٦٨٦/١٠): «فيه موسى بن عبد الرحمن الضنعاني وهو ضعاف، وينحوه عن أبي البرداء مرفوعاً، وانظر كلام الهيثمي حول هذا الحديث في «مجمع الزوائد» (٩٦-٩٥/٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥).

النوع السابع: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه: وهي خاصة بأبي طالب عم النبي ﷺ، وخاصة بالنبي ﷺ، ودليلها ما ورد من طرق متعددة أن النبي ﷺ قيل له: إن أبا طالب يحميك ويذود عنك ويؤيك فهل نفعته؟ قال: «نَعَمْ، وَجَدْتُهُ فِي عَمْرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى صَحْصَاحٍ»<sup>(١)</sup> وفي رواية: «لَعَلَّهُ تَفَعَّلَ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي صَحْصَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَتَبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ»<sup>(٢)</sup>، نسأل الله السلامة والعافية.

النوع الثامن: الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ ممن دخلوا النار ليخرجوا منها: وهذا أدلته متواترة؛ فمن ذلك حديث أنس ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّتِي»<sup>(٣)</sup>، وهذه شفاعته تتكرر من النبي ﷺ أربع مرات كما ثبت في حديث أنس، وأنه في المرة الأولى يقال: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، وفي الثانية يقال له: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، وفي الثالثة يقال له: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) واللفظ له من حديث العباس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠)؛ من حديث أبي سعيد الغدري إلا أنَّ مسلماً قال في روايته: «من نار».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٣٥)، وأبو داود (٤٧٣٩) من حديث أنس ﷺ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه ابن حبان (٦٤٦٨)، وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤٨٨/١): «وقد روى ابن مردويه من طرق عن أنس، وعن جابر مرفوعاً: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)، ولكن في إسناده من جميع طرقه ضعف، إلا ما رواه عبدالرزاق أخيراً معمر، عن ثابت، عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»؛ فإنه إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد رواه أبو عيسى الترمذي منفرداً به من هذا الوجه، عن عباس العنبري، عن عبدالرزاق».

من خردل من إيمان»، وفي الرابعة يقول: «لَأَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(١)</sup>.

فهذه ثمانية أنواع للشفاعة المثبتة، المتفق عليها من الأمة، الأربعة الأولى، وهذه الأربعة الأخيرة مختلف فيها: خالف فيها الخوارج والمعتزلة، وأنكروها جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك، واستمر على بدعته الوعيدية.

والفائدة والحكمة من الشفاعة هي: إكرام الشفيع في قبول شفاعته كما في الحديث: «اشْفَعُوا تُؤْخَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»<sup>(٢)</sup>، والحكمة في إلهام الناس التردد إلى غير النبي ﷺ في موقف القيامة؛ يسألون الأنبياء أن يشفعوا لهم، ولم يلهموا لمجيء النبي ﷺ من أول وهلة؛ هو لإظهار فضله وشفه ﷺ.

#### أقسام الناس في الشفاعة:

القسم الأول: وهم الذين غلوا في إثباتها، فأثبتوها مطلقة؛ وهم المشركون والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ، وبعض الصوفية؛ فأثبتوا شفاعه الأصنام والأوثان، ويجعلون شفاعه من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

القسم الثاني: وهم الذين غلوا في نفيها، فنفوا شفاعه نبينا محمد ﷺ وغيره في أهل الكبائر، وهم الخوارج والمعتزلة.

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢) وهذا سياقه، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.



القسم الثالث: وهم الذين توسطوا، وهم أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعه نبينا ﷺ في أهل الكباير، وشفاعة غيره، ويشترطون لها شرطين أخذوهما من النصوص:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، ودليله قول الله - تعالى - : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له، ودليله قول الله - تعالى - : ﴿وَلَا يَفْعَلُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذا القسم أيضاً: ينفون الشفاعة عن المشركين؛ عملاً بقول الله - تعالى - : ﴿فَمَا تَتْلُو مِنْهُ شَعْنُ أَتْلُوهُنَّ﴾ [المائدة: ٤٨].

#### الأعمال الموعود عليها الشفاعة:

قال السفاريني رحمه الله إن الأعمال الموعود عليها الشفاعة خمسة<sup>(١)</sup>:

الأول: إخلاص التوحيد، فمن قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه؛ استحققها، ودليله حديث أبي هريرة أنه سأل النبي ﷺ فقال: «مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ يَشْفَاعُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»<sup>(٢)</sup>.

الثاني: الدعاء بما ورد بعد سماع النداء - يعني: إجابة المؤذن - والدعاء بالدعاء الوارد في ذلك، ودليله حديث جابر: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدُّعْوَةُ الثَّانِيَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ؛ آتَ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالنُّصَيْلَةَ، وَابْتَعَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ

(١) لواعب الأنوار (٢/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

القيامة»<sup>(١)</sup>.

الثالث: الصبر على آلاء المدينة وجديها، ودليله حديث سعد بن أبي وقاص: «وَلَا يَبْتَغِ أَحَدٌ عَلَى لَأَوَائِهَا وَجْهَهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>.

الرابع: الموت في أحد الحرمين، ودليله حديث سلمان: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ اسْتَوْجِبَ شَفَاعَتِي وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمِينِينَ»<sup>(٣)</sup>.

الخامس: الصلاة على الرسول ﷺ عشراً في الصباح وعشراً في المساء، ودليله حديث أبي الدرداء: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِينَ يُصْبِحُ عَشْرًا وَحِينَ يُمَسِّي عَشْرًا أَذْرَكَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>.

هذا هو الذي ذكره السفاريني رحمه الله لكن هذه الأنواع فيها نظر.

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٦٣) بهذا السياق، وأخرجه بنحوه (١٣٧٨) من حديث أبي هريرة، رحمه الله.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٨٠)، وقال الزيلعي في كتاب «تخریج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف» (١/ ١٩٧): «رُوي من حديث جابر، وأنس، وسلمان، وعمر، وحاطب؛ وكلها ضعيفة». ثم عزّاها إلى مُخرّجها، وبين عللها؛ حديثاً حديثاً. وانظر: «مجمع الزوائد» (٥٨/٣)، وانظر: للأهمية «الفوائد المجموعة» للشوكاني (١١٤/١).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» - كما في «جلاء الأفهام» (١٤٣، ٤٤٩)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/١٠): «رواه الطبراني بإسنادين وإسناد أحدهما جيد ورجاله وثقوا».

لكن أشار العراقي في «تخریج أحاديث الإحياء» (٣١٤/١) إلى انقطاعه، وكذا البخاري في «القول البديع» (ص ١٧٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٣٩٦ - الطبعة الجديدة).

أما النوع الأول: وهو إخلاص التوحيد: فهذا لا شك فيه أن من أخلص التوحيد لله فهو من أهل الشفاعة، وهذا في الحديث في «الصححين» قال: «مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ شَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ غُلُوبِهِ»<sup>(١)</sup>.

أما النوع الثاني: إجابة نداء المؤذن: فهذا مفيد بإخلاص التوحيد.

وأما الثالث: الصبر على ألواء المدينة وجديها: فالحديث في محمود على الموحد الذي اجتنب الكبائر؛ جمعًا بين الأحاديث؛ لأن النبي ﷺ قال: «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتُ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرُ»<sup>(٢)</sup>، فلا بد من اجتناب الكبائر، قال - تعالى -: «إِنْ عَجَبْتُمْ بِهِ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَغُدَّكُمْ ثَغْلًا كَرِيمًا»<sup>(٣)</sup> [التوبة: ٣٦].

وأما النوع الرابع: الموت في أحد الحرمين: وهو في حديث سلمان: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ اسْتَوْجِبَ شَفَاعَتِي وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْأَمِينِينَ»<sup>(٤)</sup>، فلا أظن الحديث يصح، فالموت في أحد الحرمين ليس باختيار الإنسان، قال تعالى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» [لقمان: ٣٤]، ولكن الحديث لو صح فهو محمول على المؤمن الموحد، والمؤمن الموحد لا شك أنه من أهل الشفاعة.

النوع الخامس: الصلاة على الرسول عشرين في الصباح وعشرين في

(١) سبق قبل قليل.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ؓ، وفي الباب عن ابن مسعود، وأنس، وأبي بكر، لكن بأسانيد واهية. انظر: «مجمع الزوائد» (١/٢٩٨-٣٠٠).

(٣) سبق قبل قليل، وأنه لم يصح عن سلمان ولا عن غيره.

المساء: إن صح الحديث؛ فهو محمول على مَنْ فعل ذلك وكان من المؤمنين الموحدين.

شُبَّةُ المنعرج للشفاعة.

وهو المعتزلة والخوارج الذين أنكروا الشفاعة، وأنكروا أن يخرج أحد من النار بعد دخولها، واستدلوا:

أولاً: يقول الله - تعالى -: «وَأَنفَرُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقُولُ مِمَّا شَفَعَهُ وَلَا يُؤْخَذُ بِهَا عَذْلٌ» [التين: ٤٨]، وقول الله - تعالى -: «أَنفَرُوا يَوْمًا زَفَقَتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَنَاجِيَ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ» [التين: ٢٥٤]، وقول الله - تعالى -: «وَأَنفَرُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقُولُ مِمَّا شَفَعَهُ» [التين: ٤٨]، قالوا: دلت هذه الآيات على أن من دخل جهنم من أهل الكبائر يُخْلَدُ فيها، ولا تُقبل فيه الشفاعة.

والجواب: أن هذه الآيات مخصوصة بالكفار، ويؤيد هذا سياق الخطاب في الآية الأولى والثالثة، فإن الآية نزلت ردًا على اليهود في زعمهم أن آبائهم يشفعون لهم.

الدليل الثاني: استدلوا بقول الله - تعالى -: «فَمَا تَتَعَوَّذُ شَفَعَةُ الْكَافِرِينَ» [السجدة: ٤٨]، ووجه الدلالة أنها دلت على أن صاحب الكبيرة لا تنفعه الشفاعة.

والجواب: أن الآية في الكفار، بدليل وصفهم في الآيات السابقة لها في قوله - تعالى -: «فَمَا تَتَعَوَّذُ فِي سَفَرٍ» [السجدة: ٤٢] إلى قوله: «وَكَلَّا كَذَّبَ بِتَوَاتُرٍ» [السجدة: ٤٦].

الدليل الثالث: استدلوا بقول الله - تعالى -: «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِبٍ

وَلَا شَيْعَ شَيْعًا ﴿٢٨﴾، ووجه الدلالة أن الآية دلت على أن الظالم ليس له شيع يطاق، والعاصي ظالم

والجواب: أن المراد بالظالمين الكفار؛ لأن الظلم إذا أطلق انصرف إلى الكفر؛ إذ الكفر أعظم الظلم؛ بدليل قول الله - تعالى - ﴿وَكَيْفَ أَتَيْنَكَ طَائِفًا عَلَيْهِ﴾ (مفاتيح: ١٣) .

الدليل الرابع: استدلو بقول الله - تعالى - ﴿إِنَّكَ مَنْ تَحِلِّي أَلَّارَ فَكَدَّ أَخْرَيْتَهُ﴾ (آل عمران: ١٩٢)؛ ووجه الدلالة: أن الآية دلت على أن من دخل النار فهو هالك لا تنفعه الشفاعة، بل هو مُعَذَّبٌ؛ ممقوثٌ؛ غير مرضي عنه؛ فلا يدخل في قول الله - تعالى - ﴿وَلَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِمَنْ أَرْحَمَ﴾ (الأنبياء: ٢٢٨)؛ لأن من أخزاه الله: لا يُرْتَضَى.

الجواب: أن المراد بقوله: ﴿تَحِلِّي أَلَّارَ﴾ (آل عمران: ١٩٢) يعني: تُحْلَدُ، والمخلد في النار: هالك، لا تنفعه الشفاعة؛ إذ الخلود في النار خاص بمن مات على الكفر .

ويجاب عن الشبه الثلاث الأولى: بجواب آخر؛ وهو أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس على الإطلاق؛ وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداءً بدون إذن فيقبل شفاعته، أما إذا أذن له في أن يشفع فشفع؛ لم يكن مستقلاً بالشفاعة، بل يكون مطيعاً له؛ تابعاً له في الشفاعة، وتكون شفاعته مقبولة، ويكون الأمر كله للأمر المسئول، كما قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٤).

والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية قول الله - تعالى -: ﴿وَأَنْذِرْ يَوْمَ الَّذِينَ يُخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَهًُا بِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَئِنْ شَفَعَ﴾ (الأنعام: ٥١)، وقوله - سبحانه -: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ﴾

(الشجعة: ٤٤)، وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِمَنْ أَرْحَمَ﴾ (الأنبياء: ٢٢٨)، وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

والخلاصة: أن المنفَعُ: الشفاعة التي يبتها أهلُ الشرك ومن شابههم من أهل البدع، من أهل الكتاب، والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبةً ورهبةً، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة، فالكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين في الآخرة، ولكن قد يُخَفَّفُ العذابُ عن بعضهم؛ بسبب نصرتهم ومعونته، فإنه تنفعه الشفاعة في تخفيف العذاب، لا في إسقاط العذاب بالكلية، وهذا خاص بأبي طالب. وبهذا يتبين أن أدلة الخوارج والمعتزلة التي يستدلون بها في نفي بعض أنواع الشفاعات؛ إنما هي الأدلة التي يُستدل بها كلها في الكفرة .

مسألة: التوسل طلب الشفاعة، والاستشفاع طلب الشفاعة؛ وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يطلبه ويرجوه، والاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله في الدعاء -بمعنى التوسل به- فإذا قال إنسان: أنا أتوسل بالنبي ﷺ، أو أنا أستشفع بالنبي ﷺ في الدنيا، فما المراد بالتوسل والاستشفاع؟ وهل هو جائز أو غير جائز؟

الجواب: أن هذا مجمل فيه تفصيل؛ لأن التوسل والاستشفاع بالنبي ﷺ يراد به ثلاثة أمور؛ أمران متفق عليهما بين المسلمين، والثالث مختلف فيه.

أما الإمران المتفق عليهما:

فالأول: التوسل بالرسول ﷺ؛ بمعنى: التوسل بالإيمان به وطاقته؛

فهذا فَرَضٌ لا يتم الإيمان إلا به، وهو أصل الإيمان والإسلام.

والثاني: التوسل بالنبي ﷺ؛ بمعنى: التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا أيضًا جائز ونافع، وهذا كان في حياة النبي ﷺ، ويكون يوم القيامة حيث يتوسلون بشفاعته. فمن أكر التوسل بالرسول ﷺ بأحد هذين المعنيين: فهو كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل مرتدًا، وإن كان الثاني أخفى من الأول.

الثالث: التوسل بمعنى الإقسام على الله بذاته ﷻ والسؤال بذاته؛ فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه لا في الاستسقاء ولا في غيره؛ لا في حياته ولا بعد مماته؛ لا عند قبره ولا غير ذلك، ولا يُعرف هذا في شيء من الأدعية.

وأما حديث الأعمى الذي فيه قل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِنُفْضِي لِي، اللَّهُمَّ فَتَشْفِعْ لِي»<sup>(١)</sup>؛ فالصواب أن الأعمى توسل بدعاء النبي ﷺ فكان النبي ﷺ يدعو، وهو يؤمن.

إذًا: فالتوسل بالذات ممنوع، وكذلك التوسل بالجاه؛ كان يقول: أتوسل بجاه فلان، أو بحق فلان، أو بخرمة فلان؛ فهذا ممنوع ومبتدع<sup>(٢)</sup>.

ولكن التوسل الشرعي يكون: إما بدعاء الحي الحاضر؛ كأن يدعو

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨) واللفظ له، وابن ماجه (١٢٨٥) من حديث عثمان بن حنيف، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب»، وصححه ابن خزيمة (١٢١٩)، والحاكم (١١٨٠)، وانظر رسالة: «التوسل: أنواعه، وأحكامه» للآلباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢٢/١) وما بعدها.

وأنت تُؤْمِنُ، أو تتوسل بإيمانك بالله ورسوله وتوحيده، أو تتوسل بعملك الصالح، كما توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسل أحدهم ببره لوالديه، والثاني توسل بعفته عن الزنا، والثالث توسل بأمانته؛ فهذا لا بأس به ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لِمَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكَ مِنَ خَيْرِ قُرُونٍ﴾ [النضر: ٢٢٤]، فلك أن تتوسل بفقرك وحاجتك إلى الله، أو تتوسل بأسماء الله وصفاته.

وفي «الصحاحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة ﷺ في حديث الشفاعة، عن أبي هريرة ؓ قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِلُحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيَّو الدَّرَاعَ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَتَهَسَّ مِنْهَا تَهَسَةً ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ: الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسَمِّيهِمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَذَنُّو السَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطْفِقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ.

فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟

فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بَادِمٌ، فَيَأْتُونَ أَدَمَ ؑ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِبَدْنِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْرَ السَّلايِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ أَدَمُ: إِنْ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِنْهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِنْهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ السَّجَرَةِ فَغَضِبْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي؛ أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ؛ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا سَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا

نَحْنُ فِيهِ؟ يَقُولُ: إِنَّ رَبِّي - عز وجل - قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَنْتَ تَبَى اللَّهُ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذِبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي كُنْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقُلُوبِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْمٍ وَرُوحٍ مِنْهُ، وَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبًا، اشْفَعْ لَنَا، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ دُنْيَا -، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ: نَحْنُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَنْفَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي - عز وجل -، ثُمَّ يَنْفَعُ اللَّهُ عَلِيَّ مِنْ مَخَابِدِهِ وَخُسْنِ النَّعَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَنْفَعْهُ عَلَى أَحَدٍ

قَبْلِي، ثُمَّ يَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تَعْلَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَقُولُ: أَمْنِي، يَا رَبِّ! أَمْنِي، يَا رَبِّ! فَيَقَالُ يَا مُحَمَّدُ: أَذْجَلُ مِنْ أَمْنِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ الْبُيُوتِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيهَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْبُيُوتِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنَ مَضَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَجَمِيمَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُضْرَى<sup>(١)</sup>، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحِينَ»، وَمَسَدُ أَحْمَدُ، وَاللَّفْظُ لِلْبَخَارِيِّ.

وقد جاء في حديث الصور التصريح بالشفاعة العظمى، ومن مضمونه أنهم يأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول الله محمد ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: «الفحص» فيقول الله: «مَا سَأَلْتُكَ؟» - وهو أعلم - قال رسول الله ﷺ: «فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَذَّتْنِي الشَّقَاعَةُ فَتَشَفَّعْنِي فِي خَلْقِكَ فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ - شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: سَمِعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَكُمْ، قَالَ: فَارْجِعْ فَأَقِفْ مَعَ النَّاسِ»، ثم ذكر انشقاق السموات، وتنزُّل الملائكة في الغمام، ثم يجيء الرب - سبحانه وتعالى - لفصل القضاء، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحونه بأنواع التسبيح قال: «فَيُضَعُ اللَّهُ تَحْرِيصِيَةً حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي أَنْصَتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَشْمَعُ أَقْوَالَكُمْ وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَتَصَبَّحُوا لِي؛ فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

إلى أن قال: «فَإِذَا أَقْبَضَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبَّنَا فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَيْكُم؟ إِنَّهُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِإِذْنِهِ

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) وهذا سياقه، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٤٣٥/٢)، وروى عنه مسلم وأحمد: «كما بين مكة وجعفر».

وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَكَلَّمَهُ قُبُلًا، فَبَيَّنُوا آدَمَ، فَيُظَلِّبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وذكر نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدًا ﷺ إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: «فَأَتَى الْجَنَّةَ فَآخُذْ بِحَلْقَةِ الْبَابِ ثُمَّ اسْتَفْتِحْ فَيُفْتَحْ لِي فَأَخْبِي وَتَرَحَّبْ بِي، فَإِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ فَتَنَظَّرْ إِلَى رَبِّي - عز وجل - فَحَرَزْتُ لَهُ سَاجِدًا فَيَأْتِيَنِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أُذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى - لِي: ارْزُقْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ؛ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ وَسَلِّ تُفْطَلُ، فَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسِي قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مَا سَأَلْتُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ؛ وَعَدَّتَنِي الشَّفَاعَةُ فَتَشْفَعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ اللَّهُ - عز وجل -: قَدْ شَفَعْتُكَ وَأَذْنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ<sup>(١)</sup>، الحديث رواه الأئمة ابن جرير في «تفسيره»، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، والبيهقي وغيرهما - والله أعلم -.

(١) سبق تخريجه تحت القسم الأول من أقسام الشفاعة

الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته<sup>(١)</sup>

◆ قَالَ الْمَوْلُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ):

### الشرح

الميثاق لغة: العهد. والميثاق شرعًا واصطلاحًا: هو العهد الذي أخذه الله - تعالى - من آدم وذريته، والأصل في ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ لَمْ يَدْرِكْ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَكْبَهُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْتَ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَفْرَكَ الْبَاقُونَ مِنْ قَبْلِ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(الأعراف: ١٧٢-١٧٣)

فما هو هذا العهد؟

اختلف العلماء في هذا العهد؛ ما هو؟ على قولين مشهورين:

القول الأول: أن الله - تعالى - استخرج ذرية آدم من صلبه؛ من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال؛ بأن الله ربهم، ثم عاهدهم ثم إن الله ميزهم إلى أصحاب اليمين؛ وإلى أصحاب الشمال؛ فيكون المقصود بالعهد: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها ربها؛ فشهدت، ونطقت .

القول الثاني: أن الله استخرج ذرية بني آدم بعضهم من بعض من أصلاهم بعد الولادة؛ شاهدين على أنفسهم: أن الله ربهم ومليكهم، وأنه

(١) انظر: «معارج القبول» (١٨/١)

لا إله إلا هو؛ فالإخراجُ: من ظهور بني آدم؛ بعضهم من بعض، ومعنى أشهدهم على أنفسهم أي: بلسان الحال لا بلسان المقال؛ أي: دلهم على توحيدهم، وفطرهم عليه؛ بأن بسط لهم الأدلة على ربوبيته ووحانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم، فكل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً .

فالمراد بالإشهاد: فطرهم على التوحيد؛ فكل مولود يولد على الفطرة، فقام ذلك مقام الإشهاد.

والأدلة التي استدلت بها أهل القول الأول؛ -بأن الميثاق هو استجراجه ذرية آدم من ظهره - أي: أرواحهم - وإنطاقها، حتى نطقت، وشهدت، ثم أعادها - كالآتي:

أولاً: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رواه الإمام أحمد: أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَمْعَمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ يَمْعَمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَيَمِمْ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ يَمْعَمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُذْجِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ يَمْعَمَلُ أَهْلُ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُذْجِلُهُ بِهِ النَّارَ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٤٤/١)، والترمذي (٣٠٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار، =

الدليل الثاني: ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ نَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَعْلَمُ بَيْنَ عَيْنِي كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّي؟ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْضٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ؟ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ، كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ؟ زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا قَضَى عُمُرُ آدَمَ الْمُسَدَّةَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطَها ابْنُكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فوجد آدم فجحدت ذريته، وَنَسِيَ آدَمَ فَتَنَسَّى ذُرِّيَّتَهُ، وَخَطِيئَةُ آدَمَ فَخَطِيئَةُ ذُرِّيَّتِهِ»<sup>(١)</sup>.

هكذا جاء في الحديث، والذي فيه الإشهاد على الصفة التي قالها أهل

= وبين عمر، رجلاً مجهولاً.

والحديث أخرجه أيضاً: مالك في «الموطأ» (٨٩٨/٢) -تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى، ومن طريقه أخرجه كل من: النسائي في «الكبرى» (١١٩٠)، وأبي داود (٤٧٠٣)، والحاكم في «المستدرک» (٨٠/١) -تحقيق: مصطفى عبدالقادر، و(٣٥٤/٢)، وصححه! وابن حبان (٦٦٦)، والبخاري في «شرح السنة» (١٣٨/١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٨٨٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٩٦). والحديث ضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٨٧/١)، وفي «السلسلة الضعيفة» (٣٠٧٣). بهذا الإسناد، لكنه صححه لغيره في «شرح الطحاوية» (٢٦٦) فقال: «صحيح لغيره إلا مسح الظهر؛ فلم أجده له شاهداً، وانظر أيضاً: «السلسلة الصحيحة» (١٥٩/٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وانظر: «ظلال الجنة» للألباني (٩٠/١-٩١).

هذا القول، وردت في أحاديث عن ابن عباس، وابن عمر وتكلم فيها بعضهم، ومن الألة حديث ابن عباس الذي رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - بنحمان وهو واد إلى جنب عرفة - يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى سَهِدْنَا» [الاعراف: ١٧٢]» (١) إلى آخر الآية ... وحديث عبد الله بن عمرو الذي

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن جرير في «التفسير» (١١٠/٩ - ١١١، دار الفكر)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢)، والحاكم (٥٩٣/٢) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٣٢٦ - ٣٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٨٨٩)، وابن منده «في الرد على الجهمية» (ص ٢٨ - ٢٩). كلهم من طريق الحسين بن محمد المروزي، حدثنا جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: ... فذكره.

قال الحاكم: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي. وقد تابع الحسين، وهب بن جرير عن أبيه، به، كما عند الحاكم (٨٠/١) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، فلم يتفرده به حسين كما قال الحافظ ابن منده في «الرد على الجهمية» ص (٢٩). وقال الألباني -رحمه الله-: وحقها أن يفيد بأنه على شرط مسلم، فإن كلثوم بن جبر من رجاله، وساندهم من رجال الشيخين، لكن قال النسائي عقب إخراج هذه الرواية (٦/٣٤٧): «وكلثوم هذا ليس بالقوي وحديثه ليس بالمحفوظ»، ورجح الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/٥٠١) وقفه على ابن عباس، وتعقبه الألباني بأن هذا الدوقوف في حكم المرفوع، لسببين:

الأول: أنه في تفسير القرآن، وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع، ولذلك اشترط الحاكم في كتابه «المستدرک» أن يخرجه في التفسير عن الصحابة كما ذكر ذلك فيه (١/ ٥٥).

الأخر: أن له شواهد مرفوعة عن النبي ﷺ عن جمع من الصحابة، وهم: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو، وأبو هريرة، وأبو أمامة، وهشام بن حكيم أو =

يروي مجاهد عنه قال: قال رسول الله: «وَلَوْ أَنَّكَ رَأَيْتَ رَبَّكَ مِنْ رَبِّكَ مَا دِمَ مِنْهُمُ» [الاعراف: ١٧٢]. قال: أخذوا من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس فقال لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا: بلى قالت الملائكة: شهدنا «أَبْتَ تَقُولُوا بِرَبِّكَ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» [الاعراف: ١٧٢]» (١).

وأقوى ما يشهد لصحة هذا القول حديث أنس المخرّج في الصحيحين عن النبي أن الله تعالى يقول لأهل النار عذاباً: «لَوْ أَنَّكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْعَدِي بِهِ؟ قَالَ: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون

= عبد الرحمن بن قتادة السلمي على خلاف عنهما - ومعاًوية بن أبي سفيان، وأبو الدرداء، وأبو موسى، وهي إن كان غالبها لا تخلوا أسانيداً من مقال، فإن بعضها يقوى بعضاً. بل قال الشيخ صالح المقيبلي في «الأبحاث المسددة» - كما نقله الألباني عن «فتح البيان» (٤٠٦/٣) لصديق حسن خان: «ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات في ذلك». ثم قال الألباني: ولأسباب وقد تلقاها أو تلقى ما اتفقت عليه من إخراج الدرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم، السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلاف بينهم، منهم عبد الله ابن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وناس من الصحابة، وأبي بن كعب، وسلمان الفارسي، ومحمد بن كعب، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، وقاتدة، وفاطمة بنت الحسين، وأبو جعفر الباقر، وغيرهم. وقد أخرج هذه الآثار الموقوفة، وتلك الأحاديث المرفوعة الحافظ السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١١ - ٤١٥)، وأخرج بعضها الشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ٢١٥ - ٢٢٥). انتهى كلام الألباني. وانظر: «الصححة» (١٦٣٣)، وشرح الطحاوية (ص ٢٦٦).

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسير» (١١٣/٩ - ١١٣، دار الفكر)، وذكره السيوطي مرفوعاً في الدر المنثور (١/ ٤١٢)، وعزاه لابن منده في كتاب الرد على الجهمية، ولكن في المطبوع (ص ٦٣ - تحقيق: الفقيهي)، ذكره ابن منده من رواية مجاهد عن ابن عمر ولم يسنده. وكذا وقع تسمية الصحابي عنده، وأخشى أن يكون نصيحاً، أو خطئاً طباعياً. وقد رواه موقوفاً على عبدالله بن عمرو ابن جرير في «التفسير» (٩/ ١١٢ - دار الفكر)، ورجع ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٢٦٣) الرواية الموقوفة.



من هذا وأنت في صلب آدم ألا تشرك بي فأبیت إلا الشرك<sup>(١)</sup>، وقد روي من طريق أخرى «قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فَيُرَدُّ إلى النار»<sup>(٢)</sup>، وليس فيه قوله: «في ظهر آدم».

أدلة القول الثاني الذين يقولون: إن الله - تعالى - نصب الأدلة على ربيوبته، ووحدانيته، وأن الإشهاد كان بلسان الحال، قالوا: آية سورة الأعراف تدل على هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه قال في الآية: (من بني آدم) ولم يقل: من آدم.

الثاني: أنه قال: (من ظهورهم) ولم يقل: من ظهوره، وهو يدل بعض، أو يدل اشتمال؛ وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: (ذريتهم) ولم يقل: ذريته.

الرابع: أنه قال: (وأشهدهم على أنفسهم)، ولا بد أن يكون الشاهد ذاكرًا لِمَا شهد به، وهو لا يذكر شهادته إلا بعد خروجه إلى هذه الدار؛ لا يذكر شهادته قبل ذلك.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أنَّ حُكْمَتَهُ بهذا الإشهاد؛ إقامة الحجة عليهم؛ لثلاث يقولوا يوم القيامة: (إنا كنا عن هذا غافلين)؛ والحجة إنما قامت عليهم بالرسول والفطرة، التي فُطروا عليها بدليل قول الله - تعالى -: ﴿رُسُلًا مُبْتَلِينَ وَمُذِيرِينَ لِيَلْكَأَنَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [التيسار: ١٦٥].

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) واللفظ له، ومسلم: صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٥)، وأحمد (١٢٧/٣)، (١٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٧/٣).

سادسا: تذكيرهم بذلك؛ لثلاث يقولوا يوم القيامة: (إنا كنا عن هذا غافلين)؛ ولا شك أنهم غافلون عن ذلك الإخراج لهم من صلب آدم؛ كلهم غافل عن هذا، وغافلون أيضاً عن إشهدهم جميعاً ذلك الوقت إذ هذا لا يذكره أحد منهم.

سابعا: أن هناك حكمتين في هذا الإشهاد؛ وهما: لثلاث يَدْعُوا الغفلة؛ أو يَدْعُوا التقليد كما في قوله: ﴿أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَيْنِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣] ذ الغافل لا شعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره، ولا ترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة.

الثامن: أن الله توعدهم بحدودهم وشركهم في ادعائهم التقليد في قوله: ﴿أَفَنُكْفِيكَ مَا فَعَلَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، والله - سبحانه - إنما يهلكهم بمخالفة رسلهم وتكذيبهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل؛ إذ أخبر أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون.

التاسع: أنه سبحانه أخبر أنه أشهد كُلَّ واحدٍ على نفسه، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [البقر: ٢٥]، وإنما ذلك بالفطرة؛ وهي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها، وذكرتهم بها رسله بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا نَسْكَ قَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البراهيم: ٤١].

العاشر: أنه جعل الإشهاد آية وهي الدلالة الواضحة المبينة المستلزمة لمذلولها وإنما يتضح ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، وهذا شأن آيات الرب تكون واضحة بينة مستلزمة لمذلولها قال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

ويؤيد هذا القول: أحاديث منها: رواية الحسن، عن الأسود بن سريع - من بني سعد - قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال: فتناول قومُ الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ألا ما بال أقوام قتلوا المقاتلة حتى تناولوا الذرية قال: فقال رجل يا رسول الله أليس أبناء المشركين؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: إن خياركم أبناء المشركين إنها ليست نسمة تُؤكَلُ إلا وُلدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها ويصرانها»<sup>(١)</sup>.

قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَمَرْتُكُمْ مِنْ بَيْنِ عَادَمَ مِنْ طُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، ومنها حديث أبي هريرة ؓ في الصحيحين قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ»<sup>(٢)</sup> وفي رواية لمسلم: «على هذه الملة»<sup>(٣)</sup>. وفي رواية له أيضاً: «إلا على

- (١) (صحيح): أخرجه أحمد (٢٤/٤) وهذا لفظه، وأخرجه أيضاً في (٤٣٥/٣) بنحوه، وقال الهيثمي (٣١٦/٥): «رواه أحمد بأسانيد وبعضها رجاله رجال الصحيح». وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (١٨٤/٥)، رقم (٨٦١٦)، والدارمي (٢٩٤/٢)، رقم (٢٤٦٣)، وابن جرير (١١٢/٩)، والبيهقي (٧٧/٩)، رقم (١٧٨٦٨)، و (٩/١٣٠)، رقم (١٨١١٤). وصححه ابن حبان (٣٤١/١)، رقم (١٣٢)، والحاكم (١٣٣/٢)، رقم (٢٥٦٦)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وقال أبو نعيم في الحلية (٢٦٣/٨) «حديث الأسود مشهور ثابت». وقال ابن عبد البر في التمهيد (٦٨/١٨): «... وهو حديث بصري صحيح». وانظر «الصحيفة» (٤٠٢)، و«مصحح الجامع» (٥٥٧).
- (٢) أخرجه البخاري الجناز (١٣٨٥)، ومسلم: القدر (٢٦٥٨)، وأبو داود: السنة (٤٧١٤)، وأحمد (٢٣٣/٢)، وفي مواضع أخرى من مسنده، ومالك: الجنائز (٢٤١/١) -تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى- من حديث أبي هريرة.
- (٣) أخرجه مسلم: القدر (٢٦٥٨).

هذه الملة، حتى يبين عنه لسانه»<sup>(١)</sup>.

ومنها حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ «إني خلقت عبادي حنفاً كُلُّهُمْ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»<sup>(٢)</sup>.

قالوا: والقول الأول يضعفه أمران؛ إذ هو متضمن لها:

أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وأنه بهذا تقوم عليهم الحجة يوم القيامة. الثاني: أن الآية دلت على هذا، والآية لا تدل عليه بالوجه العشرة السابقة.

أما الآثار التي استدل بها أهل القول الأول، فأجاب عنها أهل القول الثاني بأنها تدل على أن الله - سبحانه - صور النسمة وقدر خلقها وأجلها وعملها، واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا تدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً، واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد، ثم يوصل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله ابن حزم. فهذا لا تدل الآثار عليه كما أنها لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً، كما قال من قال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد بل الرب يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذي سبق به التقدير أولاً فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق كشأنه - سبحانه - في جميع مخلوقاته؛ فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً، وصفات، وهيات، ثم أخرجها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير

- (١) أخرجه مسلم: (٢٦٥٨).
- (٢) أخرجه مسلم: (الْجَنَّةُ وَصِفَةُ نَجْوِيَّهَا وَأَهْلِهَا) (٢٨٦٥) واللفظ له، وأحمد (٤/١٦٢).

السابق.

فالأثار المروية إنما تدل على هذا المقدار، وبعضها يدل على أن الله استخرج أمثالهم وصورهم، وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة عليهم هناك، وأما الآثار التي فيها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة، وبعضهم إلى النار، كما في حديث عمر<sup>(١)</sup>، وفي بعضها الأخذ وإراء آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهد كما في حديث أبي هريرة السابق<sup>(٢)</sup>، والذي فيه الإشهد على الصفة التي قالها أهل الأول قالوا: إنه موقوف على ابن عباس وعمر، وتكلم فيه أهل الحديث، ولم يخرج أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرک على الصحيحين وهو معروف بتساهله رحمته لكن قال المحقق الشيخ أحمد محمد شاكر حديث ابن عباس وعمر صحيحان

(١) يشير إلى ما رواه مسلم بن يسار، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذُرِّيَّةً فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله فَيَقِيْمُ العمل؟ قال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة يُدْجِلُهُ به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أهل النار يُدْجِلُهُ به النار» أخرجه مالك (٨٩٨/٢)، رقم (١٥٩٣)، وأحمد (٤٤/١)، رقم (٣١١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وقال: حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً، وقال ابن كثير: مسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة. وانظر «الأسماء والصفات» لليبهي (ص ٣٢٥)، «الضعيفة» للألباني (٣٠٧١)، وقد تقدّم أنه صححه لشواهد، إلا مسح الظهر؛ فلم يجد له شاهداً.

(٢) تقدم ذكره قريباً.

مرفوعان وتعليقهما بالوقف على ابن عباس وعمر غير سديد كما بين ذلك عند شرحه لهما في المسند<sup>(١)</sup>.

بعد هذا: هل بين هذين القولين تناقض؟ أو هل يمكن الجمع بين هذين القولين؟ قال شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز رحمته: لا تنافي بين القولين؛ فإن الأخذ للذرية من ظهر آدم والإشهد عليهم: كان تقدمةً لبعثة الرسل، والحجة إنما قامت ببعثة الرسل؛ فهم الذين ذكروهم بتلك الشهادة؛ فقامت للرسل الحجة على الناس، كما لو كان عند الإنسان شهادة ثم نسيها ثم ذكّره أحد إياها، وقال له: يا فلان اذكر أن عندك شهادة في وقت كذا على كذا. وأيضاً: فإن الأخذ من ظهور بني آدم أخذ من ظهر آدم؛ فإن ظهورهم ظهر له؛ وعلى هذا: فلا منافاة بين الأقوال وظاهر هذه الأحاديث، فهذه الأحاديث ظاهرة في أن الله - تعالى - استخرج ذرية آدم أمثال الدّر - الأرواح - وأشهدهم ثم أعادهم - سبحانه وتعالى - وكوّن الإنسان لا يذكر الشهادة؛ لا يستلزم أن يكون ذلك لم يقع؛ فقد جاءت الرسل بعد ذلك، وذكّرتهم بالشهادة، والحجة إنما قامت ببعثة الرسل، وعلى ذلك فلا منافاة بين القولين.

(١) انظر: «المسند» (١٥٧/١) رقم (٣١١) بتعليق الشيخ أحمد شاكر.

## القدر

## منزلته، وحقيقة الإيمان بالقدر

♦ قَالَ - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه).

هذا المبحث في القدر، وأن الله - سبحانه وتعالى - عَلَّمَ كل شيء، ولا يخفى عليه - سبحانه - شيء.

والمؤلف رحمه الله بحث القدر في مواضع من هذا المتن. والقدر بالفتح، والسكون؛ لغةً؛ وهو مصدر قدرت الشيء؛ إذا أحطت بمقداره<sup>(١)</sup>، واصطلاحاً: تعلّق علم الله وإرادته أولاً بالكائنات قبل وجودها، فلا أمر إلا وقدره الله أولاً، أي: سبق به علم الله، وتعلقت به إرادته.

منزلة الإيمان بالقدر من الدين: الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان الستة، ودليله حديث جبريل، وفيه لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال له: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(٢)</sup> فجعله سادس أصول الإيمان، فمن لم يؤمن بالقدر؛ فقد ترك أصلاً من أصول الإيمان، وجحد، فبشبهه فيهم: «أَفْتَوِيْتُونُ

(١) انظر: «لسان العرب» (٧٤/٥)، و«الصحاح» (٧٤/٢) مادة (قدر).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (٨)، والترمذي: الإيمان (٢٦١٠)، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، وأبو داود: السنة (٤٦٩٥)، وابن ماجه: المقدمة (٦٣)، وأحمد (٥١/١)، والسياتي لمسلم وأبي داود.

يَبْعُضُ الْكَذِبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جُزْءٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَسْأَلُ الْمَلَأَ» (البقرة: ٨٥).

فأذا: من أنكر القدر؛ فليس بمؤمن، بل ولا مسلم، فلا يُقْبَلُ عمله. قال العلامة ابن القيم رحمه الله بعد ذكر آثار الإيمان بالقدر: «هذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر؛ فقد انسلخ من التوحيد، وليس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله على رسله». انتهى كلامه رحمه الله وهو كلام عظيم للإمام ابن القيم يقول رحمه الله: هذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر؛ فقد انسلخ من التوحيد، وليس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله، ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله على رسله؛ فهو يوضح أن مثل هذا لم يؤمن بالقدر ولم يؤمن بالله بل إنه ليس مؤمناً، ولم يصح إيمانه.

فالإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ومن أنكر أو جحد أصلاً من هذه الأصول: فقد خرج عن دائرة الإسلام، وصار من الكافرين -سأل الله السلامة والعافية -؛ لأن هذه الأصول نزلت بها الكتب، وجاءت بها الرسل، وأجمع عليها المسلمون؛ فمن جحد واحداً منها؛ فقد خرج عن دائرة المسلمين؛ ودخل في دائرة الكافرين. وهناك آثار وأحاديث جاءت في مقت القدري<sup>(١)</sup> لكنها ضعيفة عند أهل العلم، وبعضها موقوف على الصحابة، والموقوف أصح؛

(١) قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٣١٦): «وإنما سموا قدرياً؛ لأنهم أثبتوا القدر لأنفسهم ونفوه عن الله سبحانه وتعالى، ونفوا عنه خلق أفعالهم، وأثبتوه لأنفسهم».

ومن ذلك: ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي، أنه قال: «القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»<sup>(١)</sup>، وقال ابن عمر رضي الله عنه: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم - يعني: القدرية الذين يتكبرون القدر - لو كان لأحدهم مثل أخيد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

ثم استدل بالحديث السابق؛ حديث ابن عمر: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» إلى آخره<sup>(٢)</sup>.

- (١) أخرجه أبو داود: السنة (٤٦٩١) ومن طريقه الحاكم (١٥٩/١)، رقم (٢٨٦)، والبيهقي (٢٠٣/١٠)، رقم (٢٠٦٥٨)، كلهم من طريق عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال... فذكره، وهذا إسناده منقطع، فأبو حازم وهو سلمة بن دينار لم يسمع من ابن عمر رضي الله عنه - وأخرجه أحمد: (٨٦/٢) من طريق أنس بن عياض، ثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:.... فذكره بنحوه. وهذا إسناده ضعيف؛ لضعف عمر بن عبد الله، ضعفه النسائي، ويحيى بن معين، وقال يحيى بن معين: لم يسمع من أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٤)، والأجري في «الشرعية» (٤١٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢١٢/٣)، والقرطبي في «القدر» (٢١٦) كلهم من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم به، بإسناده ضعيف منكر. ورواه ابن الجوزي في «الملل المتناهية» (٢٢٥)، وقال: هذا حديث لا يصح، لكن حسنه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٣٨)، و (٣٣٩). وورد بمعناه أيضاً من حديث أبي هريرة عند ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٤٢)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٤٢)، وورد بمعناه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله عند ابن ماجه (٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢٨)، وغيرهما. وحسنه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٢٨).
- (٢) سبق تخريجه.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» يا بني سمعت رسول الله يقول: «من مات على غير هذا ليس مني»<sup>(١)</sup> وفي رواية لابن وهب قال رسول الله «من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله عز وجل بالنار»<sup>(٢)</sup> وهذا ذكره الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد.

وفي المسند والسنن عن ابن الدليمي قال: لقيت أبا بن كعب فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وقَّع في نفسي شيء من هذا القدر فحدثني بشيء - لعلّه يذهب من قلبي - قال: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت جبل أحد ذهباً في سبيل الله عز وجل ما قبله الله منك

- (١) (صحيح): أخرجه: أحمد (٣١٧/٥)، رقم (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة (٢٦٤/٧)، رقم (٣٥٩٢٢)، والطبراني (٥٧٧)، والبخاري في «مسنده» (٢٦٨٧)، وابن جرير في تفسيره (١٧/٢٩)، والترمذي: (٢١٥٥) باب إعظام أمر الإيمان بالقدر، وفي تفسير القرآن (٣٣١٩)، وأبو داود: السنة (٤٧٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢) و (١٠٣) و (١٠٤) و (١٠٥)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٥٨) و (٥٩) و (١٩٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٤٨/٥)، والبيهقي (٢٠٤/١٠). وصححه الألباني في «الطحاوية» (٢٣٢)، (٢٧١)، وفي «المشكاة» (٩٤)، وفي «ظلال الجنة» (١٠٢ - ١٠٧).
- (٢) أخرجه ابن وهب في القدر (٢٦)، وفيه انقطاع، بين سليمان بن مهران (الأعشى)، وعبادة بن الصامت، فإنه لم يذكره، ويغني عنه مما وقع في بعض روايات الحديث السابق: «فإن مت على غير هذا دخلت النار».

حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار. فأنيت حذيفة فقال لي مثل ذلك، وأنيت ابن مسعود فقال لي مثل ذلك، وأنيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك<sup>(١)</sup> حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه، قد ذكر هذا الحديث، الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد.

فحقيقة الإيمان بالقدر: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. والقدر - كما سيأتي - سئته الله في خلقه؛ وهو: أن الله - سبحانه - أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وهدى وأضل، فالقدر شامل لكل شيء في هذا الكون؛ للذوات، والصفات، والحركات، والأفعال، ولكن من أهم ما يجب الإيمان به: أن يعلم المسلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

ولكن متى خرجت القدرية؟ وما زمن خروجهم؟ ومن أول من تكلم بالقدر؟ خرجت القدرية في أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وأول

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (١٨٢/٥)، رقم ٢١٦٢٩، والسياق له، وابن حبان (٥٠٥-٥٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٤٩٤٠)، والخطيب في «الموضح» (١٧٩/١)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٢٤٥)، والبيهقي «السنن الكبرى» (٢٠٤/١٠)، وفي «شعب الإيمان» (٢٠٣/١)، رقم ١٨٢ كلهم من طريق أبي سنان، عن وهب بن خالد الحميري، عن ابن الديلمي... به، وتابعه سفيان عن أبي سنان. وصححه ابن حبان (٥٠٥/٢)، (٧٢٧)، والألباني في «الظلال» (٢٤٥)، وفي «المشكاة» (١١٥)، وفي «شرح الطحاوية» (٦٢٩)، ووقع في بعض طرق هذا الحديث من رواية سفيان، عن أبي سنان، عن وهب بن خالد الحميري، عن ابن الديلمي، عن أبي ابن كعب، وفي بعض الطرق من رواية إسحاق بن سليمان الرازي، عن أبي سنان، عن وهب بن خالد عن ابن الديلمي، عن زيد بن ثابت.

من تكلم في القدر شخص يقال له: معبد الجهني بالبصرة<sup>(١)</sup>.

مراتب الإيمان بالقدر: مراتب الإيمان أربع:

الأولى: مرتبة العلم، وصفة العلم من الصفات الذاتية لله - تعالى -، وهي تتناول الموجود والمعدوم، والواجب، والممكن، والمبتدع؛ وذلك: أن علم الله محيط بالأشياء؛ على ما هي عليه لا محو فيه، ولا تغيير، ولا زيادة، ولا نقص؛ فإن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون؛ إذ فعل الله يتناول الموجود، والمعدوم، والواجب، والممكن، والمبتدع، والأدلة على القدر من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، وانفق على إثبات القدر الصحابة والتابعون، ولم يخالف فيها إلا مجوس هذه الأمة، وهم القدرية من المعتزلة ومن وافقهم.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة: وهي أن الله كتب مقادير الخلائق وما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، والأدلة على إثباتها قول الله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِ الْأَرْضِ وَلَا فِ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِ كِتَابٍ﴾ [المعتمد: ٢٢]، وفي الحديث: «أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»<sup>(٢)</sup>، ومن الأدلة على المرتبتين الأوليين قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَقُلْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَتَعَالَى أَلَمُكَ وَالْأَرْضُ لِيْ ذَلَالَةٌ فِ كِتَابٍ﴾ [الحج: ٢٧].

(١) قال ابن تيمية رحمه الله: «أما فتنة القدر فأول من تكلم بها معبد الجهني رجل من البصرة، وكان عنده حظ من العلم يقال له: معبد بن خالد، ويقال: معبد بن عبدالله ابن عويمر مات بعد الهزيمة، وكان يومئذ مع الأشعث وأصابته جراحة وهو أول من تكلم بالقدر وهو الذي تبرا منه عبدالله بن عمر بن الخطاب». وانظر: «بيان تليس الجهمية» (٢٧٤/١)، و«مجموع الفتاوى» (٣٨٤/٧).

(٢) (صحيح): وتقدم تخريجه قريباً.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة: وهي إثبات مشيئة الله النافذة الماضية وإثبات نفوذ قدرته ومشيئته، وشمول قدرته، ومن الأدلة على إثباتها قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْسَدُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقول الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَافْتَنَّا كُلَّ نَفْسٍ هَدْيَهَا﴾ [الشجدة: ١٧٣].

الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: وهي إثبات خلق الله وإيجاده لكل شيء. ومن الأدلة على إثباتها قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦١]، وقوله: ﴿وَمَخْلُوقٌ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [الانعام: ١٠١].

فهذه مراتب القدر: العلم، والكتاب، والإرادة، والخلق، وقد نظمها بعضهم فقال:

علم كتابه مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتقدير  
مذاهب الناس في القدر ثلاثة:

المذهب الأول: مذهب أهل السنة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره؛ حتى العجز والكيس يعني: حتى العجز والجد والنشاط كله بقدر؛ فكل شيء بقضاء الله وقدره، ويدخل في ذلك عندهم: خلق أفعال العباد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [البقرة: ٢١٧]، ومن ذلك: إقرارهم بأن الله - تعالى - يريد الكفر من الكافر، ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه؛ فيشاؤه: كوناً ولا يرضاه: ديناً، وأنه لا حادث إلا وقد قدره الله أزلاً؛ أي: سبق به علمه.

ويعتقد أهل السنة: أن الإرادة قسمان: كونية قَدَرِيَّة خلقية؛ ترادف المشيئة، ودينية شرعية أمرية؛ ترادف المحبة، ويشيئون أن العبد فاعل حقيقة، ولكنه مخلوق لله، ومفعول له، ولا يقولون: هو نفس فعل الله؛

فيغفرون بين الخالق والمخلوق، والفعل والمفعول، ويعتقدون أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله؛ في كل شيء؛ مما يوافق ما شرعه، وما يخالفه؛ من أفعال العبد وأقواله، فالكل بمشيئة الله، فما وافق ما شرعه: رُضِيَهُ وأُحِبَّهُ، وما خالفه: كُرِهَهُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُفَرُوا فَلَيْسَ بَشَيْئٍ عَلَيْكُمْ وَلَا يَرْغَبُ لِعِبَادِهِ الْكَفَرُ وَإِنْ كُفَرُوا رَضِيَ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧].

المذهب الثاني: مذهب القدرية؛ ومن أصولهم: نفي خلق الفعل مطلقاً فيقولون: أفعال العباد ليست مخلوقة لله يعنون: أفعالهم من خير وشر وطاعة ومعصية؛ لم يقدرها الله ولم يشأها ولم يخلقها<sup>(١)</sup>، وغلاة القدرية والرافضة أنكروا أن الله عالم بالأزل، فالقدرية قسمان: غلاة ومتوسطون، فالغلاة أنكروا المرتبتين الأوليين؛ علم الله وكتابته، والمتوسطون أنكروا عموم المرتبتين الآخرين فآمنوا بالعلم والكتابة، واعترفوا وصدقوا بالمرتبتين الأوليين، ولكن جحدوا عموم المرتبتين الآخرين كما سيأتي؛ فغلاة القدرية القدامى: كمعبد الجهني - الذي سأل ابن عمر عن مقالته - وكعمرو بن عبيد؛ فإنهم ينكرون علم الله المتقدم، وكتابته السابقة، ويرغمون أن الله أمر ونهى وهو لا يعلم شيء يطيعه ممن يعصيه؛ بل الأمر أنف أي: مُستأنف، وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة، معبد الجهني، وأخذ عنه هذا المذهب غيلان الدمشقي، فرد عليه بقية الصحابة كعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، ووائلته بن الأسقع، وغيرهم.

فالقدرية ينقسمون إلى فرقتين:

(١) قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد نص الأئمة كمالك، والشافعي، وأحمد على تكفير قائل هذه المقالة». وانظر «تحقيق مسأله علم الله» (ص ١٧٦-١٧٨).

الأولى: تنكر أن الله سبق علمه بالأشياء مطلقاً، وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلاً، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يعلمها إذا وقعت، وهؤلاء هم الغلاة. قال العلماء: وهؤلاء الطائفة انقرضوا، وهم الذين كَفَرُهم الأئمة؛ مالك، والشافعي، وأحمد، وهم الذين قال فيهم الإمام الشافعي ﷺ: ناظروا القدرة بالعلم؛ فإن أقروا به؛ خُصِّمُوا، وإن أنكروه؛ كفروا.

الفرقة الثانية: المتوسطون أو عامة القدرة؛ الذين أقروا بالعلم والكتاب المقرون بالعلم، وإنما خالفوا السلف في زعمهم أن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على جهة الاستقلال يعني: يقولون: أفعال الله لم يشأها الله، ولا خلقها؛ فيقولون: إن مشيئة الله عامة إلا أفعال العباد، وخلق الله عامٌ لكل شيء إلا أفعال العباد، وهذا المذهب مع كونه مذهباً باطلاً؛ أخفت من المذهب الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وهؤلاء مبتدعة ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك. وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد» يعني: يوجد من العلماء من اعتنق هذا المذهب، ومنهم من أخرج له البخاري ومسلم في صحيحهما<sup>(١)</sup>، لكن من كان داعية إلى بدعته لم يخرجوا له، وهذا مذهب فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أنَّ من كان داعية إلى بدعته فإنه يستحق التعزير لدفع ضرره عن الناس، وإن كان في الباطن مجتهداً، فأقل عقوبته أن يهجر فلا يكون له مرتبة في الدين، فلا يُستَقْضى ولا تُقبل شهادته.

(١) قلت: ممن أخرج له الشيخان ممن رمي بالقدر: قتادة بن دعامة السدوسي، وتلميذه سعيد بن أبي عروبة، وشريك بن عبدالله بن أبي نصر، وعبدالله بن أبي نجيح المكي، والحسن بن ذكوان، وغيرهم. وانظر «هدي الساري» (٤٥٩-٤٦٠). وانظر في حكم رواية المتن «التقييد والإيضاح» (ص١٤٨-١٥٠).

انتهى كلام شيخ الإسلام ﷺ.

فالقدرة والمعزلة؛ نفاة القدر: يثبتون للبعد مشيئة تخالف مشيئة الله، أي: تخالف ما أَرَادَهُ الله من العبد وشأه، ويزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالاً، بدون مشيئة الله وإرادته وشيئته أنهم قالوا: لئلا يلزم على ذلك أن يخلق المعاصي ويعذب عليها وذلك بناءً على أصلهم وهو: أنه يجب على الله فعل الأصلح للعبد، وفعل الأصلح للعبد هو في أن يقدر لهم الطاعة لا المعصية؛ فلو قَدَّرَ المعصية وعَذَّبَ عليها؛ للزم عليه أن يخلق المعاصي ويعذب عليها.

وللردِّ عليهم نقول: أنتم في قولكم هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإنهم هربوا من شيء فوقعوا في شر منه، فإنه يلزم على قولهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله، فإن الله قد شاء الإيمان منه -على قولهم- والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله! وهذا من أقيح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه بل هو مخالف للدليل النقلی والعقلي، وهل أضل ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله؟!.

ثانياً: إنه يلزم على قولهم أنه يقع في ملك الله ما لا يريد.

ثالثاً: يلزم على قولهم: الإشراك في الربوبية، وأن الله ليس رباً لأفعال الحيوانات؛ ولأفعال العباد؛ فإن مذهب هؤلاء القدرة: أن الله - سبحانه - ليس على كل شيء قدير، وأن العباد يقدرُونَ على ما لا يقدر عليه، وأن الله - سبحانه - لا يقدر أن يهدي ضالاً، ولا يضل مهتدياً، وهذا كما قال بعض العلماء: شرك في الربوبية مختصر؛ ولهذا ورد: أن القدرة مجوس هذه الأمة؛ لمشابهة قولهم لقول المجوس، فالقدرةُ يثبتون مع الله خالقين



للأفعال فليست أفعالهم مقدورة لله، بل هي واقعة بغير مشيئة الله وإرادته، ولا قدرة له عليها أصلاً، بل العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله، والله تعالى عن زعمهم - لم يخلق أفعالهم ولم يقدر ذلك عليهم، ولم يكتبه، ولا شاء؛ فشابهوا المجوس في كونهم أثبتوا خالقاً مع الله؛ ولهذا سُموا: مجوس هذه الأمة، وسُموا قدرية: لإتكارهم القدر<sup>(١)</sup>.

والرد عليهم: بأن ربوبية الله - سبحانه - الكاملة المطلقة تبطل قول هؤلاء؛ لأن مقتضى ربوبية الله شاملة لجميع ما في هذا الكون من الذوات، والصفات، والحركات، والأفعال، وحقيقة قول هؤلاء: أن الله ليس رباً لأفعال الحيوانات، ولا تناولتها ربوبيته، وكيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرة الله ومشيئته وخلقته؟ وهذا قول عاتمهم ومتصوفتهم، وهذا القول شائع في القدرية، يعني: هذا المذهب إنما هو مذهب عامة القدرية.

المذهب الثالث: مذهب الجبرية<sup>(٢)</sup> هم يقولون: إنَّ العبد ليس بفاعل أصلاً، بل هو مجبور على أفعاله، وأفعاله واقعة بغير اختياره، وأن الفاعل منه سيؤاء، والمحرك له غيره؛ فهو آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب

(١) قال الخطابي بكثرة: «إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله سبحانه خالق الخير والشر لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته. وخلق الشر شراً في الحكمة كخلق الخير خيراً». وانظر: «القضاء والقدر» للبيهقي (ص ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) الجبرية: هم أتباع الجهم بن صفوان التميمي، وسماوا جبرية؛ لأن مذهبهم: أن العبد مجبور على فعله وحركاته، وأفعاله اضطرارية، فالجبرية يزعمون أن العباد لا يفعلون شيئاً ألبتة، وأن الفاعل عندهم هو الله حقيقة، وإضافة أفعال العباد إليهم عند الجبرية مجاز. وانظر «بيان تلبس الجهمية» (١/ ٢٧٧)، و«الواسطة» (ص ١٠).

الرياح، وحركات المرتعش؛ هذا قول عامة الجبرية، وأما متصوفتهم - ممن يزعمون الترفي في مقام الشهود للحقيقة الكونية والربوبية الشاملة - فيرون أن كل ما يصدر من العبد؛ من ظلم، وكفر، وفسوق؛ هو طاعة محضة؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاه الله وقدره؛ فهو مجبور لديه، مرضي عنه، فإنه وإن خالف أمر الشرع؛ فقد أطاع إرادته ونفذ مشيئته، وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشدّ عداوة لله، ومتناقضة لكتابه، ورسله ودينه. وتسمى الجبرية قدرية؛ لاحتجاجهم بالقدر وخوضهم فيه، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب. والجبرية والقدرية في طرفي نقيض؛ فالقدرية علواً في نفي القدر، حتى أخرجوا أفعال العباد عن خلق الله ومشيئته، والجبرية علواً في الإثبات حتى سلبوا العباد قدرتهم واختيارهم، وزعموا أنهم لا يفعلون شيئاً ألبتة، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله، لأفعالهم والعبيد ليس لهم قدرة ولا إرادة ولا فعل ألبتة وأن أفعالهم بمنزلة حركات الجماد لا قدرة لهم عليها، وإمامهم في هذا المذهب، هو: الجهم بن صفوان<sup>(١)</sup>.

والردُّ عليهم: أن هذا المذهب باطل ضرورة؛ لأننا نفرق - بالضرورة

(١) هو جهم بن صفوان أبو محرز الراسي، مولاهم، السمرقندي، الكاتب المتكلم، آمن الضلالة، ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، كتب للأمير حارث بن سريح التميمي، وكان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها. وقُتل سنة ١٢٨ مع الحارث بن سريح ضد بني أمية.

وانظر: «تاريخ الطبري» (٧/ ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٧)، و«تاريخ الجهمية والمعتزلة» (ص ١٠) وما بعدهما للقاسمي، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٢٦٦)، و«الملل والنحل» (١/ ١٩٩ - ٢٠٠)، و«المُضِلُّ» (٤/ ٢٠٤)، و«الكامل» لابن الأثير (٥/ ٣٤٢ - ٣٤٤).

- بين حركة البطش، وحركة المرتعش، ونعلم أن الأول باختياره، دون الثاني.

ثانيا: ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلاً؛ لما صَحَّ التكليف، ولا ترتَّب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله، ولا إسناد الأفعال التي تقضي مابقية قصد إلى العبد على سبيل الحقيقة، مثل: صلى، وصام، وكتب، بخلاف مثل: طال، واسود لونه، وجرى النهر، وذهبت الريح.

ثالثا: النصوص القطعية تنفي ذلك وتنسب الأفعال إلى العباد؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿...جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الشجدة: ٢٧]، وقال - سبحانه -: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال - سبحانه -: ﴿وَأَيُّكُمْ أَصْلَحُ﴾ [الشورى: ٥٦]، وقال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الْفِتْنَةَ فَمَنَّمَا أَصْلَحَ﴾ [التوبة: ١١٨٥]؛ فالعبد هو المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، والمصلح، والصائم؛ حقيقة، ولا يصح وصف الله بأفعال عباده، فالعبد هو الفاعل حقيقة؛ يجعل الله له فاعلاً، ومنشأ ضلال الجبرية، وشبهتهم: أنهم يقولون: إن العبد لا فعل له؛ لثلاث يقع في ملك الله ما لا يريد؛ ولثلاث يوجد خالق غير الله؛ يعني: عكس شبهات القدرية.

ومنشأ ضلال كل منهما هو بالتسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، منشأ ضلالهم يعني: أنَّ كُلَّاً من القدرية والجبرية سووا بين إرادة الله ومحبه.

فإذاً: منشأ ضلال كل منهما: التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فالإرادة عند الجبرية واحدة وهي: الكونية، فقالوا: الكون كله بقضاء الله وقدره، فيكون محبوباً مرضياً؛ حتى المعاصي والكفر، والإرادة عند القدرية واحدة،

وهي: الشرعية، فقالوا: ما شرعه الله فقد قدره وأمر به، وأحبُّه؛ وليست المعاصي محبوبة لله، ولا مرضية له؛ فليست مقدرة ولا مقضية، بل هي خارجة عن مشيئته وخلفه.

الرَد عليهم: أن نقول: قد دلَّ على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة، والفطرة الصحيحة، أمَّا المشيئة فمن الكتاب: قول الله - تعالى -: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [الشجدة: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَكُنَّا إِلَٰهًا لَمَا أَفْتَكَلْنَا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا نَعْبُدُهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿مَنْ يَسْكُلْ اللَّهَ يَحْبِلْهُ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامٍ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَخًى حَرَبًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وأما نصوص المحبة والرضا فقال - سبحانه -: ﴿...وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِبَآؤُهُ إِلَّا أَنْ يُحِبَّ إِلَهُهُ﴾ [البقرة: ١٧]، وقال: ﴿كُلِّ ذَلِكُمْ كَانَ سَعْفُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا﴾ [الأنعام: ٣٨]، عقب ما نهى عنه الشرك والظلم والظلماء والكبر، وفي الحديث: «إن الله كره لكم ثلاثاً قِيلَ قَالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال»<sup>(١)</sup>، وفي المسند «إن الله يحب أن تُؤْتَى رُحْصه كما يكره أن تؤتى معصيته»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم: الأضحية (٥٩٣)، وأحمد (٢٤٩/٤)، واللفظ له من حديث المغيرة بن شعبه رضي الله عنه، وفي الباب أيضاً: عن أبي هريرة، وابن مسعود، ومعلق بن يسار، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٥٧/١-١٥٨).

(٢) (صحيح): أخرجه أحمد (١٠٨/٢)، رقم (٥٨٦٦)، وابن حبان (٢٧٤٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٢٠١)، والبخاري كما في «كشف الاستار» (٤٦٩/١)، رقم (٩٨٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٥/٥)، رقم (٥٣٠٢)، وقال الهيثمي (١١٢/٣): رواه أحمد، ورجال رجال الصحيح، والبخاري والطبراني في الأوسط وإسناده حسن، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥٦٤)، وفي «صحيح الجامع» (١٨٨٥).

ومذهب أهل السنة أن المشيئة والمحبة ليس مدلولهما واحداً، ولا هما متلازمان، بل قد يشاء الله ما لا يحبه، ويجب ما لا يشاء كونه، فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بُغْضِهِ لبعضه، والثاني: كحميته لإيمان الكفار، وطاعات الفجار، ولو شاء ذلك لُوجِد ذلك كله؛ فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ويُردُّ على الطائفتين بقول الله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦] أي: خلقكم والذي تعملون<sup>(١)</sup>؛ فدللت على أن أفعال العباد مخلوقة لله، وعلى أنها أفعالهم حقيقة، ففيها الرد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد لا فعل له، وفيها الرد على القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه استقلالاً. ويُردُّ عليهم كذلك بحديث حذيفة: «إن الله يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصِنْعَتِهِ»<sup>(٢)</sup>، فإله سبحانه خلق الإنسان بجميع أغراضه

- (١) قال ابن كثير بكثرة في «التفسير» (٢٦/٧): «يحتمل أن تكون هما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملون، وكلا القولين متلازمان، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني، عن مروان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربيع بن خراش، عن حذيفة مرفوعاً قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعه».
- (٢) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٦/١)، وابن أبي عاصم في «السنن» (١٥٨/١) رقم (٣٥٧) ورقم (٣٥٨) وصححه، والبيهقي في «معينه» (٢٨٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٩/١)، رقم (١٩٠)، وفي «الأسماء» والصفات (ص ٢٦ و ٢٨٨) من طرق عن أبي مالك الأشجعي عن ربي بن خراش عن حذيفة مرفوعاً به. ووقع في بعض روايات هذا الحديث: «إن الله خالق» يدل «يَصْنَعُ»، وفي بعضهما: «صانع». والحديث صححه الحاكم (٨٥/١)، رقم ٨٥، (٨٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني بكثرة: وهو كما قال، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٧/٧): «رواه البزار ورجاله رجال» =

وحركاته.

وهؤلاء الجبرية والجهمية يُخْرِجُونَ عن أفعال الله وأحكامه؛ جَعَلَهَا ومصالحتها؛ فيزعمون أن الله - تعالى - يفعل لا لعل ولا لحكمة، وإنما هو محض مشيئة، وصيرُف إرادة، وكان شيخهم النجم بن صفوان - رحمه الله - يقف على النجس - يعني: المصاب بالجذام فيقول - : أرحم الراحمين يفعل هذا! إنكاراً للحكمة والحكمة<sup>(١)</sup>.

ولهذا الأصل الذي أصْلُوهُ لوازم وفروع كثيرة فاسدة ذكرها ابن القيم بكثرة من تسعين وجهاً. والذي عليه أهل السنة والجماعة هو: إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وشرعه وقدره، فما خلق شيئاً ولا قضاه ولا شرعه، إلا لحكمة بالغة وإن قصرت عنها عقول البشر.

والأدلة الدالة على إثبات هذا الأصل كثيرة، وأنه سبحانه حكيم شَرَعَ الأحكام لحكمة ومصلحة؛ فما خلق شيئاً عبثاً، ولا خلق شيئاً سدى؛ فمن ذلك قول الله - تعالى - «أَحْسِبْتُمْ أَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ عَبَثًا» [المؤمنون: ١١٥]، وقوله: «إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ شَرَعَ لَكُمْ سُلُوكَ سَبِيلًا» [الأنعام: ٣٦]، وقوله: «وَمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَيْنَاكُمْ بِإِذْنِ رَبِّكُمْ وَمَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ» [التكوير: ٣٨]، «وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رَحْمَةً بِلِقَائِكُمُ الرَّسُولِ» [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: «يَكُونُ لِلنَّبِيِّ لُزُومٌ» [الزمر: ١١]، وأما أهل السنة فقد توسلوا؛ فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة، ولهم قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة ومشية، وأن الله

= الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسين بن الكندي، وهو ثقة. وصححه الحافظ في «الفتح» (٤٩٨/١٣).

وانظر: «الصححة» (١٦٣٧)، و«صحيح الجامع» (١٧٧٧).

(١) انظر: «إغاثة اللفهان» (١٧٧/٢).

خالقهم وخالق قدرتهم ومشيتهم؛ فأفعال العبد تضاف إليه على جهة الحقيقة، والله خلقه وخلق فعله كما قال - سبحانه - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦] فأخبر أن العباد يعملون ويصنعون، ويؤمنون ويكفرون، ويفسقون ويكذبون، فللعبد مشيئة ولا تكون إلا بمشيئة الله كما قال - سبحانه - ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٠]، والله أعلم.

◆ قَالَ - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وقد علم الله - تعالى - فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار جملة واحدة).

هذه الإرادة التي أشار إليها الشيخ، هي المرتبة الأولى من مراتب القدر، وهي: أن الله علم ما يعمل العباد، وأنه يعلم كل شيء سبحانه كما ثبت ذلك في النصوص، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، فهو يعلم أفعال عبادهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وأفعالهم؛ علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ قبل خلقه، كما ثبت في الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»<sup>(١)</sup>. فالله علم أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وخلق ذلك قبل أن يُخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء.

ثم قال ﷺ: (فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه).

(١) مسلم: القدر (٢٦٥٣) واللفظ له، والترمذي: القدر (٢١٥٦)، وأحمد (١٦٩/٢).

قوله: (لا يزداد ولا ينقص منه) لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال - سبحانه -: ﴿وَوَكَّلْنَا نَزِيلَهُ أَمْحِبُّكَ فِي إِمَامٍ نَبِيٍّ﴾ [يس: ١٢] والإمام المبين هو اللوح المحفوظ وقال - سبحانه -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّكَّاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الجن: ٧٠] والكتاب هو: اللوح المحفوظ، وقال - سبحانه -: ﴿وَمَا آتَاكَ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا فِي كِتَابٍ يَنْزِيلُهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] فقوله سبحانه ﴿فِي كِتَابٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] يعني: اللوح المحفوظ.

● وقول الطحاوي: (وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه).

معناه: أن أفعالهم وغير أفعالهم؛ فحركاتهم وسكناتهم؛ كلها مكتوبة.

● وقوله ﷺ: (وكل ميسر لما خلق له).

معناه: أنه تعالى ييسر أهل الجنة السعادة للسعادة، وييسر أهل الجنة للسعادة؛ فيعملون بعمل أهل الجنة ويموتون على التوحيد والإيمان ويعملون بعملهم، وييسر الكفرة للكفر فيعملون بعمل أهل النار فيموتون على الكفر؛ فيدخلون النار. فالؤمنون ييسرهم للإيمان والتوحيد والعمل الصالح، فيموتون على التوحيد؛ فيدخلون الجنة، والكفار ييسرهم للكفر وللمعاصي؛ فيموتون على الكفر؛ فيدخلون النار - نسأل الله السلامة والعافية -.

● وقوله ﷺ: - (والأعمال بالخواتيم).

معناه: أن من حُتِم له بالتوحيد والإيمان؛ صار من أهل الجنة، ومن حُتِم له بالكفر؛ صار من أهل النار، كما في الأحاديث الصحيحة كحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً - وهو من أحاديث الأربعين النووية - «إن أحكمكم يُجَمَّعُ خُلُقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقاً مثل ذلك، ثم

يَكُونُ مَضْعَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ وَشَقِي أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْقُبُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْقُبُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ<sup>(١)</sup>.

فهذا الحديث يدل على أن الأعمال بالخواتيم ومثل ذلك أيضاً: قولُ الرسول ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنة» قالوا: يا رسول الله، أفلا نَتَكَلَّفُ على كتابتنا وندعُ العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»<sup>(٢)</sup>.

أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ - تَعَالَى - : ﴿ثُمَّ أَتَى مِنَ الْأَمْرِ أَتًى﴾ صَدَقَ بِأَلَمِئِهِ ﷺ [البقره: ٥-٦].

فالسعادة والشقاوة مكتوبة في اللوح المحفوظ.

ثم قال الشيخ: (والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله).

والمعنى: لأن السعادة مكتوبة والشقاوة مكتوبة؛ في اللوح المحفوظ - كما سبق - وكذلك أيضاً: فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ - كما في حديث ابن مسعود

(١) أخرجه البخاري: بده الخلق (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم: القدر (٢٦٤٤)، والترمذي: القدر (٢١٣٧)، وأبو داود: السنة (٤٧٠٨)، وابن ماجه: المقدمة (٧٦)، وأحمد (٣٨٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٩٦٤)، والترمذي (٣٣٤٤)، وأحمد (١٢٩/١)، رقم (١٠٦٧) من حديث علي ﷺ.

المتقدم - وهو في بطن أمه يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ وَتُكْتُبُ سَعَادَتُهُ وَشَقَاوَتُهُ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ تَوَافِقُ مَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ هُوَ مَا دُوِّنَ وَكُتِبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ فَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ كُلُّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ هَذَا فِي التَّقْدِيرِ الْعَامِ الَّذِي فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ وَالَّذِي هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَّاكِ تُبَيِّنُ﴾ [يس: ١٢].

ثم هناك تقدير عمري: لكل شخص وهو في بطن أمه؛ تُكْتُبُ لَهُ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ، وَالْعَمَلُ، وَالرِّزْقُ، وَالْأَجَلُ، ثُمَّ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ سَنَوِيٌّ: يَكُونُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ؛ يَكْتُبُ اللَّهُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِنْ مَوْتٍ وَحَيَاةٍ، وَإِذْلَالٍ وَإِعْزَازٍ، وَإِسْقَاءٍ وَإِسْعَادٍ، ثُمَّ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ يَوْمِيٌّ: وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سَيَحْيَاهُ - وَتَعَالَى - يُقَدَّرُ مَا يَكُونُ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَمَا قَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ فَيُعْمَرُ، وَيُذَلُّ، وَيُخْلَقُ، وَيُحْيَى وَيَمِيتُ، وَيُسْعَدُ وَيُشْقِي، وَيُفْقِرُ وَيُغْنِي<sup>(١)</sup> - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

(١) وروى حديث حسن في هذا الباب رواه ابن ماجه برقم (٢٠٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره - كما في تفسير ابن كثير (٢٧٤/٤) -، وابن حبان في «الصحیح» (٦٨٩)، وأبو نعيم في «الحلیة» (٢٥٣-٢٥٢/٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١)؛ كُلُّهُمْ عَنْ هِشَامِ بْنِ عِمَارٍ، ثَنَا الْوَزِيرُ بْنُ صَبِيحٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مِسْرَةَ بْنِ حَلِيسٍ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] قَالَ: «فِي شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيَكْشِفَ كَرْبًا وَيُجِيبَ دَاعِيًا وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَضَعُ آخَرِينَ»، قَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي الزُّوَائِدِ (٨٨/١): «هَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ لِنَقَاصِ الْوَزِيرِ عَنْ دَرَجَةِ الْحَفِظِ وَالِاتِّقَانِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «ظَلَالِ الْجَنَّةِ» (٣٠١)، وَجَاءَ بِمَعْنَى حَدِيثِ الْبَابِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَنِيبٍ، وَابْنِ عَمْرٍ، لَكِنْ بِأَسَانِيدٍ وَاهِيَةٍ. وَانْظُرْ: «تَفْهِيمُ التَّعْلِيلِ» (٣٢٢/٤) - وَ«تَخْرِيجُ أَحَادِيثِ الْكُشَافِ» لِلزَّيْلَعِيِّ (٣٩٧/٣-٣٩٨)، وَرَاجِعِ الدَّارَقُطَنِي فِي «الْمَلَلِ» (٢٢٩/٦) وَفَقِهِ.

♦ ثم قال - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه)<sup>(١)</sup>.

أصل القدر؛ سر الله في خلقه؛ وهو كونه أَفْقَرُ وأغنى، وأوجد وأنى، وأمات وأحيا، وهدى وأضل، فهذا سر الله في خلقه لم يُطْلَعْ عليه أحدٌ من خلقه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ فكما تَقَرَّرَ القدر سر الله في خلقه يعني: ما أطلع عليه أحد منهم؛ فلا يعرفون لماذا أفقر هذا؟ ولماذا أغنى هذا؟ ولماذا أضل هذا؟ ولماذا هدى هذا؟ ولماذا أحيا هذا؟ ولماذا أمات هذا؟ ولماذا أوجد هذا؟ ولماذا أنى هذا؟ هذا سر الله، وله الحكمة البالغة في ذلك، وهو مبتلي على علمه وحكمته، وَلَيْسَ للعبد أن يسأل، ولا أن يعترض، بل يُسَلَّم الأمر لله؛ كما قيل: القَدَرُ سرُّ الله؛ فلا تكشفه .

♦ ثم قال الطحاوي: (والتمعن والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان).

يعني: أنَّ ذاك التمعن والغوص والبحث في هذا وفي حكمته، والاعتراض على الله: وسيلة إلى الحرمان ووسيلة إلى الطغيان، والذريعة،

(١) جاء هذا المعنى في حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٨٢/٦) من طريق الهيثم بن جمار، عن أبي بكر عمران القصير، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكلموا في القدر فإنه سر الله، فلا تفشوا له سره. وهو حديث ضعيف جداً أنه الهيثم بن جمار وهو متروك. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤١٣١). وجاء نحوه من حديث عائشة عند ابن عدي في «الكامل» (١٩٠/٧)، وضمَّفه وحديث ابن عمر معاً، الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١١٦١/٢). وضعف حديث عائشة ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٥/١)، وجاء بمعناه أيضاً من حديث أنس، كما عند الخطيب في «التاريخ» (٣٨٨/٢)، وفي سنن محمد بن عبد بن عامر، وهو واضح.

والوسيلة، والدرجة؛ متقاربة؛ لكن الطغيان يكون في مقابلة الاستقامة.

والحرمان في مقابلة الظفر، والخذلان في مقابلة النصر فالحرمان يكون في مقابلة الحصول على الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة، فالخذلان هو الهزيمة في مقابلة النصر؛ فهذه معاني متقاربة، وحاصل المعنى: أن التمعن والبحث والغوص والسؤال عن سر الله في خلقه؛ وسيلة إلى حرمان الشخص، وخذلانه ومجاوزة الحد، أي: هو وسيلة إلى حرمانه من التوحيد والإيمان الخالص، ووسيلة إلى طغيانه وتجاوزه الحد؛ فأنت عبد مأمور بأن تسلم ولا تعترض، فإذا اعترضت وتعمقت؛ صار ذلك وسيلة إلى طغيانك ومجاوزتك لحد العبودية، فَتَذَكَّرُ أَنَّك عبدٌ مأمور؛ فلا تتجاوز حدك، ولا تسأل، ولا تُقَلِّ في قدر الله: لماذا فعل كذا؟ فلا يقال: لماذا؟ ولا يُعترض على أفعال الله ولا على حكمته، فلا يقال: كيف؟ فإياك أن تعترض على الله بـ (لماذا؟) ولا بكيف؟ لأنَّ مَنْ اعترض على حكمة الله وقدر الله وقال: لماذا فعل كذا؟ أو قال: كيف فعل كذا؟ فقد تجاوز حده ولم يكن موحداً، ويخشى عليه الانحراف والهلاك.

ولهذا قال المؤلف: «التمعن في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان الحرمان».

♦ ثم قال رحمه الله (فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً، ووسوسة).

والمعنى: أنه ينبغي للإنسان أن يحذر كل الحذر؛ بالتفكير، والنظر، والوسوسة، والاعتراض على الله، فلا يُقَلِّ لماذا خلق هذا؟ ولماذا أوجد هذا؟ ولماذا هدى هذا؟ ولماذا أضل هذا؟ ولماذا أفقر هذا؟ ولماذا أغنى ذلك؟، فلا تعترض عليه تعالى؛ فإذا أفقر أحداً فلا تقل مثل ما يقوله بعض

العامه: (هذا ما يستحق؛ فلان ما يستحق، فلان ليس كفتا لذلك)؛ لأن هذا نوعٌ اعتراضى على الله! والله حكيم عليم وهو الذي قَدَّرَ أن يكون هذا غنياً أو فقيراً فلا تعترض على الله؛ فله الحكمة في ذلك؛ فهو الذي قَدَّرَ أن يكون هذا فقيراً، وأن يكون هذا مؤمناً، وهذا كافراً أو يكون هذا مطيعاً وهذا عاصياً، فلا تعترض، فهذا سر الله في خلقه له الحكمة البالغة وسَلَّمَ الأمرُ لَهْ فإن لم تفعل: كان هذا سبباً وذريعة، وسوسيلةً إلى حرمانك من التوحيد الخالص، وسبباً في طغيانك ومجاوزتك الحد.

● ثم قال الطحاوي: (فإن الله - تعالى - طوى علم القدر عن أنامه).

أي: طوى علم القدر عن أنامه. والأنام هم الناس أي: الخلق، والمعنى أنه تعالى: طوى عِلْمَ القدر عنهم يعني: أخفاه - سبحانه وتعالى - عن الناس؛ لأنه مما اختص به - سبحانه - نَفْسُهُ؛ فلا يعلم ذلك لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما لا يعلمون الحكمة في خلق هذا، وإيجاد هذا، وإغناء هذا، وإفقر هذا، وإضلال هذا وإماتة هذا؟ ولماذا هذا يعيش لمدة طويلة، ربّما مائة وعشرين، وهذا يموت وهو ابن أربعين، أو دون ذلك، وهذا يموت طفلاً، وآخر يموت في بطن أمه؛ فليس لك أن تعترض وتقول: لم؟ ولماذا؟ وكيف؟ لأنه سرٌّ قد طواه الله عنك، وأخفاه عن الأنام، والناس؛ فله الحكمة البالغة - سبحانه - يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد.

● ثم قال تَكَلَّفَ: (ونهاهم عن مرامه).

ومُرَّاهُ بقوله: ونهاهم عن مرامه: أي: طلبه، وعن السؤال عنه والبحث عنه.

◆ وقول المؤلف: (كما قال - تعالى - في كتابه: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

وَمِمَّا يُسْتَلُوهُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

معناه: أنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل؛ لحكمته البالغة ورحمته وعَدْلِهِ لا لمجرد قهره وقدرته، كما يقول الجبرية، فهو - سبحانه - لا يُسأل عما يفعل لكمال حكمته؛ لأنه حكيم وأما العباد فإنهم يسألون؛ لأنهم مأمورون؛ منهيون؛ مكلفون؛ فالله - سبحانه وتعالى - هو: الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الحكيم فيما يقدِّره، وفيما يشعه فلا يُسأل عما يفعل - سبحانه -، وأما العباد فهم يسألون.

● وقول الطحاوي: (فمن سأل لم فعل؟ فقد ردَّ حكم الكتاب، ومن ردَّ حكم الكتاب: كان من الكافرين).

معناه: أنَّ من سأل فقال: لم فعل كذا؟ ولماذا؟ فقال: لم أغنى هذا؟ ولم أفقر هذا؟ ولم هدى هذا؟ ولم أضل هذا؟ فقد ردَّ حكم الكتاب؛ يعني: عارض قول الله في قوله: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] - فالله - تعالى - يقول هذا، وأنت تقول: لماذا فعل؟ فلا شك أنه ردَّ لحكم الكتاب، ومن ردَّ حكم الكتاب كان من الكافرين.

● ثم قال تَكَلَّفَ: (فهذا جملة من يحتاج إليه من هو مُتَوَرِّقُ قلبه من أولياء الله - تعالى -).

أي: أنَّ هذه الأمور التي ذكرها المؤلف تَكَلَّفَ في القدر، وهي: عدم الاعتراض على الله، والتسليم له، وعدم التعمُّق؛ هذا الذي يحتاجه من نور الله قلبه من أوليائه، يعني: من أحبابه المؤمنين؛ فأولياء الله هم المؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [التوبة: ١٧] وَأَمَّا وَكَأَنَّا يَسْتَوْفُونَ [التوبة: ١٢-١٣].

• وقوله: (وهي درجة الراسخين في العلم).

لأن الراسخين في العلم، هم الذين يسلمون لقضاء الله وقدره، ويعلمون أن الله - تعالى - حكيم في شرعه، وقدره، وفي أمره ونهيه.

• ثم قال ﷺ: (لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود).

أي أنَّ: العلم علمان: علم في الخلق موجود وهو علم الشريعة وتفاصيلها، وعلم في خلقه مفقود، وهو علم الغيب وعلم القدر الذي غاب وطواه الله عن أنامه؛ فلا تسأل عن العلم المفقود، فعلم الغيب لا يعلمه إلا الله؛ قال - سبحانه -: ﴿عَلَّمَ الْقَلَمَ فَلَا تَظْهَرُ عَلَى عَجْوِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] وقال ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهَا شَيْءٌ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] فلا يعلم الأنبياء شيئاً من الغيب إلا ما أعلمهم الله وأطلعهم عليه؛ فالعلم المفقود لا تسأله ولا تطلبه؛ وهو علم الغيب، ومن ذلك علم القدر والعلم الموجود علم الشريعة وتفاصيلها، كما تقدّم.

• وقوله: (فإنكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر).

معناه: أنَّ من أنكر العلم الموجود، وهو علم الشريعة: فقد كفر، وعلم الشريعة هو ما جاء في كتاب الله، وسنة رسول الله، فمن أنكرها كفر، ومن ادعى العلم المفقود، وهو علم الغيب: كفر أيضاً<sup>(١)</sup>.

• وقوله: (ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود).

معناه: أنه لا يثبت الإيمان إلا بأن تطلب العلم الشرعي، والمقصود به: الكتاب والسنة، وترك طلب العلم المفقود، وهو: علم الغيب.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣٠-٢٤٨)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٧٥-٤٧٧).

## اللوح والقلم

### تعريف اللوح والقلم وآراء العلماء فيهما

• قال الإمام الطحاوي - رحمه الله تعالى -: (وؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رُقم).

هذا مبحث فيما يتعلق باللوح والقلم. وقوله: (وؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم) يعني: نؤمن بجميع ما كُتِبَ به القلم، وللمقادير أقلام؛ سيأتي تفصيل القول فيها. والقلم في اللغة: ما يكتب به، والمراد به هنا شرعاً: القلم الذي خلقه الله، وكتب به المقادير في اللوح المحفوظ، واللوح في اللغة: ما يكتب عليه، والمراد به شرعاً: اللوح الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والأدلة على ثبوت اللوح والقلم كثيرة، منها: قول الله - تعالى -: ﴿لَوْ هُوَ فَرَأَى عِجْدًا فِي فَوْجٍ مُخْتَلِفٍ﴾ [الشرح: ٢١-٢٢]، وفي الحديث الذي رواه الطبراني بسنده أن النبي أنه قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء كفتاه باقوتة حمراء قلমে النور وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر الله فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة يخلق في كل نظرة ويحيي ويميت ويمز ويذل ويفعل ما يشاء»<sup>(١)</sup> الحديث

(١) هذا الحديث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وموقوفاً:

أما حديث ابن عباس المرفوع: فأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٦٠)، رقم (١٠٦٥)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٥٥)، من طريق زياد بن عبد الله، عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، أن نبي الله ﷺ قدَّرَهُ.

وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم، قال يحيى بن معين: ليث بن أبي سليم =



رواه الطبراني بسند ضعيف.

ولكن قول الله - تعالى -: ﴿لَهُ هُوَ قُرْآنٌ جِيدٌ﴾ في آيَةٍ تَحْفَظُهُ ﴿٣٧﴾  
[التبويب: ٢١-٢٢] يُعْنِي عن ذلك الحديث - على القول بضعفه - وكذلك:  
قول الله - تعالى -: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] وقوله  
- سبحانه -: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] وهذا الكتاب هو اللوح  
المحفوظ. ومن الأدلة من السنة: حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال  
سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال:  
يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»<sup>(١)</sup>

= مضطرب الحديث، ولكن حدث عنه الناس.

وأما حديث ابن عباس الموقوف: فأخرجه أ الشَّيْخُ فِي الْمَعْظَمَةِ (٤٩٢/٢)، رقم  
(٤٢)، والحاكم (٥١٦/٢) و ٣٧٧١ و (٥٦٥/٢)، رقم (٣٩١٧)، والطبري في  
«التفسير» (١٣٥/٢٧)، واللائكاني في «الاعتقاد» (١٢٢٥) كلهم من طريق أبي  
حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به موقوف  
وهذا إسناد ضعيف فأبو حمزة الثمالي، رافضي ضعه أحمد ويحيى بن معين،  
وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: وأباه الحديث، وتابعه عن سعيد بن جبير  
به، يكثر بن شهاب، عند الطبراني في «الكبير» (٢٦٠/١٠)، رقم (١٠٦٠٥)، وقال  
الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩١/٧): «رواه الطبراني من طريقين، ورجال هذه  
ثقات». ويكره هذا قال عنه الذهبي في «المعني» (٩٩٥): «... معرقاق صدوق»،  
وكذا في «الميزان» (٦٧/٢)، أما ابن حجر فقال: «مقبول». انظر: «التقريب»  
(٧٥٧)، وقال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ٩٣ ط: السابعة): «وإسناده  
يحتمل التحسين».

(١) سبق تخريجه.

والحديث صحيح ثابت.

واختلف العلماء في القلم والعرش أيهما أسبق في الوجود؟ على قولين  
ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني<sup>(١)</sup> أصحابهما: أن العرش كان قبل  
القلم.

والدليل على ذلك: ما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو  
رضي الله عنه قال: قال رسول الله «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق  
السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»<sup>(٢)</sup>. ووجه  
الدلالة: أن الحديث صريح أن التقدير إنما وقع بعد خلق العرش؛ فدل  
على أن العرش مخلوق قبل القلم، والتقدير وقع عند أول خلق القلم بلا  
مهلة، يعني: أن الله أول ما خلق القلم كتب به المقادير؛ لما رواه أبو داود  
عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما  
خلق الله القلم فقال له: اكتب»<sup>(٣)</sup> الحديث. يعني: أنه عند أول خلقه القلم

(١) هو الإمام الحافظ المقرئ العلامة شيخ الإسلام: أبو العلاء الحسن بن أحمد بن  
الحسن بن أحمد الهمداني المطار، شيخ همدان. مولده في ذي الحجة سنة ثمان  
وثمانين وأربع مئة.

وله التصنيف في الحديث، وفي الزهد والرقائق، وقد صنف كتاب «زاد المسافر»  
في خمسين مجلداً، وكان إماماً في الحديث وعلومه. وكان عالماً إماماً في  
القراءات، والنحو، واللغة.

وتوفي بثلثة في جمادى الأولى سنة تسع وستين وخمس مئة، وله نيف وثمانون سنة.  
وانظر: «المنتظم» (١٠/ ٢٤٨)، و«الكامل» (١١/ ١١٧) لابن الأثير، و«العبير»  
(٤/ ٢٠٦)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢٨)، و«الشذرات» (٤/ ١٣١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) (صحيح): وتقدم تخريجه.

قال له اكتب بدليل الرواية الأخرى «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب<sup>(١)</sup> ينصب (أول) على الظرفية، ونصب (القلم) على المفعولية؛ فيكون قوله: «إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» جملة واحدة؛ وأما على رواية رفع (أول) و(القلم) فيعتين حملة على أنه أول المخلوقات من هذا العالم المحسوس المشاهد، ويكون قوله: «أول ما خلق الله القلم وقال له: اكتب» جملتين ليتفق الحديثان.

إذا: حديث عبد الله بن عمرو؛ أفاد أن العرش سابق على التقدير، وحديث عبادة بن الصامت أفاد أن التقدير مقارن لخلق القلم؛ يوضحه اللفظ الآخر: (لما خلق الله القلم قال له اكتب فجري القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة) فهو يوضح أن الأولية بالنسبة للكتابة. وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية الخلاف في العرش والقلم؛ أيهما خلق أولاً؟ واختار أن العرش مخلوق أولاً، فقال رحمه الله:

والناس مختلفون في القلم الذي كُتب القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده؟ قولان عند أبي العلا الهمداني

والحق أن العرش قبل؛ لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

فربح أن العرش مخلوق قبل القلم؛ لأنه قبل الكتابة.

وقوله: والعرش كان ذا أركان؛ يعني: كان موجوداً.

### وأقلام المقادير التي وردت في السنة

أولاً: القلم العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي كتب به في اللوح المحفوظ المقادير هذا القلم العام الشامل لجميع المخلوقات، وما بعده من الأقلام كلها مأخوذة منه وتوافقه<sup>(١)</sup>.

القلم الثاني: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم، ورد فيه آثار تدل على أن الله قدّر أعمال بني آدم، وأرزاقهم، وأجالهم، وسعادتهم عقاب أيهم<sup>(٢)</sup>.

القلم الثالث: حين يُرسل المَلَكُ إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة<sup>(٣)</sup>.

(١) كما في حديث عبادة بن الصامت السابق.

(٢) منها ما رواه مسلم بن يسار، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمنه فاستخرج منه ذُرِّيَّةً فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟ قال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدْجِلُهُ به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أهل النار فيُدْجِلُهُ به النار». وقد سبق تخريجه.

(٣) منها حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً ويؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح؛ فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون =

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة. فحاصلُ معنى قوله: (وَنُومِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُفِعَ)؛ أنه: لا يد من الإيمان باللوح المحفوظ؛ المذكور في الكتاب العظيم، وأن الله كتب فيه مقادير كل شيء، وما هو مكتوب فيه شامل؛ عامٌ. لا يخرج عنه أي شيء، والمقادير الأخرى كلها مأخوذة منه؛ راجعة إليه كما تقدمت الأدلة على ذلك. وكذلك: الإيمان بالقلم؛ قال بعض العلماء إنه هو القلم الذي أقسم الله به في قوله - سبحانه - : ﴿هَـوَ الْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) [التلم: ٤١].

• قال الطحاوي رحمه الله: (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله - تعالى - فيه أنه كائن، ليجمعوه غير كائن: لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله - تعالى - فيه ليجمعوه كائناً: لم يقدروا عليه).

يعني: أنَّ ما قدَّره الله وكتبه؛ لا يُغيَّر ولا يبدَّل، ولا يستطيع أحد أن يغيِّره أو يبدِّله؛ كما قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي يَفْصَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَتِهِ فَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَمَا يَشْكُرُ لَهُ إِلَّا شَرٌّ مُبْدِئٌ﴾ (قاطر: ٢٢).

وثبت في حديث ابن عباس حين ما علمه وقال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك - إلى أن قال - : واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا

= بين وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة». وقد تقدم تخريجه.

بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وجفَّتِ الصُّحُفُ<sup>(١)</sup> أي: أفلأَمُ المقادير؛ قد رُفِعَتْ وجفَّتِ الصحف فلا تُغيَّرُ، ولا تُبدَّلُ، ولو اجتمع الكون كلهم على أن يغيروا شيئاً مما كتبه الله: ما استطاعوا أن يغيروا ما كتب ليجمعوه غير مكتوب، ولَمَّا استطاعوا أن يزيدوا فيه شيئاً لم يكتب فيه.

• ثم قال رحمه الله: (جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

وهذا قَدْ دَلَّ عليه حديث ابن عباس السابق، في قوله عليه الصلاة والسلام: (رفعت الأقلام وجفت الصحف).

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه).

وهذا لأنَّ المقدور كائن لا محالة فلا بُدَّ من الإيمان بهذا؟ وأن تعلم أنَّ الذي أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك؛ لأن كل شيء قد كُتِبَ في اللوح المحفوظ؛ حتى العجز والكيس؛ فحركات العبد، وسكناته، وأقواله، وأفعاله، وتصرفاته كلها مكتوبة؛ كما في حديث

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، رقم (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦) والسيأتي له وقال: «حسن صحيح»، وصححه الحاكم (١٢٣/٣)، ٦٢٤ - ٦٣٠٣، (٦٣٠٤)، والألباني في «المسكاة» (٥٣٠٢)، وفي «طلال الجنة» (٣١٦ - ٣١٨)، وله عن ابن عباس طرق، قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ١٨٥): «وقد رُوِيَ هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة؛ من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعبيد الله بن عبد الله، وعمر مولى عُفْرَةَ، وابن أبي ملكية وغيرهم، وأصح الطرق كلها طريق حنش الصناعي التي خرجها الترمذي، كذا قال ابن منده وغيره...».

ابن عباس السابق أن النبي قال له: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك»<sup>(١)</sup>.

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه).

هذا بناءً على ما سبق، والأدلة على هذا واضحة، فعلى العبد أن يعلم أن كل شيء قد سبق به علم الله الشامل لكل شيء، والسابق لكل شيء؛ فالله تعالى يعلم ما كان في الماضي وما يكون في المستقبل وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال - سبحانه - : ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي الْكَافِرِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿...وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأعراف: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْتَعْطِفُ مِنْ دُونِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرَ فِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا رَظِي وَلَا يَكِينُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، والكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ - كما تقدم -.

فمن لم يؤمن بعلم الله الشامل؛ فليس بمسلم؛ ولهذا لما أنكر القدرة الأولى، الغلاة علم الله الشامل كُفِّرهم العلماء، كمالك، والشافعي، وأحمد<sup>(٢)</sup>.

وقال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروا القدرة بالعلم؛ فإن أفروا به:

(١) انظر: التخرج السابق.

(٢) انظر: «تحقيق مسألة علم الله» (ص ١٧٦-١٧٨)، و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٤١/٧).

خُصِّمُوا، وإن أنكروه كفروا<sup>(١)</sup>.

فمن أنكروا العلم؛ نسب الله للجهل، ومن نسب الله إلى الجهل؛ كفر؛ فلا بد من الإيمان بعلم الله الشامل.

♦ قال المؤلف رحمه الله: (فقدّر ذلك تقديرًا مُحْكَمًا، مُبْرَمًا).

قوله: (قدّر ذلك تقديرًا مُحْكَمًا مبرمًا).

يعني: لا يُغَيَّرُ، ولا يُبَدَّلُ ذلك التقدير المبرم المُحْكَم؛ الذي لا خلل فيه، فلا يمكن أن يُنْقَضَ.

• ثم قال رحمه الله: (ليس فيه ناقض ولا معقب).

قوله: "ليس فيه ناقض؛ من (الانقضاء)؛ يعني: لا يستطيع أحد أن ينقض حكم الله، وما قدّره، وما كتبه في اللوح المحفوظ، ولا يستطيع أحد أن يغيّره بزيادة أو نقصان، أو يؤخره أو يقدمه، فلا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه.

• وقوله رحمه الله: (ولا مزيل ولا مغير).

يعني: لا أحد يزيل، ولا ينقض، ولا يغيّر، بالزيادة أو النقصان، شيئًا مما كُتِبَ في اللوح المحفوظ أو يَمْحُوه.

• ثم قال رحمه الله: (ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه).

ومُرَادُهُ: لا يستطيع أحد أن ينقص، ولا أن يزيد مما قضاه وقدر في خلقه السماوات والأرض - سبحانه وتعالى -.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٤٩/٢٣).

♦ قال المؤلف رحمته: (وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة).

• قوله: (من عقد الإيمان).

يعني أن هذا: من اعتقاد الإيمان وأصل المعرفة، فعلى المسلم أن يعتقد أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، وأنه لا يستطيع أحد أن يغير ما كتبه الله، ولا أن ينقصه، ولا أن يقدمه أو يؤخره، ولا أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه. كما سبق تفصيله قريباً.

• وقوله رحمته: (وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته).

تقدم شرح بعضه، ومراؤه هنا: الإشارة إلى أنه لا يتم الإيمان بربوبية الله، وأن الله رب الخلائق، ومالكهم، ومتصرف فيهم: إلا بأن تؤمن بأن قضاء الله وقدره، وما كتبه في اللوح المحفوظ: نافذ، ولا يستطيع أحد أن يغيره ولا أن يبدله، ولا أن يزيد منه، ولا أن ينقص منه، ولا أن يحموه، وإلا فمن لم يؤمن بذلك، لم يؤمن بربوبية الله، ومن لم يؤمن بربوبية الله: لم يوحد الله؛ فيكون كافراً.

♦ قال المؤلف رحمته: (كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٢] كل من صيغ المومض، فكل شيء في هذا الكون مخلوق لله، فمعنى: (فقدرة تقديرًا) أنه سبحانه وتعالى خلقه بتقدير وإحكام؛ لأنه - سبحانه - هو الحكيم فيما يخلقه، وفيما يقدره وفيما يشرعه فخلقه، مبني على الحكمة وكذا؛ شرعه، وأمره، ونهيه، فمن صفاته: الحكمة، ومن أسمائه: الحكيم، خلافاً

للجبرية نعاة الحكمة عن الله، القائلين: إن الرب يخطط يخطط عشواء؛ فيجمع بين المختلفين، ويفرق بين المتماثلين - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -، بل الله حكيم؛ خلق كل شيء فقدره تقديراً.

♦ قال المؤلف رحمته: (وقال تعالى: ﴿...وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أي: أُنْ أَمَرَ الله الديني الشرعي، مُقَدَّرٌ تقديرًا؛ فهو مبني على الحكمة؛ فكما أَنَّ الآية الأولى أفادت أن خلق الله مبني على الحكمة؛ فكذلك الآية الثانية أفادت أن أمر الله وشرعه ودينه مبني على الحكمة؛ فهو حكيم - سبحانه وتعالى -، وتقدم معنا أَنَّ الجبرية - فيجبهم الله - من الجهمية وغيرهم، يقولون: الإرادة الإلهية تخطط يخطط عشواء؛ من دون تقدير ومن دون حكمة، فتجتمع بين المتفرقات والمختلفات، وتفرق بين المتماثلات، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآيات ردُّ عليهم فقوله: ﴿وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٢]؛ هذا في المخلوقات، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] هذا في الشرعيات في الأوامر والنواهي؛ أي فيما يأمره الله وشرعه.

♦ قال المؤلف رحمته: (فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً).

الويل: شدة العذاب والهلاك، وقيل: واٍ في جهنم <sup>(١)</sup>، فهذا الوعيد

(١) جاءت هذه التسمية في حديث ضعيف يروى عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

أخرجه الترمذي (٣١٦٤) وأحمد (٧٥٠/٣)، والحاكم (٥٥١/٢، ٥٨٣)، و (٤/ ٦٣٩)، وصححه، وأبو يعلى (١٣٨/٣)، وعبد بن حميد في «المسننة» (٩٢٤)، وابن المبارك في «الزهدة» (٩٦/٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٩٨)، =

به الولي! لمن صار له في القدر خصيماً، وخصيماً: فعيل بمعنى مخاصم، فهذا المخاصم لله في قضائه وقدره؛ الذي لا يؤمن بهما، ويعترض على الله، ويقول: لماذا فعل كذا؟ وكيف فعل كذا؟ لماذا أغنى هذا؟ ولماذا أفقر هذا؟ ولماذا أشقى هذا؟ ولماذا أسعد هذا؟ ولماذا هدى هذا؟ ولماذا أضل هذا؟ ولماذا خلق الله كذا؟ لماذا خلق الله الحيات والعقارب؟ ولماذا خلق الله السباع والهوام؟ ولماذا جعل الله الحر والبرد؟ فيعترض على الله في خلقه وشرعه ودينه؛ هذا خصيماً لله؛ مخاصم له، ويل له؛ ويل لمن كان له في القدر خصيماً، الذي هو سر الله في خلقه.

♦ ثم قال المؤلف كَلَّمَ: (وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً).

سَبَّبَ وصف قلبه بالسقم؛ الذي هو المرض؛ فلا اعتراضه على الله، وشكّه في حكمته، وظنّه بريه ظن السوء كظن المنافقين والكفرة. قال سبحانه: ﴿...وَيُظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠] وقال سبحانه فيه وفي

= وابن جرير في «التفسير» (٣٧٨/١)، وابن حبان (٤٦٧)، عن دراج عن أبي الهيثم عنه به، وقال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة، وأورد هذا عن الترمذي الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١١٨/١)، ثم تعقبه قائلاً: «لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده. وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً منكراً، والله أعلم. يعني: أنه تابع ابن لهيعة عن دارج به، عثرو بن الحارث كما في رواية الحاكم، وابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهم. وهذا إسناد ضعيف فدراج هو ابن سميان أبو السبح القرشي ضعيف صاحب مناكير» قال أبو حاتم: في حديثه ضعف. وقال الدارقطني: ضعيف، و قال في موضع آخر: متروك، وقال أحمد بن حنبل: أحاديث دراج، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف. وانظر «ضعيف الجامع» (٦١٤٨). وثمة آثار أخرى أوردتها السيوطي في «الدرر المشورة» (٢٠٢/١)، (٤٠٥/٥)، عن الصحابة وغيرهم.

أما سألته: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالطَّاغُوتِ بِإِذْنِ اللَّهِ أَتَسْأَلُهُ عَلِيمٌ تَأْتِرُهُ السُّوءُ وَتَغِيبُ اللَّهُ عَنْهُمْ وَتَهْتِكُ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَتَكُنَّ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٦].

فالمنافقون ظنوا أن الله لا يتم هذا الدين ويقضي عليه، وأنه يخذل رسوله، ويقضي عليه وعلى أصحابه، وهذا من ظن السوء، وكذلك من اتهم ربه، وظن به ظناً سيئاً، وأنه ليس حكيمًا في شرعه، أو ليس حكيمًا فيما يقدره ويخلقه؛ فهذا قد أحضر للنظر فيه قلباً سقيماً مريضاً.

والمرض نوعان: مرض شهية، ومرض شهوة. فمرض الشهية: مرض الشكوك؛ كمرض النفاق؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. ومرض الشهوة: شهوات المعاصي؛ كقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وأسوأ الشهية ما كانت الشهية فيه في الصفات، فالشبهة إما أن تكون في الصفات، أو تكون في القدر أو فيهما، وهذا الذي أشار إليه الشيخ، داوؤً ومرضه من جهة القدر، وأيضاً: القلب قد يموت، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبًا يُعْذِرُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبًا يُعْذِرُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] بالكفر، ﴿فَأَعْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] بالإنسان. ومن علامة مرض القلب أن لا يشعر بالمعاصي والمنكرات، فضلاً عن أن يتذكر المنكر، ولا يؤلمه كونه مقيماً على الجهل، وأعظمه: الجهل بالله وبأسمائه وصفاته، وكونه جاهلاً بحقائق الإيمان، وبما يجب عليه تجاه ربه، من القيام بوظائف العبودية؛ فلا يتعلم العلم الذي يدفع به عن قلبه معرّة الجهل؛ وهذا دليل استحكام داء الجهل من قلبه، لكن من الناس من يشعر بمرضه، لكن لا يستطيع تحمل مرارة الدواء، مع معرفته أن دواءه في طلب

العلم وسؤال العلماء ومزاحمة الطلبة بالركب على مرارة الدواء، فيبقى قلبه مريضاً - نسأل الله السلامة والعافية -.

فالحاصل: أن خصماء الله في القدر، وأصحاب الشبه في هذا الباب، هم مرضى القلوب؛ كهؤلاء الذين يعترضون على الله، وينفون حكمته من الجبرية وغيرهم.

♦ ثم قال المؤلف رحمه الله: (لقد التمس بوجهه في فحص الغيب سرّاً كتيماً).

التمس يعني: طلب بوجهه وبتهومه وظنونه وشكوكه في الفحص والبحث عن الغيب؛ لأنّ القدر سر الله؛ غيبٌ عن المخلوقين، لا يعلمه إلا هو - سبحانه - فلا تعترض أيها العبد الأمور على ربك، فلا تقل: لم؟ وكيف؟ لأنك إن كنت تريد أن تبحث عن هذا السر، فإنك ببحتك هذا سرا كتيماً، وكتيم؛ فعيل بمعنى مفعول يعني: مكتوماً؛ فقدّر الله سر لم يُطلع عليه أحداً، فكيف تريد أن تلتمس بظنونك وشكوك وشبهاتك وقلبك المريض البحث عن هذا السر الكتيماً؟!

إنم من تكلم في الغيب

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَاكًا أَثِيماً):

الشرح

• قوله: (وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ):

أي: في القدر؛ يعني: بظنونه وتهومه، فأصبح كذاباً أثيماً، هذه هي النتيجة؛ لأنه لما تعدى حدوده، وطغى وتجاوز الحد، وطلب معرفة الغيب، وسر الله في خلقه بوجهه وظنونه، عاد بما قال أفاكاً كذاباً أثيماً، وقد يكون كافراً بسبب تجاوزه الحد وطغيانه، كما سبق أن قال المؤلف: (هَذِهِ ذَرْبَةُ الْخَذْلَانِ وَسَلْمُ الْجُرْمَانِ وَدَرْجَةُ الظُّلْمَانِ).

## العرش والكرسي

الله سبحانه غني عن العالمين محيط بكل شيء

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقٌّ، وَهُوَ مُسْتَعْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقَوْفُهُ، وَقَدْ أُعْجِرَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقُهُ).

## الشرح

في هذا بيان أن الله - سبحانه وتعالى - غني عن العالمين، وأنه - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء فهو - سبحانه - متصف بالغنى، فلا يحتاج إلى أحد، لا إلى العرش، ولا إلى الكرسي، ولا إلى السماوات، ولا إلى الخلائق أجمعين؛ لأنه - سبحانه وتعالى - له وصف الغنى، فهو غني بالذات، كما قال - سبحانه - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾ [النجم: ٢٦]، وهو - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء من المخلوقات، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي السَّمَوَاتِ فِي السَّحَابِ الْمُبِينِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النسب: ٢٢٦]، وليس المراد من إحاطته بخلقه - سبحانه - أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وهذا معنى فاسد قد يفهمه البعض، كبعض الملاحدة الحلولية الذين يقولون: إن الله حالٌّ في المخلوقات، فيُفسَّرُون: معنى إحاطة الله بخلقه؛ أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخله، وهذا باطل كما مضى.

والصحيح أن المراد بالإحاطة: عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأن

المخلوقات بالنسبة إلى عظمته حبة صغيرة؛ كالخردلة، كما ثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيها في يد الله - عز وجل - إلا كخردلة في يد أحدكم»<sup>(١)</sup>، ومعلوم - والله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كانت عنده خردلة؛ إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مبين لها؛ عالٍ عليها؛ فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وَضْفٌ واصف؛ لو شاء سبحانه لقبض السماوات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، وهو محيط بكل شيء .

والعرش والكرسي مخلوقان عظيمان من مخلوقات الله ﷻ وفي الأثر عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره إلا الذي خلقه»<sup>(٢)</sup>، وأصل العرش في اللغة: السرير الذي

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنن» بهذا السياق (٤٧٦/٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٤-٢٥)، وابن أبي حاتم في التفسير، ونقله عنه بسنده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/٣٨٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٣٥) جميعاً من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: فذكره.

وفي إسناده ضعيف أبي الجوزاء، وهو ثقة، لكنه يرسل كثيراً. وشهد لمعنى هذا الأثر الآية القرآنية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ رَبُّكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه «تفسير الطبري» (٥/٤٠١): الصحيح عن ابن عباس ما رواه عماد الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره إلا الذي خلقه». قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. اهـ، والأثر في «العظمة» لأبي الشيخ (ح/٧)، و«السنن» لعبدالله بن الإمام أحمد (٥٩٠)، وانظره في «فتح الباري» (١٩٩/٨)، وصححه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (ح/٤).



لِلْمَلِكِ كما قال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وَسُمِّيَ عَرْشًا؛ لارتفاعه عليه، -: والاشتقاق يشهد لذلك، كقول الله تعالى: ﴿مَمْدُودِي وَعِزُّ مَمْدُودِي﴾ [الانعام: ١٤١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوا بِعَرْشِكَ﴾ [الاعراف: ١٣٧]، المعروف: الشجر المعروف الذي قام على ساق؛ وغير المعروف: المنبسط على الأرض؛ فالعين والراء والشين؛ تدل على الارتفاع؛ قال الله تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وقال عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَوُضِعَ الْكُرْسِيُّ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والمراد بالعرش في النصوص: العرش الذي أضافه الله لنفسه - سبحانه وتعالى - في مثل قوله: ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ، عَلَى الْمَاءِ﴾ [مئود: ٢٧] وقوله سبحانه: ﴿وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَجِيَّةٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وهو سرير عظيم؛ ذو قوائم؛ تحمله الملائكة؛ وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات، وهذا العرش وصفه الله بالعظمة؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَنْ تَرَى السَّمَوَاتِ السَّابِغَ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [الزمر: ٨٦]، ووصفه بأنه كريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَكُنُّ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [الزمر: ١١٦]، وكما تملح - سبحانه - نفسه بأنه ذو العرش، كما في قوله: ﴿فَلَوْ كَانَ مَعَهُ مِثْلَةٌ كَمَا يَحْكُمُونَ إِلَّا لَأُكِنَّتْ إِلَى دَى الْمَرْئِ سَيْلًا﴾ [الاسراء: ٤٢]، وقال سبحانه: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [عنابر: ١٥] [سورة غافر آية: ١٥]، كما أخبر - سبحانه - أن للعرش حملة؛ فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْكُمُونَ الْفَرْقَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفَوْقَهُمْ يَدُوسُ﴾ [عنابر: ٢٧]، وقال: ﴿وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَجِيَّةٌ﴾ [المائدة: ٢٧]، فأخبر أن للعرش حملة؛ اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون

للمؤمنين كما أخبر - سبحانه - أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فقال - سبحانه -: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [مئود: ٢٧]، وأخبر النبي أن للعرش قوائم؛ ففي [الصحيحين] عنه أنه قال: «لَا تُحْثَرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَكْبِيَاءِ، فَإِنَّ الثَّانِيَ يُمْضُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُثْبِتُ، فَإِذَا أَنَا يُنَوِّسُ أَجَدَ قَائِمَةً مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَفْرَى أَفَاقٍ قَلْبِي أَمْ جَزِي بِصُغْفَةِ الطُّورِ»<sup>(١)</sup>، كما أخبر النبي أن العرش فوق الفردوس، الذي هو أوسط الجنة وأعلاها، وأن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها، وفوقه عرش الرحمن، ففي الحديث: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَأَسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>، كما أخبر النبي ﷺ أن العرش مقبب على هذا العالم كما في حديث الأعرابي: «أَتَذَرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ

- (١) أخرجه البخاري (٤٦٣٨) والسياق له، ورواه في مواضع أخرى من الصحيح، ومسلم مختصراً (٢٣٧٤/ ١٦٢، ١٦٣) من حديث أبي سعيد، وأخرجه البخاري بسنحه (٢٤١١/ ٣٤٠٨، ٣٤١٤، ٤٨١٣، ٦٥١٧، ٧٤٣٨، ٧٤٧٢)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة.
- (٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٣٣) من حديث أبي هريرة، ولفظه -كما في الموضع الأول- قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهداً في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلاها الجنة أراء قال: وفوقه عرش الرحمن ومنه تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» قال محمد بن قُليح عن أبيه: «فوقه عرش الرحمن».

يَبْدُو يَثْلُ الْقِيَّةُ<sup>(١)</sup>.

كما أخبر النبي ﷺ أن التقدير بعد وجود العرش، وقبل خلق السماوات والأرض، ففي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَايِرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَحْمِسِينَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) فقال: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، ومحمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، وأحمد ابن سعيد الرباطي، قالوا حدثنا وهب بن جرير، قال أحمد: كتبنا من نسخته، وهذا لفظه. قال: حدثنا أبي قال سمعت محمد بن إسحق يحدث عن يعقوب بن عتبة، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه عن جده قال: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَهِدْتَ الْأَنْفُسَ وَضَاعْتَ الْعِيَالِ، وَنَهَكْتَ الْأَمْوَالَ وَهَلَكْتَ الْأَنْعَامَ، فَاسْتَقِ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ وَسَيِّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يَسِيحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا. وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقِيَّةِ عَلَيْهِ وَإِنَّ لِيُطَّ بِهَ أَطِيطُ الرُّخْلُ بِالرَّكَابِ».

قال ابن بشار في حديثه: «إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ». وساق الحديث. وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عتبة، وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده. قال أبو داود: والحديث بإسناد أحمد بن سعيد هو الصحيح، وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلي بن المديني، ورواه جماعة عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار من نسخة واحدة فيما بلغني. اهـ.

وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢/ ٣٦٥): حديث ابن إسحاق في «المسند» وغيره، وفي آخره: «إِنَّ عَرْشَهُ لَمِثْلُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضُهُ هَكَذَا مِثْلَ الْقِيَّةِ، وَإِنَّ لِيُطَّ بِهَ أَطِيطُ الرُّخْلُ بِالرَّكَابِ». وابن إسحاق مدلس، ولم يصرح بالسماع في شيء من الطرق عنه، ولذلك قال الذهبي في «العلو» (ص ٢٣): «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا فَرَدَ، وَابْنُ إِسْحَاقَ حَجَّةٌ فِي الْمَغَازِي إِذَا أَسْنَدَ، وَلَهُ مَتَاكِيرٌ وَعَجَائِبٌ، فَالْحَقُّ أَعْلَمُ. وَعَلَقَهُ الْبَخَارِيُّ فِي «خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ» (١/ ١٧) قَالَ: وَقَالَ جَبْرِ بْنُ مَطْعَمٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، وَسَمَاوَاتُهُ فَوْقَ أَرْضِيهِ مِثْلَ الْقِيَّةِ».

أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ<sup>(٢)</sup>.

فتلخص من مجموع هذه النصوص في أوصاف العرش ما يأتي:  
أولاً: أن الله مدح نفسه بأنه رب العرش وذو العرش، مما يدل على أهمية العرش وميزته على المخلوقات.

ثانياً: وُصِفَ العرشُ بأنه عظيم، وأنه كريم، وأنه مجيد.

ثالثاً: وُصِفَ العرشُ بأن له حَمَلَةً، وأن الملائكة تحف به؛ من حوله.

رابعاً: أن العرش هو أعلى المخلوقات وسقفها، فهو فوق الفردوس؛ الذي هو وسط الجنة، وأعلى الجنة.

خامساً: أن للعرش قوائم.

سادساً: أن العرش مُقَبَّبٌ عَلَى الْعَالَمِ.

سابعاً: أن العرش سابق وجوده على تقدير المقادير، وأن تقدير المقادير سابق خلق السماوات والأرض؛ هذا هو الصواب، وذهب بعض أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس.

فقول بعض أهل الكلام: إن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، يعني: أن العرش مُثَلَّثٌ لجميع العالم، فالعالم كله - السماوات والأرض كلها - في جوف العرش، هذا قاله بعض أهل الكلام كما سبق، لكن هذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في النصوص أن له قوائم، كما سبق في حديث «الصحيحين»<sup>(١)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢) من حديث أبي سعيد، وقد تقدم تخريجه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(١)</sup> رحمه الله: العرش مقبب، ولم يثبت أنه مستدير مطلقاً، بل ثبت أنه فوق الأفلاك، وأن له قوائم، وصح في علوه - أي: العرش - قوله: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ<sup>(٢)</sup>»، وعلى كل تقدير، فالعرش فوق المخلوقات؛ سواء أكان محيطاً بالأفلاك أو غير ذلك، وهو فوق الكرسي، والكرسي فوق الأفلاك كلها، ونسبة الأفلاك وما فيها إلى الكرسي، كحلقه في فلاة، قال تعالى: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» (البقرة: ٢٥٥)، إذا: العرش أعظم المخلوقات، ثم يليه في العظم: الكرسي، وقد نقل بعضهم أن الكرسي هو علم الله، لكن هذا قول ضعيف، ونسبته إلى ابن عباس لم تثبت<sup>(٣)</sup>، فإن علم الله وسع كل شيء؛

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/١٥٠)، (٦/٥٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/٥٤٦).

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٩)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص٢١)، من طريق: جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال ابن منده، واللائكاني في «اعتقاد أهل السنة» (٦٧٩): «ولم يتابع عليه جعفر، وليس هو بالقوي في سعيد بن جبير». وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩). وعلقه البخاري لكن من قول سعيد بن جبير، وقال الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ١٩٩): «وصله سفيان الثوري في تفسيره في رواية أبي حنيفة عنه بإسناد صحيح».

وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من وجه آخر عن سعيد بن جبير فزاد فيه عن ابن عباس.

وأخرجه المعقلي من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وهو عند الطبراني في كتاب السنة من هذا الوجه مرفوعاً، وكذا رويناه في فوائد أبي الحسن علي بن عمر الحريزي مرفوعاً، والموقوف أشبه.

= وقال المعقلي إن رفعه خطأ ثم هذا التفسير غريب. وقد روى ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أن الكرسي موضع القدمين. وروى ابن المنذر بإسناد صحيح عن أبي موسى مثله. وأخرجنا عن السدي «أن الكرسي بين يدي العرش وليس ذلك مغايراً لما قبله والله أعلم». اهـ. كلام الحافظ ابن حجر، وانظر: «تعليل التعليق» (٤/ ١٨٥-١٨٦). قال ابن جرير الطبري في «تفسيره» تفسير الطبري (٥/ ٤٠١): أما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عنه أنه قال: «هو علمه». اهـ. وتعبه الشيخ محمود محمد شاكر في تحفيقه فقال: «المعجب لأبي جعفر، كيف تناقض قوله في هذا الموضوع! فإنه بدأ فقال: إن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ، من الحديث في صفة الكرسي، ثم عاد في هذا الموضوع يقول: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس أنه علم الله سبحانه. فإما هذا وإما هذا، وغير ممكن أن يكون أولى التأويلات في معنى «الكرسي» هو الذي جاء في الحديث الأول، ويكون معناه أيضاً «العلم»، كما زعم أنه دل على صحته ظاهر القرآن. وكيف يجمع في تأويل واحد، معنيين مختلفان في الصفة والجوهر!! وإذا كان خير جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد، فإن الخبر الآخر الذي رواه مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد على شرط الشيخين، كما قال الحاكم، وكما في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٢٣) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، كما بيته في التعليق على الأثر (٥٧٩٢). ومهما قل فيها، فلن يكون أحدهما أرجح من الآخر إلا بمرجح يجب التسليم له. وأما أبو منصور الأزهري فقد قال في ذكر الكرسي: «والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره. قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. قال: ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل»، وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله. وقد أراد الطبري أن يستدل بعد بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «وبنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، فلم يلجأ بجعل «الكرسي» هو «الرحمة»، ومهما في =

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر: ٢٧)، والله يعلم نفسه، ويعلم ما كان وما لم يكن، ولو فُسر الكرسي بالعلم في الآية؛ لقيل: وسع علمه السماوات والأرض، وهذا المعنى لا يكون مناسباً، لاسيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُّهُمْ حِفْظُهُمْ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أي: لا يتقله، وهذا يناسب القدرة، لا العلم. وقال بعضهم: إن الكرسي هو العرش، لكن الأكثرون أنهم شيان، إذاً فالأقوال ثلاثة.

والصواب: أن الكرسي مخلوق آخر غير العرش، وهو موضع قدمي الرحمن - جل جلاله -.

قال الإمام عثمان بن سعيد الدرامي<sup>(١)</sup> .....

= آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في [سورة الأعراف: ١٥٦]: ﴿قَالَ عَذَابُ أَحِبِّهِمْ بِرَأْسِكَ وَأَعَذَابُ الْآخَرِينَ وَبَسَّطَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكًا إِلَّا وَجْهَ رَبِّكَ﴾ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل الطبري، ضعيف جدا، يدل عنه من كان مثله حلوا ولطفا ودفعة.

وأما ما ساقه بعد من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكر التأويل، كما سأبينه بعد إن شاء الله. وكان يحسبه شاهدا وليلا أنه لم يأت في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى «الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: ﴿وَلَقَدْ كُنَّا مَلَكُوتًا وَعَلَيْنَا عَلٌّ كَرِيمٌ. كَسَا نَارُ اللَّهِ ﴿٢٥﴾﴾ (ص: ٢٥) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥٨٤/٦): «وقد نقل عن بعضهم أن كرسية علمه، وهو قول ضعيف».

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣١٩/١٣): عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد: الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، شيخ تلك الديار، أبو سعيد، التميمي، الدرامي، السجستاني، صاحب «المسند الكبير» والتصانيف. ولد قبل المئتين بيسير، وطوف الأقاليم في طلب الحديث. وسع: أبا الإيمان، ويحيى بن صالح الخُطاطي، وسعيد بن أبي مريم... وخلق كثيرا بالرحميين، والشام، ومصر، والعراق، =

(١) يَكُنْ: هذا الذي عرفناه عن ابن عباس، صحيحا مشهورا، فالكرسي مخلوق عظيم، وهو موضع القدمين لله - سبحانه - كما روى ابن أبي شيبه والحاكم وقال: على شرط الشيخين، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله»<sup>(٢)</sup>، وذكر ابن جرير عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

= والجزيرة، وبلاد العجم. وصنف كتابا في «الرد على بشر المريسي»، وكتابا في «الرد على الجهمية»، وروناهما. وأخذ علم الحديث وعلمه عن علي، ويحيى، وأحمد، وفاق أهل زمانه، وكان لهجا بالسنّة، بصيرا بالمناظرة.

حدث عنه: أبو عمرو: أحمد بن محمد الحيري، ومحمد بن إبراهيم الصرام، ومؤمل بن الحسين... وخلق كثير. قال الحاكم: سمعت محمد بن العباس الضبي، سمعت أبا الفضل يعقوب بن إسحاق القراب يقول: ما رأينا مثل عثمان بن سعيد، ولا رأى عثمان مثل نفسه، أخذ الأدب عن ابن الأعرابي، والفقه عن أبي يعقوب البويطي، والحديث عن ابن معين وابن المديني، وتقدم في هذه العلوم بكتفه.

قلت: كان عثمان الدارمي جذعا في أعين المتبذعة، وهو الذي قام على محمد بن كرام، وطرده عن هراة، فيما قيل. وقال محمد بن المنذر: شكر: سمعت أبا زرعة الرازي، وسألته عن عثمان بن سعيد، فقال: ذاك رُزِقَ حسن التصنيف. وقال أبو الفضل الجارودي: كان عثمان بن سعيد إماما يُتَّقَى به في حياته وبعد مماته. قال محمد بن إبراهيم الصرام: سمعت عثمان بن سعيد يقول: لا تكيف هذه الصفات، ولا تكذب بها، ولا نفرها. ومن كلام عثمان بكتفه في كتاب «النقص» له: اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه، فوق سماواته. اهـ.

مختصر.

- (١) انظر: «الرد على بشر المريسي» (١/٤١٤).  
(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في كتاب «العرش» (٦١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٦٤٥)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣/٢٥١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/٢٥١)، والهروي في «الأربعين» (ص ٥٦-٥٧)، والدارمي في «الرد على»

سمعت رسول الله يقول: «مَا الْكَرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْفِيتْ فِي ظَهْرِ سَلَامِيلَ مِنَ الْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>.

= المبرسي (٣٩٩/١ - ٤٠٠) و (٤١٢/١) و (٤٢٣/١)، وعبدالله بن أحمد في «السنن» (٥٨٦، ١٠٢٠، ١٠٢١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٧، ٢٨)، والداقطني في «الصفات» (٣٦)، والحاكم في «المستدرک» (٣١٠/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «العلو» (ص ٧٦): «رواه ثقات»، وصححه الألباني في مختصر العلو (ص: ٧٥)، وقال الحافظ في «الفتح» (١٩٩/٨): «ورد أبو المنذر بإسناد صحيح عن أبي موسى مثله، وأخرجه عن أبي موسى أيضاً، ابن جرير في «التفسير» (٩/٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٦)، وابن أبي شبة في «العرش» (٦٠)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص ٤٦)، وعبدالله بن أحمد في «السنن» (٥٨٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٩ - تحقيق الحاشدي).

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣٩٩/٥) تعليقاً، وأسند ابن أبي شبة في «العرش» (٥٨)، وابن بطة الإبانة الكبرى (٢٥٤٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٤٨/٢) (٧٠) من طريق المختار بن غسان العبدري، عن إسماعيل بن مسلم، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري مرفوعاً بلفظ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». وفيه المختار وهو مجهول. ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٧/٢)، وذكره في «العلو للعلی الغفاري» (٣٠٧) من طريق ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن أبي ذر رضي الله عنه، نحوه مرفوعاً بلفظ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» قال الذهبي في العلو ص ١١٥: «والشعر منكر» اهـ.

وأسند أبو الشيخ في «العظمة» (٥٨٧/٢)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/٣) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول عن أبيه «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس قال ابن زيد فقال أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض والكرسي موضع القدمين». =

والله - سبحانه وتعالى - استوى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، وجاء ذكر استواء الله - سبحانه - على عرشه في سبعة مواضع من القرآن:

**الموضع الأول:** في سورة «الأعراف»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْثِي الْأَنْبُوتَ وَالنَّارُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

**الموضع الثاني:** في سورة «يونس»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ [يونس: ٣].

**الموضع الثالث:** في سورة «الرعد»؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ يُدِيرُ عَمَلَهُمْ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢٢].

= وقال الشيخ الحاشدي في التعليق على «الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٠١/٢): «وهذا مرسل، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف جداً».

وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٢)، وابن حبان - (٣٦١) مطولاً، وذكره الذهبي في «العلو للعلی الغفاري» (٣٣٣)، عن يحيى بن يحيى الغساني، وقال: «إبراهيم ليس بشيء»، وقد وثق.

وأخرجه ابن ماجه (٤٢١٨) عن القاسم بن محمد، مختصراً وليس فيه محل الشاهد، وابن مردويه (٦٨١/١) - تفسير ابن كثير - عن القاسم بن محمد ذكر فيه محل الشاهد.

كلاهما (يحيى بن يحيى الغساني، والقاسم بن محمد) عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر مرفوعاً، وفيه «ما السماوات السبع مع الكرسي» إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة. وقد استوفى الشيخ الحاشدي الكلام على طرق هذا الحديث في «تعليقه على كتاب الأسماء والصفات» للبيهقي (٢٩٩/٢ - ٣٠١)، ثم قال: «وبالجملة: فطرق هذا الحديث كلها وأهية، لا تصلح للاعتقاد...».

الموضع الرابع: في سورة «طه»؛ قال تعالى: ﴿الرَّجَنَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥٠).

الموضع الخامس: في سورة «الفرقان»؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٥٩).

الموضع السادس: في سورة «آلم السجدة»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (السجدة: ٢٤).

الموضع السابع: في سورة «الحديد»؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الحديد: ٤).

والعلو صفة من صفات الله، والاستواء صفة من صفات الله، لكن ما الفرق بين الصفتين؟ يبين الفرق واضحاً بين هاتين الصفتين من وجهين:

الوجه الأول: أن العلو من صفات الذات، فهو ملازم للرب؛ فالرب لا يكون إلا عالياً، والاستواء من صفات الأفعال، وكان بعد خلق السماوات والأرض، كما أخبر الله بذلك في كتابه؛ فدل على أنه سبحانه - تارة كان مستوياً على العرش، وتارة لم يكن مستوياً عليه، فاستواؤه على العرش كان بعد خلق السماوات والأرض، فالاستواء - على هذا - عُلوٌ خاص؛ فكل مستوٍ على شيء عالٍ عليه، وليس كل عالٍ على شيء مستوياً عليه.

فالأصل: أن علوه سبحانه على المخلوقات؛ وضفٌ لازم له، كما أن عظمته وكبريائه وقدرته؛ كذلك، وأما الاستواء؛ فهو فِعْلٌ يفعله سبحانه بمشيئته وقدرته، ولهذا قال: «ثم استوى».

الوجه الثاني: أن العلو من الصفات المعلومة بالسمع والعقل، أما

الاستواء على العرش: فهو من الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل؛ فكل الناس يشتهون ويدركون أن الله في العلو؛ حتى البهائم، أما الاستواء على العرش: فهذا ما عُرف إلا من جهة الشرع.

والعلو من الصفات التي اشتد فيها النزاع بين أهل السنة وبين المخالفين لهم من أهل البدع، فهي من الصفات العظيمة التي نفاها أهل الكلام والبدع.

وسبق أن هناك ثلاث صفات من أثبتها؛ فهو من أهل السنة، ومن نفاها؛ فهو من أهل البدع: الكلام، والرؤية، والعلو، فهذه الصفات هي العلامات الفارقة بين أهل السنة وبين أهل البدع، كالاشعرية والجهمية والمعتزلة الذين نفوا العلو، ونفوا الكلام؛ فالكلام عند الأشاعرة: معنى قائم بالنفس، لكنهم أثبتوا الرؤية ولما كانوا من نفاة العلو والفوقية، قالوا: يرى لا في مكان وبلا مقابلة؛ فأضحكوا منهم المُقْلَاء.

والعلو في اللغة معناه الارتفاع، والمراد به شرعاً: وَضَعُ ذاتيَّ الله - سبحانه -، وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو الذات.

النوع الثاني: علو القدر.

النوع الثالث: علو القهر والغلبة والسلطان.

وله - سبحانه - العلو المطلق بأنواعه الثلاثة، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»<sup>(١)</sup>:

(١) انظر: «الكافية الشافية» (١/٥١).

والفوق أنواع ثلاث كلها لله ثابتة بلا نكران ومذاهب الناس في العلو أربعة:

المذهب الأول: مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء، وهو: أن الله فوق سمواته، مستقر على عرشه، بائن من خلقه<sup>(١)</sup>.

المذهب الثاني: مذهب معطلة الجهمية ونفاتهم، وهو: أن الله ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا مباين له ولا محايث له، ولا فوقه ولا تحته؛ فينفون عنه الوصفين المتقابلين الذين لا يخلو موجود عن أحدهما، وهذا يقوله أكثر المعتزلة ومن وافقهم من متأخري الأشاعرة<sup>(٢)</sup>، وهذا الذي وصفوه، ليس سوى العلم - نعوذ بالله -.

المذهب الثالث: مذهب حلولية الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان كما يقوله التجارية<sup>(٣)</sup>.

فعلى هذا يكون الجهمية لهم مذهبان: مذهب النفاة: وهم الذين ينفون الوصفين، والحلولية الذين يقولون: إنه - تعالى - عن قولهم - حال في كل

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» المجلد السادس بأكمله والسابع حتى (ص/ ١٤٠)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٦٠-١١٠٠) ط. أضواء السلف.

(٢) انظر: «شرح الأصول الخمسة» (ص/ ٢١٩-٢٢١)، و«شرح جوهرية التوحيد» (ص/ ١٦٣-١٦٥)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١٢٢-١٢٣)، (٥/ ٢٧٢-٢٧٣)، و«درء التعارض» (٥/ ١٦٩).

(٣) هم أصحاب الحسين بن محمد التجار، ذهبوا إلى القول بخلق أفعال العباد، ووافقوا القدرة الغلاة في نفي العلم، وقالوا بحدوث الكلام له تعالى، وهم فرق منهم: البرغوثية، والزعفرانية. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ٣٤٠-٣٤٢)، و«الملل والنحل» (١/ ٨٨-٩٠).

مكان<sup>(١)</sup>.

المذهب الرابع: مذهب طوائف من أهل الكلام والتصوف، الفاتلين بأن الله فوق العرش، وهو في كل مكان، فهم يقولون: هو بذاته فوق العرش، وهو بذاته في كل مكان<sup>(٢)</sup>.

أدلة السلف والأئمة وأهل السنة على علو الله على خلقه بذاته:

استدلوا بالنقل الصحيح، والعقل الصحيح، والفطرة السليمة. يقول العلماء: أدلة العلو تزيد على ثلاثة آلاف دليل، فالأدلة على علو الله تعالى، أنواع وهي كالقواعد في هذا الباب؛ يندرج تحتها أفراد كثيرة وهي:

(النقل الصحيح): حيث ورد في سبعة مواضع من كتاب الله، بلفظ (على)؛ وهي تدل على العلو والارتفاع، وهذا نص لا يقبل الاحتمال، ولا الاشتباه في المعنى.

(أما التصريح بلفظ العلو): فقد تكرر في الكتاب وضف الله بالعلى والأعلى، كقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التين: ٢٥٥]، وقوله: ﴿سَجَّ أَسْفَرَكِ الْأَكْلُ﴾ [الاعلى: ٢١]، وهذا يدل على ثبوت العلو الله بجميع أنواعه.

(أما التصريح بالقومية): لله تعالى فتارة يكون مقروناً بأداة: مِنْ، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُرْبِهِمْ﴾ [التحل: ٥٠]، وتارة غير مقرون، كقوله: ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ الْكَرِيمُ عَزِيزٌ﴾ [الأنعام: ٤١٨]، فالمقرون بمن نص في معناه؛ لا

(١) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٨٩٢-٨٩٣)، و«بيان تلبس الجهمية» (١/ ٥٥٦-الطبعة القديمة).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣١٨).

يقبل التأويل. وغير المقرون: ظاهر في المراد، ولا يقبل تأويله ممن ادعاه؛ لأن الأصل الحقيقة، ودعوى المجاز لا تقبل بغير دليل، ولا دليل هنا.

(أما التصريح بالصعود إليه): فقولوه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الْقَلْبُ﴾ [نابط: ١٠]؛ والصعود إنما يكون إلى أعلى.

(أما التصريح برفع بعض المخلوقات إليه): فقولوه في المسيح - عليه الصلاة والسلام -: ﴿كُلُّ رُفْعَةٍ اللَّهِ إِلَيْهِ﴾ [التيس: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَلِّيكَ وَرَأَيْتُكَ إِلِي﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله في العمل الصالح: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [نابط: ١٠]، وثبت في الأحاديث والآثار ارتفاع دعوات المضطرين والمظلومين إلى الله، وذلك كله صريح في علو الله وفوقته.

(أما التصريح بتنزيل الكتاب منه): فقولوه: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنْ آفَافِ الْمُبَارَكِ﴾ [السر: ٢١]، وقوله: ﴿تَنْزِيلَ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ [الغزل: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَدْرَأُ الْآيِينَ﴾ [الغزل: ١٩٣]، وقوله: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ وَنَلْقَاهُ رَنَاقًا﴾ [الاسراء: ١٠٥]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النمل: ١٠٢]، والنزول إنما يكون ممن هو فوق، وممن هو عالٍ، وهذا يدل على علو الله وارتفاعه.

(أما التصريح بأنه في السماء): فقولوه: ﴿أَيْنُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفُّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُوتُ﴾ [آل أئمن: ٢٢]، ثم أينُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَقْنُونَ كَيْفَ تَذِيرِ [الملك: ١٦-١٧]، [سورة الملك آية: ١٦ - ١٧]، وقول النبي في دعائه: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ...﴾

الحديث<sup>(١)</sup>، وفي: قوله «في السما» إذا فُسِّرَتْ «السما» بمعنى العلو؛

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٧٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨٦٣٦) - تحقيق: طاروق عوض الله، والحاكم (٤٩٤/١)، (٢٤٣/٤)، وابن عدي في «الكامل» (١٩٧/٣)، واللاكناني في «السنن» (٦٤٨)، وغيرهم. من طريق الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أَشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاكَ أَمْرًا لَهُ، فَلْيَلِمْ: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوثنا وخطايانا أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجه فيراهم.

وزيادة بن محمد قال عنه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤٤٦/٣): «منكر الحديث»، وكذا قال النسائي في كتاب «الضعفاء» (٢٢١). وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٢١١٣): «منكر الحديث». وقال الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨٠/٨): «نفرد به الليث بن سعد». وقال الذهبي: «بعد أن عزاه إلى أبي داود- في «العلو» (٢٩): «وزيادة لثبت الحديث». اهـ.

ورواه أحمد في مسنده (٢٠/١) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن الأشياخ عن عبيد بن عمير. وأبو بكر ضعيف كما في ترجمته في التهذيبين، وفيه الأشياخ «مهمون»، فالحديث ضعيف.

وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٨٧٤) من طريق مخلد قال حدثنا سفيان عن منصور عن طلق عن أبيه: «أنه كان به الأسر فانطلق إلى المدينة والشام يطلب من يداويه فلقي رجلا فقال ألا أعلمك كلمات سمعتن من رسول الله ﷺ ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوثنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجه فيراهم». والحديث فيه مخلد بن يزيد، قال عنه الحافظ في «التقريب» (١٥٠): «صدوق له أوهام». وطلق هو ابن حبيب قال عنه الحافظ في «التقريب» (٣٠٤٠): «صدوق عابد رمى بالإرجاء»، وأبوه حبيب المعزني قال عنه في «التقريب» (١١٤): «مجهول»، وإن كانت جهالة =



فهي للظرفية، وإذا نُسِرت بالطباق المبنية؛ فهي بمعنى (على)، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّىْكُمْ فِي جُنُحٍ أُنْخَلٍ﴾ [نمل: ٢٦]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ١٦١]، لأن الله سبحانه لا يحصره ولا يحيط به شيء من خلقه.

(أما الإخبار عن رفعة وعظمته بأنه رفيع الدرجات): فكقوله تعالى في سورة «غافر»: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْأَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٦١٥]، فقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ٦١٥] فعيل بمعنى: مفعول، أي مرفوعة درجاته برفعته وارتفاعه وعلو شأنه، وليس (رفيع) هنا بمعنى رافع درجات المؤمنين، فيكون فعيل بمعنى فاعل، كما يقوله المعطلة؛ لأن السياق يأبى هذا القول؛ وذلك أن الله - سبحانه - وصف نفسه قبل هذا بالعلو في قوله: ﴿قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ الْكَبِيرُ﴾ [غافر: ٦٢]، ثم وصف نفسه بأنه رفيع الدرجات ذو العرش، فالأوصاف كلها راجعة إلى رفعة هو، وارتفاعه على الخلق، لا إلى رَفْعِهِ بعض خلقه، ونظير هذا: قول الله - تعالى - في سورة «المعارج»: ﴿وَيَوْمَ آتَى السَّمَاءَ سَاقِطًا﴾ [المعارج: ٣]، أي: المصاعد التي تصعد فيها الملائكة إليه - جل سلطانه -، وهي الدرجات الرفيعة، والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

(أما التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده): فكقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا الْكَافِرَاتُ وَالْكَافِرَاتُ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْزِنُونَ﴾ [النبي: ٢١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَحْزِنُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٦]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ أَكْبَرُ وَلَهُمْ عِلْمُ الْغُيُوبِ﴾ [النمل: ٢٧]، فاستكبروا.

= الذي حدثه لا تفيد؛ لأنه يقلن به الصحة، والصحابة كلهم عدول، لكن الإنسان لا يقرر هكذا لما يتبادر؛ فالحدث ضعيف أيضا من هذا الطريق والله أعلم.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ هُوَ عِنْدَهُ قُورُ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»<sup>(١)</sup>، واختصاص هذه المخلوقات بأنها عنده؛ دليل على علو الله على خلقه، ولا لم يكن لتخصيص هذه الأشياء بأنها عنده؛ فائدة؛ ولكان أشرف المخلوقات وأدناها في القرب منه والنعندية؛ سواء.

(أما الإخبار بأن من أسمائه «الظاهر»): وتفسير أعلم الخلق به له بنفي فوقية شيء عليه): فكقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] مع قوله في دعائه واستفتاحه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»<sup>(٢)</sup> فتفسير الصادق المصدق لـ «الظاهر» بنفي ضده؛ تقرير لإثبات العلو؛ إذ الظهور والعلو؛ متلازمان؛ فكل ما علا الشيء: ظَهَرَ وَبَانَ، كما أنه كلما سفل الشيء: خَفِيَ وَاسْتَرَ.

(أما إشارة النبي بأصبعه إلى السماء): فذلك حين خطب الناس يوم عرفة، مخاطبًا ربه بقوله: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -»<sup>(٣)</sup> فذلك يدل على علو الله على خلقه، ولا لم يكن لتخصيص السماء بالإشارة فائدة.

(ما ثبت في القرآن والسنة المتواترة من رؤية أهل الجنة لربهم ﷻ): كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ وَيُحِبُّ نَائِمًا﴾ [النمل: ٢٦]، ﴿إِنَّ رَبَّهَا ظَاهِرٌ﴾ [النبي: ٢٢-٢٣]، وقوله: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَوْمَ لَا تُمْشَاوُنِي فِي رُؤُوسِهِ»<sup>(٤)</sup>،

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صفح حج النبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

فالرؤية قطعية الثبوت بالأدلة المتواترة، والرؤية المعقولة عند جميع بني آدم تقتضي مقابلة الراي للمرئ ومواجهته له.

(سؤال النبي عن الله بأين): كقوله للجارية: «أَيْنَ اللَّهُ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: أَغْنَيْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، وهذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup>.

والسؤال عن الله بأين، وإقرار الجارية على أن الله في السماء؛ يدل دلالة قطعية على إثبات علو الله على خلقه. والرسول منزّه عن أن يسأل سؤالاً فاسداً، ومنزّه - أيضاً - عن أن يقر الجارية على جواب فاسد، ويلزم من قول مَنْ يقول: إن الرسول خاطب الجارية بما تعرف - وإن كان على خلاف الحقيقة - أن يكون النبي لم يبين الحق في هذه المسألة، وأن يكون قد أقر الجارية على الخطأ، وحاشاه من ذلك.

وعند الجهمي والمعتزلي، لو أنك رفعت إصبعك إلى السماء؛ لقطع إصبعك وقال: لا تشر إليه هكذا؛ لأنه في كل مكان، فقيل لهم: الرسول قال: أين الله؟ وأين؟ يسأل عنها في المكان؛ قالوا: الرسول سأل سؤالاً فاسداً، وإنما كان قصده أن يخاطبها بقدر عقلها، ومقصوده أيضاً أن يقول لها: مَنْ الله؟ ولما قالت: في السماء، قال الرسول: «أَغْنَيْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»<sup>(٢)</sup> فقالوا: أقرها على جواب فاسد موافقة لعقلها!!

هذه أربعة عشر نوعاً من الأدلة، وكل نوع منها تحته أفراد، وقد اعترض المبدعة على هذه الأدلة، وأجاب أهل السنة على اعتراضهم،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٢) هو الحديث السابق.

وهناك أدلة عقلية لأهل السنة واعتراضات للنفاة وأجوبة لأهل السنة عليها، وهناك أيضاً أدلة من الفطرة لأهل السنة، واعتراضات من النفاة وجواب عليها لأهل السنة، وهناك أدلة أيضاً عقلية لأهل البدع النفاة، وأجوبة لأهل السنة عليها، وجواب عليهم.

وقد اعترض نفاة العلو على الأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة على علو الله على خلقه، وتاولوها: بأن المراد بها: علو وفوقية القدر والعظمة والشأن، وعلو وفوقية القهر والغلبة والسلطان؛ لأن النفاة يشبتون هذين النوعين من العلو، وهو علو القهر وعلو القدر، والخلاف بينهم وبين أهل السنة في إثبات علو الذات؛ ولذلك قالوا: قوله سبحانه: ﴿فَوْقَ عَرْشِهِ﴾ [الانعام: ٢١٨] يعني: خير من عباده وأفضل، ومعنى كونه فوق العرش: أنه خير من العرش وأفضل؛ قالوا: ونظير ذلك قول العرب: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والذهب فوق الفضة، فهذا يدل على أن المراد بالفوقية: الخيرية.

فأجاب أهل الحق هذا الاعتراض بأجوبة<sup>(١)</sup>:

الجواب الأول: أن صرف الفوقية إلى فوقية الرتبة، أو إلى فوقية القهر، حُملٌ للفظ على مجازه؛ وهذا خلاف الأصل، إذ الأصل: الحقيقة، وحقيقة الفوقية: علُوُ ذَاتِ الشَّيْءِ على غيره، والمجاوُ على خلاف الأصل؛ لأنه خلاف الظاهر، فلا يُقبل إلا بدليل يخرجه عن حقيقته، كما في قوله تعالى حكاية عن فرعون، أنه قال: ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ فَهُمْ رَبٌّ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فهذه فوقية قهر وغلبة؛ لأنه قد علم أنهم جميعاً مستقرون على الأرض، ولا يلزم مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ الثَّقَاتِ﴾

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسله» (٣/ ١٠٢٢-١٠٦٥).

فَوْقَ عِبَادِهِ ﴿الانتماء: ٢١٨﴾؛ إذ قد عُلم بالضرورة أنه وعباده ليسوا مستويين في مكان واحد، حتى تكون فوقية قهر وغلبة.

الجواب الثاني: أن تفضيل الله - سبحانه - على أحد من خلقه لم يذكر في القرآن ابتداءً، وإنما ورد ذلك في سياق الرد على من اتخذ ذلك الشيء ندًا لله - تعالى -، وعبيده معه، وأشركه في إلهيته، فبين الله - سبحانه - أنه خير من تلك الآلهة، وذلك الند كقوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٢٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿أَكْبَارُتُ تُشْرِكُونَ خَيْرٌ أَمَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٢٢٩]، وقوله حكاية عن سحرة فرعون: ﴿إِنَّا نَعْتَصِفُ رَبَّنَا يُثْفِئُ لَنَا حُلُلَنَا وَمَا أَرَاهُنَا عَلَيْهِ مِنَ الْبُخْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَكْبَرُ﴾ [طه: ٦٣]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَنْظُرُونَ﴾ [النحل: ٢١٧]، وذلك لأنه يُحسن في الاحتجاج على المنكر وإلزامه من الخطاب الداحض لحجته ما لا يحسن في سياق غيره، وهذا أمر واضح لا ينكره إلا غبي.

الجواب الثالث: أن تأويل الفوقية بالخيرية والأفضلية، تأويل باطل تنفر منه العقول الصحيحة، وتشتمر منه القلوب السليمة، إذ ليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، والرب - سبحانه - لم يتمدح في كتابه ولا على لسان رسوله بأنه أفضل من العرش، وأن رتبته فوق رتبة العرش، وأنه خير من السماوات والعرش والكروسي، ولو تكلم أحد بمثل هذا الكلام في حق المخلوق؛ لكان مستهجنًا جدًّا، فلو قال شخص: الشمس أضوء من السراج، والسماء أكبر من الرغيف، أو أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من اليهود؛ لُعِدَّ ذلك من ساقط القول، بل هو من أزدل الكلام وأسمجه وأهجنه؛ لما فيه من النقص، كما قيل في المثل السائر:

ألم تر أن السيف ينقص قَدْرُهُ إذا قيل إن السيف أمضى من العصا وإنما يصح أن يقال هذا المعنى، في حق المتفاربين في المنزلة، وأحدهما أفضل من الآخر، وإذا كان يقبح كل القبح أن تقول: الجوهر فوق قشر البصل، ويضحك من ذلك العقلاء للتفاوت العظيم الذي بينهما، فالتفاوت بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم.

الجواب الثالث: أن الله أثبت لنفسه الفوقية المطلقة، وهي تشمل فوقية الذات وفوقية القادر وفوقية القهر، فمن أثبت البعض ونفى البعض، فقد جحد ما أثبته الله لـ ، وتنقصه ولا يلزم من إثبات فوقية الله بذاته على السماء، وعلى العرش - وعلى كل شيء -، أن يكون هناك شيء يحويه أو يحصره، أو يكون محلًّا له، أو وعاء أو ظرفًا، تعالى الله عن ذلك، بل هو - سبحانه - فوق كل شيء، وهو عال على كل شيء، وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق، وكل شيء مفتقر إليه، وهو الحامل بقوته وقدرته للعرش ولحملة العرش، وهو القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُشِيكُ الْأَشْكَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ وَلَيْسَ رَآئَهُ إِنْ أَسْكَنْهُمْ مِنْ أَمْرٍ يُدْ بَعْوَهُ إِنَّهُ كَأَن لَّيَمًا غُفْرًا﴾ [النبأ: ٢٤١].

(أما أدلة السلف والأئمة وأهل السنة على إثبات العلو من العقل فكما يلي):

الدليل الأول: دليل العقل؛ بطريقة السبر والتقسيم، وطريقة السبر والتقسيم عند المناطقة وأهل الأصول؛ هو: أن يحصر المستدلُّ الأقسام التي يتصورها العقل، ثم يبطلها واحدًا بعد واحد، ويُبقى ما قام عليه الدليل. وصياغة الدليل هكذا: أن يقال: إن الله لما خلق الخلق لا يخلو إلَّا أن يكون خَلْقُهُمْ داخل ذاته، أو خلفهم خارج ذاته، أو خلقهم لا

داخلها ولا خارجها؛ هذه هي الأقسام التي يتصورها العقل.

أما الأول: وهو كونه خلقهم داخل ذاته؛ فباطل بالاتفاق بيننا وبين خصوصنا؛ لأنه يلزم عليه: أن يكون الرب محلًّا للحوادث، والخسائس، والقاذورات، وهذا قول الحلولية، وهو كفرٌ، تعالى الله عن ذلك.

وأما الثالث: وهو كونه خلقهم لا داخل ذاته ولا خارجه، فهو ممتنع عقلاً؛ لأنه يلزم عليه نفيه تعالى وعدم وجوده بالكلية؛ لأنه وَصِفَ له بارتفاع النقيضين، وهو وصف له بالعدم، وهو قول معطلة الجهمية ونفاتهم، وهو كفرٌ أيضًا.

فتعين الثاني؛ وهو: كونه خلقهم خارج ذاته الكريمة، فلزمَتْ المبانيَّةُ، ويلزم حينئذ أن يكون عاليًا على خلقه، مستويًا على عرشه؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون مباينًا لهم، أو نفعهم، أو من تحتهم، أو أمامهم، أو خلفهم، أو عن إيمانهم، أو عن شمانلهم، وأليقها بالله: صفةُ العلو؛ لأنها من صفات المدح والكمال.

واعترض نفاةُ العلو المعطلةُ على هذا الدليل، فقالوا: نحن ننكر بدهاته، لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهياً لما كان مَحْتَلًّا فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية.

والجواب عن هذا الاعتراض أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أعظم قولاً، وإن رد العقل قولنا، فلقولكم أعظم رداً، فإن كان قولنا باطلاً في العقل، فقولكم أشد بطلاناً، وإن كان قولكم حقاً مقبولاً في العقل، فقولنا أولى بأن يكون مقبولاً في العقل، فإن دعوى الضرورة مشتركة، فإننا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم، وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا: هي من حكم الوهم لا

من حكم العقل؛ فأبلىناكم بنظير قولكم، وعامة فطر الناس -ليسوا منا ولا منكم- موافقون لنا على هذا.

فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولاً؛ ترجحنا عليكم، وإن كان مردوداً غير مقبول؛ بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بنيت قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية، وبطلت عقلياتنا أيضاً، وكان السمع الذي جاء به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم، والمراد بالسمع: الأدلة الشرعية، أي: الكتاب والسنة. وقولكم: إن أكثر العقلاء يقولون بقولنا، وينكرون بدهاة دليلكم؛ يقال: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم شيء موجود، ليس هو فوق العالم، وأنه لا مابين له ولا حال في العالم، طائفةٌ من الثُّنَّار، وهم قلة، وأول مَنْ عُرِفَ عنه ذلك في الإسلام: الجهم بن صفوان وأتباعه.

الدليل الثاني من الأدلة العقلية لأهل السنة على علو الله على خلقه: يسمى دليل بطريق الملازمة والاستثنائية، وهو أن نقول: لو كان كذا؛ لكان كذا، لكنه لا يكون كذا؛ فيكون كذا، وصياغة الدليل هكذا: لو لم يتصف الرب بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم؛ لكان متصفاً بضدّها؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق، وهو مستقر إيليس وجوده؛ فدلّ على أنه متصف بالفوقية.

واعترض نفاةُ العلو على هذا الدليل العقلي، فقالوا: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها.

وأجيب على هذا الاعتراض بجوابين:

الجواب الأول: لو لم يكن قابلاً للوقية والعلو لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه، غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنيًا فقط؛ لزم إثبات علوه وفوقيته.

الجواب الثاني: لو لم يقتل الرب العلو والفوقية، لكان كل عال على غيره أسفل منه، وما يقبل العلو أكمل مما لا يقبله، والعلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً، فنفي حقيقته؛ عينُ الباطل.

أدلة السلف والأئمة وأهل السنة على إثبات العلو من الفطرة:

الدليل الفطري أن يقال: إن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة، يرفعون أيديهم عند الدعاء إلى السماء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى، وهذا أمر فطر الله عليه عباده، فهم من غير أن يتلقوه من الرسل، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً لطلبه في العلو، فالجارية الأعجمية التي قال لها النبي: «أَكُنْ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»<sup>(١)</sup>؛ إنما أخبرت عن الفطرة التي فطرها الله عليها، وأقرها النبي على ذلك، وشهد لها بالإيمان.

واعترض نفاة العلو على هذا الدليل باعتراضين:

الاعتراض الأول: قالوا: إن رفع الإنسان يديه عند الدعاء؛ إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، لا لأن الله في العلو.

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

وأجيب عنه بأجوبة<sup>(٢)</sup>:

الجواب الأول: أن ادعاءكم أن السماء قبلة للدعاء، لم يَرِدْ بذلك كتاب ولا سنة، ولم يقله أحد من سلف الأمة، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على سلف الأمة وعلمائها.

ثانياً: أن قبلة الدعاء؛ هي قبلة الصلاة بدليل أن النبي كان يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة<sup>(٣)</sup>، فمن ادَّعى أن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة؛ فهو مبتدع في الدين، ومخالف لجماعة المسلمين

ثالثها: أن القبلة هي ما يستقبلها العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح، أما الموضع الذي ترفع الأيدي إليه فلا يسمى قبلة؛ لا حقيقة ولا مجازاً.

رابعها: لو كانت السماء قبلة للدعاء، لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع.

خامساً: أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وأمر التوحيد في الدعاء إلى الجهة العلوية مركز في الفطر، لا يقبل التحويل.

سادسها: أن المستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده.

الاعتراض الثاني للنفاة: قالوا: إن دليلكم منقوض بوضع المصلي وجهته على الأرض، مع أن الله ليس في جهة الأرض، فكما أن المصلي

(١) انظر: «بيان تلبس الجهمية - الطائفة القديمة» (٢/٤٣١-٥٠٢).

(٢) انظر على سبيل المثال البخاري (١٠١٢) بأطرافه، ومسلم (٨٩٤).

يضع وجهته على الأرض، والله ليس في جهة الأرض، فكذلك يرفع يديه في الدعاء، والله ليس في العلو.

وأجيب عنه بأن واضح الجهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه، بالذل له والخشوع، وليس قصده بأن يميل إليه لأنه تحته، فهذا لا يخطر في قلب ساجد، إلا ما حُكي عن بشر المرسي -تقبحه الله- أنه سُمع وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

شبهة نفاة العلو: نفاة العلو لهم شبه عقلية، وليس عندهم أدلة شرعية:

الشبهة الأولى: قالوا: إن إثبات العلو يلزم منه أن يكون الله في جهة، وإذا كان في جهة؛ كان محتاجًا إلى تلك الجهة، وكان محدودًا ومتحيزًا، والله منزّه عن الجهة، ومنزّه عن أن يحتاج إلى شيء، ومنزّه عن كونه محدودًا متحيزًا.

وأجاب أهل الحق عن هذه الشبه بجوابين؛ جواب إجمالي، وجواب تفصيلي:

الجواب الإجمالي: أن يقال: تنزيهكم الله عن الجهة، إن أردتم أنه منزّه عن جهة وجودية تحيط به وتحويه وتحصره؛ إحاطة الظرف بالمظروف. فنعم؛ هو أعظم من ذلك وأكبر وأعلى، فليس هو داخل المخلوقات، وإن أردتم بالجهة: ما وراء العالم؛ فلا ريب أن الله فوق العالم، مابين للمخلوقات.

الجواب التفصيلي:

أولاً: إن لفظ الجهة يراد به أمرٌ موجود، ويراد به أمرٌ معدوم، فإن أريد بالجهة جهةٌ وجودية، وأن الله داخل السماوات، أو داخل العرش،

فهذا باطل؛ لأن الله لا يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته، ولم يدخل في مخلوقاته شيء من ذاته، بل هو مابين للمخلوقات، منفصل عنها، وإن أردتم بالجهة: أمرًا عديمًا، أو بكونه في السماء، أي: على السماء، وهو ما فوق العالم، فذاك ليس بشيء، ولا هو أمر وجودي حتى يقال: إنه محتاج إليه، أو غير محتاج إليه.

ثانيًا: أن يقال: إنما يكون محتاجًا إلى الجهة لو كان في جهة مخلوقة؛ تحويه وتحصره وتحيط به، أما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم؛ لم يلزم ذلك، بل لا يلزم من كون المخلوق فوق مخلوق آخر؛ أن يكون محتاجًا إليه، فإن الله خلق هذا العالم بعرضه فوق بعض، ولم يجعل عاليه محتاجًا إلى سافله؛ فالهواء فوق الأرض وليس محتاجًا إليها؛ والسحاب فوقها، وليس محتاجًا إليها؛ والسماوات فوق السحاب والهواء والأرض؛ وليست محتاجة إلى ذلك، والعرش فوق السماوات والأرض؛ وليس محتاجًا إليها، فكيف يكون العلي الأعلى خالق كل شيء - سبحانه وتعالى - محتاجًا إلى مخلوقاته، لكونه فوقها، عاليًا عليها؟!

وثالثًا: أن لفظ الجهة، والحيز، والحد، والجسم، والجوهر، والعرض؛ ألفاظٌ اصطلاحية؛ فيها إجمال وإيهام، قد يراد بها: معانٍ متعددة، ولم تُرد هذه الألفاظ في الكتاب والسنة؛ بنفي ولا إثبات، ولا جاء عن أحد من سلف الأمة وأئمتها فيها، نفي ولا إثبات، فالمعارضة بها ليست معارضةً بدلالة شرعية<sup>(١)</sup>، بل الألفة الكبار أنكروا على المتكلمين،

(١) قال شيخ الإسلام: (التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني =

وجعلوهم من أهل الكلام الباطل المبتدع، ومعروف موقف الإمام الشافعي رحمه الله وحكمه على أهل الكلام؛ من أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزء من ترك الكتاب، والسنة وأقبل على الكلام.

وصح عن إمام الأئمة في زمانه محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه قال: من لم يؤمن بأن الله فوق سمواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، وجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وطرح على مزبلة.

الشبهة الثانية لنفاة العلو: هذه الشبهة جاءت على لسان أبي عبد الله الرازي<sup>(١)</sup>؛ يقول أبو عبد الله الرازي: هذا الدليل مكون من مقدمتين

= ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع. انظر: «النبات» (٨٧٦/٢).

وقال: (إن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث، هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب؛ لينظر المعاني الموافقة للرسول، والمعاني المخالفة لها. والألفاظ نوعان: نوع يوجد في كلام الله ورسوله، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله، فيعرف المعنى الأول، ويجعل ذلك المعنى هو الأصل، ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني، ويرد إلى الأول، هذا طريق أهل الهدى والسنة، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس، ويجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعاييرها هي الأصل، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم). انظر: «تفسير سورة الإخلاص»، و«مجموع الفتاوى» (١٧ / ٣٥٥)، وانظر: «الفرقان بين الحق والباطل»، و«مجموع الفتاوى» (١٣ / ١٤٥).

(١) هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري الرازي المفسر صاحب تفسير «مفاتيح الغيب»، وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له ابن خليب الرزي، رحل إلى خوارزم، وما وراء النهر، =

ونتيجة؛ يقول: لو كان الله تعالى في جهة فوق؛ لكان سماء، ولو كان سماء؛ لكان مخلوقاً لنفسه؛ وذلك محال.

المقدمة الأولى: (لو كان الله تعالى في جهة فوق؛ لكان سماء) أثبت الرازي هذه المقدمة بدليلين أو بأمرين:

الأمر الأول: أن الاشتقاق اللغوي للسماء من السمو، وكل شيء سمّاك؛ فهو: سماء، فهذا هو الاشتقاق الأصلي للغوي، وعُرف القرآن منقرر عليه<sup>(١)</sup>.

الثاني: لو كان الله فوق العرش؛ لكان من جلس في العرش ونظر إلى فوق، لم يز إلا نهاية ذات الله تعالى، فكانت نسبة نهاية السطح الأخير من ذات الله، إلى سكان العرش؛ كنسبة السطح الأخير من السماوات إلى سكان الأرض، وذلك يقتضي - بالقطع - بأنه لو كان فوق العرش لكان ذاته كالسماء لسكان العرش، فثبت أنه تعالى لو كان مختصاً بجهة فوق لكان ذاته سماء، وإنما قلنا: أنه لو كان سماء لكان ذاته مخلوقاً؛ لقوله

= وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية.

من أشهر تصانيفه: «مفاتيح الغيب»، ثلثي مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و«الواعييات» في شرح أسماء الله تعالى والصفات، و«معالم أصول الدين»، و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين»، و«المطالب العالية» في علم الكلام، و«المحصول في علم الأصول». وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظاً بارعاً باللغتين... توفي سنة ٦٠٦ هـ، تكلّموا في اعتقاده، انظر «الأعلام» للزركلي - (ج ٦ / ص ٣١٣)، و«طبقات السائين» للشيخ بكر أبي زيد (٢٢/١).

(١) انظر: «أساس التقييد» للرازي (ص ٣١ - طبع مؤسسة الكتب الثقافية، الأولى: ١٤١٤هـ).

تعالى: ﴿تَبَرُّكًا وَمَنْ حَقَّ الْأَرْضَ وَاتَّخَذَ الْأَلَمُ﴾ [٢٤]، وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي عَلَّمَ السُّكُوتَ وَاللُّغَةَ﴾ [الاسراء: ٥٤]، فلو كان سماء لكان مخلوقاً لنفسه، وذلك محال، فوجب أن لا يكون مختصاً بجهة فوق<sup>(١)</sup>.

أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه الشبهة بقوله<sup>(٢)</sup>: لما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى، وأنه فوق كل شيء؛ كان مفهوماً من قوله: إنه في السماء، أنه في العلو، وأنه فوق كل شيء، وكذلك الجارية لما قال لها: «أَيْتَنُ اللَّهَ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»<sup>(٣)</sup>، إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل العلو، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به؛ إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله، كما لو قيل: العرش في السماء؛ فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر؛ موجود؛ مخلوق، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلak؛ كان المراد: أنه عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَوِّفُهُ فِي جُدُوعِ الْأَخْلَاقِ﴾ [٢١]، وكما قال: ﴿فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [٢٢]، عِزَّان: ١٢٧، وكما قال: ﴿فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٢]، ويقال: فلان في الجبل وفي السطح، وإن كان على أعلى شيء منه.

ثانياً: من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به، فهو كاذب إن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربه، وما سمعنا أحداً

يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن واحد، ولو سُئِلَ سائر المسلمين: هل يفهمون من قوله - سبحانه - ومن قول رسوله: إن الله في السماء أن السماء تحويه؛ لبادر كل أحد منهم أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا، وإذا كان الأمر هكذا، فمن التكلف أن يُجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله، بل عند المسلمين: أن الله في السماء، وهو على العرش: واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو، بمعنى: أن الله في العلو، لا في السفلى، وقد علم المسلمون أن كرسية سبحانه وسع السماوات والأرض، وأن الكرسي في العرش، كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله، لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يُتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه؟!

ثالثاً: ما في الكتاب والسنة كقوله سبحانه: ﴿أَيُنْظَرُ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [النسك: ١٦] ونحو ذلك؛ قد يفهم منه بعضهم أن السماء هي نفس المخلوق العالي؛ العرش فما دونه، فيقولون: قوله: «في السماء»؛ يعني على السماء، كما قال: ﴿وَلَا تُصَوِّفُهُ فِي جُدُوعِ الْأَخْلَاقِ﴾ [٢١]؛ أي: على جذوع النخل، وكما قال: ﴿فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [٢٢] عِزَّان: ١٢٧؛ أي: على وجه الأرض، ولا حاجة إلى هذا، بل السماء اسم جنس للعالي، لا يخص شيئاً، فقله: في السماء، أي في العلو دون السفلى، وهو العلي الأعلى، فله أعلى العلو، وهو ما فوق العرش، وليس هناك غيره سبحانه وتعالى.



(١) انظر: «أساس التقييد» (ص ٣١-٣٢).

(٢) بيان تلبس الجهمية (١/ ٥٥٩).

(٣) سبق ترجمته.



الله اتخذ إبراهيم خليلًا. وكلّم موسى تكليمًا

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: «وَقَوْلُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا إِيْمَانًا وَتَضَدِيدًا وَتَسْلِيمًا»:

### الشَّيْخُ

في هذا ثبوت الخَلَّةِ لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، والدليل على إثبات صفة الخلّة من الكتاب: قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [التيس: ١٢٥]، وليست الخلّة خاصة بإبراهيم كما قد يوهّم البعض كلام المؤلف، فالصواب أنها ثابتة لنبيينا ﷺ أيضاً، كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»<sup>(١)</sup>، فالخلّة ثابتة لإبراهيم ولمحمد - عليهما الصلاة والسلام -. والخلّة بالنسبة للرب صفة تليق بجلاله وعظمته<sup>(٢)</sup>، كسائر صفاته.

كما أن التكليم ثابت لموسى - عليه الصلاة والسلام -، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [التيس: ١٦٤]، فهو أيضاً ليس خاصاً بموسى، بل شارك نبيُّنا ﷺ موسى في صفة التكليم؛ فإن الله كلّم نبيينا محمداً ليلة المعراج من دون واسطة كما ثبت هذا في الإسرائ. ومن الأدلة على ثبوت الخلّة لنبيينا محمد ﷺ حديث: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلَ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>،

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث جندب بن جنادة ﷺ. في الباب عن عبدالله بن مسعود عند مسلم (٢٣٨٣).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٣٥١/٥)، «إزاد المعاد» (٧٠/١)، و«مدارج السالكين» (٣٠/٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وفي الحديث السابق: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»<sup>(١)</sup>، فهذان الحديثان بطلان قول من قال: الخلّة لإبراهيم، والمحبة لمحمد - عليهما الصلاة والسلام -، ويثبتان لنبيينا ﷺ أعلى مراتب المحبة؛ وهي الخلّة، بل الخلّة خاصة بالخليلين؛ محمد وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام -.

أما المحبة فهي عامة كُحِبَ - تعالى - للمُتَّقِينَ، كما في قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، وكحبه للمحسنين، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. والخلّة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب، ومن كمالها: أنها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة، وسميت خلّة لتخللها شغاف القلب كما قيل: -

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سُمي خليل خليليا  
والنسبة بين الخلّة والمحبة: العموم والخصوص؛ فالخلّة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكون محبوباً لذاته لا لشيء آخر؛ إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير، فيها كمال التوحيد، وكمال الحب، فبيننا له كمال التوحيد، وكمال الحب، وكذلك إبراهيم.

والمحبة والخلّة بالنسبة للرب - سبحانه وتعالى - كسائر صفات الله الثابتة له كما يليق بجلال الله وعظمته، والجهمية أنكروا حقيقة المحبة، والخلّة من الجانبين؛ من جانب الله ومن جانب العبد، وشبهتهم في ذلك أنهم قالوا: المحبة لا تكون إلا لمشاكلة ومناسبة بين المحب والمحبوب، ولا مناسبة بين القديم والمُحَدَّث توجب المحبة؛ فلا مناسبة بين الخالق

(١) سبق تخرجه في الذي قبله.

والجهمة يقولون: ليس معنى الخليل المحب، بل معنى الخليل: الفقير المحتاج، ولا شك في فساد هذا التأويل؛ إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلة معنى، فإن الفقر والاحتياج؛ وصف لازم لجميع الخلق؛ لزوماً ذاتياً؛ لا يمكن الانفكاك عنه، ولو كان معنى الخلة: الفقر؛ كما حل الناس فقراء إلى الله، وبذلك يكون وصف الخلة متناولاً لجميع الناس، كل من عدا الأوثان الذين هم أئد أعداء الرحمن؛ فقراء إلى الله!

## أصول الإيمان عند أهل السنة

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَنُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ):

## الشرح

[illegible]

ومن السنة: حديثُ جبرائيلَ حينما سألَ النبيَ عن الإيمانِ فقال: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ حَبْرَهُ وَسِرَّهُ»<sup>(١)</sup>.

أما الايمان بالملائكة:

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فنؤمن بهم جملة وتفصيلاً، فنؤمن بمن سَمَى الله في كتابه منهم؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ورضوان، ومالك: خازن النار، ونؤمن إجمالاً بأن الله ملائكة سواهم، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الذئير: ٣١]؛ لأنه لم يأت في عددهم نص، فنؤمن بهم جملة<sup>(١)</sup>.

وأما الأنبياء والمرسلون:

فنؤمن بهم جملة وتفصيلاً، فنؤمن بمن سَمَى الله في كتابه من رسله، وهم خمسة وعشرون رسولاً، ذُكروا في آية النساء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْثِينَ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ﴾ [النساء: ١٦٣]، وفي آية الأنعام في قوله: ﴿وَرَبِّكَ حُجَّتًا مَّا بَيْنَهَا لَإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمٍ نَرْتَعِدُ حَرَّتِ مِنْ نَارِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى آخر الآيات.

ونؤمن بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم إلا الله. وورد في حديث أبي ذر أن عدد الأنبياء مائة ألف، وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر<sup>(٢)</sup>، لكن الحديث الوارد بذلك، لا يخلو من مقال،

(١) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/٤٥٠-٤٢٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦٦)، والحاكم (٤١٦٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٦٦-١٦٨)، وابن عساکر في «تاريخ دمشق» (٢٣/٢٧٣-٢٧٧)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٧٤٦)، نسبته إلى عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في «نوارد الأصول»، وثم ساقه، ثم قال: «أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، وابن الجوزي في «الموضوعات»، وهما في طرفي نقض، والصواب أنه ضعيف لا صحيح، ولا موضوع، كما بينته في مختصر الموضوعات». اهـ. وحديث أبي ذر تقدم تخريجه قريباً، وفي هذا الباب أيضاً عن أبي أمامة، وأنس بن مالك، بأسانيد ضعيفة. انظر: «تفسير ابن كثير» (١/٥٨٧).

وعلى كل حال؛ فلا بد من أن نؤمن بهم جملة، قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [صافات: ١٧٨].

وأما أولو العزم من الرسل، فأحسن الأقوال فيهم: أنهم المذكورون في آية الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ أَعْتَدْنَا مِنَ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْكَ مِنْ نَجٍّ وَرِجْهٍ وَمَنْ يَنْتَفِعْ مِنْهُمْ لِيُقَيِّدْكَ اللَّهُ الْغَلِيظَ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وفي قوله سبحانه في سورة الشورى: ﴿سَرَّحْنَاهُمْ لِمَا وَصَّيْنا بِهِمْ وَنُوحَاكَ الْوَلَّى وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِمَا وَصَّيْنَا بِهِمْ لِنُؤْمِنَ وَأَكْفَنَهُمْ بَيْنَمَا كَلَّمْنَا بَرَاءً وَمَا وَصَّيْنَا أَنْ نَقُولَ إِلَّا الْحَقَّ وَلَا نَتَّقِرْ إِلَّا فِي الْحَقِّ﴾ [الشورى: ١١٣].

وأما الإيمان بمحمد: فلا بد من الإيمان به تفصيلاً؛ زائداً على الإيمان بتلك الرسل؛ من تصديقه، واتباع ما جاء به من الشرائع، إجمالاً وتفصيلاً<sup>(١)</sup>.

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين:

فنؤمن بها جملة وتفصيلاً؛ فنؤمن تفصيلاً بما سَمَى الله منها في كتابه، من التوراة، والإنجيل، والزيور، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، ونؤمن بأن الله تعالى - سوى ذلك - كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله؛ لأنه لم يأت في عددها نص، فنؤمن بها جملة، وأنها حق وهدى ونور وشفاء.

وأما الإيمان بالقرآن؛ فالإقرار به واتباع ما فيه وتحكيمه في كل شيء؛ في المنشط والمكروه، واليسر والعسر، مع اعتقاد بأنه أفضل الكتب، وأنه

(١) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/٤٢٤).

ناسخ لها، ومهين عليها، وذلك أمر زائد على غيره من الكتب<sup>(١)</sup>.

كذلك أيضًا نؤمن باليوم الآخر:

وبما يكون قبل ذلك في البرزخ من سؤال منكر وكبير، ومن نعيم القبر وعذابه، وكذلك نؤمن ببعث الأجساد وإعادة الأرواح إليها، والحشر والنشر، والوقوف بين يدي الله، وتطابير الصحف، ووزن الأعمال، والحوض والصراف، والمجنة والنار، كل هذا نؤمن به، ويؤمن به أهل الحق<sup>(٢)</sup>.

أما أعداء الله من الفلاسفة وغيرهم، فلمهم تفصيلات في هذه الأصول الستة، وحقيقتهم: أنهم لم يؤمنوا بالله ولا بالملائكة ولا بالكتب ولا بالرسول ولا باليوم الآخر ولا بالقدر خيره وشره، وسيأتي الكلام لاحقًا على معتقدهم في ذلك وتفصيلاته.

وأصول الإيمان هذه جاءت بها الرسل، والكتب المنزلة، وأجمع عليها المسلمون، فمن أنكر شيئًا منها فهو خارج عن ملة الإسلام؛ وليس في عداد المسلمين بإجماع المسلمين، أما الفلاسفة المتأخرون؛ أرسطو وأتباعه وابن سينا<sup>(٣)</sup>؛ فملاحدة زنادقة، ينتسبون إلى الإسلام وهو منهم

(١) انظر: «شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/٤٢٣).

(٢) للتوسع في مباحث أشراف الساعة راجع: «لوامع الأنوار» للسفاري (٢/٧٠-١٥١).

(٣) الحسين بن عبيد الله بن الحسن بن علي أبو علي الرئيس المشهور بابن سينا، صاحب التصانيف الكثيرة، في الفلسفة والطب، ومن له الذكاء الخارق، واللغة الثاقب، أصله بلخي، ومولده بخارى، وكان أبوه من دعاة الإسماعيلية، فأشغله في الصغر، وحصل عدة علوم قبل أن يحتلم، وتنقل في مدائن خراسان والجيل وجرجان، ونال حشمة وجاهًا.

= وفي «لسان الميزان» قال: ما أعلمه روى شيئًا من العلم ولو روى لما حلت الرواية عنه لأنه فلسفي النحلة ضال لا عليه السلام انتهى.

واسم جده الحسن بن علي بن سينا، حكى عن نفسه قال: كان أبي من أهل بلخ فسنن بخارى وتولى التصرف فلما أكملت عشر سنين أتيت على القرآن وكثير من الأدب، وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين وكان يعد من الإسماعيلية، فكانوا ربما أجروا ذكر ذلك فلا تقبله نفسي ووجهي إلى من يعلمني الحساب، وترددت في الفقه إلى الشيخ إسماعيل الزاهد ثم قدم أبو عبد الله الناطلي الفيلسوف فبدأت عليه بكتاب إيساغوجي حتى قرأت عليه ظواهر المنطق، فأما ديانته فلم يكن عنده منها خبر، ثم أخذت أقرأ على نفسي حتى أحكمت المنطق وإقليدس والمجسطي، ثم سافر الشيخ وأخذت في الطبيعي والإلهي ورغبت في الطب وبرزت فيه في مدينة حتى بدأ الأطباء يقرأون علي وتماهدت المرضي فانفتح علي من أبواب المعالجات النفسية من التجربة ما لا يوصف وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه، ولازمت العلم سنة ونصفًا ما نمت ليلة واحدة بطولها، وكنت كلما تحيرت في مسألة ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المعلق منه، وكنت أرجع الليل إلى داري فمهما غلبني النوم عدت إلى شرب قلع من الشراب ريشما تعود إلي قوتي إلى أن قال: سألتني جازنا أبو الحسن العروضي أن أصنف له جامعًا في هذا العلم فصنفت له «المجموع» وسميته به وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضي ولي إذ ذاك إحدى وعشرون سنة. وصنفت «الحاصل والمحصول» في عشرين مجلدًا «والبر والإثم»، ثم مات الوالد وتقلدت شيئًا من الأعمال، وذكر من تصانيفه شيئًا كثيرًا منها «لسان العرب» عشر مجلدات، وكتاب «الابدي والمعاد» وغير ذلك، وهي تنيف على مائة مجلد، ثم ولي الوزارة مرتين لشمس الدولة بهمدان، ثم حبس في ولاية ابنه تاج الملك بالقلعة، ثم قصد علاء الدولة همدان وأخذها، ثم أطلق ابن سينا، ورحل إلى علاء الدولة فبالغ في إكرامه، قال تلميذه أبو عبيد الجوزجاني: وكان سبب تصنيفه كتاب «لسان العرب» أنه كان في حضرة الأمير وقد امتلأ المجلس من أكارب العلماء فتكلم الشيخ فنظرهم وقطعهم إلى أن جاءت مسألة في اللغة فتكلم فيها فقال له الشيخ أبو منصور اللغوي: أنت حكيم ولو قرأت في اللغة ما نرضى من كلامك فيها =

فوجم وعكف بعد هذا على كتب اللغة مدة إلى أن صنف ثلاث رسائل وضمنها من الألفاظ الحوشية ما لا عدد به وعظما وأرسلها مع رسول من الأمير إلى الشيخ أبي منصور بأنه وجدها في الفلاة ملقاة لما كان في الصيد فنظر فيها فوقف عليه بها أشياء، وذلك بحضوره الشيخ فكان كلما وقف في كلمة قال له: هي مذكورة في الباب الفلاني من الكتاب الفلاني فلما فطن لذلك اعتذر إليه انتهى.

وذكره تاج الدين محمد بن عبدالكريم الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل» لما سرد أسامي فلاسفة الإسلام فقال: وعلامة القوم أبو علي بن سينا، كان طريقته أدق ونظرة في الحقائق أغوص وكل الصيد في جوف الفراء.

[سبب تكفير العلماء لابن سينا]

وقال ابن أبي الدم الحموي الغيبة الشافعي شارح الوسيط في كتابه «الملل والنحل»: لم يبق أحد من هؤلاء يعني فلاسفة الإسلام مقام أبي نصر الفارابي، وأبي علي بن سينا، وكان أبو علي أقوم الرجلين وأعلمهم.

إلى أن قال: وقد اتفق العلماء على أن ابن سينا كان يقول بقدوم العالم، ونفي المعاد الجسماني، ولا يتكر المعاد النفساني.

ونقل عنه أنه قال: إن الله لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي، بل يعلم كلي فقطع علماء زمانه ومن بعدهم من الأئمة ممن يعتبر قولهم أصولاً وفروعاً بكفره، وبكفر أبي نصر الفارابي من أجل اعتقاد هذه المسائل، وأنها خلاف اعتقاد المسلمين.

وقد أطلق الفارابي وغيره القول بتكفير ابن سينا وقال ابن سينا في الكلام على بعض الأدوية وهو كما قال صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم.

[توبة ابن سينا قبل وفاته وكيف توفي]

قال أبو عبيد الجوزجاني في آخر الجزء الذي جمعه في أخبار ابن سينا: وكان يعتمد على قوة مزاجه، حتى صار أمره إلى أن أخذه القولنج، حتى حرق نفسه في يوم ثمان مرات، فظهر به سحر ثم صرع، فقتل إلى أصهبان واشتد ضعفه، ثم اغتسل وتاب وتصدق ورد كثيراً من المظالم، ولازم التلاوة، ومات بهمدان في يوم الجمعة في رمضان سنة (٤٢٨) هـ، وله (٥٨) سنة ومن شعره:

نعوذ بك اللهم من شر فئسة تطوق من جلث به عيشه ضنكا  
رجعنا إليك الآن فاقبل رجوعنا وقلب قلوبنا طال إعراضها عنكا  
فإن أنت لم تبرئ عليل نفوسنا وتبني عماياها إذا فلنمسن يشكا  
انظر: «لسان الميزان» (٣٢٦/١)، و«العبر في خبر من غير» (١٩٦/١).

براء، وتأثر بهم كثير من أهل الكلام، من المتبدعة وغيرهم، حتى إن ابن سينا يقدسه ويعظمه كثير من الناس، ويسمونه الفيلسوف الإسلامي، وهو كما قال - كما نقل عنه شيخ الإسلام<sup>(١)</sup> - بَلَّغَهُ في غزل الأحوال أنه قال: أنا وأبي من دعوة الحاكم العبيدي. والحاكم العبيدي رافضي خبيث، لا يؤمن بالله ولا ملائكة ولا نبيه، ولا رسله، ولا اليوم الآخر، ولا القدر.

والفلاسفة لم يجرؤوا على إنكار أصول الدين والإيمان صراحة؛ لأنهم لو أنكروا أصول الإيمان؛ لعرف الناس كفرهم ولوضح ذلك للناس، لكنهم سلكوا سبيل التلبيس؛ لأنهم منافقون زنادقة يستترون بالإسلام، فهم يثبتون هذه الأصول باللفظ فقط، لكنهم في الحقيقة لا يثبتونها؛ فهم لم يؤمنوا في الحقيقة بالله ولا ملائكة، ولا كتبه، ولا رسله، ولا باليوم الآخر.

أما إيمانهم بالله؛ وهو أصل الدين، فمذهبهم: أن الله - سبحانه - موجود وجوداً مطلقاً، يعني: أنه موجود في الذهن؛ لا ماهية له، ولا حقيقة؛ فلا يَلْمُ جزئيات بأعيانها؛ إذ لو عِلِمَ جزئيات، لَلْجَقَهُ الكلُّ والتعَبُ من تصوّر تلك المعلومات؛ وكان كاملاً بنفسه، لا بغيره، بل يعلم الكلّيات؛ والكلّيات أمر ذهني، ولا يفعل عندهم بقدرة ومشيتة، وليس له عندهم صفة البتة؛ فلا يثبتون له السمع ولا البصر ولا العلم ولا القدرة، وليس العالم مخلوقاً لا بمشيئته وقدرته، بل العالم عندهم لازم لله أزلاً وأبداً، لا يستطيع انفكاكاً عنه؛ صَدَرَ عنه صدوراً ضرورياً، بل هو مقارنٌ لله، ليس متقدماً عليه، والله هو العلة المحرك لهذا العالم، وهو أول هذا

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨٦/٥)، و«الفتاوى الكبرى» (٥٦/١) (٥٦٩/٣)، و «دره التنازع» (١٥٧/١).

(٢) انظر: «الرد على المنطقين» (١٤٤/١).

العالم، والعالم ملازم لله أزلاً وأبداً؛ فهو لازم له كلزوم النور للسراج. هذا مذهبهم في الإيمان بالله<sup>(١)</sup>. هذا رب الفلاسفة؛ ربّ معدوم لا وجود له على التحقيق؛ لأن الموجود لا بد أن يتصف بصفة، ولا بد أن يكون له اسم، وهؤلاء يسلبون عنه جميع الأسماء والصفات؛ فتبين بهذا أنه لا وجود له إلا في الذهن، وفي اللفظ.

وأما الملائكة، فإنهم لا يثبتونها على أنهم أشخاص محسوسة؛ تنزل، وتذهب، وترى، وتجيء، وتخطب الرسول، وتُصَفّ عند ربها، وتكتب أعمال العباد، ولها وظائف؛ كما جاء في الكتاب والسنة، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان، بل يقولون: إنها هي العقول، وهي مجردات ليست داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، وإذا تقرب بعضهم إلى أهل الإسلام قالوا: الملائكة هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد، والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، هذا إذا تقربوا إلى أهل الإسلام، وإلا فإنهم يقررون أن الملائكة عبارة عن أشكال نورانية، يتصورها النبي، وإذا تقربوا إلى أهل الإسلام قالوا: هي أمور عقلية، فالأمور العقلية تبعث على الخير وعلى الإحسان وعلى الشجاعة وعلى الإيثار، والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، التي تبعث على الإيذاء، وعلى الظلم، وعلى الطغيان، وعلى العدوان<sup>(٢)</sup>.

وأما الإيمان بالكتب فإنهم لا يثبتون الكلام لله ﷻ، ولا يثبتون أن الله تكلم بكلام أنزله على أنبيائه ورسله، ولا يصفون الله بالكلام؛ فلا يكلم

(١) انظر: «الملل والنحل» (٢/١٨١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/٣٤٤)، (١٩/١٠)، «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا (٣/٧).

ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر، زالك، طاهر متميّز عن النوع الإنساني بخصائص؛ وهذا هو الرسول عندهم.

ولا يؤمنون بأن الله تعالى اصطفى أنبياءه ورسله، بل يقولون: إن الرسالة ليست هبة من الله وليست منحة، بل هي صنعة من الصناعات، وكسب يكسبه الإنسان، وسياسة من السياسات، ولها ثلاث خصائص من توافرت فيه فهو نبي، فالنبي رجل عبقرى متميز عن غيره بهذه الخصائص:

**الخصيصة الأولى:** قوة الإدراك وسرعته؛ لينال من العلم أعظم مما يناله غيره.

**الخصيصة الثانية:** قوة النفس أو قوة التأثير، ليؤثر بها في سيول العلم بقلب صورة إلى صورة، فهو يشبه الساحر بحيث يقلب ما ارتسم في ذهنك من صورة إلى صورة وأنت لا .

**الخصيصة الثالثة:** قوة التخيل، حتى يتخيل الملائكة - الذين هم العقول - في صورة شيء محسوس أمامه، كأن أمامه رجل يخاطبه، فيتخيل أن الملائكة أشخاص، وقد يقوى الوهم فيسمع أصواتاً تخاطبه.

فإذا وجدت هذه الخصائص، فهو نبي<sup>(١)</sup>

وقالوا: إن النبوة لكل أحد يستطيع أن يدركها بالمراس والكسب والخبرة، وقالوا: إن النبوة ليست بالدرجة العالية، بل هناك ما هو أعلى منها؛ لأن النبوة سياسة العامة، والفلسفة أعلى منها؛ لأنها سياسة الخاصة، ولهذا فإن بعض الفلاسفة لا يرضون بالنبوة، ويقولون: هي مرتبة

(١) انظر: «النبوات» (١/١٩٦)، (٢/٨٣٧-٨٣٩).

أذن من الفلسفة، ولهذا طلب النبوة من تصوف على مذهب ابن هود وابن سبعين وغيرهما، هذا هو إيمانهم بالرسول.

وأما الإيمان باليوم الآخر، فهم من أشد الناس تكذيباً وإنكاراً له في الأعيان وفي الخارج، فعندهم أن هذا العالم لا يخرب، ولا تنشق السماوات، ولا تنفطر، ولا تنكسر النجوم، ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم، ولا يعثون إلى جنة أو نار، فكل هذا عندهم لا حقيقة له، بل هي أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج<sup>(١)</sup>؛ كما يفهم منها أتباع الرسل، بل هذه من تخيلات هذا العقري وسياسته، فيسوس الناس ويخبرهم أن هناك بعثاً وجزاء، وجنة وناراً، حتى يتعاش الناس بسلام، وحتى لا يعتدي أحد على أحد، فهو يكذب، لكن يكذب لهم لا عليهم، قالوا: ولا بأس في ذلك.

هذا مذهب الفلاسفة في أصول الإيمان، وبهذا يتبين أنهم ملاحدة زنادقة، ينتسبون إلى الإسلام نفاقاً، فهم في الدرك الأسفل من النار إذا ماتوا على ذلك، نسأل الله السلامة والعافية.



### أهل القبلة مسلمون مؤمنون

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَنُسِّيَ أَهْلَ قِبَلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَهُ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ).

### الشرح

نؤمن بأن أهل القبلة من أهل الإسلام، ولا نخرجهم منه، وأهل القبلة هم كل من يدعي الإسلام، ويستقبل القبلة في الصلاة وفي الذبح وفي الدعاء وإن كان من أهل البدع أو من أهل المعاصي؛ ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول؛ فنسميهم مسلمين، ونسميهم مؤمنين، إلا من فعل ناقضاً من نواقض الإسلام فارتد، كمن أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، أو سب الله أو سب الرسول، أو استهزأ بالله - كما سيأتي -، أما إذا لم يفعل شيئاً من ذلك؛ فنسميه مسلماً مؤمناً ولا نكفره، والدليل على هذا قول النبي: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا، وَكَلَّمَ قَبِيحَتَنَا؛ فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ...»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٣٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) انظر: «درة المعارض» (١/٨-١١).

الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمارِي فِي رِيبِ اللّهِ):

الشرح

أي: لا نخوض في ذات الله، أو في كيفية ذاته؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا هو، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ٢١٠]، فلا نخوض في كنه الصفات؛ فنقول: ما كيفية الاستواء؟ ما كيفية العلو؟ ما كيفية العلم؟ ما كيفية السمع؟ ما كيفية البصر؟ ما كيفية المحبة؟ وهكذا، ولهذا لما قيل للإمام مالك في الاستواء، قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهذه قاعدة عامة، يقال في جميع الصفات.

كذلك لا نجادل ولا نخاصم، ولا نورد الشبه في دين الله وشرعه، ولا نعترض على الله في تشريعه ولا في أوامره ولا في نواهيه، بل نسلم الأمر لله، فنحن عبيد مأمورون، نعلم أن الله حكيم، وأنه ما شرع ذلك إلا لما فيه من الحكمة والمصلحة والرحمة للعباد.

النهي عن الجدل في القرآن

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا نُجادِلُ فِي الْقُرْآنِ):

الشرح

هذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: يحتمل أنه أراد: أننا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ: إن القرآن مخلوق، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إن القرآن كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين محمد.

المعنى الثاني: يحتمل أنه أراد: أننا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح. وكل من المعنيين المذكورين حق، ويشهد لصحة المعنى الثاني حديث عبد الله بن مسعود رحمه الله أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ بِخِلَافِهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَّفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهَةَ، وَقَالَ: كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، فَلَا تَخْتَلِفُوا؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»<sup>(١)</sup>.

وللغائفة نقول: هناك فرق بين ترتيب سور القرآن وترتيب آياته؛ فترتيب سور القرآن لم يكن واجباً منصوباً عليه؛ على الصحيح، بل كان بالاجتهاد من الصحابة، ولهذا: كان ترتيب مصحف ابن مسعود رحمه الله، على غير ترتيب المصحف العثماني، وأما ترتيب الآيات، فهو ترتيب منصوب عليه؛ فليس لأحد أن يقدم آية على آية، وجمع عثمان رحمه الله الناس

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رحمه الله.



على حرف واحد اجتماعًا سائرًا جائزًا، وقبل واجبًا.

واختلف العلماء في الأحرف السبعة ما هي؟ فقال جمهور السلف من العلماء والقراء: إن قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة رخصة من الله، وقد جعل الاختيار إليه في أي حرف اختاره، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفرق وتختلف وتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد؛ جمعهم الصحابة وعثمان على حرف واحد اجتماعًا سائرًا لا واجبًا، فهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في جمعهم له ترك لواجب ولا فعل لمحظور.

والقول الثاني: أن الترخص في الأحرف السبعة صار منسوخًا؛ إذ أن الترخص كان في أول الإسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولًا، فلما تذلت السننهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرًا عليهم، وهو أوفق لهم وأرفق بهم؛ أجمعوا على الحرف الذي كان في العرصة الأخيرة -عرصة جبريل القرآن-، وترك ما سواه، فكان اجتماعهم واجبًا.

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة، وذهب الجمهور على أن المصحف مشتمل على حرف واحد، وأما ما روي عن ابن مسعود أنه يجوز القراءة بالمعنى فغير صحيح؛ لأنه إنما قال: قد نظرت إلى القرأة، فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وأقبل وأقبل وأقرأ<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «فتح الباري» (٢٧/١٩) وما بعدها. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمته الله-: «ولا يَزَالُ يَتَنَزَّلُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ الْعُرُوفَ الشَّيْءَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْهَا لَا تَقْصُرُ تَنَاقُصُ الْمَعْنَى وَتَضَادُّهُ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ مَعْنَاهَا مُتَّفِقًا أَوْ مُتَقَارِبًا كَمَا قَالَ =

## القرآن كلام الله

◆ قال المؤلف رحمته الله: (وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، فَكَلَّمَهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -):

## الشرح

سبق أن القرآن كلام الله، وأن الله تكلم به، وسمعه جبرائيل وألقاه إلى محمد، كما قال - تعالى -: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ رحمته الله عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ رحمته الله [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، والروح الأمين هو جبريل -عليه السلام-.

= عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-: (لَمَّا هُوَ يَقُولُ أَحَدُكُمْ أَقْبِلْ وَعَلِّمْ وَتَمَانَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى أَحَدِهِمَا لَيْسَ هُوَ مَعْنَى الْآخَرِ، لَكِنْ كَلَا الْمَعْنَيْنِ حَقٌّ وَهَذَا اخْتِلَافٌ تَنَزُّعٌ وَتَغَايُرٌ لَا اخْتِلَافٌ تَضَادُّ وَتَنَاقُضٌ، وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْبُوعِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»، إِنَّ قُلْتَ: فَغَوَّرًا رَجِيمًا أَوْ قُلْتَ: غَرِيظًا حَكِيمًا؛ قَالَكَ كَذَلِكَ مَا لَمْ تَخُصْ آيَةً وَخَصَمَ بِآيَةِ عَذَابٍ أَوْ آيَةٍ عَذَابٍ بِآيَةِ رَحْمَةٍ)، اه، من كلامه من «مجموع الفتاوى» (١/١٣/٣٨٩).

## القرآن كلام الله لا يساويه شيء من البشر

♦ قال المؤلف رحمته: (وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ):

## الشرح

هذا هو الحق، وهو معتقد الصحابة والتابعين وأهل السنة؛ أن القرآن كلام الله، وأنه لا يساويه شيء من كلام البشر، وقد روي في الحديث: «فُضِّلَ كَلَامُ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفُضِّلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»<sup>(١)</sup>.

ولا نقول: إنه مخلوق؛ لَفُطِنَ ومعناه؛ كما تقوله المعتزلة. والأشاعرة يقولون: الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وأما الحروف والألفاظ فهي مخلوقة، والعلماء يقولون: من قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر؛ على العموم، أما الشخص المعين إذا قال: القرآن مخلوق؛ فلا نكفره حتى تقوم عليه الحجة؛ لأنه قد يكون له شبهة، فإذا كُفِّتْ

(١) الترمذي: فضائل القرآن (٢٩٢٦)، والدارمي (٣٣٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ورواه عبدالله بن أحمد في «السنة» (١٤٩/١، ١٥٠)، ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص ١٢٢)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص ١٠١)، وفي «الاسماء والصفات» (٥٠٧، ٥٠٨)، ووضعه الشيخ الحاشدي في تعليقه على «الاسماء والصفات» للبيهقي (٥٨١/١-٥٨٢)، وقد روي من حديث عثمان، وأبي هريرة، ولا يصح عنهما. انظر: تعليق الشيخ الحاشدي على «الاسماء والصفات» للبيهقي (٥٧٨/١-٥٨٠)، (٥٨٣/١).

الشبهة، وأصر بعد البيان، فإنه يكثر، هكذا قال أهل العلم، كالإمام أحمد وغيره<sup>(١)</sup>.

(١) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٥٠٧/٧-٥٠٨): (أحمد لم يكفر أعيان الجهمية ولا كل من قال: إنه جهمي كفره ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتنحوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، لم يكفرهم أحمد وأمثاله، بل كان يعتقد إيمانهم وإيمانهم ويدعو لهم، ويرى الانتماء بهم في الصلوات خلفهم، والحج والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم، وإن لم يعلموا هم أنه كفر، وكان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان، فيجمع بين طاعة الله ورسوله في إظهار السنة والدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالاً مبتدعين، وظلمة فاسقين).

مخالفة من قال بخلق القرآن جماعة المسلمين

◆ قال المؤلف رحمته: (وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ):

#### الشرح

من قال: إن القرآن مخلوق، فقد خالف جماعة المسلمين، والجماعة هم: الصحابة، والتابعون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لا يجوز تكفير المسلم بذنب ما لم يستحلّه

◆ قال المؤلف رحمته: (وَلَا نَكْفُرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ):

#### الشرح

هذا معتقد أهل السنة والجماعة؛ أنه لا يُكْفَرُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، مَا لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ زَنَا، أَوْ سَرَقَ، أَوْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، أَوْ قَطَعَ الرَّحِمَ؛ نَقُولُ: هَذَا عَاصِي مَرْتَكِبٌ لِكَبِيرَةٍ، نَاقِصُ الْإِيمَانِ، ضَعِيفٌ، إِلَّا إِذَا اسْتَحْلَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ؛ لِأَنَّهُ مَكْذِبٌ لِهَ فِي تَحْرِيمِ الزَّانَا، وَفِي تَحْرِيمِ عَقَوِ الْوَالِدَيْنِ، وَهَكَذَا .

ولا بد أن يكون ما استحلّه أمرًا قطعيًا ليس فيه خلاف بين أهل العلم؛ إما واجبًا أنكره، أو حرامًا استحلّه، كمن أنكر وجوب الصلاة، أو وجوب الزكاة، أو وجوب الحج، أو استحل الزنا، أو شُرِبَ الخمر، أو الرِّبَا، أو عَقَوِ الْوَالِدَيْنِ؛ فَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مُسْتَحْلًا لَهُ: كَفَرُ، أَمَا إِذَا فَعَلَهُ مَقْرًا بِوُجُوبِهِ أَوْ تَحْرِيمِهِ -إِذَا كَانَ مُحَرَّمًا-، فَهُوَ عَاصِي ضَعِيفُ الْإِيمَانِ، مَرْتَكِبٌ لِكَبِيرَةٍ، هَذَا هُوَ مَعْتَقِدُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ.

والناس لهم في هذه المسألة أربعة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب أهل السنة والجماعة؛ وهو الذي سبق.

المذهب الثاني: مذهب المرجئة الغلاة، وهم ينفون التكفير نفيًا عامًا، فيعممون النفي والسلب، فيقولون: لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، بل الزاني

والسارق وشارب الخمر؛ إيمانه كامل، ويدخل الجنة من أول وهلة<sup>(١)</sup>.

المذهب الثالث: مذهب الخوارج؛ وهو عكس مذهب المرجئة؛ يقولون: يكفر المسلم بكل ذنب كبير، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب - بزعمهم -، وإن كانت متواترة، ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، فيقولون: الزاني كافر، وشارب الخمر كافر، والمرابي كافر، والعاق لوالديه كافر، ومن تكلم بكلمة الكفر أو فعل كبيرة من الكبائر: كفر<sup>(٢)</sup>.

المذهب الرابع: مذهب طوائف من أهل الكلام والفقه، يقولون: نفرق بين العمل وبين القول والابتداع، فيقولون: إن مرتكب الكبيرة لا يكفر، كما يقول أهل السنة، فيوافقونهم على هذا القول، لكن المبتدع الذي ابتدع وتكلم بكلام كفري فأباً نكفروه.

ودليلهم: يقولون: إن البدع مظنة الردة، فتعكلى حكمها، وهم يفرقون بين الأعمال وبين الاعتقادات البدعية، فلا يكفرون الذين يعملون الكبائر، ويكفرون أصحاب الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولاً، وحملوا النصوص على هذا.

(١) قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (١٩٦/١٦): (و القول بأن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه لكن حكى عن مقاتل بن سليمان).

وقال في «منهاج السنة» (٢٨٦/٥): (وقد حكى عن بعض غلاة المرجئة أن أحداً من أهل التوحيد لا يدخل النار ولكن هذا لا أعرف به فائلاً معيماً فأحكيه عنه، ومن الناس من يحكيه عن مقاتل بن سليمان والظاهر: أنه غلط عليه).

(٢) انظر: «مقالات الإسلاميين» (١٠/١)، و«مجموع الفتاوى» (٣/٢٩٧)، (٧/٤٨٣، ٤٨١-٤٨٤)، و«الاستقامة» (١/٤٣١).

أما أهل السنة والجماعة: فقد خالفوا هذه الطوائف كلها، قالوا: من ارتكب الكبيرة - سواء كانت الكبيرة عملية، أو بدعية أو قولية - فهذا لا يكفر إلا إذا استحلها، ولكن نصفه بأنه ضعيف الإيمان، وناقص الإيمان، فلا يسلبون عنه اسم الإيمان مطلقاً، ولا يعطونه اسم الإيمان مطلقاً، فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أما الأدلة والمناقشات والردود، فسيأتي الكلام عليها فيما بعد - إن شاء الله -.

حكم أهل الكبائر والفساق والعصاة وأهل البدع من أهل القبلة ومذاهب الناس فيهم:

قلنا: إن للناس في هذا مذاهب وقد سبق استعراض هذه المذاهب. ونعود إلى المذهب الأول: مذهب المرجئة التي تنفي التكفير نفياً عاماً، فتعمم النفي واللسب، فمن شبههم وأدلتهم عمومًا نصوص الوعد؛ مثل قول النبي: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ قَلْبًا: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ» قال: «وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ»<sup>(١)</sup>، ومثل حديث: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَصُوا مِنِّي وَصَاعَهُمْ وَأَتَوَلَّاهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَجَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

ومثل حديث البطاقة، وفيه: «يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيُخْرِجُ لَهُ نِصْفَةَ وَيَسْئَلُونَ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مَدَّةُ الْبَصَرِ سِتًّا، ثُمَّ يُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَيُتَوَضَّعُ السَّجَّاتُ فِي عَقْوِ الْبَطَاقَةِ فِي كَفِّهِ،

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.  
(٢) أخرجه البخاري (٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي الصحيحين أيضًا بنحو حديث ابن عمر، عن أنس، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله.

فَقَطَّاسَتِ السَّجَّلَاتِ وَفَقَّلَتِ الْبَطَاقَةَ<sup>(١)</sup>، ومنها أحاديث الشفاعة كحديث: «أُخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ يَنْقَالُ دَرَّةٌ مِنْ إِيْمَانٍ»<sup>(٢)</sup>، وحديث أبي هريرة: «أَنَّه قَالَ لِلنَّبِيِّ: مِنْ أَسْعَدَ النَّاسِ يَشْفَاعُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد في «المسنَد» (٢١٣/٢)، واللالكائي في «السنة» (٢٢٠٤)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٢٥)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٥)، والحاكم في «المستدرک» (٩)، و (١٩٣٧) -وصححه-: جينًا من طريق الليث بن سعد، عن عامر بن يحيى المعافري، عن أبي عبد الرحمن الجلي، عن عبادة بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعًا. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال الحاكم: المستدرک على الصحيحين للحاكم (٤٦/١) -بتحقيق: مصطفى عبدالقادر: «هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج بأبي عبد الرحمن الجلي، عن عبادة بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث بن سعد؛ إمام، ويونس المؤدب: ثقة، متفق على إخرجه في الصحيحين».

وقال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد، نفرد به: عامر بن يحيى».

قال ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود (٧٠/١٣) -دار الكتب العلمية، ط ثانية: قال حمزة الكنتاني: لا أعلم روى هذا الحديث غير الليث بن سعد، وهو من أحسن الحديث. اهـ. كذا قالوا!! مع أنه روي نحوه مختصرًا من حديث عبادة بن عمرو بن العاص، رواه عنه عبادة بن يزيد، وهو أبو عبد الرحمن الجلي، وعنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وأخرجه من هذا الوجه: عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٣٣٩)، والخطيب في «الموضح» (٢٠٣/٢)، والأجري في «الشرعية» (٩٠٢) -بتحقيق: الديلمي.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه نحو: وقد تقدم تخريجه.

ﷺ: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نقيبه<sup>(١)</sup>.

ويناقش المرجئة في قولهم: لا تكفر أحدًا من أهل القبلة بذنوب، فنقول: قولكم هذا يُرد عليه بأمرين:

الأمر الأول: أن في أهل القبلة منافقين يتظاهرون بالشهادتين، ويتجهون إلى القبلة في الصلاة والذبح، ويتظاهرون ببعض ما يمكنهم إظهاره من شعائر الإسلام، وفيهم من هو أكثر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فقولكم: لا تكفر من أهل القبلة أحدًا بذنوب؛ يلزمكم أن لا تكفروا المنافقين، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهم من أهل القبلة.

ثانيًا: أنه لا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المشوارة، أو المحرمات الظاهرة المتواترة، ونحو ذلك؛ فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً؛ لأنه أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة.

ويُردُّ أيضًا عليهم بنصوص الوعيد، فإن نصوص الوعد تدل على بقاء الإيمان معهم، ونصوص الوعيد تدل على أن الإيمان يضعف وينقص، فقولكم: لا يتأثر إيمانه وأنه هو كامل الإيمان، باطل تردُّه نصوص الوعيد.

أما المذهب الثاني: مذهب الخوارج والمعتزلة الذين يطلقون التكفير، فيكفرون بالذنوب، فإنهم يقولون: يكفر المسلم بكل ذنب، أو بكل ذنب

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

كبير، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب، وإن كانت متواترة، ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، كما قال النبي : «يَتَّبِعُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَتَّبِعُونَ أَهْلَ الْأَوْتَانِ»<sup>(١)</sup> ولهذا كفروا عثمان وعليا وشيعتهم، وكفروا أهل صفين - بين الطائفتين-، في نحو ذلك من المقالات الخبيثة لهم، ومستندهم وشبهتهم في هذا التكفير نصوص الوعيد، مثل حديث: «لَا يُزْنِي الرَّائِي جِنَّ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»<sup>(٢)</sup>.

ويرد عليهم أولا: بنصوص الوعد التي استدلت بها المرجعة؛ فإنها تدل على بقاء الإيمان، كما أنه يُرَدُّ على المرجعة القائلين بأنه: مؤمن كامل الإيمان، بنصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج؛ وهي تدل على أن الإيمان يضعف وينقص، وكذلك نقول: إن الله أمر بقطع يد السارق دون قتله، ولو كان كافرا مرتدا؛ لوجب قتله، ولا يقام عليه الحد؛ لأن النبي قال: «مَنْ بَدَّلَ يَمِينَهُ فَأَقْتُلُوهُ»<sup>(٣)</sup> وقال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: كُفْرٍ بَعْدَ إِسْلَامٍ، وَزَيْنَا بَعْدَ إِخْلَاصٍ، أَوْ قَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ»<sup>(٤)</sup>، وأمر الله بجلد الزانيين وجلد القاذف، وكان النبي يجلد شارب الخمر ولم

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس ؓ.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٤٠١٩) و (٤٠٥٧)، وأبو داود (٤٥٠٢) واللفظ له، وابن ماجه (٢٥٣٣)، وأحمد (٦١/١) من حديث عثمان بن عفان ؓ، والفاظهم متقاربة. وأخرج نحوه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود ؓ، وفي الباب عن غيرهما، وانظر: «نصب الرأية» (٣/٣١٧-٣١٨).

يقتله، فلو كان من ارتكب الكبيرة كافرا؛ لوجب قتله، ولا تقام عليه الحدود.

ويُرَدُّ عليهم أيضا بالإجماع على تورث الزاني والسارق وشارب الخمر، إذا صلا إلى القبلة، وانحلوا دعوة الإسلام؛ من قرابتهم المؤمنين الذين ليسوا بذلك الأحوال، فلو كان الزاني والسارق وشارب الخمر كافرا؛ لما ورث من أقاربهم المستقيمين، فكأنهم يرون، يدل على أنهم ليسوا كفارا.

ويُرَدُّ عليهم أيضا: أنه ثبت أن النبي نهى عن لعن رجل يشرب الخمر، وكان اسمه حمارا، وكان النبي يضحك منه، وكان كلما أتى به إليه: جلده، فأُتِيَ به إليه مرة فأمر به فُجِّلِدَ، فلغته رجل، فقال النبي: «لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُجِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»<sup>(١)</sup> فنهى عن لعنه بعينه، وشهد له بحب الله ورسوله، مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما بقوله: «لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَائِغَهَا وَعَاصِرَهَا»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب ؓ، ولفظه: «أن رجلا على عهد النبي ؓ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يُشْرِبُ رسول الله ؓ». وكان النبي ؓ قد جلده في الشراب، فأُتِيَ به يوما فأمر به فُجِّلِدَ فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ؓ: «لَا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عِلِمْتُ إِنْ يَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

(٢) أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠) من حديث ابن عمر ؓ. قال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٥/١٩٣): «رواه أبو داود، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وصححه ابن السكن، ورواه ابن ماجه وزاد: (وأكل ثمنها)، وفي الباب عن أنس بن مالك به وزاد: (وعاصرها)، والمثني لها، والمثني له). رواه الترمذي وابن ماجه ورواه ثقات. اهـ. وانظر: «البيدر المنير» (٨/٦٩٧-٧٠١). فقد ذكر له رواية آخرين من الصحابة، بمعنى حديث السابق، والله أعلم.

وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ أَيْضًا: بَأَنَ اللَّهِ - تَعَالَى - قَالَ: ﴿وَإِن تَلَقَّيْنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَفْتُلًا فَاسْخِرَا مِنْهُمْ لِي أَلَّا يَكُونُوا عَلَى الْكُفْرِ قَتِيلًا أَلَيْسَ لِي بِبَنِي حَقٍّ يَنْقِي إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (المحذرات: ٢٩) إلى قوله: ﴿إِنَّا الْكُفْرُونَ إِتَوُا فَاسْخِرَا مِنْ قَوْكُكُمْ﴾ (المحذرات: ١٠)، فقد وصفهم الله بالإيمان والإخوة، وأمر بالإصلاح بينهم؛ مع أنهم يقتتلون؛ والقتال من الكبار؛ فدل على أن الكبيرة لا تخرجه من الإسلام.

المذهب الثالث: الذي يفرق أصحابه بين البدعة في الأقوال والاعتقادات وبين الأعمال التي هي من كبائر الذنوب، فيفرون بينهم ويقولون: إذا ارتكب بدعة، أو قال قولاً مبتدعاً، فإنه يكفر، أما إذا فعل كبيرة من كبائر الذنوب فإنه: لا يكفر، وهذا يُنسب إلى طوائف من أهل الكلام والفقه والحديث، كما مضى .

فهم لا يكفرون الذين يعملون الكبائر، ويكفرون أصحاب الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولاً، فيقولون: من قال هذا القول: يكفر، ولا يفرقون بين مجتهد مخطئ وغيره، أو يقولون: كل مبتدع يكفر، وشبهتهم؛ قالوا: إن البدعة مظنتها النفاق والردة؛ وهي أصل البدع.

ويرد عليهم:

أولاً: أن البدع الاعتقادية من جنس الأعمال، لا فرق بينهم، فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً، لكن تأول تأويلًا أخطأ فيه، إما مجتهداً وإما مفتركا مذنباً، فلا يقال: إن إيمانه يحبط بمجرّد ذلك الاعتقاد أو العمل، بغير دليل شرعي، بل هذا يوافق قول الخوارج والمعتزلة، ولا يقال: لا يكفر، بل يُفَرَّقُ بين المقالة والقاتل.

ثانياً: أن نصوصاً كثيرة قد دلت على أنه يخرج من النار من كان في

قلبه مثقال ذرة من إيمان، وهذا يشمل الاعتقادات والأعمال، ولهذا: فإن مذهب أهل السنة: ألا يقال لا تكفر أحداً بذنوب، ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول: بأننا لا تكفر أحداً بذنوب، بل يقال: لا تكفر أحداً من أهل القبلة بكل ذنب، منائفة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب، ويعممون السلب، فيقولون: يكفر بكل ذنب، أو بكل ذنب كبير.

ثالثاً: سلك أهل السنة مسلماً عدلاً هو الوسط، وهو التفريق بين الأقوال، والقاتل المعين؛ فالأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الله، أو نفي ما أثبته الرسول، أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به: يُقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر، وهذا عام لا يعين شخصاً بعينه؛ كالقول بخلق القرآن، والوعيد في الظلم في النفس والأموال، فيقال: من قال بخلق القرآن فهو كافر، وأما الشخص المعين، فلا تشهد عليه أنه من أهل الوعيد وأنه كافر إلا بأمر تجوز معه الشهادة، كأن يُعلم بأنه منافق، أو يُنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ويُستتاب فلا يتوب؛ لأن الحكم عليه بالكفر بدون دليل؛ من أعظم البغي، لأن هذا حكم الكافر بعد الموت، كما يوب أبو داود في «سننه»: باب النهي عن البغي<sup>(١)</sup>، وذكر فيه قصة الرجلين المتواخيين من بني إسرائيل أحدهما مذهب والآخر مجتهد في العبادة...، وأن المجتهد كان يأتي المذهب، ويقول: «أَقْصِرْ، فَجِدَّ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَيْتِي وَرَبِّي، أَيْعِشْتُ عَلَى رَيْبٍ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يُغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ: لَا يُدْجِلُكَ الْجَنَّةَ، فَفُضِّ أَرْوَاحُهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: لِهَذَا الْمُجْتَهِدُ:

(١) سنن أبي داود (٢/٦٩٢).

أُكُنْتُ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتُ عَلَى مَا فِي يَدَي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلِّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْ شَيْءٍ دُنْيَاً وَأَخْرَجَتْهُ<sup>(١)</sup>.

فالشهادة على المعين بالكفر من البغي.

ثانيًا: أن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له.

ثالثًا: يمكن أن يكون لم يبلغه ما وراء ذلك القول من النصوص، فيكون معذورًا لجهله.

رابعًا: يمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر الله للذي قال: «لبيته: إذا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحِنُونِي ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ؛ فَوَاللَّهِ لَنْ قُدِّرَ اللَّهُ عَلَيَّ لِمَعْلُونِي عَذَابًا مَا عَذِبَهُ أَحَدًا»<sup>(٢)</sup>، فغفر الله له من خشيته، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أَوْ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحِينَ».

وفي بعض ألفاظ الحديث أنهم سحقوه وأحرقوه: «وَأَذَرُوا نِضْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِضْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَيَجْمَعُ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَيَجْمَعُ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتُ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَفَقَرَّ لَهُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١) واللفظ له، وأحمد (٣٢٣/٢)، وابن حبان (٥٧١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٨٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وَخَسَنَةُ الْأَلْبَانِي رحمته الله في «تخريج الطحاوية» ص (٣٥٨ - ط السابعة).

وأخرجه مسلم (٦٦٦١) عن جندب أن رسول الله ﷺ: «حدث أن رجلا قال والله لا يغفر الله لفلان وإن الله تعالى قال من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨١) واللفظ له، وسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هي رواية البخاري (٧٥٠٦).

وقال في حديث أبي سعيد أبي قصة أخرى، لكنها بنحو القصة الأولى: «كَمَا تَلَاوَاهُ أَنْ رَجَمَهُ عِنْدَهَا» أَوْ: «فَمَا تَلَاوَاهُ غَيْرَهَا»<sup>(١)</sup>، قال العلماء: إن هذا الرجل إنما فعل ذلك عن جهل ليس معاندًا ولا مكذبًا ولا متعنًا، ولكن فعله عن جهل، وإلا فهو معترف ومصدق بأنه لو ترك على حاله لبعثه الله.

لكن هذه المسألة دقيقة خفيفة عليه، ولهذا قال العلماء: من أنكر أمرًا دقيقًا مثله يجهله؛ يكون معذورًا فلا يكفر في هذه الحالة، أما لو أنكر البعث متعمدًا؛ عن عناد وعن تكذيب، فهذا لا شك في كفره، فلهاذا: لا يحكم على الشخص المعين بالكفر إلا بعد التثبت ومعرفة حاله.

وخاصًا: أنه قد يكون حديث عهد بالإسلام، أو قد يكون نشأ في بادية بعيدة عن الإسلام.

ولكن التوقف في أمر الآخرة؛ في أهل البدع: لا يمنعنا أن نعاقيه في الدنيا، لمنع بدعته، وأن نستبيحه، فإن تاب وإلا قتلناه، إذا كان مستحقًا للقتل، ثم إذا كان القول في نفسه كفرًا، قيل: إنه كفر، والقائل له يكفر إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٨) بالفظين المذكورين، وأخرجه مسلم (٢٧٥٧) باللفظ الثاني.

(٢) قال شيخ الإسلام: (والتكفير هو من الوعيد فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بالإسلام أو نشأ بادية بعيدة ومثل هذا لا يكفر بجدد ما يجده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا). «الفتاوى» (٢٣١/٣).



ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله

♦ قال المؤلف رحمته: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ):

#### الشرح

لا نقول ذلك، لأن هذا قول المرجئة الجهمية؛ يقولون: لو ارتكب جميع الكبائر والمنكرات فلا يضره ذلك، ولا يُنْقِصُ من إيمانه؛ فإيمانه كامل، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فإذا قال الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأمن، فلا يضره أي ذنب ولو ارتكب جميع الجرائم والكبائر، حتى قالوا: لو هدم المساجد، وقتل الأنبياء والرسل، وداس المصحف بقدميه فلا يكون كافراً حتى يكذب بقلبه، أمّا ما دام قلبه مصدّقاً: فلا وهذا من أبطل الباطل. والمقصود: أنّنا لا نقول كما تقول المرجئة، ولا نقول بقول الخوارج فكفر بالذنب.

وقال: (بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد في طلبه فعمّز عنه فلا يُعَاقَب، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتهاده، وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر مغفور له، وكثير من مجتهد السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضميقة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم) (١٩٩)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/١، ١١٣)، (٥٠١/٤)، (٣٠٦/٥)، (١٩٩)، و«جامع المسائل» (١٥١/٣)، و«الدرر السنية» (٩٣-٩٥).

ما ينبغي على المؤمن اعتقاده في حق نفسه وحق غيره

♦ قال المؤلف رحمته: (نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ):

#### الشرح

هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ يرجون للمحسنين أن يغفو الله عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم.

## يرجوع من الله أن يدخل المحسنين الجنة

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ):

### الشرح

هكذا نرجو للمؤمن، فإذا رأينا الشخص مستقيماً محافظاً على ما أوجب الله عليه؛ نرجو له المغفرة؛ ونرجو أن يدخله الله الجنة، لكن لا نشهد بالجنة إلا لمن شهدت له النصوص؛ كالعشرة المبشرين، والحسن والحسين، وغيرهم، لكن نشهد بالجنة للعموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، وإذا رأيت رجلاً منحرفاً فلا تشهد له بالنار، لكن نشهد بالنار للكفرة على العموم، فنقول: كل كافر في النار، إلا إذا علمت أنه مات على الكفر، وعلى الردة، وقامت عليه الحجة، فهذا لا بأس أن نقول: هو في النار.

فنحن نرجو الخير للشخص المستقيم، ونخاف على المنحرف؛ فالرجاء للمحسنين، والخوف على المسيئين من معتقد أهل السنة، ولهذا روي عن الإمام أحمد أنه سَمِعَ وهو يقول عند الموت: بَعْدُ بَعْدُ، ثم أفاق فُسئِلَ فقيل له: يا إمام، تقول: بعد بعد؟ فقال: إن الشيطان جاء إليّ، وقال: فُتِنِي يا أحمد، فُتِنِي يا أحمد، فُتِنِي يا أحمد، فقلت: بعد بعد، أي: ما دام أنَّ الروح ما خرجت، فما فُتِنَ بعد. فإذا كان هذا الإمام أحمد رحمه الله فكيف بغيره؟ فالحي ما تَوَمَّنَ عليه الفتنة حتى تخرج روحه، وأما المسيئون؛ فأهل السنة يستغفرون لهم، ويخافون عليهم النار، ولا يَقْنَطُونَهُ من رحمة الله، قال أبو علي الروزباري رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه

النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حَذِّ الموت.

وقالوا: ينبغي للعبد أن يكون رجاءه في مرضه أرجح من خوفه؛ حتى لا يموت الإنسان إلا وهو حَسَنُ الظَّنِّ بالله، بخلافه في زمن الصحة؛ فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه؛ حتى يحمله الخوف على العمل الصالح والبُعد عن السيئات؛ عملاً بالأحاديث، ومنها الحديث القدسي، وهو في «الصحیح» عن النبي: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ أَنَا عَبْدٌ فَظَنُّ عَبْدِي بِي فَلْيُظَنِّ بِي مَا شَاءَ»<sup>(١)</sup>، وما ثبت في «صحیح مسلم» عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول قبل موته بثلاث: «لَا يُمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال بعض السلف: مَنْ عبد الله بالحب وحده؛ فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده؛ فهو خارجي، ومن عبده بالرجاء وحده؛ فهو مرجئي، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء؛ فهو مؤمن موحد<sup>(٣)</sup>.

والله - سبحانه وتعالى - قد أثنى على المؤمنين الذين يعبدونه بالخوف والرجاء، فقال - سبحانه وتعالى -: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا»<sup>(٤)</sup> [النساء: ٥٧]، وقال الله تعالى: «أَنْتَ هُوَ قَنِيذٌ عَائِلٌ آتِيًا سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» [الزمر: ٢١]، وقال تعالى: «نَسْجَاتُ جَبُونَهُمْ عَنِ الْمَسَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَكَلَمًا» [الشعنة: ٢١٦]، وقال سبحانه: «إِنْهُمْ كَانُوا يُكْذِرُونَكَ فِي الْأَحْزَابِ وَيَدْعُوتُكَ رَبِّكَ وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ كَاذِبِينَ»

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم تفريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/٢٠٧).

[الأنبياء: ٤٩٠]

وقد دلت الأدلة على مدح أهل الخوف والخشية والرهبة، والثناء عليهم، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنُوا وَتَكُونُوا مِنْكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ بِالنُّجُومِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَحْزَنُوا وَتَكُونُوا مِنْكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقد مدح الله - سبحانه وتعالى - أهل الإحسان مع الخشية والخوف، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُخَفُّونَ﴾ [الَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ] وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ يُخَفُّونَ [وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ] وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ [وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ] وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ [وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ] [المؤمنون: ٥٧-٦١].

ومن السنة ما في المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقَدْ بَدَأَ بِهِمْ مِنْهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَمْ هُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ يَا بِنْتَ الصَّديقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّي وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَلَ مِنْهُ» [١].

أخرجه الحميدي (٢٧٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) واللفظ له، وأحمد (١٥٩/٦، ٢٥٥)، والحاكم في «المستدرک» (٤٢٧/٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والطبري في «التفسير» (٣٤-٣٣/١٨)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٥٧٨/٧)، وإسحاق بن راهويه في «المسند» (١٦٤٣).

جيمًا من طريق مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة رضي الله عنها به- ورجاله ثقات، لكن قيل: لم يدرك عبد الرحمن عائشة، =

قال الحسن رضي الله عنه: عملوا والله بالطاعة واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمانًا<sup>(١)</sup>.

= ونقل في «جامع التحصيل» (ص ٢٢٢)، عن أبي حاتم أن عبد الرحمن لم يلق عائشة، وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣٤/١٨)، عن جرير، عن ليث بن أبي سليم، وهشيم، عن العوام بن حوشب جميعاً عن عائشة بنحوه، وأخرجه أيضاً ابن جرير (٣٤/١٨)، وأبو يعلى (٤٩١٧) من طريق ليث، عن رجل، عن عائشة، وأخرجه الطبري كذلك (٣٣/١٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٥)، كلاهما من طريق الحكم بن بشير بن سليمان، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن عائشة، بنحوه. (١) عزاء في «الدر المنثور» (٢١٢/٧) لابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة ثم تلا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَا يُخَفُّونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال المنافق: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ [القصص: ٢٧٨] وهو في تفسير الطبري (٣٢/١٨).



وابتاً: المصائب الدنيوية، وفي الحديث: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَ يَشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهَا»<sup>(١)</sup>.

خامساً: عذاب القبر، فقد يُعَذَّبُ الإنسانُ في قبره، ثم تسقط عنه عقوبة جهنم.

سادساً: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

سابعاً: ما يُهْدَى إليه بعد الموت؛ من ثواب صدقة، أو قراءة، أو حج، أو نحو ذلك.

ثامناً: أحوال يوم القيامة وشدائده، قد تُسْقِطُ عنه عقوبة جهنم.

تاسعاً: اقتصاص المؤمنين بعضهم من بعض، حينما يوقفون على قطرة بين الجنة والنار<sup>(٢)</sup> بعد عبور الصراط، فإذا كان لأحدهم مظلمة على

= هذا الانقطاع أيضاً الحافظ ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص ١٣١)، وساق له من حديث معاذ شواهد يتقوى بها. انظر: «الأمالي المطلقة» (ص ١٣٢-١٣٣)، وانظر تفاصيل أخرى متعلقة بهذا الحديث في كتاب «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب (ص ١٥٧-١٥٨)، وقد ساق له شواهد من حديث أبي ذرٍّ أيضاً. والله أعلم.

- (١) أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة -رضي الله عنهما-، وفيهما بنحوه من حديث عائشة، وغيرها.
- (٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٥) عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال قال رسول الله ﷺ: «يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَجْسُونَ عَلَى قِطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِظَالًا كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَذَّبُوا وَتَوَقَّأُوا، أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

شخص، ثم أخذها قبل دخول الجنة؛ سقطت عنه عقوبة جهنم.

عاشراً: شفاعَةُ الشافعين، فقد يشفع له فلا يدخل جهنم.

الحادي عشر: غفو أرحم الراحمين، فقد يغفو الله عن بعض الناس من غير شفاعَة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَذَكَّرُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِ، وَيَتَذَكَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [التيسر: ٤٨]، فَيُعْفِي لصاحب الإحسان العظيم ما لا يُعْفِي لغيره.

فالخلاصة: أن مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يرجون للمحسنين أن يغفو الله عنهم، ويدخلهم الجنة برحمته، ولا يؤمّنونهم من مكر الله، ولا يشهدون لمعينين بالجنة إلا من شهد له النص، ونخاف على المسي، ونستغفر له، ولا نغفّهُ من رحمة الله.

مسألة: يكثر السؤال عن رؤية الملائكة ربهم في الدنيا، فهل هذا صحيح؟

الجواب: لا يرى الله أحدٌ في الدنيا لا الملائكة ولا غيرهم، كما مر في حديث أبي ذرٍّ: «جِبَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ سُبُحَاتٍ وَجْهَهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»<sup>(١)</sup>، فالملائكة خلق من خلقه، فلو كشف الحجاب لأحرقت سبحات وجهه الملائكة وغيرهم، فلا يراه أحدٌ في الدنيا في اللحظة، أما في النوم فيمكن، فلا يستطيع أحد أن يثبت لرؤية الله؛ فالله تعالى لَمَّا تجلى للجبَلِ تذكلك وهو صخر، فكيف بالمخلوق الضعيف؟!

مسألة: هل ثبت في الكرسي حديث صحيح؛ لأن بعض العلماء يقول: إن أثر ابن عباس أخذه عن بني إسرائيل؟

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-

الجواب: قوله في الحديث: «الْكُرْسِيُّ هُوَ عِلْمُهُ» (١) ليس في الصحيح، أما قوله: «الْكُرْسِيُّ مُؤْضِعُ الْقَدَمَيْنِ» (٢) فيحتمل نقله ولكنه ليس بصحيح، والعلماء قد اعتمدوه، ولكن سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله كان يرى أنه يحتمل أن يكون أخذه من بني إسرائيل، وعلى هذا نقول: العرش مخلوق والكرسي مخلوق، والكرسي دون العرش، أما العلماء كالدارمي وغيره، فهم اعتمدوا ما ثبت عن ابن عباس أنه قال: «الْكُرْسِيُّ مُؤْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَغْيُرُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ» (٣).

مسألة: التفكير في عظم خلق العرش والكرسي يورث الخشية لله تعالى، فهل يصح أن يجعل الإنسان في ذهنه صورة تخيلية لهما؟

الجواب: ما دام الكرسي والعرش مخلوقين؛ فلا يضر ذلك، أما التفكر في كنه ذات الرب أو كنه صفاته: فهذا ممنوع.

مسألة: هل محبة الرسول لذاته أم لله تعالى؟

الجواب: الذي يُحِبُّ لذاته هو الله سبحانه وتعالى، أما محبة الرسول ﷺ فهي تابعة لمحبة الله، ومحبة المؤمنين كذلك، لكن محبة الرسول ﷺ ينبغي أن تكون فوق محبة الأولاد وفوق محبة النفس التي بين جنبيك، هذا هو الأكمل، وهو الأفضل، أما إذا قدم محبة غير الرسول على محبة الرسول ﷺ، فهذا يكون نقصاً وضعفاً في الإيمان، وقد توعد الله من قدم شيئاً من ذلك على محبته ومحبة رسوله فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ

(١) تقدم تخريجه وكلام الحافظ ابن حجر، وكلام الطبري وتعقيب الشيخ محمود شاكر عليه فانظره للفائدة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ أَتَوَفَّوْهُمَا وَيَعْرِضُكُمْ كَسَادَهَا وَيَسْفِكُكُمْ بِمُؤَنِّهَا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ اللَّهِ رَسُولُهُ وَجَاهُ فِي سَبِيلِهِ قَدْ ضَلُّوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغوبة: ٢٤]، فمن قدم محبة الأبناء أو الآباء أو التجارة أو المساكن على محبة الله ورسوله؛ فهو فاسق ضعيف الإيمان، فالكمال أن تقدم محبة الله ورسوله على كل شيء.

مسألة: العلو يختلف في الاتجاه بحسب كل إنسان على سطح الأرض، فتكون جهة العلو في كل اتجاه، فما هو توجيهكم لهذا القول؟

الجواب: العلو ما كان فوق السماوات والأرضين، بل الأفلاك كلها ما لها إلا جهتان مثل الأرض، فالأرض كروية الشكل، فجهة العلو لها من جميع الجهات، فإذا كنت في مكان وشخص في مكان آخر؛ فهو يتصور أنك تحته، وأنت تتصور أنك تحته، وكلكم في العلو على وجه الأرض، أما السفلى فهو المركز في وسط الأرض، بحيث لو انخرق من هنا خرق وانخرق من هنا خرق، ونزل من هنا شخص ونزل من هنا آخر، لالتفت رجلاهما في المركز، ثم لو فرضنا أنهما استمررا في خرق الأرض، وتجاوزا المركز، فإنهما يكونان صاعدين والحالة هذه. إذا: الأرض والسماوات لهما وجهان؛ جهة العلو والسفل، أما أنا وأنت والمخلوقات المتحركة فلها ست جهات، أمام، وخلف، ويمين، وشمال، وفوق، وتحت.

أما المخلوقات الثابتة كالسماوات والأرضين والأفلاك كلها: فما لها إلا جهتان؛ العلو والسفل، فالعلو ما كان على سطحها، والسفل: مَحْطُ الْأَثْقَالِ.

### الجمع بين الخوف والرجاء

◆ قال الإمام الطحاوي - رحمه الله تعالى -: (وَالْأَمْنُ وَالْإِيَّاسُ يُقْلَانِ عَنِ الْمَلَةِ وَسَبِيلِ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْفِتْلَةِ):

#### الشرح

المراد بالأمن: الأمن من مكر الله، والمراد بالإيَّاس: اليأس من رُوح الله، والمراد بالملة: ملة الإسلام، والمقصود: أن الأمن من مكر الله واليأس من روح الله كل منهما كفر ينقل عن الملة، وأما سبيل الحق فيبين الأمن والإيَّاس؛ وهو: الخوف والرجاء.

وكما رُوِيَ في الحديث عن النبي أنه قال: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْثَرِ الْكِبَايِرِ؟ الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>، وقد قال تعالى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥٢٠١)، والزار - كما في تفسير ابن كثير (١/٤٨٥)، عن ابن عباس مرفوعاً، وحسن إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٠٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٤/١): «ورجاله موثقون»، لكن قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤٨٥/١): «وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً»، والموقوف هذا أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٠٣٣)، والبيهقي (١/٣٢٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٦/٧): «رواه الطبراني، وإسناده حسن».

ورود بنحوه عن ابن مسعود موقوفاً عليه؛ وأخرجه: عبدالرزاق في «المصنف» (١٩٧٠١)، وابن جرير في «التفسير» (٤٠/٥)، و (٤١/٥)، من طريق، والطبراني في «الكبير» (٨٧٨٣، ٨٧٨٤، ٨٧٨٥)، والبيهقي في «شعر الإيمان» (١٠٥٠)، وصحح إسناده الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤٨٥/١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٤/١).

في الأمن من مكر الله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»<sup>(١)</sup> فَأَمَّا مُسَكَّرُ اللَّهِ فَلَا يَأْتِي مُسَكَّرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَائِرُونَ<sup>(٢)</sup> [الأعراف: ٩٦، ٩٧] وقال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ» [الأعراف: ٩٦] يعني: أهل القرى الكافرة، والمراد بالخسار في قوله: «فَأَمَّا آمَنُوا مُسَكَّرُ اللَّهِ فَلَا يَأْتِي مُسَكَّرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَائِرُونَ»<sup>(٣)</sup> [الأعراف: ٩٩]. خساراً كفر؛ لأن هذه الآيات في بيان القرى الكافرة، وقد جاء فيها التعبير بـ(الخاسرون)، و (أل) لاستغراق أنواع الخسار، فالأمن من مكر الله؛ هو الذي لا يخاف الله؛ ليس عنده شيء من الخوف، فبأمن مكر الله لذلك، ويستترسل في المعاصي ولا يبالي، وأما اليأس من رُوح الله؛ فقد قال الله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه: «يَبْنَئِي أَدْهُمَاءَ فَمَحْسُومًا يَبْ يُوْشَفْ وَأُجْبِهِ وَلَا تَأْتِنُشُوا مِن رَّعَجِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِنُشُ مِن رَّعَجِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»<sup>(٤)</sup> [يوسف: ٨٧] فبين أن اليأس من رحمة الله كافر، لأنه ليس عنده رجاء ولا عمل لرحمة الله، بل هو متشائم، قانط، مسيء للظن بالله.

والكفر هنا جاء بـ(أل) التي تفيد الاستغراق، والمعنى: أن اليأس كافر كفرًا أكبر، فأعجب الله ذلك عن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وجاء شرعاً بإقراره، ولم يقل النبي أن اليأس دون ذلك، أو ليس كذلك.

وفي سورة «الجاثية» أخبر الله تعالى عن إبراهيم فقال: «وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ» [الجاثية: ٥٦]، والقانط هو اليأس، فهو ضال ضلالاً كُفْرًا، لأن (أل) أيضاً للاستغراق، وما ذاك إلا لأن اليأس من رحمة الله متشائم قانط، ليس عنده شيء من الرجاء ولا الأمل في رحمة الله وغفوه، يرى أنه هالك، مسيء للظن بالله.

وكذلك الآمن من مكر الله، لا يفيد التصديق بالقلب وحده؛ لأنه لا بد لهذا التصديق من عمل يتحقق به، وإلا صار كإيمان إيليس وفرعون، فإيليس مصدق: كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي...﴾ [الجم: ٣٦]، وفرعون مصدق كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَعْدُودًا بِمَا وَاسْتَفْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [الش: ٢١٤]، لكن إيليس لم يعمل بل امتنع عن السجود، وفرعون ليس عنده عمل، فكونه يعرف ربه بقلبه ولا يعمل، فهذا لا يكون إيماناً؛ لأن الإيمان والتصديق بالقلب، لا بد له من انقياد بالجوارح حتى يتحقق هذا الإيمان، كما أن الذي يعمل؛ كَمَنْ يصلي ويصوم ويحج، لا بد لهذا العمل من تصديق في الباطن؛ يصحح هذه الأعمال، وإلا صار كإسلام المنافقين.

ولذلك صار الياثس من روح الله لا يعمل؛ لأنه يرى أنه هالك، ولهذا أنشئ الله - سبحانه وتعالى - على عباده؛ لأنهم يعبدونه بالخوف والرجاء، قال سبحانه: ﴿أَتْلَيْكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَنْفُوتُكَ إِلَى رَبِّهِمْ أَرَأَيْتَ أَقْرَبُ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشجدة: ٢٦]، وقال سبحانه لما ذكر الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل واليسع وهود، قال بعد ذلك: ﴿لَهُمْ كُنُوزٌ كَثِيرَةٌ فِي الْآخِرَاتِ وَيَذْعَرُونَ رَحْمَةً وَرَبًّا وَهَيَّا﴾ [الأنبياء: ٨٠]، والرغب هو: الرجاء، والرهب هو: الخوف، فإذا فُقد الخوف، وفُقد الرجاء؛ لم يكن هناك إيمان، ولا يكون هناك توحيد، فالتوحيد لا بد فيه من ثلاثة أركان:

الركن الأول: المحبة في القلب، والمحبة لا تكون إلا عن تصديق.

الركن الثاني: الخوف الذي يحجب الإنسان عن محارم الله، وعن الشرك.

الركن الثالث: الرجاء الذي يحمل الإنسان على الطمع في ثواب الله وفي رحمته.

ولهذا قال العلماء: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، -وهذه طريقة الصوفية-، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، -يعني: أنه خارجي-، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئي، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء؛ فهو مؤمن موحد.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»<sup>(١)</sup>:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان وعليهما فلک العبادة دائر ما دار حتى دارت القطبان

فعبادة الرحمن هي: غاية الحب، مع غاية الذل، يعني: أن يتعبد الله بغاية الذل، مع غاية الحب، فالذليل هو: الخائف، الخاضع لله، والآمن من مكر الله ليس عنده ذل، كما أن الياثس من رحمة الله أيضاً؛ ليس عنده طمع في ثواب الله، فكيف يكون مؤمناً؟

(١) انظر «الكافية الشافية» (٢٩/١).



### الإيمان: ما يخرج العبد من الإيمان

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ):

#### الشرح

المؤلف أتى بصيغة الحصر، والمعنى: أنه لا يخرج العبد من الإيمان إلا إذا جحد الأمر الذي أدخله في الإيمان، وهو التصديق! هكذا قال المؤلف، وهذا غلط عظيم مخالف لقول أهل السنة والجماعة؛ لأن معنى ذلك: أن الإنسان لا يكفر إلا بالجهود، كما أنه لا يكون مؤمناً إلا بالتصديق، وعلى ذلك يكون الإيمان هو التصديق في القلب، والكفر هو: الجحود في القلب، فإذا صدّق، صار مؤمناً، وإذا جحد: صار كافراً.

وهذا خطأ؛ لأن الكفر يكون أيضاً بالنطق باللسان، ويكون الكفر أيضاً بالعمل؛ أي بالجوارح، ويكون الكفر أيضاً بالشك، ويكون أيضاً بالترك والإعراض، ولهذا بوب العلماء -في كل مذهب- من الحنابلة والمالكية والشافعية والأحناف-، بوبوا باباً في كتب الفقه يسمونه «باب حكم المرتد»، قالوا: والمرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه نطقاً أو اعتقاداً أو شكاً أو فعلاً، أو تركاً.

#### إذا فالكفر خمسة أنواع:

النوع الأول: يكون باعتقاد القلب وجحوده، كما ذكر المؤلف، كما لو اعتقد أن الله صاحبة أولاد، وكما لو جحد ربوبية الله، أو جحد أسماء الله، أو صفاته، أو أولوهيته وعبادته واستحقاقه للعبادة، أو أمراً معلوماً وجوبه من الدين بالضرورة؛ كأن جحد وجوب الصلاة، أو وجوب الزكاة،

أو وجوب الصوم، أو وجوب الحج، أو جحد أمراً معلوماً تحريمه من الدين بالضرورة؛ كأن يجحد تحريم الزنا، أو تحريم الربا، أو تحريم شرب الخمر، أو تحريم عقوق الوالدين، أو تحريم قطيعة الرحم، فإذا أنكر شيئاً من ذلك فإنه يكون كافراً؛ لأنه جحد بقلبه.

النوع الثاني: يكون بالقول؛ مثل: لو سب الله، أو سب الرسول، أو سب سب دين الإسلام؛ فإنه يكفر بهذا النطق والقول، ولو لم يجحد بقلبه، ولو استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه: كفر بهذا الاستهزاء، والاستهزاء يكون باللسان، ولو لم يجحد بقلبه، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن قومًا كفروا بعد إيمانهم؛ بالاستهزاء، قال الله ﷻ ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعُوْثُ وَلَعَلَّكُمْ لَأَنتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] فأثبت لهم الكفر بعد الإيمان بهذا الاستهزاء الذي هو قول.

النوع الثالث: يكون بالفعل؛ فلو سجد للصنم كفر بهذا السجود، أو داس مصحفًا بقدميه، أو لطمه بالنجاسة؛ فإنه يكفر بهذا العمل، ولو لم يجحد، ولو لم يعتقد بقلبه، كذلك يكون كافراً: إذا دعا غير الله، أو ذبح لغير الله أو نذر لغير الله، أو دعا الأموات وطلب منهم المدد، أو رجع لغير الله، أو سجد لغير الله، أو طاف بغير بيت الله تقريباً للغير، فإنه يكفر بهذه الأفعال ولو لم يجحد.

النوع الرابع: يكون الكفر بالشك، كما لو شك في ربوبية الله، أو شك في اسم من أسماء الله، أو في صفة من صفاته، أو شك في الملائكة، أو في الكتب المنزلة، أو في الرسل، أو في الجنة، أو في النار، أو شك في البعث، أو شك في الصراط، أو في الميزان، أو في

الحوض؛ فإنه يكفر بهذا الشك.

النوع الخامس: يكون بالترك والإعراض؛ كما لو أعرض عن دين الله، لا يتعلمه، أو أعرض عن عبادة الله؛ فإنه يكفر بهذا الإعراض، ولو لم يجحد قال الله - تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ آلِ الْيَتِيمِ الْمُرْشُونَ﴾ [الاحقاف: ١٣].

فهذه خمسة أنواع يكفر الإنسان بأحدها، لكن بشرط أن يفعلها الإنسان؛ لا بجهل يُعذر فيه؛ فلو فعل شيئاً منها وهو جاهل؛ لا يكفر حتى يُعَرَّفَ، وتقرَّم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة: كفر بعد التعريف، أما إذا كان مثله لا يجهل؛ فلا يُقبل منه الاعتذار.

وكذلك: إذا جرى على لسانه الكلام الكفري من غير ما قصد؛ فإنه لا يكفر، كقصة الرجل الذي فقد راحلته وعليها طعامه وشرابه، فلما وجدها قال من شدة الدهشة والفرحة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»<sup>(١)</sup>؛ يخاطب ربه؛ أخطأ من شدة الفرح، فلم يُؤاخذ بقوله هذا. ولو جاء إنسان، ووضع رأسه أمام صنم؛ ليستريح من وجع برأسه، ولم يعلم أنه صنم، فلا يكفر؛ لعدم علمه بذلك، لكن إذا قصد السجود للصنم: كفر بهذا العمل؛ ولو لم يجحد بقلبه.

وكثير من الناس اليوم - ومنهم علماء - يقررون مذهب المرجئة؛ ويقولون: لا يكون الكفر إلا بالقلب، ولا يكون الإيمان إلا بالقلب، ويرجئون الجهل، ويرجئون النطق؛ يقولون: إذا سجد للصنم؛ لا يكون كافراً، لكن هذا السجود يكون دليلاً على ما في القلب، فإذا كان قلبه مكذباً؛ صار كافراً، وإذا سب الله وسب الرسول؛ يقولون: هذا ليس

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، لكن هو عند البخاري أيضاً (٣٠٩) من حديث أنس، دون قوله: «اللهم أنت عبدِي وأنا ربك».

بكفر، لكنّه دليلٌ على ما في قلبه من الكفر؛ وهذا قول المرجئة.

فالكفر - كما سبق - يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالعمل، ويكون بالشك، ويكون بالترك والإعراض، وهذه مسألة مهمة، ينبغي لطالب العلم أن يكون على بينة منها، وهذا الذي تقرّر هو قول الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء وجماهير أهل العلم، أما القول بأن الكفر لا يكون إلا بالوجود، والإيمان لا يكون إلا بالقلب فهذا غلط، وغلط عظيم<sup>(١)</sup>.

(١) راجع: «التوسط والاقتصاد في أن الكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد» للشيخ علوي السقايف. راجعه وأقرّه الشيخ عبد العزيز بن باز رحمته. وقد علق الشيخ ابن باز على عبارة الطحاوي قائلاً: (هذا الحصر فيه نظر، فإن الكافر يدخل في الإسلام بالشهادتين إذا كان لا ينطق بهما، فإن كان ينطق بهما دخل في الإسلام بالتوبة مما أوجب كفره، وقد يخرج من الإسلام بغير الجحد لأسباب كثيرة بينها أهل العلم في [باب حكم المرتد]، من ذلك: طعنه في الإسلام، أو في النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو استهزؤه بالله ورسوله أو بكتابه، أو بشيء من شرعه سبحانه؛ لقوله سبحانه: ﴿قُلِ الْيَهُودُ وَنَصَارَى كَثُرُوا سُبُطُهُمْ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا مَدَّ كَفَرْتُمْ مِنْهُ يَنْسَبُوا﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] ومن ذلك: عبادته للأصنام أو الأوثان أو دعوته الأموات والاستغاثة بهم وطلبه منهم المدد والعون ونحو ذلك؛ لأن هذا يناقض قول: لا إله إلا الله؛ لأنها تدل على أن العبادة حق لله وحده، ومنها: الدعاء والاستغاثة والركوع والسجود والذبح والتذرع ونحو ذلك، فمن صرف منها شيئاً لغير الله من الأصنام والأوثان والملائكة والجن وأصحاب القبور وغيرهم والمخلوقين؛ فقد أشرك بالله ولم يحقق قول: (لا إله إلا الله)، وهذه المسائل كلها تخرجه من الإسلام بإجماع أهل العلم، وهي ليست من مسائل الجحد، وأدلتها معلومة من الكتاب والسنة، وهناك مسائل أخرى كثيرة يكفر بها المسلم، وهي لا تسمى جحداً، وقد ذكرها العلماء في [باب حكم المرتد]، فراجعها إن شئت، وبالله التوفيق.

### الاختلاف فيما يقع عليه اسم الإيمان

◆ قال المؤلف رحمته: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ):

#### الشرح

قول الطحاوي هذا؟ يُقَرَّرُ مذهبُ المرجئة؛ فالمرجئة يقولون: الإيمان لا يكون إلا بالتصديق بالجنان والإقرار باللسان، أما أعمال القلوب وأعمال الجوارح فلا تدخل في الإيمان، وهذا هو المشهور عن الإمام أبي حنيفة رحمته، وأول من قال بالإرجاء؛ شيخُ أبي حنيفة: حمادُ بنُ أبي سليمان<sup>(١)</sup> من أهل الكوفة؛ ولهذا: كان هذا الاعتقاد يُسمَّى بقول مرجئة الفقهاء.

(١) حماد بن أبي سليمان العلامة الإمام فقيه العراق، أبو إسماعيل بن مسلم الكوفي مولى الأشعرين، أصله من أصبهان. كان أحد العلماء الأذكياء، والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجل. قال الذهبي في السير: قال معمر: كنا نأتي أبا إسحاق فيقول: من أين جئتم؟ فنقول: من عند حماد، فيقول: ما قال لكم أخو المرجئة؟ فكنّا إذا دخلنا على حماد، قال: من أين جئتم؟ قلنا: من عند أبي إسحاق، قال: الزموا الشيخ فإنه يوشك أن يظني. قال: فمات حماد قبله. قال معمر: قلت لحماد: كنت رأساً، وكنت إماماً في أصحابك، فخالفتهم فصرّت تابعا، قال: إني أن أكون تابعا في الحق خير من أن أكون رأساً في الباطل. قال الذهبي: يشير معمر إلى أنه تحول مرجئا إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان، ويقين في القلب، والنزاع على هذا لفظي إن شاء الله، وإنما غلب الإرجاء من قال: «لا يضر مع التوحيد ترك الفرائض». نسأل الله العافية. اهـ

والرواية الثانية عن الإمام أبي حنيفة: أن الإيمان شيء واحد وهو التصديق بالقلب، أما الإقرار باللسان؛ فركن زائد لا يستلزمه مسمى الإيمان.

والناس اختلفوا في معنى الإيمان اختلافاً كثيراً، وخلاصة الأقوال والمذاهب في هذه المسألة كما يلي<sup>(١)</sup>:

المذهب الأول: ذهب الأئمة الثلاثة؛ مالك، والشافعي، وأحمد، وجمهور أهل السنة، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة، وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين، وهو قول الصحابة، والتابعين، والأئمة، والعلماء: إلى أن الإيمان تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح؛ أربعة أشياء؛ ولذلك فأحياناً ما يقولون: الإيمان: قولٌ وعملٌ؛ فالقول قسمان: قول القلب؛ وهو التصديق، وقول اللسان؛ وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله. والعمل قسمان: عمل القلب؛ وهو التبة والإخلاص، وعمل الجوارح.

وعملٌ بالجوارح؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ولهذا يقول العلماء: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. هذا هو الحق الذي تدل عليه النصوص من كتاب الله وسنة رسول الله، وهو الذي أجمع

= انظر ترجمته: في «طبقات ابن سعد» (٣٣٢/٦) و«طبقات خليفة» (١٦٢) و«التاريخ الكبير» (١٨/٣) و«الضعفاء للقبلي» (١٠٧ - ١١٠) و«الجرح والتعديل» (٣/ ١٤٦) و«تهذيب الكمال» (٣٣١) و«تذويب التهذيب» (١/ ١٧٤/٢) و«تاريخ الإسلام» (٢٤٣/٥) و«العبر» (١٥١/١) و«سير أعلام النبلاء» (٢٣١/٥) و«تهذيب التهذيب» (١٦/٣) و«طبقات الخفاضة» (٤٨) و«خلاصة تذهيب الكمال» (٩٢). (١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٥-١٩٧)، (٧/ ٥٠٤) وما بعدها.

عليه الصحابة، والتابعون، والأئمة.

**المذهب الثاني:** مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله وكثير من أصحابه، وحماد بن أبي سليمان: شيخ أبي حنيفة؛ وقد ذهبوا إلى ما ذكره الطحاوي من أن الإيمان شيطان: الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وهذه الرواية عليها جمهور أصحاب الإمام أبي حنيفة.

**المذهب الثالث:** مذهب بعض أصحاب أبي حنيفة، وهي رواية عن الإمام أبي حنيفة أيضًا، وإليها ذهب أبو منصور الماتريدي: أن الإيمان تصديق بالقلب فقط، والإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، بل هو شرط إجراء أحكام الإسلام في الدنيا، ولو لم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله، وهذا مذهب باطل.

**المذهب الرابع:** مذهب الكرامية - أتباع محمد بن كرام - وهو أن الإيمان هو: الإقرار باللسان فقط، قالوا: ولو لم يصدق بقلبه فهو مؤمن، لكن إذا لم يصدق بقلبه، فإنه يكون منافقًا، فالمنافقون عند الكرامية مؤمنون كاملو الإيمان، لكن يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله، فعلى مذهب الكرامية؛ إذا نطق بالشهادتين وهو مكذب في الباطن؛ يكون مؤمنًا ويخلد في النار، وهذا من أبطل الباطل، وهو ظاهر الفساد؛ لأنه يلزم منه تخليد المؤمن الكامل الإيمان في النار.

**المذهب الخامس:** مذهب الجهم بن صفوان وأبي الحسين الصالحى أحد رؤساء القدرية؛ ذهبوا إلى أن الإيمان هو: معرفة الرب بالقلب، والكفر هو: الجهل بالرب بالقلب، فإذا عرف ربه بقلبه؛ فهو مسلم، وإذا جهل ربه بقلبه؛ فهو كافر، وهذا القول أظهر نفاقًا مما قبله، بل هو أظهر ما قيل في الفساد في معنى الإيمان، ويلزم على مذهب الجهم هذا: أن

فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا ربهم بقلوبهم، وعرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّكَ شَكَّوْكَ وَالْأَرْضُ بَصَائِرٌ﴾ [الاسراء: ١٠٢] [سورة الاسراء آية: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَعَدُوا يَا وَاسِعَتْنَاهُ أَنَّهُمْ ظَنُّوا قَاتِلُنَّ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْعَاصِينَ﴾ [الشع: ١٤]، فيكون إذا فرعون على مذهب الجهم مؤمنًا؛ لأنه عرف ربه بقلبه!!

وأهل الكتاب اليهود والنصارى مؤمنون على مذهب الجهم؛ لأنهم يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِعَرُوفِهِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٧٦].

كذلك أبو طالب عم النبي يكون مؤمنًا عند الجهم؛ لأنه عرف ربه حيث قال في قصيدته المشهورة:

ولقد علمتُ بأنَّ دين محمد      من خير أديان البرية دينا  
لولا الملامة أو حذار      مسبة لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا  
بل إن إيليس يكون عند الجهم مؤمنًا كامل الإيمان، فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه، قال الله تعالى عن إيليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَىَّ يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الجعر: ٢٣٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَقْبَلْتَنِي﴾ [الجعر: ٣٩]، وقال: ﴿قَالَ مِمَّنْ لِّكُلِّ نَفْسٍ لَّحُوقُهُمْ آمِنِينَ﴾ [مريم: ٨٢].

والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب بالقلب، يقول العلماء:

ولا أحد أجهل منه في الجهل بربه؛ فإنه جعل ربه الوجود المطلق، ومعنى الوجود المطلق الذي لم يُعَدَّ باسم ولا صفة، فلم يُثَبِّت الجهم وجودًا إلا في الذهن؛ لأنه سلب عن الله جميع الاسماء والصفات، ولا

جهل أكبر من هذا، فيكون الجهم كافراً بشهادته على نفسه، فنحن نأخذ من تعريفه: أنه كافر؛ لأنه عرف الكفر بأنه هو الجهل بالرب، ولا أحد أجهل منه بربه .

المذهب السادس: مذهب الخوارج يقولون: الإيمان جماع الطاعات كلها، فجميع الطاعات إيمان، لكن من قَصُرَ في واحد منها كفر، فإذا عَقَّ والديه: كفر، وإذا شهد الزور: كفر، وإذا ترك طاعة من الطاعات: خرج من الإيمان، ودخل في الكفر.

المذهب السابع: مذهب المعتزلة؛ قالوا: الإيمان جماع الطاعات كلها - كما قال الخوارج -، لكن قالوا: من قَصُرَ في شيء منها: فهو فاسق؛ لا مؤمن ولا كافر.

المذهب الثامن: روى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد، وتوقف في نقصانه، ولكن روى عنه عبدالرازق بن نافع أنه يزيد وينقص، وعلى هذا فمذهبه يوافق مذهب الجماعة من أهل الحديث، والحمد لله. فهذه خلاصة المذاهب في معنى الإيمان.

وفي هذا الزمن اشتبه الحق على كثير من طلبة العلم حتى صاروا يفترون بمذهب الجهم، أو بمذهب أبي حنيفة - مذهب المرجئة - ويقول: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، والكفر لا يكون إلا في القلب.

فلا بد لطالب العلم أن يكون على إلمام وبصيرة بشبه هؤلاء، فمن شبه الإمام أبي حنيفة ومن وافقه التي استدلوا بها:

الدليل الأول: أن الإيمان في اللغة هو التصديق، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك؛ قال الله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: ٢١٧]؛ أي: بمصدق لنا. إذاً لا يكون الإيمان إلا

بالقلب، أما قول اللسان وأعمال الجوارح، فلا تدخل في معنى الإيمان. وأجاب الجمهور عن هذا الدليل بجوابين<sup>(١)</sup>: أحدهما بالمنع، والثاني بالتسليم.

الجواب الأول: بالمنع، قالوا: نمنع الترادف بين التصديق والإيمان، ولو صح الترادف في موضع، فلا يوجب ذلك الترادف مطلقاً، إذ أن هناك فرقاً بين الإيمان والتصديق من وجوه:

أولاً: التَّعْلِيلُ؛ فيقال للمخبر إذا صدق في خبره: صدقه، وصدق به، ولا يقال: آمنه ولا آمن به، بل يقال آمن له، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتَى لَكُ الرُّبُوبُ﴾ [التكوير: ٢٦].

ثانياً: العموم والخصوص بين الإيمان والتصديق، فإن التصديق أعم من الإيمان، والإيمان أخص منه، فالتصديق يستعمل لغة في الخير عن الشاهد والغائب، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخير عن الغائب.

ثالثاً: أن لفظ التصديق يقابله التكذيب، وأما لفظ الإيمان فيقابله الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل هو أعم من ذلك، فيشمل الكفر عن تكذيب، وعن جهالة، وعن عناد.

الجواب الثاني: جوابٌ بالتسليم؛ قال أهل السنة: نسلّم أن التصديق والإيمان مترادفان، لكن نقول:

أولاً: التصديق يكون بالأفعال كما يكون بالأقوال، ودليل ذلك ما ثبت في «الصحيح» عن النبي أنه قال: «فَالْعَيْنَانِ زَاهَاةمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١١٧، ٢٩٠، ٥٣٠).

وَنَاهَا السَّمْعَ، وَالْبَصَرَ، وَالْبَدَنَ وَنَاهَا الْبَطْنَ، وَالرِّجْلَ وَنَاهَا الْخَطَا، وَالْقَلْبَ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيَكْذِبُهُ<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن البصري رحمه الله: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقه الأعمال)<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: سلمنا أن الإيمان والتصديق مترادفان لكن الإيمان تصديق مخصوص، كما أن الصلاة وإن كانت دعاء، فهي دعاء مخصوص.

ثالثاً: سلمنا أن الإيمان التصديق، لكن التصديق التام بالقلب يكون مستلزماً لأعمال القلب والجوارح.

رابعاً: سلمنا أن الإيمان التصديق، لكن لفظ الإيمان باقي على معنى التصديق لغةً، لكن الشارع زاد في أحكامه.

خامساً: سلمنا أن الإيمان هو التصديق، لكن الشارع استعمل لفظ الإيمان في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية في معناه الشرعي.

سادساً: سلمنا أن الإيمان التصديق، لكن الشارع نقل لفظ الإيمان عن معناه اللغوي إلى معناه الشرعي.

هذا كل الجواب عن الدليل الأول للأحناف.

الدليل الثاني للأحناف: على أن الإيمان هو التصديق، ولا يكون إلا بالقلب، قالوا: الإيمان ضد الكفر، والكفر هو التكذيب والجحود،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٦)، وابن بطّة في الإبانة (١٠٩٣)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٣٠٣٥١)، و(٣٥٢١١)، وابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٥)، وقد روي مرفوعاً، لكن لا يصح. والله أعلم.

والتكذيب والجحود لا يكون إلا بالقلب، فذلك التصديق لا يكون إلا بالقلب، ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ مَقَالَةً مُتَلَوِّيًا بِالْإِيمَانِ﴾ (النمل: ١٠٦)، فدللت الآية على أن القلب هو موضع الإيمان.

وأجاب الجمهور فقالوا: قولكم: إن الكفر هو التكذيب والجحود ممنوع؛ فإن الكفر لا يختص بالتكذيب والجحود، بل إن الكفر يكون تكذيباً ويكون مخالفةً ومعاداةً بلا تكذيب؛ فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط، ولا الكفر التكذيب والجحود فقط، فلو قال: أنا أعلم أن الرسول صادق ولكن لا أتبعه، بل أعاديه وأبغضه وأخالفه؛ لكان كافراً أعظم الكفر، ولو لم يجحد.

الدليل الثالث: وهو دليل عقلي؛ قال الأحناف: لو كان الإيمان مركباً من قول وعمل -كما يقولون يا جمهور أهل السنة- لزال كله بزوال أجزائه، إذ الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم يبق عشرة، وكذلك المركب؛ إذا زال أحد جزئيه: زال عنه التركيب، فإذا كان الإيمان مركباً من قول وعمل وتصديق وأعمال ظاهرة وباطنة؛ لزم زواله بزوال بعضها.

وأجاب الجمهور فقالوا: إن أردتم أن الهيئة الاجتماعية لم يبق مجتمعة كما كانت: فُسِّمَ، ولكن لا يلزم من زوال بعضها؛ زوال سائر الأجزاء، بل يلزم زوال الكمال، كما أن بدن الإنسان إذا ذهب منه أصبح أود يد أو رجل؛ لم يكن ليخرج عن كونه إنساناً بالاتفاق، وإنما يقال إنسان ناقص، فذلك الإيمان: يبقى بعضه، ويذول بعضه<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٥١٤-٥٢٢).

الدليل الرابع للأحناف: قالوا: إن الله تعالى فرق في كتابه بين الإيمان والعمل الصالح، فعطف العمل على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة، فقال تعالى في غير موضع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التكوير: ٢٣]، فدل على أن العمل لا يكون داخلًا في معنى الإيمان.

وأجاب الجمهور: بأن اسم الإيمان ورد في النصوص على ثلاث حالات: تارة يُذكر مطلقًا عن العمل وعن الإسلام، وتارة يُقرن بالعمل الصالح، وتارة يُقرن بالإسلام، فإذا دُكر الإيمان مطلقًا: دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، كما في حديث شُعْبَة الإيمان، وإذا قُرُن الإيمان بالعمل الصالح، وعُطف عليه، فإن عطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، مع اشتراكهما في الحكم، والمغايرة على مراتب: أعلاها: أن يكونا متباينين، الثاني: أن يكون بينهما تلازم، الثالث: عطف بعض الشيء عليه، الرابع: عطف الشيء على الشيء باختلاف الصفتين، فهذا كله إذا قُرُن الإيمان بالعمل الصالح<sup>(١)</sup>.

الدليل الخامس للأحناف: استدلوا بحديث أبي هريرة قال: «جَاءَ وَقَدْ تَقَبَّى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؟ فَقَالَ: لَا؛ الْإِيمَانُ مَكْمَلٌ فِي الْقَلْبِ، زِيَادَتُهُ كُفْرٌ وَنَقْصَانُهُ شِرْكٌ»<sup>(٢)</sup>، ووجه الدلالة: قالوا: هذا يدل على أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء، وأن الإيمان

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧٢/٧)، (١٩٨/٧-٢٠٢).

(٢) أخرجه السمرقندي في تفسيره (٢/٢٧٨)، و (٩٩/٢) -تحقيق: محمود مطرجي، وذكره ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٨٥)، وقال الألباني: «ثقة في تحقيقه: (موضوع).

الذي في القلوب، لا يتفاضل، وإنما التفاضل بينهم يكون بالعمل فقط. وأجاب الجمهور بأن هذا الحديث لو صح لكان فاضلاً في النزاع؛ لكن هذا الحديث كما قال الحافظ ابن كثير: «ثقة من رواية أبي الليث السمرقندي، إلى أبي المطيع، إلى أبي المهزم، وقد سئل عنه الشيخ عماد الدين ابن كثير فأجاب بأن الإنسان من أبي الليث إلى أبي المطيع مجهولون لا يعرفون، وأبو المطيع هو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي<sup>(١)</sup>؛ ضعفه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وأبو حاتم الرازي، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، والعقيلي، وابن عدي، والدارقطني، وعمرو بن علي الفلاس، وأما أبو المهزم فقد ضعفه غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج، وقال النسائي: متروك، واتهمه شعبة بالوضع، حيث قال: لو أعطي فلسطين لحديثهم سبعين حديثاً<sup>(٢)</sup>»، فهذا الحديث باطل، بل هو موضوع.

وأهل السنة استدلوا بأدلة كثيرة تدل على أن الأعمال داخلية في معنى الإيمان، منها:

\* قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَبِهِتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِمُ الْمَسْكُونَةُ ۖ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فجعلهم مؤمنين بهذه الأعمال.

\* ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾

(١) هو الحكم بن عبد الله بن مسلم أبو مطيع البلخي الخراساني الفقيه صاحب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. انظر «سان الميزان» (٢/٣٣٤).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/٣٨٥-٣٨٦).





- وكان معاذ بن جبل يقول لرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»<sup>(١)</sup>.
- وكذلك روي مثله عن عبد الله بن رواحة<sup>(٢)</sup>.
- وصحَّ عن عمار بن ياسر أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فِيهِ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانُ: الْإِنْسَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَيَذَلُّ السَّلَامُ لِلْعَالِمِ وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ». ذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً<sup>(٣)</sup>،

- (١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان قبل حديث (٨) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبه في المصنف (١٦٤/٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٥/١)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٢٠/٢-٢١)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٨/١).
- (٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤١٤٨)، عن عبد الصمد حدثنا عمارة عن زياد النميري عن أنس بن مالك قال كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول: «تعال نؤمن برتنا ساعة». فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة. فقال النبي ﷺ: «يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة عليهم السلام». قال الهيثمي في «المجموع» (١٧/١٠): «إسناده حسن». أ. ه. وأخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» (١١١/٢٨)، وعزاه الألويسي في تفسيره (٤٣١/٢) للحكيم الترمذي، عن أبي الدرداء قال: «كان أبو رواحة يأخذ بيدي يقول: تعال نؤمن ساعة».
- وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٠) من طريق عطاء بن يسار أن عبادة بن رواحة قال لصاحب له: «تعال حتى نؤمن ساعة». قال: أولسنا بمؤمنين؟ قال: «بلى، ولكننا نذكر الله فنزداد إيماناً»، مرسلًا، وأخرجه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٣٠٤٢٦) من طريق ابن سابط قال: فذكره، ورواه اللالكائي في «السنن» (١٧٠٨) من طريق شريح بن عبيد، عن عبادة بن رواحة، وقد قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٥٨/٤)، عن أنس ابن رواحة من طريق عطاء، وشريح بن عبيد: «وهذا مرسل من هذين الوجهين...». أ. ه.
- (٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان قبل حديث (٢٨) معلقاً بصيغة الجزم، =

هذه كلها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص.  
فالصواب أن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، وهذا هو الذي عليه الصحابة والتابعون وأهل السنة والجماعة.

= ووصله ابن أبي شيبه في المصنف (١٧٢/٦) ووصله غيره أيضاً. قال ابن حجر «فتح الباري» (٤٦/١): أخرجه أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان من طريق سفيان الثوري، ورواه يعقوب بن شيبه في مسنده من طريق شعبة وزهير بن معاوية وغيرهما كلهم عن أبي إسحاق السبيعي عن صلة بن زفر عن عمار، ولفظ شعبة «ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان» وهو بالمعنى، وهكذا رويته في جامع معمر عن أبي إسحاق. وكذا حدث به عبد الرزاق في مصنفه عن معمر، وحدث به عبد الرزاق بأخره فرقمه إلى النبي ﷺ، كما أخرجه البزار في مسنده وابن أبي حاتم في العلل كلاهما عن الحسن بن عبد الله الكوفي، وكذا رواه البغوي في شرح السنة من طريق أحمد بن كعب الواسطي، وكذا أخرجه ابن الأعرابي في معجمه عن محمد بن الصباح الصنعاني ثلاثتهم عن عبد الرزاق مرفوعاً. واستغربه البزار، وقال أبو زرعة: هو خطأ. قلت: وهو معلول من حيث صناعة الإسناد؛ لأن عبد الرزاق تغير بأخره، وسماع هؤلاء منه في حال تغيره، إلا أن مثله لا يقال بالبرائي فهو في حكم المرفوع، وقد رويته مرفوعاً من وجه آخر عن عمار أخرجه الطبراني في الكبير وفي إسناده ضعف، وله شواهد أخرى يبنيها في «تغليق التعليق». أ. ه. وانظر: «تغليق التعليق» (٣١/١)، وقال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١٤/٢): «صح عن عمار. أ. ه. وقد استغنيا بكلام الحافظ ابن حجر عن عزوه إلى المصادر التي أخرجه، والله الموفق.

ما صح عن الرسول ﷺ من الشرع والبيان: كُلُّهُ حَقٌّ

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: (وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ):

#### الشرح

جميع ما صح من الرسول من الشرع والبيان: كُلُّهُ حَقٌّ، نؤمن به، ونصدق به، ونقبله؛ كتحریم كل ذي ناب من السباع، وتحریم كل ذي مخلب من الطير، وتحریم بيع الولاء وهبته، إلخ غير ذلك مما بينه النبي . والناس لهم في تلقي النصوص طريقتان :

- طريقة أهل السنة.

- وطريقة أهل البدع.

فمنهج أهل البدع: - من الجهمية والمعتزلة والرافضة - يقسمون الأخبار قسمين: متواترة، وآحاد؛ فيقولون: إن المتواتر وإن كان قطعي السند، فهو غير قطعي الدلالة؛ لأن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين والعلم، ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات.

وأما الآحاد فقالوا: إنها لا تفيد العلم واليقين، فلا يحتج بها من جهة منها، كما لا يحتج بها من جهة السند، فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم أحالوا الناس على قضايا وهمية، ومقدمات خيالية سموها «قواطع عقلية، وبراهين يقينية»<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٤/١٤٠١-١٦٤٩).

وأما أهل السنة: فإنهم يتلقون النصوص ويقبلونها، ولا يعدلون عن النص الصحيح، ولا يعارضونه بمعقول من المعقولات ولا يقول فلان؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وخبر الواحد يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة إذا تلقته الأمة بالقبول؛ عملاً به وتصديقاً، وليس بين سلف الأمة في ذلك نزاع، وهو أحد قسمي المتواتر؛ إذ المتواتر قسمان:

- ما رواه جماعة كثيرون يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب إلى أن ينتهي للمخبر عنه، وأسندوه إلى شيء محسوس -كسماع أو مشاهدة، لا اجتهاد-

- والثاني خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول.

والتفصيل في هذا يأتي إن شاء الله فيما بعد.

## تفاوت الناس في الإيمان

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَالْإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ):

## الشرح

• قوله: (وَالْإِيمَانُ وَاحِدٌ):

هذا باطل؛ فالإيمان ليس واحداً، وليس الناس فيه سواء كما قال الشيخ، يقول الأحناف فالقول بأن الإيمان سواء، أن الإيمان أهل السماء وأهل الأرض سواء: هذا من أبطل الباطل؛ فمن يقول: إن إيمان جبريل مثل إيماننا؟! أو إيمان أبي بكر مثل إيمان بعض الناس؟! فقد قال النبي في أبي بكر: «لَوْ وَدِدْتُ إِيْمَانُ أَهْلِ الْأَرْضِ يُؤَيِّمَانُ أَبِي بَكْرٍ لَرَجَحْتُ»<sup>(١)</sup>، فكيف يكون إيمان أهل الأرض سواء؟! بل قال بعض الفسفة: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل، وإيماني كإيمان أبي بكر، وعمر!! وهذا من أبطل الباطل. والصواب أن الناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في الإيمان، فليس إيمان الأنبياء والمرسلين مثل إيمان سائر الناس، وليس إيمان الملائكة مثل إيمان سائر الناس، وليس إيمان الفاسق السكير العريذ، مثل إيمان الصديق<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٦٥٣)، وعبدالله ابن الإمام أحمد في السنة (٨٢١)، وابن راهويه في المسند (٦٦٩/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦) من قول عمر بن الخطاب رحمه الله: «وصحه العراقي في «تخريج الإحياء» (٥١/١) - دار القلم، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (٩٠٨) - دار الكتاب العربي. طبعة أولى، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٣٣٥)، وقد رُوي عن النبي ﷺ، ولا يصح.

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٥٩/٢)، وعلق الشيخ ابن باز على عبارة الطحاوي قائلاً: (هذا فيه نظر، بل هو باطل، فليس أهل الإيمان فيه سواء؛ بل هم =

## التفاضل بالإيمان وأعمال القلوب

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَالْتَفَاضُلُ بَيْنَهُم بِالْحَشِيَّةِ وَالتَّقَى، وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَمُلاَزِمَةُ الْأَوَّلَى):

## الشرح

يقول الطحاوي: التفاضل بين الناس ليس في الإيمان؛ لأن الإيمان هم متساوون فيه، بل التفاضل بين المؤمنين بأعمال القلوب، وأما التصديق فلا تفاوت فيه، وفي بعض النسخ: (وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُم بِالْحَقِيقَةِ، وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَمُلاَزِمَةُ الْأَوَّلَى)، يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق، ولكنهم في التصديق يكون بعضهم أفضل من بعض وأثبت، وهذه العبارة في النسخة الثانية.

وهنا قال: (وَالْتَفَاضُلُ بَيْنَهُم بِالْحَشِيَّةِ وَالتَّقَى)، يعني: لا تفاضل بين الناس في الإيمان، وإنما التفاضل يكون بينهم بأعمال القلوب، وهذا باطل؛ فليس التفاضل بأعمال القلوب فقط، بل التفاضل يكون في نفس التصديق، وفي أعمال القلوب، وفي أعمال الجوارح.

وعلى هذا؛ فهل لهذا الخلاف بين الجمهور وبين الأحناف ثمرة؟

يقول الشارح ابن أبي العز: الخلاف لفظي؛ ليس له ثمرة، قال: لأن جمهور أهل السنة والأحناف اتفقوا على أن الأعمال واجبة، والواجبات

= متفاوتون تفاوتاً عظيماً، فليس إيمان الرسل كإيمان غيرهم، كما أنه ليس إيمان الخلفاء الراشدين وبقية الصحابة ﷺ مثل إيمان غيرهم، وهذا التفاوت بحسب ما في القلب من العلم بالله وأسمائه وصفاته وما شرعه لعباده، وهو قول أهل السنة والجماعة؛ خلافاً للدرجة ومن قال بقرهم، والله المستعان.

واجبات، والمحرمات محرمات، وأن من فعل الواجبات، فقد أدى ما أوجب الله عليه، وهو مثاب ممدوح، ومن فعل المحرمات، فإنه يستحق العيذ، ويقام عليه الحد إذا كان ارتكب حداً، وهو مذموم، لكن الخلاف هل هذه الواجبات من الإيمان؟

قال الجمهور: هي من الإيمان، وقال الأحناف: ليست من الإيمان، فالخلاف لفظي؛ هكذا قال شارح الطحاوية، يعني: أنه لا يترتب علي هذا الخلاف فساد في العقيدة.

ونحن نقول: صحيح أن الخلاف لا يترتب عليه فساد في العقيدة، لكن الصواب أن له آثاراً غير لفظية ترتب عليه؛ من هذه الآثار:

أولاً: أن جمهور أهل السنة والجماعة وافقوا الكتاب والسنة في اللفظ والمعنى، فإن نصوصاً كثيرة أدخلت الأعمال في مسمى الإيمان، أما الأحناف ومرجئة الفقهاء فوافقوا الكتاب والسنة في المعنى وخالفوها في اللفظ، وينبغي ألا يخالف الإنسان النصوص حتى في اللفظ، بل يجب على المسلم أن يتأدب مع كتاب الله وسنة رسول الله، فلا يخالف النصوص لا لفظاً ولا معنى؛ فهذه ثمرة مؤتبرة.

ثانياً: أن هذا يفتح الباب للمرجئة المحضة -وهم الجهمية-؛ حيث يقولون: الإيمان هو المعرفة بالقلب، والأعمال ليست واجبة، والمحرمات ليست محرمات، وهذا إذا صدق بقلبه؛ فلا يضره ترك الواجبات، وفعل المحرمات، وهو مع ذلك مؤمنٌ كامل الإيمان.

الثمرة الثالثة: من آثار الخلاف بين الجمهور والأحناف أن الأحناف والمرجئة المحضة فتحوا باباً للفسقة والعصاة، فدخلوا معهم؛ فلما قال الأحناف: الأعمال ليست من الإيمان؛ قالوا: إن إيمان أهل السماء وأهل

الأرض واحد، وإيمان الأنبياء وإيمان الفساق واحد، فيأتي السكبر العرييد، الذي يفعل الفواحش والمكرات، ويقول: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل، وإيمان أبي بكر وعمر، فإذا قلّ له، أبو بكر يعمل الصالحات ويتجنب المحرمات وأنت تفعل ذلك!! قال: الأعمال ليست محلاً للخلاف، فأنا مصدق وأبو بكر مصدق، وإيماننا واحد، أما كوني أفعل المحرمات، وأترك الواجبات، هذا شيء آخر، لا ارتباط له بالإيمان أصلاً!! فالذين فتحوا هذا الباب لهؤلاء الفسقة الفجرة هم مرجئة الفقهاء.

الثمرة الرابعة: - وهي مهمة - مسألة الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، فمرجئة الفقهاء من الأحناف يقولون: لا يجوز لك أن تستثني؛ لأنَّ استثناءك يعني أنك تشك في إيمانك، وعلى هذا: فمن قال: أنا مؤمن إن شاء الله: فهو شك في إيمانه؛ وهم من أجل ذلك يسمون أهل السنة «الشكّاة».

أما أهل السنة والجماعة فقالوا: المسألة فيها تفصيل، فيجوز الاستثناء في الإيمان في بعض الأحوال دون بعض، فإذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وقصده الشك في أصل إيمانه - وهو التصديق -؛ فهذا ممنوع، أما إذا قال: إن شاء الله، وقصده أن الاستثناء راجع إلى الأعمال لا الإيمان، فهو لا يجوز بأنه أدى كل ما عليه وترك كل ما حرم الله عليه، بل هو محل للتفصيل والنقص، إن قصد ذلك المعنى فلا بأس أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

كذلك إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وقصده تعليق الأمر بمشية الله؛ للتبرك باسم الله؛ فلا حرج.

وكذلك إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وأراد عدم علمه بالعاقبة، فلا بأس.

وبهذا يتبين أن الخلاف بين الأحناف والجمهور له ثمرة<sup>(١)</sup>.

كذلك أيضًا مما يتعلق بالإيمان مسألة الإسلام والخلاف في مسماء،

(١) ما ذكره ابن أبي العزّ بقلّة: من كون الخلاف بين أبي حنيفة والأئمة الباقيين من أهل السنة صوريًا، هو ما قرره شيخ الإسلام بقلّة في مواضع، واتفق كلامهما في تصوير هذا الخلاف الصوري اللفظي، وأنه مع من يقر بأن أعمال الجوارح لازمة للإيمان القلب، وأن انتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، لا مع كل مرجح يخرج العمل عن الإيمان ويراه ثمرة، يبقى إيمان القلب بدونها. وإليك طرفًا من كلام شيخ الإسلام بقلّة:

١- قال بقلّة (٢٠٢/٧): (وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب «الموجز»؛ وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء بكفوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَرُفِعَ صَوْتُهُمْ فِي الْأَعْمَالِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِن هَذِهِ الْأَعْمَالُ لَمْ يَكُنْ مَوْثِقًا لَنَا أَنْتَافَعَهَا دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الْعِلْمِ مِنْ قَلْبِهِ. وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا مِنْ وَجْهِ أَحَدُهَا: أَنْكُمْ سَلِمْتُمْ أَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ لَازِمَةٌ لِإِيمَانِ الْقَلْبِ، فَإِذَا انْتَفَتْ لَمْ يَبْقَ فِي الْقَلْبِ إِيمَانٌ وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ؛ وَبَعْدَ هَذَا فَكُنْهَا لَازِمَةٌ أَوْ جِزْءًا نِزَاعٍ لَفْظِي.

الثاني: أَنْ نَتَّصِفَ صُرُوحًا بِأَنَّهُ جُزْءٌ كَقَوْلِهِ... إلخ).

٢- وقال شيخ الإسلام (٥٧٧/٧): (وقيل لمن قال: دخلوا الأعمال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز: نزاعك لفظي؛ فإنك إذا سلمت أن هذه لوازم الإيمان الواجب، الذي في القلب وموجباته، كان عدم اللازم موجبًا لعدم الملزوم؛ فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن، فإذا اعترفت بهذا كان النزاع لفظيًا. وإن قلت: ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه؛ أنه يستقر الإيمان التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر وترك جميع الواجبات الظاهرة، قيل لك: فهذا يناقض قولك: إن الظاهر لازم له وموجب له بل قيل: حقيقة قولك إن الظاهر يقارن الباطن تارة ويفارقه أخرى فليس بلازم له ولا موجب ومعلوم له ولكنه دليل إذا وجد دلّ على وجود الباطن وإذا عدم لم يدلّ عدمه على عدم وهذا حقيقة قولك).

فالناس اختلفوا في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال<sup>(١)</sup>:

القول الأول: أن الإسلام هو الكلمة، أي الشهادتان، وهذا مروي عن الزهري وبعض أهل السنة.

واحتج هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿لَمْ أَرِكَ الْكَتَبَ الَّذِي أَصْطَفَيْتَ مِنْ عِبَادِي قَوْمًا طَالُوا لِقَائِيهِمْ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ مَا عَمِلُوا﴾، قالوا: فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه، والمقتصد: هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسائق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه.

ووجه نظر الزهري هي: أن من أتى بالشهادتين صار مسلمًا، فيتميز عن اليهود والنصارى، وتجري عليه أحكام الإسلام التي تجري على المسلمين، والزهري لم يرد أن الإسلام الواجب هو الكلمة وحدها؛ فإنه أجل من أن يخضع لذلك، ولهذا فإن أحمد بقلّة في أحد أجوبته لم يجب بهذا؛ خوفًا من أن يظن أن الإسلام ليس هو إلا الكلمة.

وقد رد محمد بن نصر على من قال بهذا القول، فقال: من زعم أن الإسلام هو الإقرار، وأن العمل ليس منه، فقد خالف الكتاب والسنة، فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الإسلام كحديث: «بُني الإسلام على خمس...»<sup>(٢)</sup>، ودُكرت الأعمال الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، وأما الاستدلال بالآية ﴿لَمْ أَرِكَ الْكَتَبَ الَّذِي أَصْطَفَيْتَ مِنْ عِبَادِي﴾

(١) انظر: «تعظيم قدر الصلاة» لمحمد بن نصر (٥٢٩/٢) وما بعدها، و«التبليغ» لابن عبد البر (٢٤٧/٩)، ومجموع الفتاوى (١١٥-١٢٠)، وفتح الباري (١/٥٥)، (١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومن شبههم أنهم قالوا: إن الله سَمَى الإيمان بما سَمَى به الإسلام، وسَمَى الإسلام بما سَمَى به الإيمان؛ كما في حديث جبريل وحديث وفد عبد القيس، فحديث جبريل فسر الإسلام بالأعمال، وفي حديث عبد القيس فسر الإيمان بالأعمال، فإنه سأل ما الإيمان؟ فقال: «الإِيمَانُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَسْرُكُمُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَخُدَهُ، أَتَذَرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَخُدَهُ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ»<sup>(١)</sup>.

وأجيب بأن الإسلام إذا أطلق وحده؛ دخل فيه الأعمال، والإيمان إذا أطلق وحده؛ دخل فيه الأعمال، أما إذا اجتمعا فيفرق بينهما.

ومما يدل على الفرق بين الإسلام والإيمان قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءٌ هَلْ لَمْ تُؤْمَرُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْمَلْنَا﴾ (الحجرات: ١٤) فنفى عنهم الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، وأيضا يشهد للفرق بينهما حديث جبريل؛ فإنه قَرَّعَ بينهما.

وأما اعتراضهم على الاستدلال بآية «الحجرات» فنقول: معنى أسلمنا: أي: انقذنا ظاهراً؛ فهم منافقون في الحقيقة؛ لأن الله نفى عنهم الإيمان، هذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية، وهو جواب البخاري بكثرة.

لكن أجاب الجمهور بأن القول الآخر في الآية هو أرجح من هذا القول، فهم ليسوا منافقين، بل هم ضعفاء الإيمان، وإنما نفى عنهم الإيمان، كما نفاء عن القاتل والزاني والسارق، ومن لا أمانه له.

ويؤيد هذا القول سياق الآية من وجوه:

(١) تقدم تخريجه.

[ناظر: ٣٢٠]؛ فليس فيها ما يدل على أن الإسلام هو مجرد الشهادة، وإنما فيها تقسيم الناس إلى مسلم، ومؤمن، ومحسن، وهذا موافق لحديث جبريل.

القول الثاني: أن الإسلام والإيمان مترادفان، وهذا مروى عن بعض أهل السنة، ويتزعمهم البخاري، وهو أيضاً مذهب الخوارج والمعتزلة.

احتج هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿فَلَرَجَعْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْأُمِّيِّينَ﴾ قَا وَبَدَّلْنَا بِهَا عِبْرَةً لِّبَنِي الْاِنْسَانِ (الذِّرَات: ٣٥-٣٦)، وجه الدلالة أن الله وصفهم بالإيمان والإسلام، وهم أهل بيت واحد، فدل على أنهم مترادفان.

وأجيب بأن الآية لا حجة فيها؛ لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما.

وقالوا: إن حديث جبريل لما سأل النبي عن الإسلام قال: «الإِسْلَامُ أَنْ تُشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(١)</sup>، قالوا: معنى: أن تشهد أن لا إله إلا الله، قالوا: تقدير الكلام: أن تشهد أن شعائر الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، لا مسماء.

لكن يجاب: بأن الأصل عدم التقدير.

ومن أدلته أنهم قالوا: الإسلام والإيمان مترادفان، ثم قالوا: إن إيمان هو التصديق بالقلب؛ فيكون الإسلام هو التصديق، وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة.

(١) أخرجه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وابن ماجه (١٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإن سورة «الحجرات» من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك، وليس فيها ذكر المنافقين.

وكذلك أيضًا ما قبل الآية وما بعدها؛ حيث إن الله - سبحانه وتعالى - أثبت لهم الإيمان والطاعة وقال: ﴿وَإِنْ يُبَيِّنُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكُوا مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤]؛ والمنافقون ليس لهم طاعة، وليس لهم عمل حتى ينقص ثوابهم، ثم قال في آخر الآيات: ﴿يَسْتَوِ عَلَىكَ أَنْ أَسْأَلُكَ﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فثبت لهم الإسلام، ولو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام.

القول الثالث: أن الإسلام هو العمل، والإيمان هو التصديق والإقرار، فالإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة.

واستدلوا بحديث جبريل<sup>(١)</sup> حينما أجاب النبي حين سئل عن الإسلام والإيمان؛ حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأصول الخمسة.

وأجيب بأن هذا عند اقتران الإسلام بالإيمان.

والصواب في المسألة: أن الإيمان والإسلام تختلف دلالتها بحسب الأفراد والاقتران، فإذا أطلق الإسلام وحده؛ دخل فيه الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، وإذا أطلق الإيمان وحده؛ دخل فيه الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، وإذا اجتمعا فُسِّرَ الإسلام بالأعمال الظاهرة، وفُسِّرَ الإيمان بالأعمال الباطنة؛ كما في حديث جبريل، فإن جبريل لما سأل النبي عن الإسلام، فُسِّرَ بالأعمال الظاهرة، ولما سأل عن الإيمان، فُسِّرَ

(١) سبق تخريجه.

بالأعمال الباطنة، هذا هو التحقيق والصواب، وهو الراجح، ومن فهم هذا انجلت عنه إشكالات كثيرة في كثير من المواضع التي حاد عنها كثير من الطوائف عن الحق.

## المؤمنون كلهم أولياء الرحمن

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ):

## الشرح

هذه المسألة هي مسألة: الولاية، وقول الشيخ: فالمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، هذا تقرير مذهب المرجئة؛ لأن الناس عند المرجئة قسمان: مؤمنون؛ وكلهم أولياء الرحمن، وكفار؛ وهم أعداء الله.

وأما جمهور أهل السنة فيقسمون الناس ثلاثة أقسام:

عدو لله كامل العداوة؛ وهو الكافر.

ثانيًا: مؤمن ولي لله كامل الولاية؛ وهو المؤمن المطيع، الذي أدى الواجبات، وانتهى عن المحرمات.

ثالثًا: ولي لله بوجه، وعدو لله بوجه؛ وهو المؤمن العاصي، فهو ولي الله بحسب ما فيه من الإيمان والطاعات، وعدو لله بحسب ما فيه من المعاصي والتقصير في الواجبات.

والذي عليه أهل السنة والجماعة هو الصواب.

(وهل تتجمع الولاية والعداوة في الشخص الواحد؟)

الجواب: نعم، وهذا أصل عظيم عند أهل السنة، وهو اجتماع الولاية والعداوة في الشخص الواحد، فيكون المؤمن وليًا لله من وجه، وعدوًا لله من وجه.

وهذه المسألة فيها نزاع لفظي بين أهل السنة وبين الجمهور، وفيها نزاع منوي بين أهل السنة وأهل البدع.

فالنزاع اللفظي بين الجمهور والأحناف: الجمهور يقولون: العاصي عدو لله من وجه، وولي لله من وجه.

والأحناف يقولون: هو ولي لله، لكن المعاصي يعاقب عليها ويذم عليها.

أما النزاع المعنوي بينهم وبين أهل البدع؛ فإنه يترتب عليه فساد في الاعتقاد، فأهل السنة يقولون: العاصي وإن كان عدوًا لله من وجه إلا أنه لا يخرج من الإيمان، أما الخوارج فيقولون: العاصي يخرج من الإيمان، ويدخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان، ولا يدخل في الكفر؛ فيكون في منزلة بين المنزلتين، والمرجئة المحضة يقولون: العاصي كامل الإيمان والولاية، حتى لو فعل الكبائر ونواقض الإسلام، إلا إذا جهل ربه بقلبه، والتفصيل في هذا يأتي إن شاء الله.

وقول الطحاوي رحمه الله هنا هو مذهب مرجئة الفقهاء، ولكن خالفهم جمهور أهل السنة في هذا الأصل كما سبق.

فالناس يتفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، والولاية لم يتساو الناس في أصلها، فهي نظير الإيمان في أصله، بل الولاية تزيد وتنقص، وتكون كاملة وناقصة، فالمطيع تزيد ولايته وتقواه، والعاصي تنقص ولايته وتقواه، كما أن الإيمان يزيد وينقص، فالمطيع يزيد إيمانه ويقوى، والعاصي ينقص إيمانه ويضعف، كما أن الناس يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق؛ لأن الإيمان على مراتب؛ إيمان دون إيمان، والكفر على مراتب؛ كفر دون كفر، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وبحسب إيمان العبد وتقواه، تكون ولايته لله، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى كان أكمل ولاية لله.



والأعمال داخلة في معنى الإيمان، والأعمال داخلة في معنى الكفر أيضاً، واستدل جمهور أهل السنة على هذا بأدلة كثيرة؛ منها:

قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [زبور: ١٠٦]؛ فأثبت لهم إيماناً مع الشرك، والمراد بالشرك: الذي لا يخرج من الملة؛ وهو الأصغر، فدل على اجتماعهما في المؤمن.

ومنها قوله تعالى: ﴿قَالِيَ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم، فدل على اجتماعهما، والمراد بالإيمان المنفي عنهم الإيمان المطلق، الذي هو الكامل الذي يستحقون به الوعد الكريم؛ من دخول الجنة، والنجاة من النار، وإن كان معهم أصل الإيمان الذي يخرجهم من الكفر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا مَا أُولَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَئِذَا كُنَّا فِئَةً لِّسَنًا فَأَنَّا أَكْثَرُ مِمَّا نُسَبِّحُ بِهَا وَهُمْ لَا يَخْتَفُونَ لَهَا﴾ [الأنعام: ١٢٤-١٢٥]؛ فدل على اجتماعهما، والمراد بالشرك: الذي لا يخرج من الملة؛ وهو الأصغر، فدل على اجتماعهما في المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]؛

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ [البقرة: ٢٦]؛

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ [البقرة: ٢٦]؛

وقوله تعالى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ [البقرة: ٢٦]؛

وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]؛

فهذه الأدلة تدل على تفاضل الناس في الإيمان، وفي الكفر، والنفاق،

الذي هو مبنئ على تفاضلهم في ولاية الله، وفي تفاضلهم في عداوة الله، وأن الشخص الواحد قد يكون فيه تسط من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وقسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه.

ومن الأدلة ما في «الصحاحين» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي أنه قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْمِنَ حَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»<sup>(١)</sup>، فدل على أن من الناس من يكون معه إيمان، وفيه شعبة من النفاق.

ومنها: قوله عليه السلام: «يُخْرِجُ مِنَ السَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ شِقَاقٌ دَرَّةٌ مِنْ إِيْمَانٍ»<sup>(٢)</sup>، فدل على أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لا يخلد في النار. وإن كان معه الكثير من النفاق؛ فهو يعذب في النار على قدر ما معه من النفاق، أو الشرك، أو الكفر، ثم يخرج من النار، والمراد من الكفر، والنفاق، والشرك؛ الأصغر، أما الأكبر من هذه الأنواع؛ فإنه ينافي الإيمان.

ومنها: ما ثبت في «الصحاحين» أنه قال لأبي ذر: «إِنَّكَ أَمْرٌ فَيْكٌ جَاهِلِيَّةٌ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْلَى كَيْفٍ يَسْنِي؟ قَالَ: نَعَمْ»<sup>(٣)</sup>، وأبو ذر من

- (١) أخرجه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨) عن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
- (٢) أصله عند البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٣) عن حديث أبي سعيد الخدري. وأما هذا اللفظ فقد أخرجه الترمذي (٢٥٩٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وهو عند عبد الرزاق في «التفسير» (١٦٠/١)، وقد أخرجه عن عبد الرزاق في «ابن الإمام أحمد في السنة» (٧٩٤).
- (٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١)، عن أبي ذر رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «إِنَّكَ أَمْرٌ فَيْكٌ جَاهِلِيَّةٌ قُلْتَ عَلَى حِينٍ سَاعَتِي هَذِهِ، مِنْ كَيْفٍ السَّنْ؟».

ختيار المؤمنين، ومع ذلك صار فيه شيء من الجاهلية.

- ومنها: ما ثبت في «الصحیح» عنه أنه قال: «أَزْعَجٌ فِي أَمْتِي مِنْ أَثَرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتَزَكُّونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالظُّلْمُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاِسْتِغْنَاءُ بِالْجَنُومِ وَالنِّجَاحَةُ»<sup>(١)</sup>، فدل على وجود هذه الخصال في المؤمنين من هذه الأمة.

- ومنها: ما ذكره البخاري عن ابن أبي مليكة أنه قال: «أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ»<sup>(٢)</sup>.

- ومنها ما في «الصحیحین» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي أنه قال: «إِنَّهُ السُّافِرِيُّ ثَلَاثًا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا الْوُثْمَنَ خَانَ»<sup>(٣)</sup>، وفي «صحيح مسلم»: «وَلِنْ صَامَ وَصَلَّى وَرَعِمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»<sup>(٤)</sup>؛ فدل على أنه يكون في المؤمن نفاق، وأنهما قد يجتمعان في المؤمن؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْبَغْتُكُمْ يَوْمَ الْاْتَمَعَانِ فَإِذَنْ أَنَّهُ وَلَيْعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلَيْعَلَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَيَلْ لَّيْلَ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةً أَفْوَاحًا بَلْ كُنْتُمْ شَكُوكًا فَلَوْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ فَجَعَلْنَا هَؤُلَاءِ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِسْلَامِ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧] فجعلنا هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان، وهم مخلطون، وكفرهم أقوى؛ وغيرهم

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً تحت باب: (خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) قبل حديث (٤٨) بصيغة الجزم، ووصله الخلال في السنة (١٠٨١)، والحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥٢/٢-٥٣)، وعزاه أيضاً إلى ابن أبي خيثمة في تاريخه، وإلى محمد بن نصر المروزي، وكذا عزاه إليهما العيني في «عمدة القاري» (٢٧٥/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٤) هي رواية لمسلم (٥٩) للحديث الذي قبله.

يكون مخلطاً، وإيمانه أقوى.

فهذه الأدلة كلها تدل على أنه يجتمع في الشخص الواحد شيء من شعب الإيمان، ومن شعب الكفر، ومن شعب النفاق، فيكون عدواً لله بحسب ما فيه من الشعب، ويكون ولياً لله بحسب ما فيه من الإيمان.

أما النزاع بين أهل السنة -جمهورهم وأحافهم- مع أهل البدع فنزاع معنوي، لكن أهل البدع اختلفوا:

فذهب الخوارج والمعتزلة إلى أن من ارتكب كبيرة أو قامت فيه شعبة من شعب الكفر؛ حبط إيمانه كله، ويخلد في النار، لكن قال الخوارج: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، وقالت المعتزلة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، بل هو في منزلة بينهما؛ يسمى فاسقاً، لا مؤمناً ولا كافراً.

وذعبت المرجئة الغلاة إلى أن الكبائر وشعب الكفر لا تضر مع الإيمان ولا تؤثر فيه، بل المؤمن كامل الإيمان والتوحيد، فهو كامل الولاية، ولا يضره ارتكابه للكبائر وشعب الكفر شيئاً، بل الناس قسمان مؤمن كامل الإيمان والولاية، أو كافر كامل الكفر والعداوة.

وأصل شبهة أهل البدع عموماً<sup>(١)</sup>: أن الإيمان شيء واحد، فلا يزول

(١) قال شيخ الإسلام في «مناهج السنة» (٥٤٣-٥٤٤/٤): (ومن سلك طريق الاعتدال؛ عظم من يستحق التعظيم، وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه؛ فيعظم الحق، ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيُحمد ويُذم، ويُثاب ويُعاقب، ويُحب ومن وجهه، ويُبغض من وجهه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم، وقد يُسقط هذا في موضعه). انتهى. وانظر: (مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٩).

بعضه ويبقى بعضه، ولا يزيد ولا ينقص، بل إذا زال؛ زال جميعه، وإذا ثبت؛ ثبت جميعه؛ لأنه حقيقة مركبة المركبة، والحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها. لكن الخوارج والمعتزلة يقولون: الإيمان يتبعض ويتعدد، لكنه شيء واحد إذا زال بعضه؛ زال جميعه، وهو جماع الطاعات كلها .

وقالت المرجئة المحضة الكرامية والجهمية والماتريدية: الإيمان لا يتبعض ولا يتعدد، بل هو شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، ولا يذهب بعضه ويبقى بعضه؛ لأنه في القلب فقط.

وذهب مرجئة الفقهاء إلى أن الإيمان متعدد ومتبعض، لأنه تصديق وقول، لكنه شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص؛ إذ هو في القلب واللسان، وإذا ذهب بعضه ذهب جميعه، وذهب جمهور أهل السنة والسلف: إلى أن الإيمان متعدد، وليس شيئاً واحداً؛ لأنه قول وتصديق وعمل بالجوارح؛ يزيد وينقص، ويزول بعضه ويبقى بعضه، ويجتمع في القلب إيمان وكفر، وطاعة ومعصية. وبهذا انفصلوا عن جميع الطوائف، وبهذا يتبين أن نزاع أهل البدع عمومًا مع أهل السنة؛ نزاع معنوي، يترتب عليه فساد في الاعتقاد والله أعلم .

فالصواب أن المؤمنين قسمان: قسم ولي الله كامل الولاية، وهو المطيع، وقسم عدو الله من وجه، وولي الله من وجه، وهو المؤمن العاصي، خلافاً لما قاله الطحاوي رحمه الله.

## أكرم المؤمنين عند الله

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتَّبِعُهُمُ لِلْقُرْآنِ):

### الشرح

أكرم المؤمنين أطوعهم وأتبعهم للقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لَا قُضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١١/٥)، وابن عساكر في «معجمه» (١٠٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٤٧٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٧) وقال: «في إسناده بعض من يجهل»، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠٠/٣). من طريق سعيد الجبري عن أبي نضرة حدثني من سمع: خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، ثم قال أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال ثم قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فإن الله قد حَرَّمَ بينكم دماءكم وأموالكم -قال- ولا أدري قال: أو أعراضكم أم - لا كحرمه يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال: ليبلغ الشاهد الغائب، وهذا سياق أحمد. وقد سقى الصحابي في رواية أبي نعيم، والبيهقي: جابر رضي الله عنه.

قال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن الجبري، إلا أبو المنذر الوراق، لا يروى عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد» ١ هـ.

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث أبي نضرة عن جابر لم نكتبه إلا من حديث أبي قلاية عن الجبري عنه» ١ هـ.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٤٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» ١ هـ. وقال البوصيري في «تحف الخيرة» (٢٦١٤): «رواه مسند، ورجاله =

وفي لفظ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ وَلَا لِأَيُّمَنَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»<sup>(١)</sup>، أو كما جاء في الحديث، فلا شك أن أكرم الناس عند الله أتقاهم وأكثرهم إيماناً وأتباعاً للقرآن ولللسنة.

### أركان الإيمان

◆ قال المؤلف: كَلَّمَ: «(وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ وَخُلُوعُهُ وَمُرُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى):

#### الشرح

هذه أركان وأصول الإيمان، كما جاء في حديث جبرائيل لما سأل النبي عن الإيمان، قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ خُلُوعُهُ وَمُرُّهُ مِنَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>، فمن لم يؤمن بهذه

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٥٨١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٤١) بعد أن عزاه للطبراني في «الكبير»: «... رجاله موثقون»، وأخرجه ابن حبان في «الصحيح» (١٦٨)، عن الحسن بن سفيان، عن محمد بن المنهال الضري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا كهس بن الحسن، عن عبد الله بن بريدة، عن يحيى بن يَعْمَرٍ، قال: خرجت أنا وحديد بن عبد الرحمن الجفيري، فذكر قصة لقيهما ابن عمر، وفيه موضع الشاهد. وهذا إسناد صحيح. وقد أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٧٠)، عن الحسين بن عيسى البسطامي، ومحمد بن يحيى، كلاهما عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الركين بن الربيع، عن يحيى بن يعمر، وعن عطاء بن السائب، عن ابن بريدة، عن يحيى بن يعمر، فذكر القصة. ورواه بحشل في «تاريخ واسط» (ص ١٢٣-١٢٤). ثنا زكريا بن يحيى قال ثنا شريك، عن حسين، عن حسن الكندي، عن ابن بريدة قال حججبت أنا ويحيى بن يعمر، فذكره.

وأخرجه اللالكائي في «السنن» (١٠٣٨)، من طريق محمد بن هارون الروياني، ثنا أبو سعيد الأشج قال ثنا محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة قال: «قدمنا المدينة فأقننا عبد الله بن عمر» فذكر القصة، وفيها موضع الشاهد.

= ثقات، وأحد بن حنبل، والحاثر. اهـ.

وقال الهيثمي (٤٠١/٧): وعن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم واحد وأياكم واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى». اهـ.

رواه الطبراني في «الأوسط»، والبخاري بنحوه إلا أنه قال: «إن أياكم واحد وإن دينكم واحد، أياكم آدم، وأدم خلق من تراب». ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ. وصححه ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٤٤/١). وكذا الألباني كَلَّمَ، في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/١٨)، وضعف إسناده الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٩٥).

الأصول، أو ترك واحداً منها، أو من جحد واحداً منها؛ خرج من دائرة الإيمان، ودخل في دائرة الكافرين. ويتبع هذه الأصول جميع شرائع الإسلام، فكل ما جاء به الكتاب والسنة، لا بد من العمل.

### وجوب الإيمان بجميع الرسل

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلُّوْ، لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ):

#### الشرح

هكذا شأن المؤمن؛ يؤمن بجميع ما جاء في الشرع، وبجميع الرسل، وبجميع الكتب، وبجميع الملائكة: ﴿لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ويؤمن أن البعث والنشور حق، والجنة والنار حق، وأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة حق، ومحمد حق.

= وأخرجه ابن منده في «الإيمان» (٧)، عن محمد بن محمد بن يونس، ثنا أحمد بن مهدي، ثنا محمد بن المنهال الضرير، ثنا يزيد بن زريع، ثنا كهمس بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر.  
ورواه أيضاً عن أحمد بن إسحاق بن أيوب، ثنا أبو المثنى معاذ بن المثنى، ثنا محمد بن المنهال به.  
وأخرجه الأجرى في «الشرعية» (٢٠٨) من طريق الحسن الزعفراني، ثنا يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، عن محارب بن دثار، عن ابن عمر.  
وأخرجه السبكي في «طبقات الشافعية» (١٠٣/١-١٠٤)، من طريق محمد بن مسلمة الواسطي، عن يزيد بن هارون، أخبرنا شريك، عن الركين بن الربيع، عن يحيى بن يعمر، وعن عطاء بن السائب، عن ابن بريدة قالاً: «حَبَّيْتُنَا...» فذكره، وفيه موضع الشاهد.  
والحديث أصله في «مسلم» (٨)، وقد أسنده عن أبي خيثمة: زهير بن حرب، عن وكيع، عن كهمس، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر، وأسنده أيضاً عن عبيدالله بن معاذ العبدي، عن أبيه، عن كهمس، بالإسناد السابق، وساق الرواية من هذا الوجه، لكن قال: «وتؤمن بالقدر خيره وشره». وساقه عن يحيى بن يعمر بأسانيد أخرى، ولم يسق ألفاظها.

التصديق بكل ما جاءت به الرسل

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَصَدَّقْتُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى مَا جَاءُوا بِهِ):

الشرح

الإيمان يدعو صاحبه إلى أن يصدق ما جاء به الرسل، فلا بد من الإيمان بذلك كله.

أهل الكبائر إذا ماتوا على التوحيد لا يخلدون في النار

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَأَهْلُ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمِّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ):

الشرح

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة؛ أن أهل الكبائر إذا ماتوا لا يخلدون في النار، بل هم تحت مشيئة الله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن الشرك غير مغفور، وما دون الشرك فهو تحت المشيئة، ومحل النزاع في هذا هو الكبيرة التي مات عليها صاحبها من غير توبة، أما الكبيرة التي تاب منها فليست محل نزاع؛ فمن تاب: تاب الله عليه، والتوبة تجب ما قبلها، فمن تاب قبل الموت توبة صدوقاً نصوحاً قبل الله توبته عامة. ولا بد في التوبة من أداء حقوق الناس.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَبْنَؤُا لَّيْنِ أَمَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٣]؛ أجمع العلماء على أن هذه الآية في التائبين، أما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه في غير التائبين، لأن الله - سبحانه وتعالى - خص الشرك بعدم المغفرة، وعلق ما دونه بالمشيئة، أما الآية السابقة في سورة «الزمر»، فإن الله أطلق وعمم؛ فدل على أنها في التائبين.

والمسلم إذا اجتنب الكبائر، وأدى الفرائض: كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ الصَّغَائِرَ؛ فضلاً منه وإحساناً، قال سبحانه: ﴿إِنْ جَاهِدْتُمْ عَنْ كِبَارِهِ مَا يَنْهَى عَنْهُ مُكُونُ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» [النبت: ٣١] يعني: الصغائر، ﴿وَلَذَلِكُمْ تَدْحَلُونَ﴾ [النبت: ٣١]، أما الكبيرة فإذا مات عليها من غير توبة، فهو تحت مشيئة الله، قد يغفر له وقد لا يغفر.

(لكن ما هي الكبيرة التي إذا مات الإنسان عليها من غير توبة صار مُتَوَعِّدًا بالنار؟)

اختلف العلماء في تحديد الكبيرة، فقال بعض العلماء: الكبائر سبع، وقال بعضهم: سبعة عشر، وقال بعضهم: الكبائر سبعون، وقيل: سبعمائة، وقيل: لا تُعلم الكبيرة أصلاً، وقيل: إنها أخفيت كليلة القدر، وقيل: سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وقيل: الكبيرة ما انتفعت الشرائع على تحريمه، وقيل: الكبيرة هي ما يسد باب المعرفة بالله، وقيل: الكبيرة ما فيه ذهاب الأموال والأبدان، وقيل - وهذا هو الصواب - : الكبيرة هي ما يترتب عليها حدٌ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو اللعنة، أو الغضب، والحق بعضهم نَقَى الإيمان، أو ما قيل فيه: ليس منا<sup>(١)</sup>، أو برئ منه النبي.

وأما الصغيرة، فقيل: ما دون حد الدنيا وحد الآخرة، وقيل: الصغيرة كل ذنب لم يُختم بلعنة، أو غضب، أو نار، وقيل: الصغيرة ما ليس فيه حدٌ في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة، وهذا أرجح الأقوال.

#### الدليل على أنه هو الراجح:

أولاً: أن هذا التعريف هو المأثور عن السلف؛ كابن عباس<sup>(٢)</sup>، وابن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥١١/٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢١٥)، عن ابن عباس قال: «كل ما وعد الله عليه =

عينة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.

ثانياً: أن الله تعالى قال: ﴿إِنْ تَحِبَبْتُمْ كَبِيرًا مَا لَبِثُوا عَنْهُ نَكْفَرًا﴾ [النبت: ٣١]، ولا يستحق هذا الوعد الكريم من أُوعد بغضب الله، ولعنته، وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد؛ لم تكن سيئاته مُكْفَرَةً باجتناب الكبائر.

ثالثاً: أن هذا التعريف متفقٌ من خطاب الشارع، فهو ضابط مرده إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب.

رابعاً: أن هذا الضابط يمكن التفريق به بين الكبائر والصغائر.

خامساً: أن هذا الضابط يسلم من القواعد الواردة على غيره، فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص<sup>(١)</sup> أنه كبيرة؛ كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ مما فيه حد في الدنيا،

= النار كبيرة.

وأخرج ابن جرير (٤١/٥)، عن ابن عباس قال: «الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وذكر الحافظ في «الفتح» (١٨٤/١٢) أن إسماعيل القاضي روى عن أبي سعيد مرفوعاً: «الكبائر كل ذنب أدخل صاحبه النار»، لكن في سنده ابن لهيعة. وأشار إلى أن إسماعيل القاضي أخرجه عن الحسن البصري بسند صحيح أنه قال: «كل ذنب نسب الله تعالى إلى النار؛ فهو كبيرة».

(١) من أدلة ذلك: ما رواه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموفقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وأخرج البخاري (٢٦٥٣) واللفظ له، ومسلم (٨٨) عن أنس ؓ قال سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور».

ونحو ذلك، كالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وغير ذلك مما فيه وعيد في الآخرة .

أما التعريفات السابقة، فكلها مُتَّبَعَةٌ:

- فمن قال: إن الكبائر سبع، أو سبعة عشر، أو سبعائة، أو سبعون، نقول: هذا مجرد دعوى وتحكّم لا دليل عليه.

- ومن قال: إن الكبيرة لا تُعلم أصلاً، أو إنها مبهمة، أو إنها أخفيت كلبلة القدر، نقول: إنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره.

- ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، فإنه يقتضي أن الذنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر، وهذا فاسد؛ لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر.

- ومن قال: الكبيرة هي ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت، يقتضي أن شرب الخمر، والفرار من الزحف، والتزويج ببعض المحارم، والمَحَرَّمُ بالرضاعة والصهرية، ونحو ذلك؛ ليس من الكبائر، مع أنها من الكبائر؛ لأن الشرائع لم تتفق على تحريمها، وأن سرقة الحَبَّة من مال اليتيم، والكذب الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر باتفاق الشرائع على تحريمها؛ مع أنها من الصغائر، وهذا فاسد .

- ومن قال: الكبيرة ما سد باب المعرفة بالله، أو قال: الكبيرة ذهاب الأموال والأبدان، فإنه يقتضي أن شرب الخمر، وأكل الخنزير والميتة، والدم، وقذف المحصنات؛ ليس من الكبائر مع أنها من الكبائر.

وقد يقتزن بالكبيرة من الحياء والخوف والاستعظام لها، ما يُلْجِفُهَا بالصغيرة، وقد يقتزن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها، ما يُلْجِفُهَا بالكبيرة، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه.

● وقول الطحاوي: (وَأَهْلُ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ):

ناقشه ابن أبي العز<sup>(١)</sup> فقال: قوله: (مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ) يدل على أن أهل الكبائر قبل أمة محمد يعذبون في النار، وهذا ليس عليه دليل، بل النصوص دلت على أن أهل الكبائر من هذه الأمة، وغير هذه الأمة؛ لا يخلدون في النار.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٦٥٠-٦٥٥)، وفتح الباري» (١٠/٤١٠)، (١٢/١٨٢)، وشرح الطحاوية» (٢/٥٢٥).



الموت على التوحيد شرط لعدم خلود أهل الكبائر في النار  
 ◆ قال المؤلف رحمه الله: (إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا  
 تَائِبِينَ):

### الشرح

هذا قيد لا بد منه؛ فلا بد أن يكون صاحب الكبيرة قد مات على التوحيد، أما من مات على الشرك، فهذا قد سُدَّ في وجهه باب الرحمة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، والجنة عليه حرام كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ يَأْتِ بِفَقْدٍ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [النساء: ٧٢].

لكن من مات على التوحيد؛ غير مشرك، لكن مات على كبيرة من غير توبة؛ كمن مات على الزنا ولم يتب، أو مات على السرقة ولم يتب، أو مات وهو يتعامل بالربا ولم يتب، أو مات على عقوق الوالدين، أو مات على قطيعة الرحم، أو مات على الغيبة والنميمة ولم يتب من كل ذلك؛ فهذا هو الذي تحت المشيئة، بشرط ألا يستحل شيئاً من تلك المحرمات، يعني يعلم أن الزنا حرام، لكن غلبته الشهوة، ويعلم أن الربا حرام لكنه فعل الربا حيا للمال، أما من استحل الربا، أو الزنا، أو عقوق الوالدين؛ فهذا كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله في تحريم هذه الأشياء.

المعرفة الكاملة لله المستلزمة للاهتمام

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ مُؤْمِنِينَ):

### الشرح

كلمة «مؤمنين» الصواب أنها ليست موجودة في قول الطحاوي، وقوله: «بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ»، انتقد فيها ابن أبي العز<sup>(١)</sup> الطحاوي، قال: لأن معناه أنَّ المعرفة تكفي في هذا المقام، ولكن المعرفة لا تكفي وحدها، لأن من عرف الله ولم يؤمن به؛ فهو كافر. وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها؛ الجهم. فالصواب أنه: لا بد من المعرفة مع الإيمان، ولو قال الماتن: (بعد أن لقوا الله مؤمنين) لكان أصح .

ولكن أجاب الشارح عن هذا الاعتراض؛ قال: لعله يريد المعرفة التامة التي تستلزم الهداية.

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/٥٢٤).

## أهل الكبائر من أهل الإيمان والتوحيد تحت مشيئة الله

◆ قال المؤلف رحمته: (وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ عَقَرَهُمْ وَعَقَّا عَنْهُمْ يَضْلُو كَمَا ذَكَرَ ﷻ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَتَغَيَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]:

### الشروح

لا شك أن من مات على كبيرة من غير توبة وكان من أهل الإيمان والتوحيد؛ فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء الله غفر له بتوحيده وإيمانه وإسلامه، وأدخله الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَتَغَيَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، وإن شاء ربنا سبحانه عذبه في النار على قدر جرائمه. وقد تواترت النصوص بأنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر يعذبون فيها، وهم من أهل الصلاة، وأن النار لا تاكل موضع السجود من جباههم، ويمكنوا فيها ما شاء الله، وبعضهم يطول مكثه بسبب شدة جرائمه وكثرتها، ويخرجون منها بشفاعة الشافعين .

وقد ثبت أن نبينا يشفع أربع مرات، في كل مرة يحد الله له حداً فيخرجهم من النار، وثبت أن بقية الأنبياء يشفعون، والملائكة يشفعون، والشهداء يشفعون، وسائر المؤمنين يشفعون، والأفراد يشفعون، وتبقى بقية لا تنالهم الشفاعاة، فيخرجهم رب العالمين برحمته، يقول الرب تعالى: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا آزَحَمُ الرَّاجِحِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُجَرِّمُ فِيهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»<sup>(١)</sup>؛

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعاة الطويل.

يعني: زيادة عن التوحيد والإيمان، ولا يبقى في النار أحد من المؤمنين، لكن بعضهم قد يطول مكثه، مثل القاتل، فقد أخبر الله أنه مخلص؛ فخلود العصاة له نهاية، أما خلود الكفرة فلا نهاية له، فإذا تكامل خروجُ عصاة الموحدين من النار؛ أُطبقت النارُ على الكفرة بجميع أصنافهم، فلا يُخرجون منها أبد الآباد؛ بجميع أصنافهم؛ اليهود، والنصارى، والوثنيون، والملاحدة، والزنادقة، والمنافقون؛ كلهم في الدركات السفلى من النار، ولا يخرجون منها أبد الآباد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنْ النَّارِ وَمَا لَهُمْ بِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ [النساء: ٢٣٧]، وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَفْعَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [النِّسَاء: ١٦٧]، وقال سبحانه: ﴿لَيَبْقَيْنَ فِيهَا آخَافًا﴾ [النِّسَاء: ٢٣٣]، وقال سبحانه: ﴿كَلِمَاتٍ خَتَّ يَدُكُنَّاهُمْ سَوِيرًا﴾ [الزمر: ٤٧].

وأما عصاة الموحدين، فإنهم إذا خرجوا فحماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة، فينبئون كما تنبت البجّة - يعني البذرة في حميل السيل -، فإذا هُذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة<sup>(١)</sup>،

(١) هذا معنى الحديث الذي أخرجه البخاري (٨٠٦) ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونه سحب. قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة. فيقول: من كان يعبد شيئاً؛ فليتبّع؛ فمنهم: من يتبع الشمس ومنهم: من يتبع القمر، ومنهم: من يتبع الطواغيت ويتبع هذه الأمة فيها مناقرها؛ فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا؛ فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا بالرسول، وكلام الرسول يومئذ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم. قال: فإنها مثل شوك السعدان؛ غير أنه =

ويكتب في جباههم «الجهنميون عتقاء الله من النار»<sup>(١)</sup>، ثم بعد مدة تمحى هذه الكتابة.

= لا يعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم؛ فمنهم: من يوق بعمله، ومنهم: من يخرول، ثم ينجر حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله؛ فيخرجونهم ويعرفونهم بأثار السجود، وجرم الله على النار أن تأكل أثار السجود؛ فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثار السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا؛ فيصب عليهم ماء الحياة؛ فينبون كما تنبت الحبة في حبل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار قد تشبني ريحها، وأحرقني ذكائهما فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك فيعطى الله ما يشاء من عهد وميثاق؛ فيصرف الله وجهه عن النار؛ فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدمني عند باب الجنة؛ فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت؟ فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك، فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله - عز وجل - منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمر، فيتمشي حتى إذا انقطع أمشيته، قال الله - عز وجل - من كذا وكذا أقبل يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأمانى، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه، قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله لك ذلك ومثله معه، قال أبو سعيد: إني سمعته يقول ذلك لك وعشرة أمثاله. ١ هـ.

(١) أصله في الصحيحين، ولفظ أحمد (١٤٤/٣): «ويكتب بين أعينهم هؤلاء عتقاء الله - عز وجل - فيذهب بهم فيدخلون الجنة فيقول لهم أهل الجنة هؤلاء =

أهل الكبائر بين فضل الله تعالى وعذله

◆ قال المؤلف رحمته الله: (وَأِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَذَلِهِ):

### الشرح

إن شاء الله سبحانه وتعالى غفر لهم بتوحيدهم وإيمانهم؛ فضلاً منه وإحساناً، وإن شاء عذبهم بعذله وحكمته، ولكن إذا عذبهم وماتوا على التوحيد لا يخلدون، بل لا بد أن يخرجوا ولو طال مكثهم.

= الجهنميون فيقول الجبار بل هؤلاء عتقاء الجبار - عز وجل -، وصحح إسناده الألباني في «ظلال الجنة» (ص ٣٩٣).

خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وبرحمة الله

◆ قال المؤلف رحمته: (ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ):

الشرح

الشَّافِعُونَ: هم الأنبياء، والملائكة، والشهداء، وسائر المؤمنين، وتبقى بقية لا تنالهم الشفاعة، يُخْرِجُهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِرَحْمَتِهِ.

دخول أهل الكبائر الجنة

◆ قال المؤلف رحمته: (ثُمَّ يَدْخُلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ):

الشرح

يعنيهم الله إلى الجنة بعد أن ينتوا، ويهذبوا، وينقوا.

الله تولى أهل الإيمان به

◆ قال المؤلف رحمته: (وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِ):

الشرح

وفي نسخة: (وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِتِهِ)؛ وهذا منتقد كما سبق؛ فالجهنم هو الذي اكتفى بالمعرفة وَخَذَهَا وَلَوْ قَالَ: (وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَوَلَّى أَهْلَ الْإِيمَانِ بِهِ) لكان أحسن؛ لأن إبليس عارف بربه، وفرعون عارف بربه، ومع ذلك كانا كافرين؛ فلا تكفي المعرفة. ولكن قد يجاب على ذلك بأنه لعله يريد المعرفة التامة.

الله تعالى ما جعل المؤمنين كأهل الجهل به

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلٍ نَكْرَتِهِ):

#### الشرح

يعني: ما جعل الله المؤمنين كأهل الجهل به، وكذلك قوله: (كأهل) - نكرة - منتقذ، ولو قال: (كأهل الكفر به) أو: (كأهل الشرك به)؛ لكان أحسن؛ لأن الكفر ليس هو الجهل فقط، كما يقوله الجهم، فالكفر يكون بالجهل، وبغير الجهل، كما سبق تفصيله.

أعداء الله خابوا من هدايته

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلٍ نَكْرَتِهِ الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ):

#### الشرح

وهؤلاء لم يهدم سبحانه وتعالى؛ لحكمة بالغة، وهو الحكيم العليم سبحانه.

خذلان أعداء الله بعدم نيل ولايته

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَمْ يَتَّأَلُوا مِنْ وَلَايَتِهِ):

#### الشرح

أعداء الله ليسوا أوليائه، بل هم أعداؤه، إن أوليائه إلا المتقون، وأما أولئك فقد خابوا من هدايته، ولم يتألوا ولايته، فخذلهم - سبحانه وتعالى - لحكمة بالغة؛ لما يعلمه فيهم، من أنهم ليسوا أهلاً للاهتداء، وليسوا محلاً لغرس الكرامة.

الدعاء بالثبات على الإسلام

♦ قال المؤلف رحمه الله: (اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ تَبَيَّنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَلْقَاكَ بِهِ):

#### الشرح

هذا الدعاء قال بعضهم: إنه ثابت، وقال بعضهم: إنه موضوع، ولكن الصواب أن له أصلاً<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦٦١ - تحقيق طارق عوض الله، ومن طريقه الضياء في «المختار» (٢٢٩٠)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٩٦٥) - المطالب العالمة، وزاد الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٣)، ينسبته إلى «الفوائد المنتقاة من أصول سماعات الرئيس أبي عبد الله الثقفي» (١/١٦٥)، والحديث من رواية أنس، وقد قال الهيثمي بعد أن عزاه إلى «الأوسط»: «ورجاله ثقات» [مجمع الزوائد] (١٧٦/١٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٣).

### الصلاة خلف البر والفاجر

قال الإمام الطحاوي رحمه الله (وَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ):

#### الشَّرح

قبل بيان حكم الصلاة خلف البر والفاجر، ننُبهُ على مسألة مرت من قبل، وهي تتعلق بمن أتى ناقضاً من نواقض الإسلام؛ وذلك أننا قلنا: إن المرتجة يقولون: لا يكفر إلا الجاحد بالقلب، وقلنا: إن هذا خطأ، وإن الكفر يتنوع، فيكون بالقلب والاعتقاد، ويكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالشك، ويكون بالترك، ولكن لا بد من توفر شروط، وانتفاء موانع، لمن يفعل الكفر، حتى يحكم عليه بالكفر وهي كما يلي:

الشرط الأول: العلم أن يكون عالمًا بما يقول، فإن كان جاهلاً أو مثله يجهل، فلا يكفر حتى تقوم عليه الحجة، ولا بد أيضاً أن يكون مختاراً وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن كان مكرهاً فلا يكفر، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿هَمَّ مَكَرَ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [التحل: ١٠٦].

الشرط الثاني: القصد؛ فإن لم يقصد الفعل، فإنه لا يكون كافراً، فإذا قصد السجود لصنم - مثلاً - أو قصد التكلم بكلمة الكفر فإنه يكفر، ولا يُشترط أن يعتقد ذلك بقلبه، لكن لا بد من اعتبار القصد، فإن فعل، أو قال من غير قصد؛ فلا يكفر.

فالمجنون ليس عنده قصد؛ فلو تكلم بكلمة الكفر: لا يكفر، وكذلك السكران، والصغير، فاقد العقل، والذي سبق لسأله، وهو لم يقصد

الكلمة، كالشخص الذي قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَيْدِي وَأَنَا رُتْبُكَ»<sup>(١)</sup>. فلا بد من توفر هذه الشروط وانتفاء الموانع حتى يحكم على الإنسان بالكفر.

والمرتجة عمدنهم في هذا الباب على الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [التحل: ١٠٦]، فجعلوا الجاهل، والمتكلم بكلمة الكفر من غير إكراه؛ في هذا الباب؛ كالمُكره، فاشتراطوا اطمئناناً وانشراح الصدر والقلب؛ للحكم بكفرهما، وهذا خطأ؛ على التفصيل السابق الذي شرحناه.

أما مسألة الصلاة خلف الفاسق، فهذه المسألة - الصلاة خلف كل بر وفاجر - من أصول أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدع؛ فإن أهل البدع لا يَرَوْنَ الصلاة خلف أئمة الجور، ولا خلف الفاسق؛ لأن الفاسق كافر عند الخوارج، وعند المعتزلة؛ خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، والرافضة لا يرون إلا الصلاة خلف المعصوم.

أما أهل السنة: فيرون الصلاة خلف الولاة، وإن كانوا فساقاً أو جائرين، فُتَضَلَّى خلفهم الجمعة والجماعة والعيد، خصوصاً إذا لم يكن هناك إمام غيرهم، فإمامة الجمعة في البلد الذي ليس فيه إلا جمعة واحدة، وإمامة العيد، وإمامة الحج بعرقه؛ إذا لم يكن هناك إلا فاسق: صَحَّت الصلاة خلفه، بل تجب الصلاة خلفه، ومن صلى وحده وترك الصلاة خلف الفاسق في هذه الحال؛ فهو مبتدع عند أهل السنة والجماعة.

وهذا من أصول أهل السنة والجماعة، التي خالفوا بها أهل البدع، ولذلك أدخلها العلماء في كتب العقائد - وإن كانت هذه مسألة في الأصل

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

فرعية- وذلك للرد على أهل البدع .

أما إذا لم يكن الإمام إمام الجمعة، أو إمام العيد، بل كان إماماً مُرْتَباً من الدولة، أم لم يكن؟ وهو فاسق، فهل تصلى خلفه الصلوات؟

الجواب: يصلى خلف الفاسق في حالين:

الحال الأولى: إذا كان إمام المسلمين وليس للناس إمام، ومن صلى وحده وترك الصلاة خلفه؛ فهو مبتدع عند أهل السنة.

الحال الثاني: إذا لم يترتب على ترك الصلاة خلفه مفسدة، كأن يحصل انشقاق بين المسلمين وتُخْصَل فتن وإحرن.

أما إذا كان هناك إمام غيره، ولم تحصل مفسدة، وصليت خلفه، وتركت الصلاة خلف العدل؛ فاختلف العلماء في صحة الصلاة وعدمها؛ فالنابلة والمالكية، يرون أن الصلاة غير صحيحة، وتجب الإعادة.

وزعم الشافعية والأحناف إلى أن الصلاة صحيحة مع الكراهة، وهذا هو الصواب، والدليل على هذا ما ثبت في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: «يُضَلُّونَ لَكُمْ - يعني أئمة لكم - فَإِنْ أَضَايَا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَاوْا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>، فهذا الحديث نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه على نفسه، وأما المأموم فليس عليه شيء من ذلك.

وكذلك أيضاً: ثبت عن الصحابة أنهم كانوا يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان فاسقاً ظالماً<sup>(٢)</sup>، وصلى الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤).

(٢) انظر المصنف لابن أبي شيبة (٧٥٦٣، ٧٥٧٣، ١٣٩٨٣).

أبي معيط وكان أميراً للكووفة من قِبَل عثمان رضي الله عنه، وكان فاسقاً يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم مرة الفجر وهو سكران، فصلى بهم الصلاة أريعاً، ثم التفت إليهم، فقال: هل تريدون أن أزيدكم؟ فقال عبدالله بن مسعود ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة أعاد الصلاة، ورفع أمره إلى الخليفة، فجلده وعزله<sup>(١)</sup>.

وكذلك أيضاً ثبت في «صحيح البخاري»: «أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان محصوراً، وقد أحاط الثوار ببنيته لقتله -رهم فساق-، ثم حضرت الصلاة فتقدم رجل من الثوار يريد أن يصلي بالناس، فجاء شخص وسأل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له: يا خليفة رسول الله؛ إن الصلاة تقام الآن وسيصلي بنا رجل من الثوار، وهو فاسق فهل نصلي خلفه؟ فقال يابن أخي: إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإن أحسنوا فأحسن معهم، وإن أساءوا فاجتنب إساءتهم»<sup>(٢)</sup>.

هذه النصوص تدل على أن الصلاة خلف الفاسق صحيحة ولا تعاد، ولكن لا شك أن الصلاة خلف العدل أولى.

وأما الذين قالوا: لا تصح؛ فحجتهم في هذا أنهم قالوا: إن من صلى خلف الفاسق فقد أقره على المنكر الذي هو متلبس به، فتكون صلاته منهيّاً

(١) انظر ما أخرجه مسلم (١٧٠٧)، لكن قول ابن مسعود له: «ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة» أخرجه حمّاد بن زينة، عن هارون بن معروف، عن ضمرة بن ربيعة، عن ابن شاذب -كما نقله ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٥٥٤/٤)، عن عمر بن شبة، لكنه منقطع بين ابن شاذب وعبد الله بن شاذب الخراساني، وابن مسعود رضي الله عنه لأن ابن شاذب مولده سنة ٤٦هـ -كما في «تهذيب الكمال» (٩٦/١٥) وابن مسعود وفاته سنة ٣٢هـ أو ٣٣هـ -كما في «التقريب» (٣٦١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥) من حديث عبيد الله بن عدي بن الحيار، عن عثمان رضي الله عنه.

عنها؛ فلا تصح.

ولكن هذه المسألة - وهي كونه متلباً بمنكر - مسألة مهمة تحتاج إلى تعقيد، وهي قاعدة إذا عرفها طالب العلم استفاد بمعرفتها فائدة عظيمة، وهي: هل النهي متعلق بذات المنهي، أو بشيء خارج عنه؟ فإذا كان النهي متعلقاً بذات المنهي، دل على فساد هذا المنهي عنه، وأما إذا كان النهي متعلقاً بشيء خارج عن المنهي عنه فلا يدل على فساده، وعلى هذا: فإن الصلاة صحيحة؛ هذا هو الحق الذي عليه الجمهور.

ومثال آخر: لو فرض أن شخصاً دخل في دار مغضوبة، وصلى فيها، فهل تصح الصلاة؟

الجواب: نعم تصح؟

مثال آخر أيضاً: شخص غضب ثوباً ولبسه وصلى فيه، أو شخص لبس ثوباً حريزاً وصلى فيه، أو شخص حمل صورة وصلى فيها، هل تصح أو لا تصح؟

المسألة فيها خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: مذهب الحنابلة والمالكية يرون بطلان الصلاة؛ لأن الإنسان إذا صلى في ثوب مغضوب، أو في دار مغضوبة، أو في ثوب عليه صورة بطلت صلاته؛ لأنه متلب بشيء منهي عنه.

يقول صاحب «الروض المربع»<sup>(١)</sup>: لا تصح الصلاة خلف الفاسق مطلقاً، سواء كان فسقه من جهة الأفعال أو من جهة الاعتقاد إلا في جمعة وعيد تغدراً خلف غيره؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام - : «لَا تُؤْمَنُ امْرَأَةٌ

(١) (١٨٥/٣) ط. دار الوطن.

رَجُلًا، وَلَا يُؤْمَ أَعْرَابِيٌّ مَهَاجِرًا، وَلَا يُؤْمَ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا، إِلَّا أَنْ يَقْتَهَرَهُ سُلْطَانٌ يَخَافُ سَيْفَهُ وَسَوْطَهُ»<sup>(١)</sup>، كما لا تصح خلف كافر، سواء علم بكفره في الصلاة أو بعد الفراغ منها، وتصح خلف المخالف في الفروع.

قال صاحب الحاشية - العنقري ثقة: ولا تصح الصلاة خلف فاسق - أي مطلقاً -، واختار الموفق، والمجدد، اختصاصاً البطلان بظاهر الفسق<sup>(٢)</sup>.

وقال في «الفروع»<sup>(٣)</sup>: لا تصح إمامة فاسق مطلقاً وفقاً لمالك، وعنه: تُكْرَهُ، وتصح وفقاً لأبي حنيفة والشافعي، كما تصح مع فسق المأموم، ومنه تعلم اتفاق العلماء على الكراهة، وإنما الخلاف في الصحة.

والقول الثاني: أن الصلاة صحيحة مع الإثم؛ فعليه إثم الغضب؛ فإذا صلى في دار مغضوبة نقول: لك ثواب الصلاة، وعليك إثم الغضب، وإذا صلى في ثوب حريز، فله ثواب الصلاة، وعليه إثم الحريز، وإذا صلى في

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٨١) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/٣٢٢-٣٣٣): «... وفيه عبدالله بن محمد العدوي، عن علي بن زيد بن جُدعان، والعدويّ اتهمه وكثير بوضع الحديث، وشيخه ضعيف. ورواه عبدالله بن حبيب في «الواضحة» من وجه آخر، قال: ثنا أسد بن موسى، وعلي بن معبد قالوا: ثنا فضيل بن عياض، عن علي بن زيد. وعبدالله بن معبد بسرقه الأحاديث، وتخليط الأسانيد. قاله ابنُ الفُرَسي. قال عبدالحق في «الأحكام»: رأيته في كتاب عبدالله بن حبيب: أنشد عبدالله بن حبيب إسناده؛ وإنما رواه أسد بن موسى، عن الفضيل بن مرزوق، عن الوليد بن بكير، عن عبدالله بن محمد العدوي، عن علي بن زيد؛ فجعل عبدالله فضيل بن عياض بدل فضيل بن مرزوق، وأسقط من الإسناد جليلاً.

(٢) انظر: «المحرر في الفقه» (١/١٠٤)، و«المغني» (٢/٢٣-٢٢).

(٣) (٣/٢٠٠) ط. مؤسسة الرسالة.



ثوب فيه صورة فله ثواب الصلاة، وعليه إثم الصورة

لكن لو كان النهي متعلّقاً بذات المنهي عنه، كما لو صلى في ثوب نجس؛ فلا تصح الصلاة؛ لأن الصلاة في الثوب النجس منهي عنها؛ ولأنه يشترط لصحة الصلاة أن يكون الثوب طاهراً، والبقعة طاهرة، والجسم طاهراً.

أما في مسائلنا هذه وهي: الصلاة خلف الفاسق؛ فالذين قالوا: لا تصح، قالوا؛ لأنه لم ينكر المنكر عليه، وأصحاب القول الثاني: يقولون: صحيح أنه أقره على المنكر لكن إنكار المنكر لا يتعلق بالصلاة، وعلى ذلك: فله ثواب الصلاة، وعليه إثم ترك إنكار المنكر.

وبهذا يتبين أن الصواب في هذه المسألة: صحة الصلاة خلف الفاسق، مع الإثم في ترك إنكار المنكر؛ إذا كنت تستطيع ذلك، أما إذا لم يوجد إلا هذا الإمام؛ فإنك تصلي خلفه، ولا كراهة باتفاق أهل السنة، ومن صلى وحده وترك الصلاة خلف الفاسق في هذه الحالة، فهو مبتدع مخالف لأهل السنة والجماعة، أما إذا وجد جماعة أخرى وأمكته فعل الصلاة خلف البرّ، ولم يترتب على ترك الصلاة خلف الفاسق مُفسدة؛ فصلى خلفه من غير عذر، فهذا هو محل الخلاف بين العلماء، منهم من قال: يُعید، ومنهم من قال: لا يُعید.

#### والأئمة أقسام:

فمنهم: الإمام مستور الحال:

وهو الذي لا يعلم منه بدعة وفجور، فالصلاة خلفه جائزة باتفاق الأئمة، وليس من شرط الانتماء أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن

يمنحه فيقول: ماذا تعتقد؟

ومنهم: المبتدع الداعي إلى بدعته، والفاسق ظاهر الفسق:

فمن العلماء من فصل: فقال: إذا كان يدعو إلى بدعته، فلا يُصلى خلفه، وإذا كان لا يدعو صُلّي خلفه، وكذلك الفاسق، إذا كان ظاهر الفسق، فلا يُصلى خلفه، وإذا لم يكن ظاهر الفسق، يُصلى خلفه، والصواب: أن الصلاة خلفه صحيحة، بشرط أن تكون البدعة لا توصله إلى الكفر، وبشرط أن يكون الفسق لا يوصله إلى الكفر أيضاً.

ومنهم: الإمام الكافر:

فلا تصح الصلاة خلفه بالاتفاق؛ كالقبوري الذي يدعو غير الله، ويذبح للأولياء، أو يطوف بالقبور، أو ينذر للموتى، فإذا صلى خلفه؛ فإنه يُعید الصلاة، سواء علمت كفره في حال الصلاة، أو قبلها، أو بعدها، ولو بعد حين، حتى لو طالت المدة<sup>(١)</sup>.

أما إذا كانت بدعته وفسقه لا يوصلانه إلى الكفر، فهذا محل الخلاف؛ والصواب أن الصلاة خلفه صحيحة لحديث البخاري: «يُصَلُّونَ لَكُمْ؛ فَإِنْ أَصَابُوا، فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا، فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»<sup>(٢)</sup>، وهناك أحاديث ضعيفة - أيضاً - في هذا الباب، كحديث: «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ»<sup>(٣)</sup>، وحديث: «الصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ، بَرًّا كَانَ أَوْ

(١) انظر: «المنهي» (٢٠/٣) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٤)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يصلون لكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطأوا فلكم وعليهم». وقد تقدّم.

(٣) أخرجه الدارقطني (٥٧/٢)، والبيهقي (١٩/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الدارقطني: وليس فيها شيء يثبت.

فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ؛ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ...<sup>(١)</sup>، وحديث: «الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ؛ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ»<sup>(٢)</sup>، وحديث: «صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَاتَلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وحديث: «صَلُّوا عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(٣)</sup>، هذه أحاديث ضعيفة، لكن العمدة على ما في «صحيح البخاري».

= وقال الحافظ في «التلخيص» (٥٧٨): «رواه أبو داود، والدارقطني والنسائي، والبيهقي من حديث مكحول، عن أبي هريرة، وزاد: (وجاهدوا مع كل بر وفاجر). وهو منقطع، وله طريق أخرى عند ابن حبان في الضعفاء، من حديث عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة، عن هشام، عن أبي صالح عنه، وعبد الله مترك، ورواه الدارقطني من حديث الحارث، عن علي، ومن حديث علفمة والأسود، عن عبد الله، ومن حديث مكحول أيضا، عن عائلة، ومن حديث أبي الدرداء من طرق كلها وأهية جدا، قال العقيلي: ليس في هذا المتن إسناد يثبت. ونقل ابن الجوزي عن أحمد أنه سئل عنه فقال: ما سمعنا بهذا.

وقال الدارقطني: ليس فيها شيء يثبت. وللبهقي في هذا الباب أحاديث كلها ضعيفة غاية الضعف، وأصح ما فيه حديث مكحول، عن أبي هريرة على إرساء، وقال أبو أحمد الحاكم: هذا حديث منكر. اهـ، كلام الحافظ في «التلخيص».

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٥٦٢/٢) بهذا السياق، وأخرجه أبو داود (٥٩٤) بلفظ: «الصلوة المكتوبة واجبة خلف كل مسلم برًّا كان أو فاجرًا، وإن عمل الكبائر»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه انقطاع. وقال أبو أحمد الحاكم: هذا حديث منكر، وتقدم كلام الحافظ في «التلخيص» والإشارة إلى انقطاع. ورواية أبي داود هنا، من طريق الملا بن الحارث، عن مكحول، عن أبي هريرة، وقد رواه بالسنن نفسه، بأنهم من الأول، ينحون رواية الدارقطني. وأما رواية الدارقطني فمن طريق يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو منقطع الإسناد بين مكحول وأبي هريرة، وانظر كلام الزيلعي في «نصب الراية» (٢٦/٢).

(٣) قال الحافظ في «التلخيص» (٣٥/٢): «صلوا خلف من قال: لا إله إلا الله، =

ومن الآثار عن الصحابة في هذا، ما في «صحيح البخاري» أن عبد الله بن عمر كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف<sup>(١)</sup>، وكذلك أنس بن مالك، والحجاج كان فاسقًا ظالمًا، وكذلك عبد الله بن مسعود وغيره كانوا يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأيضًا: فمن المعلوم أن الفاسق والمتباعد عن صلاته في نفسها صحيحة، ومن صحت صلاته، صحت الصلاة خلفه؛ ولأن الشارع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ بحسب الإمكان، فإذا لم يمكن صرف الإمام الفاسق، أو المتباعد عن الإمامة إلا بشر أعظم من ضرر ما أظهر من منكر، فلا يجوز شرعًا دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمها.

= وصلوا على من قال: لا إله إلا الله.

الدارقطني من طريق عثمان بن عبد الرحمن، عن عطاء، عن ابن عمر. ثمان كذبه يحيى بن معين، ومن حديث نافع عنه، وفيه خالد بن إسماعيل، عن العمري به، وخالد مترك، ووقع في الطريق عن أبي الوليد المخزومي، فخفي حاله على الضياء المقدسي، وتابعه أبو البخيري وهب وهو كذاب، ومن طريق مجاهد؛ عن ابن عمر، وفيه محمد بن الفضل، وهو مترك، وهو في الطبراني أيضًا، وله طريق أخرى من رواية عثمان بن عبد الله العثماني، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، وعثمان رماه ابن عدي بالوضع. اهـ، وانظر «تقيق أحاديث التعليق» (٢/٢٠-٢١)، والبلد المنيّر (٤٦٣/٤-٤٦٥).

(١) أخرج البخاري (١٦٦٠) عن سالم قال: «كتب عبد الملك إلى الحجاج أن لا يخالف ابن عمر في الحج، فجاء ابن عمر رضي الله عنه وأنا معه: يوم عرفة حين زالت الشمس فصاح عند سراق الحجاج فخرج وعليه ملحة ميسفرة، فقال: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: الرواح إن كنت تريد السنة، قال: هذه الساعة؟ قال: نعم، قال: فأنظرنني حتى أفيض على رأسي ثم أخرج. فنزل حتى خرج الحجاج فصار بيني وبين أبي فقلت: إن كنت تريد السنة فاقصر الخطبة، وعجل الوقوف. فجلس ينظر إلى عبد الله فلما رأى ذلك عبد الله قال: صدق.

وأما الصلاة على من مات من الفسقة والفجار:

فالصواب أنه يصلى خلفهم، وما جاء من النصوص في ترك الصلاة على بعض الفساق كقاتل نفسه، وقاطع الطريق، والغال، ومن عليه دين؛ فهذا إنما يترك الصلاة خلفه الأعيان والوجاه والعلماء، ردعاً للأحياء حتى لا يفعلوا مثل ذلك، وأما عامة الناس؛ فإنهم يصلون عليه<sup>(١)</sup>.

وكذلك الشهيد الصواب أنه لا يصلى على الشهيد؛ لما ثبت عن النبي أنه دفن شهداء أحد بدمائهم وثيابهم ولم يصل عليهم<sup>(٢)</sup>؛ لأن الشهيد له أجر عظيم، ولأنه يأمن الفتنة، كما جاء في الحديث: «كَفَى بِبَارِقَةِ السَّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فَتْنَةً»<sup>(٣)</sup>، ويأمن من الفتان<sup>(٤)</sup>، ويأمن من فتنة القبر، ولا يصلى عليه.

لكن ما عدا ذلك؛ فإنه يصلى على كل مسلم، إلا إذا علم أنه كافر، أو علم أنه منافق نفاقاً أكبر.

الصلاة خلف البر والفاجر

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ، وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ):

الشرح

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والرافضة.

الشهادة للإنسان بالجنة أو بالنار

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا تُنْزَلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً، وَلَا نَارًا):

الشرح

هذا معتقد أهل السنة والجماعة: أنه لا يُحكم على الشخص المعين بجنة ولا نار إلا من شهدت له النصوص، مثل الأنبياء، ومثل العشرة المبشرين بالجنة، ومثل الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، ومثل بلال، ومثل عكاشة بن محصن، وغيرهم ممن ثبت له بالنصوص الشهادة بالجنة؛ فهؤلاء هم الذين نشهد لهم بالجنة.

وكذلك: مَنْ شُهِدَ لَهُمُ النَّارُ؛ كأبي جهل، وأبي لهب، أما ما عداهم؛ فإننا نشهد للمؤمنين بالجنة على العموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، ونشهد للكفار بالنار على العموم، فنقول: كل كافر في النار، وكل يهودي في النار، وكل نصراني، وكل منافق في النار، وكل وثني في النار،

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١٧/٢٨)، و«موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع» (١/٤١٩-٤٣٦).

(٢) انظر ما أخرجه البخاري (١٣٤٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي (٢٠٥٣) من طريق ليث بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فذكره. بن عمرو حدثه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فذكره. وأخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٣٠)، عن ابن مصطفى، حدثنا بقية، عن صفوان بن عمرو به، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٣٥٩)، وحسنه ابن القطان القاسي في «بيان الوهم والإيهام» (٧٤٣/٥).

(٤) انظر ما أخرجه مسلم (١٩١٣) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

وكذلك الشخص المعنّى الكافر، لا تشهد له بالنار إلا إذا علمنا أنه مات على الكفر وقامت عليه الحجة، وليس له شبهة كمن مات وهو بعيد الأصنام، وقد علم أن هذا وثن فأصر على عبادته؛ فهذا كافر، هذا معتقد أهل السنة في هذه المسألة.

وأهل السنة بهذا يخالفون أهل البدع؛ فإن الخوارج؛ يشهدون بالنار لكل فاسق، وكذلك أيضاً المعتزلة؛ يشهدون لمن مات على الكبيرة أنه في النار؛ لأنه خرج من الإيمان ودخل في الكفر<sup>(١)</sup>، ولذلك فهذا هو الغرض من إدخال هذه المسألة في كتب العقائد.

فالخلاصة: أن منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب: أنهم يقفون في الشخص المعين، فلا يشهدون له بجنة أو نار إلا عن علم - وهم الذين شهدت لهم النصوص - لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء.

والقاعدة في هذا: أن كل من رأيناه يعمل الصالحات، ورأيناه مستقيماً على طاعة الله؛ نرجو له الخير من غير شهادة له بالجنة، ومن رأيناه يعمل السيئات والكبائر نخاف عليه من النار، ولا تشهد له بها، هذا معتقد أهل السنة والجماعة.

وأقوال السلف في الشهادة بالجنة - كما سبق - ثلاثة أقوال<sup>(٢)</sup>:

«قول الأول: أنه لا يشهد لأحد بالجنة إلا الأنبياء، وهذا مروي عن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٧٢/١٠)، (٢٨/٥٠٠-٥٠١)، و«فتاوى اللجنة الدائمة» (١٣٩، ٤٩/٢)، (٩٠/٣).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٢٩٥/٥) وما بعدها.

الأوزاعي، ومحمد بن الحنفية، ودليل هذا القول أن الأنبياء معصومون، وأما المؤمن المشهود له بالجنة من غيرهم، فهو غير معصوم؛ لأنه يمكن ارتداده وكفره، فالشهادة له بالجنة معلقة بعدم ارتداده وكفره.

القول الثاني: أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث، وهذا هو الصحيح؛ لأنه ورد عن المعصوم، وأما ما لم يرد، فلا يجوز له الشهادة؛ لأنه غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

الثالث: أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، ولمن شهد له المؤمنون.

واستدل هؤلاء بما في «الصحيحين»: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأَتَيْنَا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ: وَجِبَتْ، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَتَيْنَا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجِبَتْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجِبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَتَيْنْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتَيْنْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>، وقال: «يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالُوا: بَلَى ذَاكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بِالنَّارِ الْحَسَنِ وَالنَّارِ السَّيِّئِ...»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧) واللفظ له، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي رواية مسلم أنه كَرَّرَ قوله: (وجبت) ثلاث مرّات.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١) واللفظ له، وأخرجه الحاكم (٢٠٧/١) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، وصححه، وابن حبان (٧٣٨٤)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٣١٩٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٨٢)، وأحمد في «المسند» (٤١٦/٣)، و (٤٦٦/٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٤٤٢)، وغيرهم، من حديث أبي زهير الشافعي رضي الله عنه وفي «الزوائد» (٢٤١/٤): «إسناده صحيح =

فأخبر النبي أن الثناء الحسن والسيئ مما يُعَلَّم به أهل الجنة من أهل النار، وأصحاب هذا القول قالوا: من شهد له عدلان بالخير، وأنه من أهل الجنة فهذا دليل كونه من أهلها، وجواز الشهادة له بها؛ لأن الله ما أنطق أهل الخير والصلاح بالشهادة له بكونه من أهل الجنة إلا؛ لأنه من أهلها، لكن الصواب أنه لا يُشهد إلا لمن شهدت له النصوص، وأن هذا خاص بالصحابة الذين زكاهم النبي ﷺ.

= رجاله ثقات». وحسبُه الألباني رحمه الله، وأورده ابن حجر في «الإصابة» (١٥٥/٧) في ترجمة أبي زهير الثقفي، وعزاه لأحمد، وابن ماجه، والدارقطني في «الأفراد»، ثم قال: «يستل حسن غريب»، والحديث الذي قبله يشهد لصحة معناه.